



فكري الخولي

رواية

الرحلة

الجزءان الثاني والثالث

مختارات الكرمة





فكري الخولي

رواية

الرحلة

الجزءان الثاني والثالث

مختارات الكرمة





الرحلة

الجزءان الثاني والثالث

فكري الخولي

{IMG_PLACEHOLDER}

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع:

www.facebook.com/alkarmabooks حقوق النشر © فكري الخولي ١٩٨٧

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

الخولي، فكري.

الرحلة / فكري الخولي – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

٥٧٦ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٦٧٣٠٩

١ – القصص العربية.

أ – العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥ / ١١٢٦٢

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

صورة الغلاف: عمال بمصنع شركة مصر للغزل والنسيج ١٩٥٢ (أسوشيتد
بريس)

الجزء الثاني

إهداء

إلى الكاتب والمناضل صلاح حافظ.. الذي شجعتني على كتابتها قبل أن أخطها على الورق ونحن في معتقلنا النائي، ثم قدّمها للقراء بعد ربع قرن عاشته في الظلام، وكنت أود أن يقدم الجزء الثاني أولاً.

وإلى الشاعر المناضل السوداني صلاح أحمد إبراهيم الذي لم ألتق به حتى الآن، تقديرًا لدوره في صدورنا ومعتزًا بدوره ودور الشهيد الشفيق وأرملته المناضلة فاطمة أحمد إبراهيم في مسيرة رحلة الشعب السوداني وطبقته العاملة.

وإلى المفكر والمناضل عبد العظيم المغربي الذي تبني قضية صدور «الرحلة» لأنه يتبنى كل ما يدعم مسيرة الحركة العمالية.

وإلى الكاتب المناضل سعد زهران وزوجته لدورهما الذي لولاه ما صدرت «الرحلة» في شكلها الأخير.

وإلى فاروق خلف، الإنسان والشاعر، الذي ساهم معنا في إخراج «الرحلة» إلى النور.

وأخيرًا وقبل كل شيء إلى كل المناضلين من أجل قضية الشعب وقضية الطبقة العاملة وقضية الإنسانية.

وإلى اللقاء في الجزء الثالث من الرحلة.

فكري الخولي

نكتب شكاوى

صحت من النوم متأخرًا على دقائق متوالية على الباب وكانت الطارقة الشابة التي تعودت إيقاظي. وعندما فتحت الغرفة تركتني ذاهبة وهي تلوح بيدها قائلة: - أسرع الوقت متأخر.

ولم تمر لحظة إلا وعادت قائلة:

- كنتم ستتأخرون عن العمل لولا أن أمني نيهتني.. أسرعوا، الوقت متأخر.. أيلزم لكم شيء؟ لقد وصتني أمني أن أنظف لكم الحجرة قبل أن تخرجوا. كانت تتكلم وهي مستندة للحائط، وقد أدركت أنها لم تأكل مما أتيت به من بلدتي، فأسرعت بإعطائها قطعة من الفطير، وتمنعت في بادئ الأمر، ثم عادت فمدت لي يدها، ووقفت تأكل في نهم.. وبعد أن أحضرت كل ما يلزمي للشغل، كدت أن أسألها عن اسمها ولكن شيئًا ما قد منعني، وقلت في نفسي: «سوف أعرف طالما بقيت هنا.. سوف ينادي أخوها.. إن لم يكن اليوم فغداً».. وددت لو أبقى لأستريح من عناء السفر، ولكن تلهفي لرؤية عبد العظيم وإبلاغه عما رأيت في قريتي وما سمعته قد أنساني التعب، كنت متشوقًا لرؤياه مثلما كنت مشتاقًا لرؤية أخي.. وأمني.. وكل من أحببتهم في قريتي، وإذا بالولد الغريب يصيح: - لقد تأخرنا!

وتقدمت الفتاة.. تقدمت إلى الداخل، وبدأت الكنس.. وعرضت عليها أن تبقي المفتاح معها ولكنها رفضت وأصررت على الرفض قائلة: - إن أمني لم تأمرني بذلك. دقيقة واحدة وتأخذه معك.

فأسرعت بفتح الباب، وحيثني قبل أن أغلقه، وبدت لي وهي عارية الرقبة
موردة الخدين لامعة الشعر كأنها قمر.. وتردد صوتها في فناء البيت: - مع
السلامة.

خرجت من البيت وصوتها يرن في أذني، وخرجت من العطفة ذات البيوت
الأربعة إلى الشارع، وإذا بي أجد العمال تخرج من كل مكان ذاهبين للعمل
كل منهم في يده منديل الأكل المربوط، متشابكي الأيدي يتطلعون خلفهم
كلما تقدموا خطوة.. العمال تسير على جانبي الطريق بملابسهم المتعددة
الألوان في اتجاه المصنع، كانوا يسيرون كأنهم آتون من رحلة شاقة. يسرون
على مهل وعلى الوجوه كآبة. وازدحمت الشوارع بالعمال الآتين من كل
مكان، وأسرعت الخطى، وإذا بي أجد نفسي وسط تلك الحشود أسير كما
يسرون، متباطئ الخطى، ومرغمًا حاولت أن أدفعهم جانبًا، لأفسح لنفسي
الطريق للسير، وكان الدافع هو الرغبة في الالتقاء سريعًا بعبد العظيم
لأتحدث معه عن كتابة الشكاوى التي قد سمعت عنها في قرنتي.. وددت أن
أصرخ فيهم.. في الإمكان كتابة الشكاوى.. شكاوى للحكومة.. زي ما بيعملوا
الفلاحين في بلدهم.. همَّ بيكتبوا عن رخص القطن، وعن الدستور.. واحنا
نكتب عن قتل الآلات للعمال، وعن الرؤساء اللي بيمنعوا العمال يروحوا
الدورة وإرغامهم على المشي حافيين.. وددت لو أقول لهم هذا، ولكن شيئًا
ما قد منعني لعدم معرفتي بهم. كانوا سائرين في صمت كصمت القبور، لا
ضحكة، ولا بسمه على شفاههم، بل غيظ وألم مكتوم وجز على الأسنان كما
لو كانوا يتوعدون الرؤساء، كما يتوعدون أهالي المحلة بالتربص بهم، وقد تأكد
لي هذا بعد أن سمعت أحد العمال وهو يهمس في أذن الآخر: - هل أحضرت
العصاية؟ هل أحضرتها من البلد؟

- أيوه.. أحضرتها.. ولكن حتى الآن مش عارفين نشيلها ازاي!

ورد الآخر:

- حنجمع وبعد الاجتماع حنعرف نشيلها ازاي.

- متى؟

- ما انتش عارف؟

- لا.

- بُكرة راح تعرف.

- حاعرف ازاي؟

- سوف نقول لك.

وعند سماعي هذا عدت بذاكرتي إلى ما قبل هذا اليوم، إلى الكلمات التي قيلت في بيت الشيخ علي عند أول اجتماع بمنزله، يوم هجوم أهالي المحلة على العمال، يوم أن غدروا بهم، وبعد أن تصدى عبد العظيم لهم وساعده الشيخ علي، عدت بذاكرتي إلى هذا اليوم وإلى ما قاله عبد العظيم: - إحنا مش حنبدأ بالعدوان.. مش حنكون زيهم.. إحنا حندافع عن أنفسنا لما يبدأوا همَّ بالعدوان.

وتذكرت قول الشيخ علي:

- لازم نتربص بهم زي ما بيتربصوا.

وقلت في نفسي: «لما نجتمع حاقول لهم نكتب شكاوى، وحاقف جنب عبد العظيم في قوله: إحنا مش حنبدأ بالعدوان.. إحنا حندافع عن أنفسنا».

وعلى بعد خطوات من المصنع كانت الأصوات ترن في أذني، أصوات الباعة المتجولين، أصوات عديدة متتالية.. كانت أصوات النساء هي الغالبة، وكل منهم يحاول أن يغطي بصوته على الآخر، وكلما اقتربت زادت الأصوات وضوحًا.. وكنت أسمع بين الحين والحين أصوات أطفال صغيرة، لا يتجاوز عمر الواحد منهم السادسة أو السابعة، وعندما اقتربت إذ بي أجدهم واقفين بجوار أمهاتهم ممسكين بأيديهم حزمًا من الفجل والجرجير يلوحون بها في وجوه العمال الواقفين للشراء، وتأملتهم ولم يكن باديًا عليهم أنهم من الغرباء بل من أهالي المحلة، وقلت في نفسي: «لن يضربونا وهمّ اللي بيستفيدوا.. أمال همّ ليه راخرين بيشتركوا في عملية الضرب؟».

أسئلة كثيرة محيرة.. فلم يقولون عنا إننا غلينا عليهم السعر وهمّ اللي بيبعوا؟ بيبعوا لنا؟! لم أجد إجابة على ذلك. وإذا بصوت يدوي.. وكان هذا الصوت هو صوت صفارة المصنع، معلنة فتح الأبواب لدخول الوردية الثانية التي تبدأ من الثامنة مساءً إلى السابعة صباحًا، وأسرعت الخطى وسط تلك الحشود في الاتجاه للداخل. كان الشوق لعبد العظيم وللعمال المجاورة لي على الممكن هو الدافع.. كنت أسير متأملًا لوجوه، وكنت أشعر أنني تغيبت عنهم لأكثر من عام.. كان كل شيء يبدو لي غريبًا، ودخلت العنبر ولم تحتمل أذني الضجيج.. ضجيج الماكينات.. واتجهت إليهم فور وصولي وإذا بأيّد تلوح، وأيد تمتد بالسلامات، كل منهم يحاول أن يسلم على الآخر في شوق كالغائبين عن بعضهم سنوات، وأصوات ترتفع بالتهليل وكلمة «هوه» تزلزل الجدران.. عمال النهار تهلل بانتهاء يوم العمل، والبسمة تملو شفاههم وهم

يسلمون على عمال وردية الليل.. وبدأ كل يهمس في أذن الآخر ويشكو له
مما رآه طوال يوم العمل من تعسف الرؤساء وخرافات أهالي المحلة
المتوالية مع العمال.. ووقفت على الماكينة وإذ بزмили العامل يحدثني عن
المدير وعن مروره اليوم واعتدائه على العمال وقال لي: - خد بالك.. خد بالك
لاحسن الغرامات كثيرة.. كل ريس ماسك دفتر وطول النهار بيمروا على
الماكينات بيكتبوا الأسماء.. إللي بيعطوه لنا باليمين ياخدوه بالشمال! عايزينا
نرّوح آخر المدة من غير قبض!

قلت:

- وانت عملت إيه؟

- حاعمل إيه؟ أنا واخد بالي! أمي قايلة لي: إللي يضربك على خدك اليمين
اعدل له خدك الشمال.. أكل العيش عايز كده!

وكدت أقول له ما تكتب شكوى، ولكنه لم يمهلني واسترسل قائلاً: - الناس
بتوع المحلة اللي متعلمين الشغل اتلموا كلهم مع بعض في العنبر، ولما كانت
ماكينة تتعطل ونروح نقول لهم تعالوا صلحوها كانوا يرفضوا.. رفضوا الشغل،
واستمروا واقفين لما حضر المهندس شحاتة.. ولم يكن حد منا واقف معاهم،
وبعد ما اتكلموا معاه.. جزء منهم خرج والآخر بقي.. كانوا بيتكلموا على زيادة
في الأجر، وكانوا عايزين ياخدوا سبعة صاغ في اليوم واحنا بناخد خمسة
تعريفة! ولكن المهندس رفض وقال لهم مرتبكم كويس.. كفاية عليكم الماهية
اللي انتم بتاخذوها.. إنتم بتاخذوا أربعة صاغ وغيركم بياخذ خمسة تعريفة..
احمدوا ربنا، إنتم أحسن من غيركم.

قال لي هذا ولم يكمل، وتركني بعد أن جذبته من جلبابه أحد العمال وخرج ملوِّحًا لي بيده. وخلعت جلبابي، وقبل أن أضع يدي على الفرامل تفحصت الماكينة خوفًا من أن يكون بها مسامير مفكوكة، وعدت ونفخت جلد ذراع الماكينة، وبعد أن تأكدت من سلامتها من أخطار تؤدي إلى إتلاف الأقمشة أو موت من يعمل عليها، عدت وأدرتها دون خوف.. وتطلعت خلفي، وإذا بي أجد الماكينات المجاورة لي متوقفة والعمال يعملون في جهد في أخذ ولضم الفتل، واتجهت إلى هناك أتفحص المكن خوفًا من أن يكون به شيء من التلف يؤدي إلى هلاكهم مثلما مات العامل الذي كان قبلي، وإذا بالولد الغريب آت من بعيد يجري ووقف بجواري وقال: - أنا سمعت من العمال إن أهالي المحلة وقفوا يطالبوا بزيادة لنفسهم والشركة رفضت، وفيهم عدد كبير رَوَّح ومنهم العامل بتاع الفتلة اللي انت أصبته.

قال هذا وجري، كان كل شيء يجري، العمال تجري، والميكانيكية تجري، والماكينات تسرع، وعجلاتها تدور، والسيور تهتز سريعًا، وعمال اللحم يجرون في الطرقات، الكل يعمل في جهد آتين من بلادهم في شوق للعمل بعد أن رأوا أهاليهم وجاءوا مطمئنين كل واحد جايب كل شيء وياه لكل المدة «خمسة عشر يومًا» وسوف يرجع يجيب الأكل من جديد وحيقبض ويعطي الفلوس لأهله يدفعوا منها إيجار الأرض.

ووقفت أتأمل كل الوجوه وأنا واقف على الماكينة، وإذا بي أجده واقفًا كما جاء من بيته، واقفًا بجلبابه الأسمر ذي الخطوط الرقيقة الرفيعة البيضاء، وإذا بي أجد نفسي مدفوعًا نحوه بعد أن تأكدت من أن أحدًا من الرؤساء ليس قريبًا، ومددت يدي فحياني في شوق، واسترسل في حديثه مع من كان واقفًا

معهم، كان يتحدث بصوت عالٍ، وقد سمعت من خلال الضجيج قوله: - كل واحد جاب عصاية يشيلها معاه.

وآخر يرد:

- إتمم ليه قلتوا لنا؟

وإذ بأحد الرؤساء يأتي من بعيد والعمال تلاحظه فيختفون وراء الماكينات مطأطئين ظهورهم، وآخرين وقفوا على الماكينات يختلسون النظر للرؤساء.. وبعد فترة ليست قليلة من بدء العمل تجمع العمال، وبدأوا يتحدثون عما حدث في الصباح. قال أحدهم: - شايفين أهو ربنا ربحنا منهم.. بيطلبوا زيادة لنفسهم، الواحد منهم بياخد أربعة صاغ في اليوم ويطلب كمان، أمال احنا نعمل إيه؟ الواحد منا زي الفحل وياخد خمسة تعريفة!

فرد آخر:

- هوّ احنا زبهم؟ دول يا عم متعلمين، طول عمرهم بيشتغلوا في النسيج.

فرد آخر:

- هوّ إيه الفرق بينا وبينهم دلوقت؟

- الفرق إنهم همّ اللي علمونا.. مش احنا أول ما جينا لقيناهم همّ اللي واقفين على الماكينات.. وهمّ اللي كانوا يمسكوا الواحد فينا يوروه الماكينات تدور ازاي.. وكمان همّ اللي علمونا ازاي نلضم الفتلة في الإبرة، فلازم يطالبوا بزيادة!

- واحنا هنعمل إيه أمال؟ ما نطلب احنا كمان.. ما احنا اتعلمنا!

- هُوَ انتم قاعدين عمالين تتكلموا ليه؟ إنتم شايفين ادوهم حاجة؟! ما هم طلبوا.. أهم رفضوا يشغلوهم.. دول عاملين زي السمك بياكلوا في بعضهم.. احمدوا ربنا اللي وجدتوا لكم شغلة!

- نسكت يعني إيه؟ ما نطلبش! نفضل كده ساكتين! نشغل من الصبح لنص الليل بخمسة تعريفة؟! هَمَّ ما دام بيطلبوا احنا كمان نطلب حيحصل إيه؟ كيفصلونا؟ مش معقول.. أمال هَمَّ جايين المكن ليه؟ هَمَّ جايينه علشان يوقفوه؟ لما يرَوِّحوا كل العمال حيشتغلووا ازاي؟

وقلت في نفسي: «يا سنة بيضة! الواحد لما يجيله فلوس زيادة حتى ولو أربعة صاغ زي بتوع المحلة.. كده يعني الواحد يقبض جنيه إلا أربعة صاغ في الشهر وأمي تزغرد».. وقلت: - ليه احنا كمان ما نطلبش؟ لازم نطلب!

وبدأت أشاركهم الحديث حول ضرورة المطالبة بالزيادة، وانقلب الكلام والحديث خلف الماكينات حول المطالبة بزيادة الأجر لأنه لا يكفي.. وقد لاحظ الرؤساء ذلك وبدأوا يمرون في العنبر.. يمرون والشرر يتطاير من عيونهم، ويلوحون بالدفاتر التي بأيديهم كلما توقفوا بجانب أحد العمال.

وقلت في نفسي: «هَمَّ ليه كده النهارده بيجروا ويبصوا للعمال؟ هَمَّ عايزين منهم إيه؟ سمعوهم بيتكلموا عن المطالبة بالزيادة علشان كده بيدوروا جري في الطرقات ماسكين الدفاتر بيحاولوا يخوفوا بيها العمال؟»..

وقلت: «وايه يعني غرامة.. هيَّ الغرامة حتعمل إيه؟ الواحد منا بيشتغل.. هُوَ الواحد ضامن عمره.. الواحد بيجي من بيته شايل رغيفين تحت باطه ومش عارف هُوَ حيرج سليم ولا ما يرجعش.. حيرَوِّح البلد ولا ما يروحش ويموت ولا له دية.. ناس بتيجي وناس بتروح وعلشان كده يمكن الشركة مش عايزة

تدي فلوس أكثر للعمال.. لو كانت كل العمال تطلب.. تروح وتقف كلها..
حنطلب احنا.. وهمّ رايعين يدونا.. مش معقول حيرفضوا ما دام العمال كلها
بتطالب».

وبينما أنا غارق في التفكير سمعت أصواتًا تعلو من بعيد.. من هنا ومن هناك..
ووقفت أتطلع للعمال التي تعدو بسرعة، وإذ بي أجد نفسي أعدو مثلهم في
نفس الاتجاه، ولم أنسَ قبل أن أعدو أن أوقف الماكينات، وعندما اتجهت نحو
الأصوات إذ بي أجد عددًا كبيرًا من العمال متجمعًا وسط العنبر حول أحد
الرؤساء والعيون كلها متطلعة إليه وهو بارك على عامل في الأرض ونازل
ضرب بالأيدي، والعمال من بعيد تصرخ. وقال أحد العمال: - مفيش راجل؟

وقال آخر:

- وحنعمل إيه؟

- نموته! نموته!

- نموته؟! والعيال؟!

- عيال إيه؟ إيه العيال اللي حيدلونا؟ مفيش واحد شارب من لبن أمه؟

فرد آخر:

- اصبر على الجار السو.. يا يرحل يا تيجي له داهية!

- وحنسكت لإمتى.. الكيل طفح.. ده لو حصل حاجة زي دي في البلد لكان

مات فيها عشرة.. هيّ بتمر ساعة من غير ضرب!

وآخرون واقفون متململون في أماكنهم.. مش واقفين «على بعض» بل كانوا دائمى الحركة في نفس المكان وعيونهم يتطاير منها الشرر. وإذ بأحد العمال، قصير القامة، ذي رأس كبيرة، أسمر البشرة، عيناه واسعتان، كان واقفًا وكل جسده ينتفض، ومال على أحد العمال وسمعته يهمس في أذنه يقول: - الليلة.. واللييلة بس.. وخلي الشركة تبقى تنفعه!

ورنت هذه الكلمات في أذني، وتطلعت بعيني وتأملتته كثيرًا، وإذا به يختفي خلف المكن بعد ما تطلعت إليه الأنظار.. أنظار كل العمال الواقفين.. وتطلعت إلى الرئيس الجاثم على العامل، وطال تأملي وهو نازل عليه ضرب والعامل تحته، والعمال واقفون من بعيد يجزون على الأنياب، وتجمع كل رؤساء العنبر ورفعوا العامل من تحت أقدامه وضربوه هم الآخرون، واتجه العامل نحو مكنه، والدماء تنزف من فمه، ومال برأسه على الماكينة المتعطلة، واستمر في البكاء مخفيًا وجهه عن العمال.. ووقفت على ماكينتي أتطلع للعامل من بعيد، ولم أكن وحدي المتطلع بل كان هناك آخرون يتطلعون وشفاهم تتحرك.. واستمر العامل يبكي والعمال المجاورون له يجففون الدماء من فمه.. واقترب مني أحد العمال المجاورين لي وقال: - شايف؟ شايف ولاد الكلب؟ عملوا إيه في زميلنا؟ سيحوا دمه ازاي؟!

قلت:

- مفيش حاجة تنفع غير كتابة الشكاوى.

- شكاوى؟ شكاوى لمين؟

- شكاوى للحكومة وللنيابة.

- حكومة مين وبتاع مين! دول في وادي واحنا في وادي.. هَوَّ حد عارف حد..
هَوَّ كان عمل إيه لما مسكوه وموتوه من الضرب؟!

قلت:

- أمال نعمل إيه؟ ولإمتى حنسكت؟

قال:

- ليوم القيامة.. لما ربنا يأمر!

- القيامة؟ لسه فاضل عليها كتير ومش معقول حنفضل كده ساكتين! إحنا
نكتب شكاوى والظرف اللي ما يصيبش يدوش.. عم الحاج محمود في البلد
راح يعمل كده.

- اسكت.. ما تقولش كده قدام حد أحسن لو واحد سمعك راح ياخدوك من
إيديك ومن رجلك ويرموك بَرَّه!

قال هذا وتركني وذهب. وقد شعرت من ملامح وجهه أنه خائف.. خاف بمجرد
أن قلت نكتب شكاوى.. وكان مصدر خوفه هو أكل العيش.. وخوفه من إن
أحدًا يعرف ويبلغ الرؤساء.

وقلت في نفسي: «أمال ليه في البلد عم الحاج محمود راح يكتب شكاوى؟
أمال ليه هَوَّ مش خايف من الكتابة؟ يمكن لأن مفيش حد هناك من الرؤساء!
يمكن لأن مفيش حد واقف وراه بعصاية؟ يمكن هَوَّ ده اللي خلاه يتشجع في
الكتابة؟».

وقلت في نفسي: «هَوَّ عبد العظيم ليه ما حضرش؟ ما حضرش ليه يسألني عن العصاية؟ يمكن يكون زعلان؟ يمكن يكون الولد الغريب قال له.. وزعل ليه ولم يحضر يسألني ويعرف الحقيقة؟! لما أروح أقول له يمكن يكتب شكاوى؟».

واتجهت نحوه، وإذا به واقف على الماكينة غارقًا في التفكير، فجذبتة من كتفه منبهاً إياه.. ومد لي يده وقال: - الواحد جاي من البلد تعبان.. جاي مهدود حيله.. الواحد لو مش خايف من ولاد الكلب الرؤساء ما كنتش جيت من البلد دلوقت.. الواحد اليومين اللي قعدهم في البلد اشتغلهم في الحرت، والأرض! ودلوقت الواحد جه وشايف القرف قدامه، وخايف لاحسن النوم يبجي على عيني، وخايف لاحسن واحد من الأندال يبجي يضربني!

قلت مداعبًا له:

- لو جه واحد من الرؤساء وضربك حتعمل إيه؟

- أعمل إيه؟! دا انا أحط صوابعي في عينيه وأخليه أعمى! أخليه يمشي في الطريق أعمى! آخرتها إيه؟! سنة.. سنة وحاطلع! هَوَّ كل الطير اللي يتاكل لحمه! الواحد بس ملايمها.

قالها باعتذار.

قلت:

- إيه رأيك نكتب شكاوى للحكومة، مش حنخسر حاجة.. نعمل اللي علينا واللي على الله هَوَّ اللي يكون!

وإذا به يضحك ضحكات عالية كعادته، وانتبه من النوم اللي كابس عليه، وإذا بأحد العمال يصيح من الخلف، خلف الممكن: - هوه.. هوه...

وانتبهنا نحوه، وإذ به يقول:

- بُكرة.. بُكرة الصبح.. ما تروحش.. انتظر على باب الشركة.. قالها وذهب.

وعاد عبد العظيم إلى الضحك من جديد.. كان يضحك من كلامي.. من قولي نكتب شكاوى.. واسترسل قائلاً: - إنت جبت الكلام ده منين؟ مين اللي قال

لك؟

قلت:

- سمعته في البلد وكل الناس حتعمل كده.

- ومين هنا راح يعمل؟! إن لقينا الورق مش حنلاقي الكاتب.. وإن لقينا الكاتب مش حنلاقي الفلوس!

- نجمع الفلوس من بعض.

وإذا به يصمت، واستمر في صمته، وظننت أنه قد صمت مثل ما صمت الآخرون وخاصة العامل المجاور لي على الماكينة، لكن عاد عبد العظيم وتكلم بعد أن فكر وإذ به يقول: - معقول نكتب شكاوى؟! لماذا لا نكتب؟ بُكرة الصبح احنا راح نجتمع، ابقى قول الكلام ده هناك.

كنا نتكلم خلف الممكن، وإذا به يأخذني من يدي ويتجه نحو الفرامل، ومد يده وفك منديلاً كان مربوطاً وأعطاني قطعة من الفطير، فرفضت قائلاً: - أنا جبت من البلد فطير.

فأصر، وعاد للكلام وهو يبتسم:

- عملت إيه في البلد؟ إنت جيت العصاية؟

- نسيت.. وفي طنطا لقيت طنطا مقلوبة.. الأزهرية عاملين مظاهرة..
والعساكر قالبية الدنيا.

سكت ثم إذا به يقول:

- شوف العمال واقفة على المكن عاملة ازاي.

نظرت فرأيتهم واقفين على المكن، وأيديهم على الفرامل، وعيونهم مسبلة،
ورؤوسهم تتمايل كما لو كانوا واقفين في حلقة ذكر.. وآخرون يسيرون على
مهل يجرون في أجسامهم.

وقلت:

- هي الساعة بقت كام؟

فرد قائلاً:

- الساعة اتنين بعد نص الليل.. العفاريث في البلد نامت واحنا هنا على المكن
سهرانين!

واسترسل قائلاً:

- شايف مفيش حد بيتكلم ولا يتحدث.. كل واحد بيصارع النوم واحنا على
المكن سهرانين! إنت اللي سهرتني.. تصور أحسن نومة دلوقت.. أمهاتنا في

البلد نايمين! إحنا هنا على المكن واقفين نقاوح في النوم!

وسألته:

- مفيش ولا ريس ماشي في الطريقة؟

- يمشوا ليه؟ إيه اللي يخليهم يمشوا؟ دلوقت شغلهم النوم.. ودلوقت يقوموا زي العجر يدوروا الضرب في كل اللي يقابلهم ظنًا منهم أنهم يعوضون النوم.. دول ما بيعملوش أي حاجة بإيديهم.. وبا ويل اللي يروح يقول لهم صلحوا المكن.

بينما كنا نتكلم كان الآخرون عيونهم مسبلة والهدوء يخيم على العنبر، وخاصة بعد أن ضرب الرئيس العامل في بداية العمل بالليل، وقلت لعبد العظيم: - أنا رايح للمكن والصبح نتقابل.

موت رئيس

لم تمر لحظة بعد ذهابي، وإذا بأصوات عالية جدًّا، كلمة «هوه.. هوه» تعلو، وعمال تجري من هنا وعمال تجري من هناك، وأيدي تلوح، وبسمات تعلو الشفاه.. وفكرت أن الصبح طلع، فنظرت إلى السماء وإذا بي أجد أن الصبح ما طلعت.. وازداد الصياح وازداد الجري في الطرقات، ووقفت أنظر إلى العمال وهم يجرون.. وإذ بعبد العظيم يجري من أمامي ووجهه قد ازداد شحوبًا وتوقف فجأة وقال: - اجري فيه واحد مات! العامل موت الرئيس!

قالها وذهب.. وتسمرت في مكاني وقلت: «يا نهار أسود! الرئيس مات! عامل قتل الرئيس؟! ومن يكون هذا الرئيس يا ترى؟».

وعدت بذاكرتي إلى ما حدث في أوائل العمل بالليل. إلى الرئيس الذي كان باركًا على العامل يضربه، والعمال يتكلمون مع بعض في غيظ عندما رأوا زميلهم يُضرب، وتجسدت صورة العامل ذي البشرة السوداء عندما قال في أذن أحد العمال: «الليلة.. الليلة وبس.. وخلي الشركة تبقى تنفعه».

وقلت في نفسي: «هوّ ده اللي لازم قتل الرئيس.. وفين هوّ دلوقت؟ يا ترى مسكوه؟ دول لو مسكوه رايعين يقطعوه».

واقشعر جسدي، وكنت أفكر، والعمال تجري، وإذا بي أدور الجري إلى هناك، وأجد عالم ترش الملح ما ينزلش.. عالم متحوطاه، وآخرون يتزاحمون.. وتدافعت بينهم، وهالني ما رأيت.. رأيت رجلًا ممددًا على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة، وملابسه قد لطخت بالدم.. كان نائمًا حافيًا، وحذاؤه بجواره، فردة هنا وفردة هناك، وحاولت أن أتبين ملامح وجهه فلم أستطع.. كنت أريد

أن أعرف مَنْ هو هذا الرئيس.. أهو الذي ضرب العامل، أم غيره من الرؤساء؟ ولكني لم أتمكن من رؤية وجهه، فقد كان كل وجهه مغطى بالدم، ولم تظهر من وجهه قطعة بيضاء.. وتطلعت بين الوجوه الواقفة، فلم أجد على وجوههم أي تأثير أو حزن.. ما عدا القليل منهم.. كان الحزن باديًا على وجوههم.. كانوا من الرؤساء والرؤساء فقط.. أما العمال فلم يستطيعوا إخفاء بهجتهم من كثرة ما رأوه.. كانوا يتململون بأرجلهم نحوه.. وقيل إنهم يعبرون عن رغبتهم أن يدوسوا عليه بأقدامهم.. ومن خلال وقفتي لم أسمع صوتًا يردد اسم العامل الذي خلص العمال منه.. بل كثيرًا ما سمعت اسم هذا الرئيس المتعسف، ولم يكن يردده سوى الرؤساء.. كانوا يقولون عنه إنه كان شهيمًا في إخضاعه للعمال، وكنت أسمع من حين لآخر صوتًا يقول: - كنا متوقعين أن يحدث هذا.. كثيرًا ما نبهناه وحاولنا إرشاده، ولكنه رفض أن يسمع نصائحنا بحجة أن هذا الصنف لا يجب أن يعامل إلا هكذا.. وكثيرًا ما ردد هذه الكلمات.. كانت هذه طبيعته منذ أن كان في المدرسة.. قبل أن يأخذ الدبلوم.. دبلوم المدارس الصناعية.. حتى زملاؤه الطلبة كانوا يكرهونه للتعالى.. كان المتوقع له أن يموت هكذا!

وآخرون كانوا يبكون بحرارة.. وكانوا يرددون اسمه كشهيد، وكانت الدموع تتساقط من أعينهم، وهم يرددون اسمه: - كنت معانا دلوقت يا زعفراني!
كنت معانا من دقيقة!

بينما الرؤساء يقولون ذلك كانت العمال واقفة في الجانب الآخر تجز على الأسنان.. وقال أحد الواقفين وهو يلوح بيده نحوهم: - بُكرة ترقدوا رقدته.. وأحذيتكم تبقى كل فردة منها في ناحية!

وقال آخر:

- يمهل ولا يهمل.

فرد آخر:

- أمهلناهم كثيرًا وأن الأوان لنتنقم.

وتطلعت الأنظار نحوهم فزاغوا بين الواقفين.

وسألت أحد الواقفين عن العامل اللي قتله.. وكانت الإجابة: - ما نعرفش!

وسررت لهذا وتمنيت ألا يعرفوه.

وإذ بأحد الواقفين يزرق:

- الدراع.. الدراع اللي انضرب بيه.. أهو ملوث بالدم!

كان الدراع من بتوع المكن.. دراع من خشب الزان.. وقال أحد العمال

الواقفين: - هاتوه.. هاتوه هنا نخفيه.

ولم تمر لحظة إلا ودخل العنبر عدد من الخفراء بأيديهم العصي.. ودوروا

الضرب في العمال ولم يبق سوى الرؤساء بجواره.

وتجمع العمال على الماكينات وهم يقولون: «ربنا خلصنا من واحد».. كانوا

يرددونها شامتين.. ووقفوا على الماكينات يختلسون النظرات من بعيد.. وقال

أحدهم: - شايفين الرئيس ميت والمكن ما وقفش.. كله عند العرب صابون..

مفيش فرق بين موت العامل وموت الرئيس.. كنت فاكر إن هناك فرق!

فرد آخر:

- عاوز تقول مفيش فرق؟

- أيوه مفيش فرق.. العامل لما تموته المكنة ما وقفش المصنع، والرئيس أهو مات ومتلقح والمكن داير.. يبقى فين الفرق؟! حد جه وقال إنه كان بيضرب العمال يلاً وقف المكن علشانه؟! ولو دقيقة! ولما وقع ما حدش سأل عنه!
كلوه لحم ورموه عضم!

كانوا يتكلمون وعيونهم في الاتجاه نحوه.

وقال آخر:

- خلصنا من واحد!

وبينما كانت العمال تتحدث كان المكن داير والسيور تهتز اهتزازًا بطيئًا، خيل إليَّ أنها سوف تسير دون خوف.. وقلت في نفسي: «حتى المكن والسيور فرحانة». وسألت نفسي: «همَّ يقولوا إن العامل لا يعمل إلا خائف.. سمعت هذا من الضابط المتقاعد يوم أن أعطى أمرًا للخفر بالضرب.. سمعته يقول: «إنهم عبارة عن لمامة.. لازم يمشوا خايفين وراسهم مطأطأة.. لازم نخلي العامل من دول يمشي ويبص وراه.. لازم يخضعوا.. وما يخضعوش إلا بالضرب».. وسمعت هذا من الرؤساء.. إذن فهذه سياسة ينفذونها.. ينفذونها جميعًا.. حتى المدير.. إذن نشتكى لمين؟». هذه كانت الأسئلة.

وسألت نفسي من جديد: «هل صحيح العامل ما يشتغلش إلا بالضرب؟ إلا وهوَّ خايف؟ مش معقول! طيب لما كانت أم الواحد تشتمه كان الواحد يفضل طول النهار محروق دمه، وما بيعرفش يعمل حاجة». وقلت في نفسي: «وهمَّ دول ما هماش زينا؟ مش أولاد آدم ما يمشوش إلا بالعافية؟ ما

يمشوش إلا بالضرب؟ ما يعرفوش إن الضرب بيغضب؟ ما غضبوش من أهاليهم؟ ما سمعوش من أهاليهم «إن ضربت القطة تخربشك»؟. وعدت وقلت: «يمكن مفيش حد ضربهم، ولا حد شتمهم، وعلشان كده بيضربونا! لو حد ضربهم مرة أو شتمهم ما كانوش عملوا كده.. وهمّ دول حد حيضربهم ليه؟ دول طول عمرهم عايشين بعيد عنا.. عايشين في السرايات.. دول وولد عمد.. لا حد شتمهم، ولا حد ضربهم، دول طول عمرهم عايشين على ضرب الناس.. شافوا آباءهم وهمّ بياخدوا الفلاحين في الدوار يضربوهم ويشغلوهم في أرضهم ببلاش.. دول أصلهم راحوا المدارس وتعلموا، فلازم يبانوا قدامنا إنهم أحسن، أصلهم فاكرين إن العمال دول زي الغنم يسوقوهم زي ما يسوق الراعي الغنم».

وبينما أنا غارق في تساؤلي إذ بعالم يدخل من الباب.. عالم كثيرة.. كلهم أفندية لابسين على رؤوسهم طرايبش.. واتجهوا نحو الجثة.. نحو الرئيس الميت الغارق في دمه، واتجهت الأنظار نحوهم.. والقصير اللي ما يقدرش يشوف شب على صوابه.. وإذ بالولد الغريب يأتي مسرعًا ومال على أذني:-
النيابة.. النيابة جات.. جاية تحقق.. الناس اللي قدام بيقلوا.

وقلت في نفسي:

- طبعا النيابة لازم تيجي.. تيجي دلوقت.. لما واحد يموت واحد.. لكن الممكن لما يموت واحد النيابة ما تجيش! ليه ما نعرفش!

قال الولد الغريب:

- النيابة جات تعال واتفرج.

وتركته واقفًا على الممكن.. ودورت الجري نحو عبد العظيم قائلاً: - النيابة.. يلاً
نقول، نقول لها كل حاجة.. نقول لها الرؤساء بتضرينا، والممكن بيموت كل يوم
عمال، نقول لها إن الرؤساء بتمنعنا من الذهاب إلى الدورة، نقول لها إنهم
بيرغمونا على المشي في العمل حافيين.

فرد قائلاً:

- وحتقول لها ازاي.. المدير واقف.

- ما يهمش! نروح ونوشوشهم في ودانهم.

- يفصلونا.

- وحيفصلونا ليه؟ إسمعني همم اشتكوا؟!

- همم حاجة واحنا حاجة تانية!

- أمال حنعمل إيه؟

- نستنى.

- وحنستنى لإمتى؟

- لما يطلبونا.

- وهمم حىطلبونا؟

- تعال نقف جنبهم.. وما نخليش حد يشوفنا.

قلت هذا وتركته، لأن الممكن قد وقف.. وقلت للعمال المجاورين لي: - النيابة
جات.. تعالوا نشوفها.

فوقفوا ساهمين دون أن يتكلموا.

وجاءني عبد العظيم يجري لأنه رأي أتكلم مع العمال.. وهمس في أذني: - هُو
انت جايب الكلمتين دول من البلد جاي تقولهم على طول! اسكت ما تتكلمش
لاحسن لو حد سمعك حيشيلوك من إيدك ومن رجلك وبرموك على برّه!

قلت:

- أمال حنعمل إيه؟

- نستنى لما نكتب زي ما انت قلت.. نستنى لما نجتمع.. نكتب شكاوى خاصة.

- في بلدنا راح يعملوا.. واحنا كمان نعمل.. وإذا كانت النيابة جات.. ما احنا
نقول على كل حاجة.

ولم تعجبه كلماتي، فتركني وذهب.. وإذ بي أجد العمال يتسربون واحدًا وراء
واحد وهم يقولون: - يَلَّا.. يَلَّا نشوفه.. يَلَّا نشوفه.. نشوف الظالم وهُو ميت..
نشوفه في رقدته الأخيرة.

واتجه الجميع نحوه، ووقفوا في أحد الأركان يتأملون في الوجوه التي حضرت
ووجوه الأفندية التي قيل إنها النيابة.

وآخرون يسيرون في تباطؤ ناظرين خلفهم خائفين، واتجهت أنا الآخر سائرًا
على مهل.. وأخذت مكاني بين العمال، ووقفت أنظر إلى الأفندية وهي تذهب
وتأتي، يعدون المسافات بالخطوة، وأخيرًا وقفوا يطلون في الورق، وأخيرًا

وقفوا ينظرون إلى الوجوه الواقفة بعيون حادة النظرات. وإذ بي أسمع
كثيرين يقولون: - يلاً.. يلاً نقول للنبابة.

وكان عبد العظيم واقفاً بينهم، وهللت عندما رأيته واقفاً، وأيقنت أنه هو الذي
تكلم مع الواقفين أخذًا بكلامي.. واتجهت نحوه قائلاً: - يلاً نقول.

وإذ بي أجد أحد الأفندية يهم واقفاً من على المقعد الجالس عليه وفي يده
جانب من الورق، يأتي بخطوات مسرعة نحوي، وقلت للواقفين عندما رأيته: -
دا جاي ناحيتنا.. أهو جاي.

وتطلعت إلى وجهه الأبيض المشيع بالاحمرار، وعينيه الخضراوين، وشعره
الأصفر الناعم.. وقلت في نفسي: «إنه آت مسرعًا ظنًا منه أننا سنذلي
باعترافات.. ولهذا فهو آت والبسمة تعلق شفثيه.. إنه رآنا نتكلم ونتكلم»..
وعندما اقترب منا، هجمنا عليه في نفس واحد مرددين: - الرؤساء بتضرنا،
والممكن بيموت العمال، وما بيخلوش العمال يروحوا الدورة، والعامل لما
بيموت ما بنعرفش بيندفن فين.

كانت الكلمات تخرج سريعة.. كلمات سريعة متعالية تخرج من الأفواه.
وتشجع آخرون وهجموا علينا وتكلموا في هذا الاتجاه.. وسمع لكل العمال،
وأشار بيده قائلاً: - بس اسكت انت وهؤ.. أنا حاسأل وانتم تجاوبوا.. مين مؤت
الرئيس؟

وأجبنا في نفس واحد:

- ما نعرفش.. شوفنا الرئيس ده بيضرب العمال في أول الليل.. كان بارك
على عامل.

- مين مؤت الرئيس؟

قلنا:

- ما نعرفش!

كنا بنتكلم.. وهو يكتب. وبعد الانتهاء من الأسئلة والرد عاد إلى مكانه وطلب آخرين، وسأل واحدًا وراء الآخر. وكانت إجابة مَن دخلوا: «ما نعرفش».

وأخذت النيابة الورق وخرجت بعد أن رفعت الجثة.

وقالت العمال وهي تنظر له:

- شايفين.. داخل على رجليه.. وطالع النهارده على ظهره.. على أيدي

الرؤساء من شاكلته!

وقال أحد العمال:

- مش قلنا اصبر على جار السوي يا يرحل يا تيجي له داهية.. وأهو راح.. راح في

مصيبة!

وقال آخر:

- راح للأبد.

وقال ثالث:

- عقبال الباقي.

وسارت العمال خلف المكن وأيديهم تمتد بالسلامات.

وانتهى الليل وأشرق الصباح مع تهاليل العمال وفرحتهم.. وخرجنا من العنبر في الاتجاه إلى البيت. وانتشر الخبر كالرعد بين العنابر. لا حديث للعمال إلا على هذا الحادث.. حديث في الشوارع، في الطرقات وفي العطف.. كل الناس تتكلم.. الظلم قد مات.

وأمام باب المصنع وجدنا عددًا من العمال بملابسهم المخططة واقفين جنب البوابة في انتظار عبد العظيم، وأمام باب المصنع كانت النسوة الأخريات واقفات، والفرحة بادية عليهن لأنهن سمعن خبر الرئيس اللي مات.. الرئيس الظالم!

الكلام في زيادة الأجر

في أحد البيوت بعزبة أبو جحشة اجتمع عدد كبير من العمال.. كان الاجتماع خاصًا بما حدث اليوم في المصنع، ولكنني فكرت أن أتحدث فيما هو غير ذلك، فكرت في الكلام عن زيادة الأجر.

وبدأت الكلام، وأنصت الجميع. قلت:

- زميلي عامل النهار قال لي إن أهالي المحلة الشغيلة بالمصنع طلبوا النهارده زيادة في أجرهم فاحنا كمان لازم نطلب.

فرد أحد المجتمعين:

- إحنا في إيه وانتم في إيه؟! إحنا نشوف الأول حنعمل إيه، وحنعيش ازاي في البلد دي، إحنا مش قلنا كل واحد يجيب عصاية معاه.. يجيها من بلده.. حصل ولّا ما حصلش؟

فرد عبد العظيم بصوت هادئ:

- عصاية إيه يا جماعة! هوّ احنا قادرين نشيل نفسنا؟! كل واحد جاب عصاية يشيلها معاه، أما من ناحية أهالي المحلة فبكرة يتهدوا.. إحنا دلوقت نشوف إيه اللي راح يجرى لنا بعد ما واحد مؤت الرئيس.

فرد آخر:

- وهوّ احنا نخاف منهم ليه؟ عرفنا آخرتها.

فرد الشيخ علي دويدار:

الولد اللي ضرب الرئيس، ولد جدع، ومفيش فايده غير إن اللي يكلمنا
نضربه، نضرب الرؤساء، أما من جهة أهالي المحلة فلازم نضربهم.. لازم
نجيب عصا، نحضرها معانا، وعمال النهار يستنوا بها عمال الليل، وعمال الليل
تبقى تجيبها لعمال النهار، ويبقى كل واحد منكم عارف من دلوقت إيه اللي
رايح يعمله.

فرد آخر:

- ما تسيبوكم من الكلام ده.. هَوَّ مش فيه واحد دلوقت اتكلم وشاور بإيده
نحوي وقال احنا لازم نطلب زيادة.. إنتم ليه سكتتم عن الموضوع ده؟

إيه يا شيخ علي؟ إنت إيه رأيك في المطالبة بزيادة؟

مش عمال المحلة طلبوا.. إحنا ليه كمان ما نطلبش؟

فرد عبد العظيم:

- أنا موافق على الكلام ده.

ورد الشيخ علي وقال:

- يا جماعة، إحنا الأول نقول للناس اللي ما اتنقلتش من أوضاعها تتنقل.. ده
اللي انا عاوز أقوله لكم دلوقت.

وإذ بكل الحاضرين يقولون في نفس واحد: - هَوَّ احنا حنخسر إيه؟ حنخسر
حاجة؟

كل واحد يتكلم مع زميله، مع كل واحد من بلده ولما يوافقوا نبقى نطالب.

وقال الشيخ علي:

- يَلَّا يا جدع انت وهَوَّ نروح البوظة.. يشرب كل واحد منا قرعتين، يبجي مهدود
حيله وبنام من القرف.

فقال عبد العظيم:

- بوظة إيه؟! هَوَّ احنا حنسكر؟! حرام!

فرد الشيخ علي:

- حرام إيه يا راجل؟! دي البوظة معمولة من العيش.. دي مفيدة.. الميه لما
تكون حاصرة الواحد البوظة تفرتكها.. دي زي الشعير.

وقال آخر:

- إحنا نبعد عن الحرام وبس.. وما دام البوظة ما تسكرش يبقى نشربها.
وبينما نحن منهمكون في الكلام، إذ بأحد العمال يدخل وهو يقول: - قبضوا
على العامل اللي موت الرئيس.. كل الدنيا بتتكلم.

وساد الصمت وبكى الجميع.. بكوا كثيرًا عندما سمعوا الخبر. وقال عبد
العظيم بعد فترة صمت: - مين اللي قال كده؟

- سمعت في السكة من واحد كان بيقرأ في الجرنال.. والناس واقفة
متجمعين عليه.. وصورته منشورة.

وسكت الجميع وقلت:

- يَلَّا نروح نشوفه.

- نشوفه فين؟

فرد آخر:

- نشوفه في المركز.

وقام الجميع دون أن يتم الحديث.. حديث المطالبة بالزيادة. وأمام باب المركز كانت الخفر واقفة حاملة العصي.. وآخرون بالبنادق.. ومن على بُعد كانت ناس كثيرة واقفة بأعصاب متوترة، تنظر نحو الباب.. واقتربنا من أحد العساكر.. سألتناه عن سر وجود الناس، فتطلع خلفه قبل أن يتكلم.. وأخيرًا همس: - الدنيا مقلوبة.. قبضوا على عامل.. يقولوا إنه قتل رئيس في المصنع.

فبادره عبد العظيم:

- هَوَّ فين؟ فين دلوقت؟

- جَوَّه.. واقف هناك قدامهم.

- عملوا معاه إيه؟

- موتوه من الضرب.. ربطوه بالحبل وعلقوه في الباب.. علقوه من رجليه.. ودلدلوا دماغه في الأرض وطلبوا منه أن يعترف.. ولكنه رفض.. كانت الدموع تنزل من عينه.. حاول أن يخفي وجهه.. ولكن إيديه المربوطة بالحديد حالت

دون ذلك.. ما كانش عايزهم يشوفوا الدموع.. ولكنهم شافوها لما أغمى عليه.. كانوا يقولوا «اعترف واحنا نسيبك».. وفضل صامت.. وكانوا ييجزوا على أسنانهم.

وعندما كان العسكري يقول ذلك، كانت وجوه الواقفين مملوءة بالخوف.. انتابهم الخوف عندما قال: «ربطوه وعلقوه من رجليه».

وقال أحد الواقفين:

- يَلَّا يا جماعة، إحنا واقفين كده ليه؟

إحنا مالنا وماله.. يَلَّا نرَّوِّح.. كل واحد يبقى في نفسه.

فرد آخر:

- ما تبعد عنا، إيه اللي جابك؟! هَوَّ احنا جيناك؟!

وقال عبد العظيم:

- إللي عاوز يستنى لما نشوف هَوَّ عمل إيه يستنى، واللي مش عاوز يتفضل يمشي ويرَّوِّح.

وفضلنا عند المركز حتى بعد العصر، وبجوار أحد الشبايبك توقفنا بعد أن خرجت الأفندية، وركبت العربات الحنطور. وصرخ عبد العظيم صرختين متواليتين. وإذ بصوت خافت يرد من الداخل.. صوت هزيل مجهد.. وكان هذا الصوت هو صوت العامل.. وسأل عبد العظيم: - إزيك؟ عملت إيه؟

- ما عملتش حاجة؟ وانتم؟

- ما حدث اعترف.. ما انتش عاوز حاجة.

- لا.

- شد حيلك.. ما يهملكش.. راح في داهية.. عقبال الباقي، إحنا حنيجي لك
وحنيجي لك باستمرار.

وعادت العمال كل إلى منزله، في انتظار ما قد يحدث لهم عندما يذهبون إلى
العمل، وظن البعض منهم أن الظلم قد مات.. ولم يعرفوا أنه واحد من مئات
الرؤساء.. وسوف تعين الشركة غيره.. وسوف يقوم بما قام به.. ودي خطة
الجميع ينفذها.. مهما مات واحد، فلن يموت الظلم ما دام كلهم ظالمين.

وعدت إلى المنزل بعد يوم معبأ بالمتاعب، وقد شعرت أن الدنيا مظلمة، وأن
عيني لا ترى شيئاً، مع أن السماء كانت صافية.. ودخلت حجرتي وحاولت أن
أنام.. وإذا بعيني تحديق في السقف، وتحصي أخشابه، وأسندت رأسي إلى
الحائط، وإذ بي أجد نفسي غارقاً في التفكير مستعيداً كل ما حدث، وتجسدت
أمام عيني صورة جثة الرئيس الميت، وهي ممددة الساقين، وبداه
مطروحتان بجواره، والدماء تنزف من كل مكان.. واقشعر جسدي وارتعدت
فرائصي.. الشيء الذي لم أشعر به وقت الحادث، وقلت في نفسي: «إن
سوء المعاملة التي لقيتها ولقيها العمال كانت هي سبب عدم الإحساس..
طغت على الحب والعاطفة.. لم أشعر بعطف نحو الجثة مثلما أشعر الآن..
لقد تحدثت أمني كثيرًا أمامي عن أن الإنسان لا يجب أن يفرح في إنسان
مات، مهما كان أساء إليه أو إلى أحد.. لأن الموت لا يفرح فيه أحد».. وعدت
وسألت نفسي: «وهو ده أمه ما كانتش بتكلمه على إنه ما يضربش حد؟»..
بالتأكيد لم تكلمه.. لأنها لو كلمته لما فعل ذلك.. لقد أخذ الأوامر.. كان عليه أن

ينفذ زي غيره من الرؤساء.. لكن مين عارف، العمال لا تعرف ذلك.. بتشوف مين بس اللي بيضربها ولا يحترم خلقه ربنا.. هُوَ كان بينفذ أوامر المدير زي ما كان بينفذه غيره.. وعدت وقلت: «أمه الآن لما تعرف إنه مات وواحد من العمال هُوَ اللي موته.. ماذا تفعل؟ حتحد على العمال، وإخواته كذلك.. إنه كان بالتأكد في البلد وقاعد معاها إمبراح.. وكانت بتوصله على المحطة، وتقبله وتدعو له زي ما كانت بتدعي لي أمي.. كانوا يودعونهم بالسلامات.. ماذا يكون وقع الخبر عليهم اليوم إنه قد مات وهُوَ لسه مسافر.. هل حيعرفوا الحقيقة.. حيعرفوا موته السريع.. سوف لا يعرفون.. مين اللي رايح يقول لأمه إنه كان قاسيًا في معاملته.. سوف يعرفون يومًا ما.. سوف يعرفون أنه كان سبب شفاء الكثيرين.. وحينئذ سوف يزول حقدهم على العمال».

كما تجسدت صورة العامل ذي الوجه الأسمر واقفًا وسط العمال وهو يقول «الليلة.. الليلة وبس.. وخلي الشركة تبقى تنفعه».. أكان يعرف أنه راح يقبض عليه.. أكيد لأ.. لو كان عارف يمكن ما كانش عمل كده.. كان فاكر إنه يمكن يزوغ.. ويا ترى هُوَ دلوقت حيعمل إيه وهُوَ نايم لوحده في الأوضة.. والأوضة زمانها ضلمة.. حيقول إيه؟ حيقول يا ريت ما عملت كده، يا ريتني ما ضربت؟ ولأ زمانه بي فكر في أمه اللي هي دلوقت لسه ما تعرفش؟ هي كانت في انتظاره، لما يقبض ويديها فلوس.. هُوَ دلوقت بيقول ما كانش ممكن إني أسيب الرؤساء تضربنا.. لازم يبقى فيه واحد يحوش الضرب عن العمال.. هُوَ دلوقت فاكر إن الضرب كله اتمنع عن العمال.. وهُوَ دلوقت اللي يمكن الضرب نازل عليه.. ولما راحوا النيابة وطلبوا منه إنه يعترف علشان يسبوه.. هل هو رضي؟ بالتأكد ما رضيش، لأنه هُوَ اللي اتقدم.. اتقدم لوحده.. لأنه سمع العامل لما كان بيقول «هُوَ مفيش راجل يتقدم؟».. أكيد هُوَ بي فكر في الكلام ده.. هُوَ ده اللي خلاه ما يعترفش.. لأنه عارف إن أمه راح تزعل.. وراح

تتحرم من ماهيته اللي كان بياخذها ويعطيها لها علشان تساعد بها إخوانه.. هَوَّ عارف دلوقت إن إخوانه مش حيشوفوه ولكن هو راضي.. راضي عن نفسه، وخاصة بعد العمال ما راحت وراه، وعارف إن العمال مش حتسيبه، ودايمًا فاكراه.. هَوَّ عارف إن اللي يعمل عمل طيب للناس بينتصر.. علشان كده حب يعمل هذا العمل.. هَوَّ نايم دلوقت في الحجرة ويفكر في كل الكلام ده.. هَوَّ عارف إن العمال حتروح له المحكمة وحتشوف له محامي، لأنه ما يقدرش يجيب محامي.. هَوَّ حيفرح يوم أن يرى العمال في المحكمة بتقدم له كل شيء.. هَوَّ كان عارف إن الراجل اللي بيعترف على العمال الآخرين كل الناس بتحتقره ومفيش حد بيكلمه، ودا اللي خلاه ما يعترفش على الرغم من كل اللي شافه من تعذيب.. علشان مفيش حد من بلده يقول له إنك اعترفت. وبينما أنا غارق في التفكير، وإذ بالولد الغريب يقول: - يَلَّا.. أحسن احنا اتأخرنا.

واتجهنا للعمل، وقد ظن البعض أن الظلم قد مات.. ولكن شيئًا ما من هذا لم يحدث، فاشتد الإرهاب بعد الحادث، ومع هذا فالعمال تواصل الاجتماعات.. اجتماعات هنا واجتماعات هناك.. ومرت الأيام والشهور، وكلما سمعوا أن العامل بيستكملوا معاه التحقيق ذهبوا لرؤيته.. والحالة بقت زي ما هي.. ونحن في أحد الاجتماعات وإذ بنا نسمع أن القضية قدمت وسوف يحاكم غدًا.

وقال البعض:

- وليه هَمَّ مستعجلين كده؟

- مستعجلين على موته.. هَوَّ انتم ما شفتوش لما كنا بنروح النيابة كان بيحصل إيه؟ مش كانت النيابة بتكرش أم الولد بَرَّه.. وكانت تفضل واقفة لما الميه

تنقع من تحت رجليها.. زي الغلبانة.. الناس درجات.. صوابك مش زي
بعضها.. الغلبان غلبان طول عمره!

وقال آخر:

- إحنا ما شفناش قضية اتقدمت بسرعة زي القضية دي!

فرد آخر:

- إللي تخاف منه ما يجيش أحسن منه.. إحنا لازم نروح بُكرة نشوفه.

وقال عبد العظيم:

- إياك بس يحكموا بالقرآن.. مش مكتوب فيه «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»؟

وقال آخر:

- وهوّ فيه عدل.. هوّ فيه حد بيعمل بكلام ربنا المكتوب.. المكتوب شيء واللي
حاصل شيء آخر.. هوّ لو كان فيه عدل كنا نعيش كده؟!!

فتمتم الواقفون، وهزوا رؤوسهم حزناً، وبدأ كل منهم ينظر للآخر، وصمتوا
لحظة كأن الدنيا قد دارت بيهم.. فقال أحدهم: - بقه انتم عاوزين تقولوا
مفيش عدل! أمال القرآن ده مكتوب ليه؟ هوّ مش مكتوب علشاننا؟

فرد أحد الواقفين:

- إحنا حنزعل نفسنا ليه؟ أهو احنا رايعين المحكمة بُكرة ونشوف بعيننا.

واتجه كل منا إلى منزله.. ونحن في الطريق قال عبد العظيم.. قال لي في
همس: - بُكرة الصبح تصبح تيجي لي.

ودخلت حجرتي، ولم أنم إلا بعد فترة، وكان كل ما يشغلني أن أرى العامل
في المحكمة وهوَّ جاي.. ثم نمت ولم أشعر بمن حولي.

محكمة

صحت مبكرًا، وليست جلبابي، وتمشيت في الحجرة.. تمشيت طويلًا، وأيقظت الولد الغريب والولد السيد الصفطي.. وكان الصباح هادئًا، لم يكتمل إشراقه، والجو مغير ينذر بالمطر، ولم تكن أبواب المنازل قد فتحت والمحلات كانت مغلقة.. ولكن طلائع العمال قد ظهرت في الطريق.

وفي عجلة أخرج كل منا رغيًا من قفته، وبدأنا نأكل في نهم، وخرجنا من المنزل مسرعين.. وفي ميدان المحطة، وجدنا عبد العظيم واقفًا ومعه آخرون، وأمام باب المحكمة وجدنا نسوة كثيرات، وأطفالًا صغارًا يمسكون بجلابيهم، وأخريات يقبضن بأطراف ملايات اللف بأسنانهن، ويتطلعن ذات اليمين وذات اليسار متأملات كل من يسير في الطريق. وخيل إليَّ أنهن يبحثن عن يعرفونهن، ووقفت أتطلع في كل تلك الوجوه، وقلت في نفسي: «أين أم العامل.. أين هي؟».

وإذ بعبد العظيم يقول:

- تعال لما نخش علشان نلحق لنا مكان.

قلت:

- أمال فين أم العامل؟

- دلوقت تشوفها.. تشوفها لما تيجي.

ونحن نسير وسط ضجيج الباعة، وإذ بثلاث نسوة بملابس ريفية سوداء يجلسن القرفصاء بجوار سور المحكمة وبجانبهن طفل في التاسعة من

العمر، بجلباب من الزفير المخطط، يحمل عصا في يده، وعلى رأسه طاقيّة من الصوف الأحمر، وعلى القرب منهم ثلاثة رجال بملابس جبردين، بها خطوط بيضاء.. ووقفت عندهم متأملاً وهم يتحدثون مع أحد الأفندية، وكان يحمل تحت إبطه ظرفاً مليئاً بالورق.. وجذني عبد العظيم من يدي، واتجهنا للداخل، ولم تمر لحظة، وإذ بالنسوة يدخلن خلفنا.. وفي أحد الأركان جلست النسوة، وبدا كل منهن على خديها.. وأخذت مكاني في الصف الأخير من القاعة، وبين الحين والحين كنت أنظر للنسوة محاولاً معرفة أم العامل. وهمست في أذن عبد العظيم أسأله: - كل النسوان دول جايين علشانه؟

وإذا به يقول:

- لا. هيّ حتكون فيهم.. دول جايين علشان ناس تانية.

قلت:

- أمال فين العامل؟

- دلوقت يبجي.. حيجي من السجن.

وبعد فترة كانت القاعة قد امتلأت بالناس.. وإذا بصراخ وضجة تعلو من الخارج، وكان صراخ النسوة هو الغالب.. إزيك يا محمد.. إزيك يا محمود.. إزيك يا علي.. أسماء وأسماء! وصراخ وعويل وناس تجري من هنا وناس تجري من هناك! وإذ بعبد العظيم يقول: - أهم جم.. جم من السجن دلوقت. وتطلعت الأنظار، وشحبت الوجوه، وازداد البكاء.. بكاء النسوة الواقفات.. ودخل المساجين، دخلوا القاعة مقيدين بسلاسل من حديد، وعلى أجسادهم

ملايس بيضاء، غطتها الوساخة.. رؤوسهم لم يكن بها شعرة واحدة، حلقت بالموس، وحفاة الأقدام، وبجانهم كثير من العساكر حاملين البنادق.. وقلت وسط الضجة: - دول حالقين جلط! حالقين لهم روسهم ليه؟

وتأملت الوجوه المشوهة باحثًا عن العامل بين الجنود، ولم أستطع معرفته إلا بعد أن أمعنت النظر، ولم أعرفه إلا وهو يلوح للعمال بيديه المكبلتين.. وإذ بامرأة طويلة تميل إلى السمرة مشدودة الرأس بطرحة سوداء بجانبها طفل يمسك بجلبابها، تقف بالقرب منا هي وأخريات، يصرخن صرخات عالية متوالية بعد أن دفع الجند المساجين في القفص، واستمررن في الصراخ: - ابني! ضناي!

ثم بدأن يجفن دموعهن بملايسهن.. وارتجفت رجفة خفيفة عندما سمعت منهن تلك الكلمات المحزنة.. والتفت النسوة حول تلك المرأة الطويلة يهدئن من روعها، وأخرجت منديلها وكورته في يدها بانفعال.. خيل إليّ أنها تضغطه. وخيم السكون على القاعة، وأطبقت كالقبر.

وقلت في صوت يشبه الصمت:

- همّ عاملين فيهم كده ليه؟

ورد أحد الجالسين:

- السجن كده.. مكتوب على بابه «تأديب وتهذيب وإصلاح».. بياكلوا عيش أسود تقرف الكلاب من أكله!

وسكتت القاعة، ووضع كل منا يديه على قلبه في انتظار ما نسمعه.. وخرج صوت الأم من جديد من وراء المنديل المبلل بدموعها، كأنه الأنين، وآخرون

يسكتونها: - اسكتي يا ولية!

وهي تردد:

- ابني! ابني!

وارتفع صوت من الأمام هز المحكمة.. ودخل ثلاثة معلقين أشرطة خضراء على أكتافهم، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم، وشخصت الأنظار، وشعرت بالرهبة والرعشة ملكت كل جسدي، وخيم الصمت على القاعة، وشعرت بنبضات قلبي ترتفع، ولم أستقر في مكاني، فكثيرًا ما تململت عند نداء الحاجب على الأسماء.. وكانت قضية العامل..

وعلى يمين القضاة وقف أحد الأفندية، علق على كتفه شريطًا أحمر، زين بالهلال، ممسكًا في يديه ورقة، وبدأ القول: - حضرات المستشارين، قضية اليوم هي من القضايا الهامة المتصلة بأمن الناس وأرواحهم...

وقلت في نفسي: «هيه.. حلوة.. أمن الناس وأرواحهم!».. وهمست في أذن عبد العظيم: - دا معانا.. بيتكلم عن أمن الناس وأرواحهم.

وإذ بعبد العظيم يقول:

- دي نيابة.

- ما هي معانا.. مش قلت لك احنا كنا عايزين نكتب لها.

واسترسل وكيل النيابة في القول: - قُدمت على عجل لأهميتها...

ولوح بيده نحو القفص:

- هذا القاتل الخالي من كل إحساس، ملأت قلبه الأحقاد والغيرة.. قتل
رئيسه.. قتله أثناء العمل، على مسمع من الجميع.. قتل رئيسه المتفاني في
خدمة المجتمع!

- جميع إيه؟ هوَّ إيه ده؟! إنت معانا ولاَّ معاهم؟! ما تقول الحق! مش احنا قلنا
لك إنه كان بيضرب العمال! قول إنه كان لا يحترم خلقة ربنا وبيضرب الناس
على وجوههم ويمنعهم من الذهاب للدورة! قول.. قول الحق! مش مكتوب
في الورق؟ خايف ليه؟ إيه العدل؟ أمال نيابة إيه؟ أنا طول عمري أقول نكتب
للنيابة.. هيَّ النيابة تبقى كده؟ هوَّ انت كمان حتبقى على العامل؟!

واسترسل وكيل النيابة في القول:- ولأهمية القضية قدمت على عجل، مصنع
لأول مرة في مصر.. مصر المستقلة...

فهمس أحد الحاضرين:

- مستقلة إيه؟! أمال الإنجليز اللي ماليه البلد دي!

واسترسل وكيل النيابة في القول:- مصنع يضم بين جدرانہ الآلاف من
العمال، بينهم صفوة ضئيلة من خيرة المثقفين، بذلت أمهاتهم العرق في
سبيل العلم ونهضة الصناعة، فقام أحد الجهلاء من الذين أعمت قلوبهم
الأحقاد وقتل رئيسه!

ولوح بيده من جديد نحوه، واسترسل قائلاً:- وهنا تبرز أهمية القضية.. وسبب
التعجل في تقديمها.. قُدمت على عجل لأخذ القصاص منه ليكون عبرة لكل
من تسول له نفسه بالاعتداء، ولحماية الصفوة المتعلمة.

وقال عبد العظيم في همس:

- بس الصفوة! آمال العمال اللي كل يوم بتموت مالهمش حد؟ علشان كده
مستعجلين؟ له رب!

وقالت واحدة من النسوة:

- حرام عليك ده بيربي يتامى!

وختم وكيل النيابة كلامه قائلاً: - إنني أطلب الإعدام لهذا العامل ليكون عبرة
لاستقرار النظام، ولتعود الطمأنينة للقلوب!

وهدأت القاعة، وتمللم الجميع، والتقت الأنظار متسائلة: - أين العدل؟

وقال آخر:

- عدل إيه؟

وإذا بصوت يجلجل من بعيد، وكان صوت المحامي الذي وقف أمام القضاء
يقول: - موكلي ليس هو القاتل! ولكن القتلة هم الذين يختفون من وراء
المكاتب، ويصدرون الأوامر، ثم يسمونهم الصفوة المختارة.. صفوة المثقفين
الذين رباهم الأهل بالعرق.. إن المظالم بلغت حد الاستهانة بالقيم، إن
المظالم التي يعانيتها العمال بالشركة، دفعت غير موكلي إلى الإقدام على هذا
العمل.. فإذا أردتم الاستقرار ابحثوا عن السبب.. سبب المتاعب التي يعانيتها
آلاف الفلاحين الذين نزحوا للعمل في سبيل لقمة العيش.. إن على أكتافهم
هم تقام الصناعة.. هيئوا لهم حياة أفضل من تلك الحياة التعسة التي يحيونها..
إن هذا العامل ضحية من يختفون وراء الستار.. وإذا أردتم معرفة الحقيقة،
تفضلوا واذهبوا معي إلى المستشفى الأميري لتروا بأعينكم ما تفعله الشركة

بالعمال.. أما ما يقال إنه القاتل، فهذا غير صحيح لأنه لم يثبت عليه، ولم يعترف به أحد من العمال.. لم يعترف رغم ما قاساه من تعذيب أثناء التحقيق!

كان يتكلم والقضاة تنصت، وقاضي اليسار يهتم كلما سمع كلمة مظالم، وكان يتململ في مكانه دائمًا، وكثيرًا ما كان يسند يديه رأسه، وتارة أخرى يعبث بالورق، ويميل بأذنه على قاضي الوسط، والآخر يتململ كلما سمع، فكان لا يتحرك.. والعامل واقف في القفص يهز رأسه إعجابًا بالدفاع.. وأم العامل ترفع يديها إلى السماء وتدعو في صمت علشان اليتامى. وهمس عبد العظيم: - قول.. اتكلم عن الدورة.. النيابة.. النيابة ما قالتش.. قول عن الممكن اللي بيقتل كل يوم عامل.. قول الله يحميك.

وختم المحامي دفاعه قائلاً:

- إن هذا العامل يجب أن يخرج من القفص، ويوضع مكانه من يختفون وراء الكواليس، ووراء الماكينات.. إن موكلي بريء من واقع الأوراق، وأطلب البراءة.

وكادت القاعة تضج بالتصفيق لولا أن القضاة دقوا بأقلامهم على المنضدة.. ثم نهضوا ودخلوا إلى غرفة جانبية.

وعاد القضاة، وأعلن قاضي الوسط الحكم: ثماني سنوات مع دفع دية تقدرها المحكمة فيما بعد. ورنّت القاعة بالتصفيق.

وقالت النسوة:

- إيش تاخذ الريح من البلاط؟

قالوها والدموع تتساقط. وهلل العامل في القفص بعد أن قيدت يداه بالحديد،
وهتف قائلاً: - راح الظلم إلى الأبد!

وخرج من القفص، وأركبوه عربة سوداء، وسارت بطيئة وسط شارع مزدحم
بالعمال، والنسوة يقفن والعمال يلوحون بأيديهم، والعامل يخرج يده المكبلة
ويلوح بها طويلاً إلى أن اختفى عن الأنظار.

ونحن نسير في الطريق كانت دقات قلبي ترتفع، وسألت من كانوا يسيرون
بجانبي: - إنتم ليه صفقتم عندما سمعتم الحكم؟

فقال أحدهم:

- كنا نتوقع الحكم بإعدامه.. كان الجميع يتوقعونه.. ولهذا كان هو أول
المصفقين.

ليه يحكموا بثمانى سنوات؟ مش بيقولوا «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا
بالعدل»؟ فيه عادل يحكم على المظلوم ويترك الظالم؟! أنا كنت فاكِر إنهم
حيروحو يشوفوا بعينهم! المحامي مش طلب؟ ليه همَّ لم يستجيبوا لطلبه
ويذهبوا إلى المستشفى؟ لو راحوا يمكن ما كانوا يحكموا بهذا الحكم! لو
شافوا العمال المتكسرين، والعمال اللي يتموت بالسل، يمكن كان قلبهم رق!
ليه ما راحوش؟ خايفين من إيه؟ خايفين من اللي قال عليهم المحامي إنهم
وراء الكواليس، إللي بيصدرو الأوامر؟ ومن هم؟ من هم الذين يقصد
المحامي؟ وأنا لما كنت عند المدير علشان أستلم الثوب وجدت فوق رأسه
صورة مكتوب عليها «أحمد فؤاد - ملك مصر»، وأخرى مكتوب عليها «طلعت
حرب»، متعلقين فوق راسه يبقى دول اللي وراء الكواليس؟ يمكن! بس هو
ما قالش.. وما قالش ليه؟ والمدير ليه معلق الصور فوق راسه؟ وأفكار كثيرة

راودتني، وقلت: «يبقى همّ دول اللي يقصدهم المحامي.. المرة دي ما
قالش.. يمكن... يمكن مرة تانية يبقى يقول!».«

الإضراب الأول

وذات يوم كنت جالسًا في الحجرة والريح تقذف بالشبايك، وإذ بالولد الغريب يزعق زعقة عالية: - إحنا اتأخرنا، مش حنلق نروح الشغل، يلاً يا واد انت وهوّ، كل واحد يوضب رغيفين بسرعة لاحسن حيقفلوا الباب في وشنا واحنا لسه جاينين، مش عاوزين المدة يتخضم لنا منها ولا يوم.

كان يتكلم بسرعة ولهوجة، وهو واضع يده في القفة والمنديل في إيده يربط فيه العيش، وكانت الريح تشتد، والمطر يتساقط، وفي الطريق كانت العمال تغوص في الوحل وهم حفاة الأقدام متجهين إلى العمل، وإذا بصوت يزعق من الخلف قائلاً: - حنفضل كده لإمتى؟ الواحد جسمه اتخشب! طول الليل ما بينامش، بيدفي نفسه في الشوال والبرد يخترقه كالرصاص وينفذ إلى الجسم.

فرد عليه آخر:

- ما انتم عاوزين كده، حسنا اتبجح، كل يوم بنتكلم، يلاً نطالب بالزيادة علشان نجيب غطا نتغطى بيه وانتم عاملين وذن من طين وودن من عجين.

فرد آخر:

- هوّ فيه رجاله؟ الرجالة ماتت!

فزعق آخر:

- إيه يعني؟ مفيش ليه؟ عايزين من الرجالة إيه؟

- عايزين نطلب زيادة نجيب غطا، غطا نتغطى به.

- طيب ما تقولوا لنا نعمل إيه واحنا نعمل.

- مش عارفين تعملوا إيه؟ نعمل زي أهالي المحلة، نروح المصنع ونشتغل، ولما يبجي المهندس نروح موقفين المكن ونتلم عليه ونقول له خمسة تعريفة ما تنفعش.

فرد آخر:

- يمكن ما يرضاش.

- زي بعضه.

- إنت حتقاطع، ديك الساعة يبقى اللي عمله ربنا هوّ اللي يكون.

- ولما يكرشونا نبقى نعمل إيه؟

- الأرزاق على الله، هوّ خلقنا وحينسانا؟ ده بيرزق الدودة في الحجر!

وبينما هذا الجدل يدور، كانت الأذان مصغية، آذان من كانوا يسيرون في الطريق يرفعون قدمًا ويضعون أخرى، ورؤوسهم تهتز، وخيل إليّ أنهم يفكرون فيما سمعوه، وخاصة عندما سمعوا توقف المكن والخروج للمهندس عندما يأتي إلى العنبر، وقلت في نفسي وأنا أسمع هذه الكلمات: «خلاص، أهو بقى كل الناس بتتكلم، لما أروح لعبد العظيم، حاقول له نطالب بالزيادة.. آخرتها إيه؟ كيفصلونا؟ الأرزاق على الله».

وبينما كنا نسير إذ بأحد العمال يقع في الطين وآخرون يرفعونه، وآخرون يقولون «حوش يا جدع.. حوش اللي وقع منك».. وصهّل آخرون من الضحك بينما امتعضت وجوه أخرى وكشّرت عن الأنياب دون أن ينبس أحد بكلمة، كنا نسير والمطر يتزايد والملابس تبتل والشوارع أصبحت كالأنهار، والجدع اللي كان يجري، ويحاول أن يخفي نفسه بين جدران المنازل، ويعاود الجري من جديد، خائفاً من أن تغلق الأبواب. ودخلت العمال العنابر بملابسهم المبتلة ووقفوا بين الممكن ينتفضون.. وخشيت أن تنسى العمال ما قالوه في الطريق.. ووقفت على الممكن بعد أن خلعت جلبابي ونشرته على جوانب المكنة لكي يجف. لقد شعرت أن أطراف أصابعي قد تصلبت من البرد، وكنت بين الحين والحين أضعها بجانب فمي وأنفخها. ومع هذا كان العنبر أكثر برودة.. ومن شدة البرد أخذت نفسي واتجهت نحو عنبر البوش لأضع يدي بجوار البخار الذي يجف الفتل، ولكن رئيس العنبر لمحني، فعدت من جديد، ومفاصلي تكاد تقع، ولكن سرعة الممكن واللف حوله، ولضم المكوك، وأخذ الفتلة في النبرة، قد أنساني البرد، وبدأ جسمي يستعيد نشاطه من جديد، وعدت أنظر للوجوه الواقفة، فوجدتها تعمل بنشاط وكل منهم ينظر للآخر.. كان كل منهم يريد أن يقول للآخر شيئاً.

يقول للآخر: «من ذا الذي سوف يبدأ بتوقيف ماكيناته، ويتجه نحو المهندس عند حضوره».

ولم يتكلم أحد مع الآخر.. كان كل منهم يكلم نفسه دون أن يجرؤ على الكلام مع الآخرين. وقلت في نفسي: «مَن هذا العامل الذي سوف يبدأ، الكل ساهم، الكل يفكر فيما يحدث لو لم يتوقف الممكن، الكل يفكر فيما يخبئه اليوم، هل سيبقى في العمل أم سيُفصل وخاصة أن الشركة قد فصلت من كانوا

يخدمونها في بداية العمل فيها، وقاموا بتعليم الآخرين وهم الذين علمونا؟ هل سيعطوننا زيادة، أم يفصلوننا؟ وماذا سنفعل إذا رفضت الشركة؟ هل سنتوقف على طول أم سنعمل حتى لو فُصل الآخرون؟ وماذا يكون الحال لو وقع الاختيار عليّ في الفصل؟ ماذا نقول لأمهاتنا؟ هل سنقول إننا كنا نطالب بزيادة في أجورنا؟ هل نقول الأجر ما بيكفيناش؟ سوف تقابلنا أمهاتنا بالصراخ، وهن يرددن: من رضي بقليله عاش.. اعمل بخمسة وحاسب البطال».. كل واحد يفكر في صمت.. وكنت أنا الآخر أفكر، وكلما مر على مكني أحد العمال كنت أعتقد أنه هو الذي سوف يبدأ بتوقيف الممكن عندما يلمح المهندس آتياً من الخارج، وأنه هو الذي سيقوم بعملية التنبيه على العمال، ولكن يمر ويمر مخترباً الصفوف.. صفوف الممكن، دون أن يتكلم مع أحد، وكأن العمال هم الآخرون عندما يرون أحداً يقف بجوارهم يظنون أنه هو الذي سيتحدث معهم فيما يجب أن يفعلوه فيما إذا فصل المهندس أحداً من العمال، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، واتجهت نحو عبد العظيم أسأله وإذ به يقول: - أف على مكنك.. إوعى تتكلم مع حد، إذا عملت العمال حاجة اعمل زيتها، ما عملوش اللي يجرى عليهم يجرى علينا!

قلت:

- كل العمال بتتكلم ومنتظرين حد يتقدم.

فعاد يصرخ:

- قلت لك روح على مكنك وما تسيبهوش!

كان يتكلم ووجهه يميل إلى الاصفرار، كمن يشعر بأن شيئاً سوف يحدث، وتركته والدماء تجري في عروقي، ولم أعرف سبباً لخوفه، وقلت في نفسي:

«هُوَ بيزعق ليه؟ إيه اللي مزعله؟ يمكن يكون خايف لاحسن يكون أول واحد
ينفصل؟ وخايف على إيه؟ علشان إيه؟ أمال مين اللي حيتقدم لو كل واحد
عمل كده، لو كان كل واحد منا خياف؟ يبقى حننفضل كلنا، مش معقول!
وحتوقف كلنا بقدره قادر، مش معقول! لازم حد يتكلم مع العمال».

بينما كنت أفكر إذ بالمهندس يدخل، وتطلعت نحوه الوجوه، وراحت يتطلع
بعضها لبعض.

ودخل المهندس ببدة زرقاء، ذات جيوب عديدة مليئة بالمفاتيح، وقميص
أبيض ناصع البياض، كان منظره يسر العين، كان وجهه ممتلئاً صحة وعافية:
وجه أبيض يشع بالاحمرار، ولم تفارق وجهه الابتسامة كلما رأى أحد الرؤساء
يقف أمامه ويمد يده محيياً، وكانت رائحة العنبر المنبعثة من ملابسه تضي
على من يمر بجواره البهجة والاطمئنان.. كان المهندس يستطيع أن يعرف ما
بالماكينة من عيوب إذا وضع أذنه بجوارها برغم شدة الضجيج الذي تحدثه
آلاف الماكينات.. كان كثيرًا ما يأمر العامل بإيقاف الماكينة، ويبدأ هو بعملية
التصليح كالخبير في فن الممكن، وكلما دخل من طرقة وخرج من أخرى كان
كثيرًا ما يتطلع إلى الوجوه، وينظر متأملًا نظرات ذات معنى، وكثيرًا ما كان
يتوقف بين الممكن ويطيل الحديث مع الرؤساء عن ضرورة الاهتمام بعملية
التصليح.. وبينما كان يمر في العنبر، كانت العمال تنظر في قلق، وقال أحد
العمال: - أمال فين الرجالة اللي كل يوم بتتكلم؟! المهندس جه وأهو واقف
يلوح بإيديه مع الرؤساء!

وبدأ يمر خلف الممكن، والعمال تنظر له ويعودون مسرعين بالوقوف على
الفرامل، استعدادًا لوضع المكوك في الدرج.

ووقفت أتطلع إلى كل ما في الوجوه، وأيقنت أن الجميع قد أدرك ألا مفر من توقف الممكن، ولكن المشكلة هي مَنْ ذا الذي يبدأ بالكلام، ومَنْ ذا الذي يتقدم بشرح المطالب!

وقلت: «مفيش حل غير إننا نروح.. نروح كلنا ونقف قدامه وتتكلم في نفس واحد، وبالطريقة دي ما يعرفش حد».

وملت على أذن أحد العمال المجاورين لي وقلت له هذا، وقال هو الآخر للعامل اللي بجواره، والآخر مال على الآخر.. ولم تمر لحظة إلا وقد انتشر الخبر في العنبر، ووقف الجميع بعيون قلقة ينتظرون.. يتطلعون في انتظار مَنْ الذي يبدأ، مَنْ الذي يلوح بيديه مشيرًا لهم بالتوقف عن العمل.. وبينما كانوا ينظرون لبعضهم البعض، كان هناك آخرون يخفون رؤوسهم بين الممكن، كأن شيئًا لا يعنيه، خوفًا مما قد يحدث، خوفًا من أن تقع عليهم العين ويكونوا أول مَنْ يُفصلون. إن الذي يخيفهم هو الفصل، والفصل فحسب، ولهذا فهم يخفون رؤوسهم.

وقلت في نفسي: «هؤلاء قلة، ومن الممكن أن يتشجعوا لوقوف الممكن».. ونظرت إلى عبد العظيم، وإذ بي أجده واقفًا على الممكن يتطلع ذات اليمين وذات اليسار. لم أكن مطمئنًا في وقفته، وأيقنت أنه هو الآخر واقف في قلق، ونظرت له طويلًا، وانتظرت منه أن يلوح لي بيده، ولكن يديه لم ترتفعا، فعدت وقلت في نفسي: «نحن عندما كنا في الاجتماع، كنا نتكلم عن الزيادة في الأجر، والزيادة فقط.. ولم نتفق على مَنْ منا يبدأ في توقيف الممكن ويتجه أمام الجميع. وها نحن اليوم في حيرة، من ذا الذي سوف يبدأ، الجميع اليوم منتظرون.. منتظرون من يلوح بيده لعلنا نبدأ بالتوقف عن العمل».. وعدت ونظرت إلى العمال، فوجدتهم كلهم يقفون على الممكن، ويلف كل منهم حوله

بحركة لا إرادية، ويعود مسرعًا ليضع يده على الفرامل في انتظار أي إشارة من أحد، ومرت لحظات ليست بقصيرة والممكن لم يتوقف.

وقلت في نفسي: «هَوَّ إيه ده؟! كل واحد وقف وبيفكر! كل واحد منتظر أن يبدأ الآخر! وبالطريقة دي مفيش حاجة تحصل».. وقلت: «أنا ليه ما وقفش؟ ولو وقفت حيحصل إيه؟ يمكن لما أوقف الممكن، مفيش حد يرضى يوقف باعتباري صغير، وهو معقول إن العمال الكبار حيوقفوا مكنهم بمجرد ما أنا أوقف مكني؟ وإيه يعني؟ ما أجرب، ولو ما وقفوش حيحصل إيه؟ ولو حصل الشركة حتعمل معايا إيه؟ حتفصلني؟ ما يهمش! أنا أوقف الممكن.. حاوقف وزى ما يكون».

وعدت وقلت في نفسي: «يمكن عبد العظيم يزعل.. وحيزعل ليه؟ ما انا بصيت له وعيني كانت في عينيه ومع ذلك ما بانش منه حاجة.. وإن زعل.. هَوَّ قال لي كتير إنك ملكش دعوة.. أف على مكنك.. ما تتقلش.. ما تتقلش من مكانك.. وانا حافضل أسمع الكلام لإمتي؟ دا لو الواحد حيسمع الكلام ده مش حيعمل حاجة».

وعدت ونظرت إلى الوجوه فوجدتها كما كانت جامدة وازدادت شحوبًا.. وعدت ونظرت مرة أخرى إلى عبد العظيم فوجدته واقفًا هو الآخر.

وخيل إلِّي أنه هو الآخر في انتظار إشارة من أحد وقلت: «مَن هو هذا الواحد الذي ينتظره الجميع؟ مَن هو يا ترى؟».. وأيقنت أنه لا فائدة من الانتظار.. المهندس حيمشى ولازم توقف الممكن، وقلت لنفسي: «خلاص».. ورحت موقف الممكن.. ووقفت في الطرقة وكل ما في جسدي ينتفض، وتطلع العمال المجاورة إلِّي، ووقفوا مذهولين لأنني توقفت دون أن يكون في مكني

تصليح، ونظروا إلىَّ في ذهول، وقال البعض: - مش معقول ده يكون أول من
يوقف الممكن!

وقال الآخر:

- ليه ما يكونش؟ متوقف انت كمان!

وأوقف الفرامل هو الآخر، وتوقف مكنه، وبدأ كل من العمال المجاورين
يوقف مكنه، وكلما نظر آخر ورأى الممكن توقف وقَّف هو الآخر، وفي لحظات
كان العنبر كله قد توقف.

وتطلعت للرؤساء في العنبر، وكل منهم ينظر إلى ساعته، ظنًّا منهم أن ساعة
الغداء قد حانت، ولكنهم فوجئوا عندما رأوا أن الساعة العاشرة، واتجهوا على
الفور نحو الممكن، ولم يسألوا أحدًا من العمال ورفعوا الفرامل، وعادت
العمال وأوقفت الفرامل، وعادت الرؤساء تسأل العمال، والعمال لا تجيب..
وفجأة تجمعت العمال خلف الممكن، جماعات جماعات، وإذ بصوت بعيد
يزعق: «هوه.. هوه».. وردد العمال كلمة «هوه».. ووقف المهندس مذهولًا، لم
يكن يتوقع أن شيئًا من هذا يحدث، واتجه نحو المكتب المخصص لمدير
النسيج والرؤساء خلفه، ووقفوا يتحدثون ويلوحون بأيديهم غاضبين، والعمال
تغني على الممكن.

وإذ بالمهندس يزعق:

- وقفوا المواتير!

والعمال من بعيد تنظر، وتشجع أحد العمال قائلاً: - مستنيين إيه، ما تيلَّا،
المهندس واقف أهه، واقف وبيزعق، يلا نروح له، هوَّ حياخد روحنا؟ ما

يخدهاش إلا اللي خالقها!

وتردد البعض: مَنْ يسير في المقدمة؟ وكلما ساروا خطوة عاد السائرون في المقدمة إلى الخلف كلما قاربوا المهندس.. وبدأوا يتطلعون في وجوه البعض، وزعق البعض منهم: - ما تقرب يا جدع انت وهوّ! قربوا.. رجالة إيه أمال؟! الرجالة ما تعملش كده! الراجل يبقى في البيت والشغل كمان! هوّ احنا رايعين نسرق؟! إحنا حنطالب بزيادة.. طول الليل ما بننامش! من السقعة بندفن نفسنا في الأشولة! ومع كده البرد بيقطع في جسمنا!

وتشجع البعض للسير في المقدمة، وبدأت العمال تزحف، وشحاتة أبو دشيش المهندس واقف في مكانه ويداه متشابكتان حول ظهره، والتف العمال حوله.. وإذا به يقول في صوت رزين هادئ: - إنتو عايزين إيه؟

ورد الجميع في صوت عالٍ:

- عاوزين زيادة.. زيادة في أجورنا.. خمسة تعريفة ما تنفعش! إحنا اتعلمنا وأصبحنا بندوّر المكن ومسؤولين عنه!

وإذا به يزعق كالوحش المفترس:

- كل واحد يروح على مكنه فورًا وإلا حتتفصلوا كلكم!

قالها وانتظر، ولكن العمال لم يغادروا أماكنهم، فأعاد كلماته والأوامر من جديد، واستمر العمال في وقفتهم وهم يرددون: - عاوزين زيادة في أجورنا! وعاد من جديد يأمر العمال بالعودة إلى المكن، ولكنهم استمروا في وقفتهم، وإذا به يقول: - إللي مش هيدوّر المكن يتفصّل يخرج من الباب.. الباب يساع

جمل!

واتجهنا جميعًا نحو المكن، وفك كل منا منديله.

وفي الطريقة سار الجميع، وكان البعض يحاول أن يعود إلى عمله، وآخرون يدفعونهم للخروج.

وإذ بالمهندس يأتي مسرعًا ويقف في المقدمة ووقفت العمال. وإذ به يقول: -
عودوا إلى المكن.. وأنا رايح أتكلم.. أتكلم مع المدير العام علشان أطلب لكم
زيادة.

وعندما سمعت العمال «حاتكلم مع المدير العام» تعالت الأصوات: - يحيا
العدل!

فأعاد المهندس القول:

- وحاجي بعد الظهر وأقول لكم ما تم.

واتجهت العمال نحو المكن وهم مهللون فرحون، وبدأ كل منهم ينظر للآخر
بوجه مشرق، وبدأت الماكينات تدور، وتعالى الضجيج، واهتزت السيور،
وانتشر الرؤساء في العنبر، يتفرسون في الوجوه باحثين عن مَنْ يسمونهم
بالمشاغبين، ولم تبال العمال بالأحقاد التي تطل من عيونهم، وساروا في تحدٍّ^{٤١١}
يلفون حول المكن، وابتعد الرؤساء.

جات العواقب سليمة

وجاءني أحد العمال المجاورين وهمس في أذني قائلاً: - يَلَّا يا عم.. جات العواقب سليمة.

قالها وتركني، واتجهت بنظري نحو عبد العظيم، وإذ به واقف في مكانه لا يتحرك، وعيناه في الأرض، وقلت في نفسي: «ليه هَوَّ ساكت كده؟ بيفكر؟ وبيفكر في إيه؟ بيفكر في أمه وفي إخوانه؟ هَوَّ لما روح لقاهام تعبانين في حرث الأرض ورش السيخ، وغرس البذور في الأرض، واشتغل وباهم، يمكن يكون بيفكر فيهم.. يمكن يقول في نفسه «يا ترى همَّ عملوا إيه دلوقت؟ ولَّا بيفكروا في إيه؟»، كثيرًا ما تحدث معي، وخصوصًا أنه أكبر إخوانه، وهَوَّ اللي بيساعدهم، وكثيرًا ما تغرب بعيدًا عن البلد مع الأنفار في لم الدودة في أبعديات الملك، وكثيرًا ما قال لي إن كل قرش كان بيحييه كان بيسلمه لأمه، وأمّه تسدد بيه إيجار القيراطين اللي واخدينهم من الوسية، ولما كانوا يتأخروا شوية كان يتحجز على شوية الحب اللي طول السنة تعبانين فيهم، وكثيرًا ما قال إنه ما صدق إنه لقي شغلة دائمة اللي بيشتغل فيها دلوقت، وعلشان كده لما عمال المحلة دوروا الضرب في العمال تصدى لهم.. كان أول من تصدى لهم علشان يستنى في الشغل ده.. يمكن لما سمع إن الشركة فصلت الناس اللي علموا العمال لأنهم بيطالبوا بزيادة، وما كانش لها خير فيهم، يمكن دا اللي خوفه، لأن أمه وإخوانه معتمدين عليه، ودا اللي خلاه يقف في مكانه لا يتحرك خوفًا من أن يفصل، وخوفه من أن يحجز على الأرض هو اللي خلاه ما يوقفش الممكن ويفضل على الممكن شغال».

وعدت بتفكيري إلى ما قبل اليوم.. يوم أن جاءت النيابة.. ورحت له على
الممكن وطلبت أن يروح معايا ونقول لها كل حاجة، وهو قال لي «روح على
مكنك.. وإوعى تنتقل»، كان خايف على نفسه، وخايف على العمال، ولكن لما
لقى العمال كلها راحت، وقفت قدام النيابة، راح هوّ كمان، واتكلم بلا خوف،
لأن الكل كان بيتكلم، والنهارده ما رضيش يوقف الممكن، ولما العمال كلها
وقفت وقف وياهم.. يبقى هوّ عايز إيه؟ عايز ما ينعرفش؟!

وأنا غارق في التفكير حول ما شهدت من مواقف عديدة، لا من عبد العظيم
وحده بل من عديد من العمال، ولكن ما لفت نظري إلا موقف عبد العظيم،
إذا بالمهندس يدخل على مهل، ويداه خلف ظهره، واتجهت الأنظار نحوه، وإذا
به يقف وبيتسم كالآتي بجديد، والتف الرؤساء حوله، واستمروا في الحوش،
وتطلعت العمال، وزادوا من تطلعهم وشفاهم تتحرك، كان كل منهم يقول
لنفسه: «يحصل إيه؟ دول واقفين بيشاوروا! بيشاوروا على إيه مش
عارفين! جاب لنا زيادة؟ كم يا ترى؟ قرش تعريفه؟ مش معقول! قرش
صاغ؟! يبقى كويس! وأحسن لو ثلاثة تعريفه! يعني يبقى الواحد ياخذ أربعة
صاغ في اليوم زي عمال المحلة اللي علموا العمال، ما احنا اتعلمنا، فلازم
ناخذ أجر زيهم، ولكن الشركة ما هي فصلتهم، لو كانت عايزة تديهم.. بقى
اللي ما فيهاش خير فيهم، حتبقى لها خير فينا؟! مش معقول! مش راح
تدينا».

وسألت نفسي: «دا الواحد لو خد ثلاثة تعريفه زيادة.. دا الواحد يتبسط، وآخذ
ويايا عيش وحلاوة».

ونظرت حولي، وإذا بالمهندس واقف في مكانه يلوح بيده للرؤساء، والرؤساء
تلوح بأيديها نحو العمال، يتهامسون، ولم نسمع منهم شيئاً سوى رؤيتنا

لشفاهم وهي تتحرك، وجاءني أحد العمال ووقف بجانبني: - هَمَّ ليه ما
بيجولناش؟! مستنيين إيه؟! هُو مش قال حاجي لكم؟

وجاء آخر وقال:

- ضحكوا علينا!

فقلت:

- مستعجل على إيه؟ مستعجل على رزقك؟ طول بالك!

وقال آخر:

- دول متجمعين علشان يقولوا لبعض اللي عرفوه.. إياك ما يكونش الواحد
فيهم! أنا ما وقفتش إلا آخر واحد وكنت أول من دور الممكن بعد ما دخلنا!

فقال رابع:

- حَتَّكُمْ كدا لإمتي؟! حتفضلوا كده خايفين؟

فرد واحد منهم:

- على طول.

وقد أيقنت أن هؤلاء المتكلمين هم من القلة التي كانت قد أخفت رؤوسها
خلف الممكن، وقلت في نفسي: «هَمَّ يمكن خايفين.. ما هو معقول.. هُو كل
الناس حتبقى زي بعضها؟ فيه اللي بيخاف وفيه اللي ما بيخافش.. المهم إن
كلهم وقفوا، وفيه شوية ما وقفوش.. زي بعضه، يمكن المرة الجاية يتشجعوا

لما يلاقوا العمال كلها طلعت زي النهارده.. مش طلعتوا ورانا؟! ما هو عبد العظيم راخر وَقَّف مكنه على طول لما لقي الناس وقفت وقف».

وأنا غارق في التفكير حول ما حدث وحول ما سمعت، كلمات كثيرة متعددة، إذ بالمهندس يأمر بتوقف المكن وجمع كل مَنْ كانوا موجودين في العنبر. واجتمع الآلاف.. ووقف على كرسي من خشب واضعًا يده خلف ظهره، والتفت للرؤساء بجواره، والعمال تترقب. وقال أحد الواقفين: - اتكلم! قول! واقف ليه؟! طمنا يا شيخ!

وقال آخر:

- دلوقت يقول المدير ما رضيش.

وقال آخر:

- دا بيضحك!

وإذ بأحد الرؤساء يزعق:

- اقعد يا جدع انت وهَوَّ.. اقعد على الأرض.

وقعدت العمال القرفصاء وأعينهم مثبتة في الاتجاه نحوه.. وهمس أحد العمال: - الواحد رجليه بتتململ! ما تتكلم! اتكلم وخلصنا! الميه نقعت من رجلينا!

وحدث صمت، وإذ بالمهندس يفتح فمه ويصمت الجميع، وإذ به يقول في صوت عالي النبرات، وقد ارتسمت على وجهه كل معالم الغضب: - اسمع يا بني آدم انت وهَوَّ...

وقال أحد العمال في همس:

- هه.. قول.. حتشتم؟ عارفين اللي حتقوله! قول وخلصنا!

وقال آخر:

- سيوه يشتم شتمتين من نفسه، ما احنا ملطمة في إيديهم!

تململ المهندس في مكانه، وعلا صوته:

- إحنا جيناكم من كل البلاد.. كل واحد منكم من بلد.. جيناكم نعلمكم...

وقلت في نفسي: «هيه عارفين! قول يا عم وخلصنا! هي دي زيادة؟! ما تقول يا عم!».

واسترسل في الكلام:

- المدير العام كان حيفصلكم.. حيفصلكم جميعًا.. ولكن ولاد الخير اتوسطوا...

فهمس البعض:

- حتقول علشان خاطري.. قول يا عم وطمننا! هو انت جامعنا علشان تهددنا!
ما تقول عملت لنا إيه وخلصنا!

واسترسل المهندس قائلاً:

- دلوقت نظام الأجر حيتغير.. كنتم بتشتغلوا باليومية ودلوقت غيرنا لكم هذا النظام.. حتشتغلوا بالإنتاج.. كل واحد واقف على مكن اسمه راح ينكتب عليه على طول.. إللي راح يشتغل أكثر يقبض أحسن.. كل واحد بشطارته.. كل

واحد يشتغل بالإنتاج.. حيشتغل بالقطعة، وحنركب عدّاد لكل مكنة يحسب له شغله.. أما العمال اللي باليومية، إللي تحت التمرين، حيستنوا كما هم لا تغيير في أجورهم، ولما العنابر الجديدة راح تفتح حيروحووا ويشتغلوا هناك...

وختم كلامه قائلاً:

- يوم القبض حتشوفوا.. كل واحد منكم يقف على مكنه وما يسيبوش!
وتوجهت العمال كل منهم إلى مكنه وهم يتهامسون: - إنتاج إيه؟ هوّ إيه الكلام ده؟! دي حاجة جديدة! بنطلب زيادة يقولوا لنا بالإنتاج!

وقال آخر:

- إيه!! حنشوف! تانك ورا الكدّاب لحد باب الدار.. وحنشوف يومها!
- دول ولاد كلب عاوزين يفرقونا من بعض.. إشي باليومية وإشي بالإنتاج..
علشان بعد كده العمال تنشتت وما تتلمش على بعض!
- إحنا خسرنا كل حاجة! إن ما جابوش زيادة آدي احنا عرفنا آخرتها.. يوم
القبض نبقى نشوف!

ومع هذه الأفكار والأحاديث توجه كل منهم إلى مكنه، وبدأوا يتسابقون ويتسابقون في العمل.. لم تسعفهم سرعة الماكينات.. فبدأوا يضعون أيديهم على الدف.. دف المكن المركب على المشط ويزقوه بأيديهم ظلماً منهم أن ذلك يساعد على سرعة الماكينات.. والبعض الآخر يقطعون السيور ليزيدوا من سرعة الماكينات.. حركة من نشاط انتابت الجميع.. لا يتحدث الواحد مع

الآخر إلا قليلاً.. وعلى عجل يقولون: - حنشتغل لحد آخر جهد علشان نفوت عليهم الحجة!

وجاءني الولد الغريب وهمس في أذني:

- يلاً يا عم جاتلك على الجاهز.. أمك أصلها داعية لك!

كان يتكلم وعينه تكاد تتساقط منها الدموع، وحاولت أن أطمئنه قائلاً: - بُكرة حيوقفوك على المكن.

وإذا بعامل من الواقفين بجواري يأتي هو الآخر.. وبدأ يقول: - ضحكوا علينا.. حيطفحونا الدم.. وآخر المدة ما نشوفش منهم حاجة.. بيقولوا حنشتغل بالإنتاج.. إنتاج إيه؟! هَوّ فيه أحسن من اليومية؟! الواحد كان عارف إيه اللي رايح يقبضه ويبقى عامل حسابه.. لخبطوا لنا الدنيا، ولا منهم جابوا لنا زيادة ولا منهم سكتوا عنا وسابونا في العُلب اللي احنا عايشين فيه!

ولم أبادر بالكلام مع العامل خوفاً من أن يزعل الولد الغريب: واستمر هو في الكلام إلى أن أشرق وجه الولد الغريب، وعادت البسمة إلى شفثيه وهز رأسه قبل أن يغادر مكني: - إللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش.. أنا عارف كام في المدة حاقبضه.. حاسبهم باليوم.. أما انت دلوقت مش حتبقى عارف إيه اللي انت رايح تقبضه.

وقلت في نفسي: «أحسن اللي هَوّ عرف كده، لكن يوم القبض لما حيبقى يشوف إنني قبضت أحسن منه راح يبقى يعمل إيه؟ راح يزعل! وحيزعل ليه؟ يمكن على بال ما يبجي القبض تكون العنابر الجديدة اشتغلت وباخدوه ويقف على مكن.. ما هو المهندس قال.. يمكن يكون العامل اللي اتكلم ده عارف

إن الشركة ضحكت علينا وما جابتش لنا حاجة.. إيه يعني اللي احنا خسرناه؟
ما خسرناش حاجة! ومش كل واحد راح يقبض ماهيته كاملة؟! المرة دي
حصل كده والمرة اللي جاية ما يحصلش.. نبقى ناخد بالناس.. وما نبقاش
ينضحك علينا.. المهم مفيش حد اتفصل ولا حاجة.. وده يمكن يشجع آخرين
من اللي كانوا خايفين يوقفوا الممكن».. وعدت وقلت: «إيه اللي حيخلي
المهندس يعمل كده؟ إيه اللي خلاه يقول حاجيب لكم زيادة وما يجيبش؟ هَوَّ
حد غصبه؟ مش معقول يبجي ويتكلم قدامنا كلنا وبعدين ما يجيبش! لازم
حاجيب لنا زيادة.. أمال مهندس إيه؟ هَوَّ صغير؟! دا راجل والراجل يتربط من
لسانه.. دا لو ما جابش كل الناس ما تحترموش».

كنت أحدث نفسي والممكن داير ويسرع من الدوران، وحركة العمل تزداد، مع
أن الكثيرين لم يصدقوا إن فيه شيء رايح يبجي.. الكل بيقول إنها حركة لا
أكثر ولا أقل.. وبدأت حركة النشاط تزداد.. عمال تجري من هنا وعمال تجري
من هناك.. الكل بيجري نحو عنبر اللحمه مستعجلين لوحة المواسير المليئة
بالغزل.. ما عندهم مش صبر.. لما عمال اللحمه توصل لهم على الممكن.. كانوا
يعدون وهم يقولون لأنفسهم: «إحنا حنعمل على آخر جهد.. نعمل بالقرش
اللي حنقبضه علشان ربنا يبارك لنا في الماهية.. وإن ما خدناش زيادة يبقى
رزق العيال على الله.. يبقى ربنا ما أمرش.. وإن جالنا يبقى كويس».

كان كل منهم يحمل لوحة اللحمه على كتفه ويعدو بها كالريح.. وآخرون
يسيروا متباطئي الخطى، غارقين في بحر من التفكير، كل منهم يفكر في
أمه وأخيه، وفي ديونه، والبهائم التي ستباع لصاحب الأرض حتى يأخذ ما تبقى
من إيجار! كانوا يفكرون في الحياة التي يحيونها وتحياها أمهاتهم متمنين

الزيادة، واضعين كل الأمل فيها.. وآخرون واقفون على المكن وأيديهم على
الفرامل ساندين رؤوسهم بأيديهم.

وجاءني عبد العظيم على المكن هو الآخر وقال: - إنت ليه وقفت المكن؟ ما
استنيتش غيرك ليه يوقفوا؟!

- انتظرت أن يوقف المكن أحد غيري لكن مفيش حد وقّف! انتظرت كثيرًا،
وتوقعت إنك تبدأ ولكن ما حصلش، كان عليّ أن أوقفه، علشان الكل يوقف..
ولما وقفته ما كنتش أظن إن العمال حتبادر بالتوقيف.. كنت خايف لاحسن
يقولوا عليّ إنني صغير.. ولكنهم وقفوا المكن لأنهم شافوا إن الكبار عني ما
وقفوش.. كانوا عايزين يطالبوا بالزيادة.. كانوا عايزين أي حد يبدأ.. وما كانش
يهمهم مين اللي يبدأ.. كنت بصيت لك كثير، وانتظرت منك إنك تلوح لي
بإيدك، ولكنك وقفت على المكن وعينيك لي ومع كده ما صدرش منك أي
إشارة.

وإذ به يقول بصوته الهادئ الذي تعودت أن أسمعه دائمًا: - كنت أفكر في البلد
وأمي وإخواتي.. سبتهم مش قادرين على الشغل، ومفيش حد وياهم، والأرض
لازم تنزرع قبل الميه ما تروح.. مانيش عارف حصل إيه دلوقت.. اتحايلت
عليّ أسيبهم وآجي، وقالت لي روح لشغلك علشان القرشين اللي انت
بتجيبهم همّ اللي احنا بنعتمد عليهم.. لولا دا ما كنتش جيت إلا بعد ما خلصت
زراعة الأرض.. وده هوّ اللي خلاني واقف على المكن أفكر.. أفكر فيهم.. ولم
يكن ببالي أي حاجة غير كده.. ما كنتش بافكر في الزيادة، ولا حتى في توقيف
المكن، ولا في أحد سوى من تركتهم غرقانين في شبر ميه.. الزرع لما بينزرع
بدري بيطلع كويس، ولما بيتأخر بيطلع عدمان وما يجيبش حاجة!

واسترسل في كلامه قائلاً:

- وانت ليه وقفت المكن؟! ليه ما استتيتش؟! ما كنتش خايف؟!

- حاخاف من إيه؟ ما العمال كلها كانت بتتكلم: مفيش رجالة؟ سمعتهم
بيقولوا كده على طول الطريق، فكان لازم حد يوقف.

وإذ به يبادر بالقول:

- أهى كل الناس يا عم.. كل العمال.. بيقولوا الولد دا هوّ اللي وقّف المكن.

- وحصل إيه؟!

- ولا حاجة.. كل الناس مبسوفة.. وأهى جات العواقب سليمة.. ربنا يعميهم
عنك.. وإياك ما يجيش ولد ابن حرام وبيبلغ الرؤساء عنك!

وقبل أن يذهب إلى مكنه قال:

- إياك ربنا يجعل تعبنا بفايدة!

وتركني وذهب إلى مكنه وبدأ يعمل بنشاط.. وكلما رأيتة يعمل ازددت حماسًا
للعمل.. وكلما وجدت العمال المجاورين لي يعملون هم الآخرون بحماس
ازددت أنا الآخر حماسًا.. كان كل منا يحاول أن يثبت أنه أحسن من الآخر.

وجاءت الزيادة

انتهى اليوم، وجاءت الوردية الثانية، وبدأ كل عامل يتحدث مع زميله. ولم يقابل عمال وردية الليل خبر الشغل بالإنتاج بالارتياح، وبانت على الوجوه كآبة. وقال بعضهم: - جيتوا تكحلوها عميتها! إيه اللي خلاكم عملتم كده؟ ما كنا شغالين في أمانة الله وراضين بقليلنا!

وقال البعض الآخر:

- السنة السوداء بتبان من أولها! تطلع من مصيبة تلاقي مصيبتين!

لم أحتمل الكلمات، وخشيت أن يعرفوا أنني الذي تسببت في توقف الممكن.. خرجت من العنبر.. وإذا بعمال السحب والبرم يخرجون طواير بوجوههم المعفرة ورؤوسهم المليئة بالزغبار، ويقولون لبعضهم البعض وهم يلوحون بأيديهم غاضبين: - همَّ عمال النسيج اللي اتسببوا لنا في الشغلانة المهيبة دي! كل واحد منا كان عارف ماهيته.. قلبنا الدنيا.. أهو كل واحد حييجي من بيته يشتغل على فيض الكريم.. نيحي من طلعة الشمس لحد بعد العشا ونرَّوح.. ومش حبقى عارفين جنبنا بكام! واحنا كان مالنا! هوَّ احنا كنا اللي وقفنا الممكن؟! هوَّ احنا عملنا إيه؟! بيجازونا على إيه؟! ما يجازوا اللي وقفوا الممكن! إحنا في الغزل.. إحنا في البرم.. شغالين بأمانة الله.. ما حصلش منا حاجة، يا سنة سودة، هوَّ اللي بيعمل زي اللي ما بيعملش؟!

وزعق آخر:

- هوَّ إيه ده؟! مالكم كده حزنانين ليه؟! إللي تخافوا منه ما يجيش أحسن منه.. هوَّ لا منكم ولا يكفينا شركم! إنتم عاملين زي المثل اللي بيقول: «تعمل طيب

تلاقيه ردي».. استنوا لما تشوفوا.. بتزقوا زي الغربان كده ليه؟!

فرد آخر:

- نستنى إيه؟! ما هي باينة من دلوقت.. بُكرة يغالطونا، وإذا حد اتكلم حيقولوا له إنك اشتغلت بالإنتاج.. إنتاج إيه؟ هوّ احنا بنعرف نحسب؟! كان كل واحد عارف اللي بياخده في اليوم.. قرشين صاغ في المدة يبقى بكذا.. دلوقت حنعرف ازاي؟!

وأحاديث وأحاديث على طول الطريق، والقلوب تغلي، والوجوه شاحبة، وجوه يغلب عليها الاصفرار وأخرى محمرة، وقلت في نفسي: «همّ زعلانين كده ليه أوي.. مش عاجبهم اللي احنا عملناه؟ أمال كنا نعمل إيه؟ كنا نستنى كده لإمتى؟ لا عمال وردية الليل عاجبهم ولا عمال الغزل والسحب والبرم عاجبهم! وهوّ احنا كنا بنطالب إننا نشتغل بالإنتاج؟ إحنا طلبنا زيادة، وحنعمل إيه إذا كان المهندس هوّ اللي جه وقال انتو حتشتغلوا بالإنتاج؟ صحيح همّ مالهم ومال الغزل.. لا طلبوا ولا حاجة.. همّ صحيح مش راضيين على أجورهم ولكنهم لم يطلبوا، وبيشغلوهم بالإنتاج ليه؟!».. وعدت وقلت في نفسي: «ما هو الخير لما بيعم والشر لما بيعم، وإذا كانوا مش راضيين على اللي حصل يمكن بُكرة يرضوا.. همّ بيشتموا عمال النسيج ليه؟ بيشتموهم علشان وقفوا الممكن؟! ما هو مفيش حد منهم وقف.. أنا اللي وقفت الأول، وبممكن لو ما كنتش وقفت ما كانتش حاجة زي دي حصلت.. وليه؟ ليه؟ يمكن حد غيري كان حيوقف.. يعني همّ دلوقت يشتموني لو عرفوا إني وقفت الممكن؟ حيعملوا إيه فيّ؟ دول لو عرفوا حيفسخوني.. جبت لهم الأذى.. وهوّ انا كنت عارف إنهم راح يشغلونا بالإنتاج! أمال عمال النسيج مفيش حد منهم جه وشتمني! يمكن علشان همّ عارفين بينهم وبين نفسهم إن حتجيلنا زيادة؟!

ما هو انا شفت البعض منهم كان فرحان والبعض الآخر كان غضبان، وحامل
إيه يعني؟ بُكرة الميه تكذب الغطاس.. همّ ما قالولناش كلمة عن الزيادة اللي
حتجيلنا، وعلشان كده الناس زعلانة.. وبزعلوا ليه؟ همّ مش بيشتغلوا
وخلص، حيزعلوا ليه من دلوقت؟ هيّ أمي مش كانت بتقول «إللي تخاف
منه مفيش أحسن منه»؟ هيّ أمهاتهم ما قالتش قدامهم كده؟ خلاص.. إللي
فات مات مش حيان إلا يوم القبض، يوم القبض بس يبقوا يشوفوا».

ولم أشعر بطول الطريق من كثرة التفكير، ودخلت حجرتي منهك القوى من
كثرة ما قمت به من عمل منذ أن قال المهندس «كل واحد يشتغل بالإنتاج»،
ونمت دون أن أشعر.

ومرت الأيام.. والرؤساء تسير بين الممكن وقد ازدادت شراستهم في معاملة
العمال منذ أن مات واحد منهم، وازدادوا شراسة أكثر عندما رأوا العمال
تتجراً في القيام بتوقيف الممكن والمطالبة بزيادة، ومع هذه الوحشية كانت
العمال تعد في الأيام، والأيام تمر بطيئة، في انتظار ما يقبضون بعد ما أعلن
المهندس أن الشغل أصبح بالإنتاج.

كم من الأيام مرت، وكم من الليالي ضاع فيها النوم، وفي يوم القبض اتجهت
العمال نحو العمل، وكل منهم واضح يده على قلبه.. الخوف من المجهول
يزداد.. الخوف بادٍ على الوجه.. أحاديث شتى مختلفة رغم برودة الجو
وتساقط المطر، أحاديث حول ما سيقبض كل منهم: - اشتغلنا على آخر
الجهد، ولما نشوف!

وقال آخرون:

- إللي حيدوه لنا باليمين حياخدوه بالشمال!

وصمتوا لحظة ثم عادوا يقولون:

- ده لو قُرض وادونا.

ورد آخرون:

- ما كناش عايزين منهم حاجة.. يسيبونا همّ في حالنا!

- مش عايزين؟ مش عايزين ازاي؟ إللي يبجي منهم أحسن من عينهم!

- ابقى قابلنا.. دا المهندس ابن حرام! دا ما جابتوش ولادة! ميه من تحت تبن!

دا لما بيخش العنبر يبقى داخل يضحك.. يضحك هنا ويضحك هناك.. يبقى بيتهالك إنه بيضحك للعمال، ولكنه بيضحك للرؤساء، الرؤساء اللي بيتصفوا له زي العساكر وبعنوا له الرؤوس.

واسترسل قائلاً:

- هو انتو ما بتشوفوش السيد أفندي يبقى يعمل إيه.. بيحني راسه ويطاطي لحد الأرض من أول ما ببشوفه.. حبقى ده قلبه علينا؟! وحجيب لنا زيادة زي ما قال؟! دول لو طالوا يعصروا دمنا يعصروه!

وقهقهه عاليًا:

- قال زيادة قال.. إنتو عاملين زي الفرخة اللي بتحلم إنها في سوق الغلة.. ماشيين ومطمئنين أوي.

فرد آخر:

- مطمئنين إيه؟! هُوَ انت يعني شايفنا ماسكين مزبنة؟! ما احنا عارفين كويس هُوَ اللي بيضربنا حبيب لنا زيادة؟! بس ربنا يعميهم عنا.. الحمد لله اللي فاتت على خير.

وقال الولد الغريب:

- شايف يا عم الناس بتقول إيه؟ إنت فاكر انك حتيجي لك زيادة؟ أهى كل الناس بتتكلم أهه.

وقلت في نفسي: «يعني إيه؟ هُوَ الواحد تبعه حيروح على الأرض والواحد اشتغل لما طفح الدم؟». وهزيت رأسي وقلت: - زي بعضه، هيَّ الناس مش بتقول «إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا»، أهو انا عملت كده، واللي عند الله ما يضيعش.

ودخلت العنبر، ووقفت على مكني مترقبًا انتهاء اليوم، كما ترقب غيري من العمال خروج الرؤساء من العنبر إلى الإدارة لإحضار النقود، وقلت في نفسي: «يا ترى الأكياس حتيجي مليونة ولا حتيجي ناقصة؟ لو سمحوا لنا بزيادة زي المهندس ما قال حتيجي الأكياس مكعبة.. مكعبة فلوس».

ونظرت إلى الساعة، وإذا بالثواني واقفة لا تتحرك كما خيل إليَّ، وبدأت في الدوران حول الممكن، وعيناى متجهة نحو الباب، والعمال المجاورون لي يعملون في جهد، وعبد العظيم واقف في مكانه ويداه على الفرامل، وشفته تتحركان، وكلما توقف الممكن أسرع لإدارته، وعاد إلى وقفته يحرك أطراف أصابعه، واحدًا بعد الآخر، وقلت في نفسي: «إنه بيحسب كم من الفلوس حيقبضها، أهلك نفسه.. مسكين.. في الشغل، منذ أن أصبح الأجر بالإنتاج، من ساعتها لم يتحرك من مكانه، اشتغل على آخر جهده.. دلوقت حياخد كام؟»..

وكلما رأيته يعمل ازددت حماسًا إلى العمل، وبين الحين والحين أنظر للساعة والساعة كما هي عقاربها بطيئة.. وقلت في نفسي: «أنا ليه بابص للساعة، وكل ما أبص لها يتهيا لي أنها واقفة؟! أحسن ما أبص لهاش.. أبص للممكن وأتجاهل الساعة، ولما العمال اللي جنب الباب يشوفوا الأفندية جابوا الفلوس حيهلوا».

وأنا غارق في التفكير حول القبض، وحول ما آخذه معي، وحول المقطع الحرير والجزمة الجديدة، إذ بي أجد الرئيس واقفًا بالقرب مني، لم أره عند وقوفه، وتلفت حولي متجاهلاً وجوده، وحاولت أن ألمح خلف الممكن، وإذا بي أجد واقفًا ويده ورقة، يتطلع لي تارة وينظر إلى الورقة تارة أخرى. وسألت نفسي: «هو ليه واقف بيص؟ وعلى إيه بيص؟! بيتفرج على حد أو بيراقب حد؟ ما هو من يوم ما العمال وقفوا الممكن، وهم عمالين يتلطعوا بين كل مكنة وأخرى.. يمكن يبحثوا عن اللي كان السبب! ولا ليه واقف؟».

وإذا به يتحرك نحوي، وفجأة وقف بجواري ينظر في الورقة ويعيد النظر لي من جديد، ووقف بجانبني، وحاولت جاهدًا ألا يتوقف الممكن في وجوده، وأسرعت ألف حول الممكن، ومن خلال اللف استطعت أن ألمح ما في الورقة، فوجدت ٣٨٥، ٣٨٦ وهي نمرة الماكينات اللي أنا واقف عليها، وعندما رأيت ذلك قلت في نفسي: «يا نهار أسود! دي نمرة ماكيناتني! ومعاه النمرة ليه؟! حينقلني؟ وحينقلني ليه؟! ما انا شغلته! وشغلته كويس!».. وانقبض قلبي، وساورني الذعر، وعادت الطمأنينة عندما تركني واقفًا دون أن يتحدث معي، أو دون أن يطلب مني ترك الممكن، ولم تمر لحظة.. لحظة بسيطة جدًّا.. إلا وعاد من جديد، ولم يكن وحده، بل كان معه رئيس آخر من رؤساء العنبر، ووقفوا على بُعد خطوات وأعينهما في الاتجاه نحوي، وعاودني الخوف

من جديد وقلت: «يبقى هوَّ جايب الرئيس ده علشان يقول له حاجة.. حيقول له إيه؟ حيقول له نشيله من على الممكن؟ دا هوَّ اللي شغلني عليه! دا هوَّ اللي عيَّني في النسيح يوم ما قلت له إن أبويا ميت وباساعد إخواني! يبقى حينقلني ليه؟! يمكن معاه أمر.. أمر من اللي قال عليه المحامي إنه ورا الكواليس وهوَّ صعبان عليه تنفيذه؟ يمكن عاوز يقول إني شغال كويس وجايب الرؤساء معاه علشان يوريني لهم؟ وهوَّ يقدر.. يقدر يعصى الأوامر؟ مش معقول! أمال واقفين ليه! يمكن بيتشاوروا؟».. واختلست النظر، وإذا بي أجدهما ينظران إليَّ.. وانتابني الغضب، وساورني الرعب، وخفت عندما رأيتهما يتجهان نحوي.. وأتى لهما رئيس ثالث، وقلت: «إيه الحكاية؟ لازم حصل حاجة! يمكن حد قال لهم إن انا اللي وقفت الممكن، وهمَّ جايين يشوفوني، جايين يتأكدوا؟ الرئيس بتاعي جايهم علشان يقول لهم إنه صغير ومش معقول إن ولد زي ده يوقف الممكن، والرجالة دول اللي زي الفحلة يمشوا وراه ويطاوعوه؟ يمكن بيدافع عني؟ يمكن بيقول لهم إنه ولد غلبان وأبوه ميت وأنا اللي شغلته؟ وهمَّ رايعين يصدقوه؟! مش معقول! مفيش حد بيصدق.. دلوقت راح ييجوا ويقولوا انت مشاغب، وتسببت في تعطيل الممكن، الناس قالوا لنا عليك.. دلوقت يقول إنك مفصول، الشركة فصلتك، مفيش فايده، خلاص، مفصول، مفصول.. وحعمل إيه لو جم وقالوا لي؟ حاتممكن قدامهم وأقول لهم لأ، ما حصلش؟ مش معقول! حاكذب؟ الكذب حرام.. أنا اللي وقفت الممكن والعمال اللي جنبي شافوني، وأنا اللي قلت لهم، ولو قلت لأ واتمسكت العمال دي كلها حتقول لي كداب، ويستنقصوني في نظرهم! وحيقول لي ليه انت كنت بتتلامض؟! يا خبر أسود حاكذب؟! حاعيط! لأ، حاقول لهم أيوه.. أيوه وقفته.. هوَّ بياخد الروح إلا اللي خالقها؟! فصل؟! زي بعضه!».

وعندما قلت ذلك امتعض قلبي.. وشعرت بقشعريرة تملك كل ما بجسدي عندما تصورت الفصل، وخروجي من المصنع حاملاً المنديل، والولد الغريب والولد السيد الصفطي يفضلوا في الشغل.. ولم أستطع السير، وجلست بجوار المكن، ووضعت يدي على خدي، وسرحت لحظة في المصير.. وقلت في نفسي: «حتفصل! وحارّوح البلد وحاشتغل في إيه؟! حاقعد جنب الحيطه وكل واحد يقول لي تعال افحت معنا في الزريبة، شيل معنا سيخ على الحمار، اسرح بالبهائم، ازرع الخص؟! وحارجع البلد وأمشي حافي، ورجليّ تتشقق من الندى ويبقى فيها كل شق وأخوه يساعي الفار يدخل فيه؟! وأمشي بجلاية مقطعة، وصدري يبقى مفتوح؟! يا خرابي.. يا خرابي.. وأمي حتعمل إيه؟ حتلطم.. حتلطم على صدغيها.. حتقول لي: «خبيت نفسك، لا نفعت في الكتاب ولا نفعت في المصنع».. حتقولي: «جات الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح».. وحتقول: «أبوك كان عايزك تبقى زي الناس اللي في مصر، كان عايزك تبقى متعلم، إللي يخالف كلام الوالدين ما يرضاش عليه ربنا، أهو انت خبت وبقيت تقعد جنب الحيط تسمع كلام الناس اللي تسوى واللي ما تسواش»..».

أفكار قاتمة سوداء، وعدت أقول في نفسي: «وكنت انا ليه مستعجل؟ ما خلتنيش في حالي ليه؟ يعني لازم كنت أعمل فلحوص؟ ليه ما خلتنيش زي كل الناس، واللي كان يجرى عليهم يجرى عليّ؟ ما سمعتش كلام عبد العظيم ليه؟ لو كنت سمعت كلامه، ما كانش ده كله حصل! هوّ دلوقت واقف على المكن مرتاح.. ناصح.. عمل حساب نفسه وحساب أمه وإخواته.. وده هوّ اللي خلاه ما وقفش المكن»..».

خواطر سريعة متلاحقة.. وعدت وقلت: «هَوَّ إيه ده؟ هَوَّ اللي بيعمل طيب يرجع ويتندَّم عليه؟! من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها. هَوَّ الولد اللي بلغ عني ده ربنا حسيبيه؟ حينتقم منه! أنا ما عملتش حاجة وحشة، فليه يبلغ عني؟ هَوَّ انا عملت معاه حاجة؟ ليه بيئذيني؟ هَوَّ ما اتلطمش؟ هَوَّ ملوش أم؟ هَوَّ قلبه من حجر؟ بيخبص على الناس ليه؟ دا اللي يخبص كل الناس بتحتقره! أنا عملت كده واللي عمل حاجة يستحمل اللي يجرى له! ما هو كان لازم حد يتقدم! آخرتها إيه؟ كيفصلوني؟! عملت اللي عليَّ.. ومش حتندَّم.. أمال العامل اللي اتقدم وموت الرئيس الظالم؟ مش خَلَّص العمال منه؟ وعمله ده مش حيضيع في الأرض.. حييجي يوم والناس تعرف.. كل الناس راحت وشافته.. شافته في المحكمة.. أهو دلوقت في السجن.. بياكل عيش أسود يقرف الكلاب.. هَوَّ كان عارف إن ده راح يحصل له؟ إللي حصل له حصل له.. وأهي العمال دلوقت مبسوطين منه، من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته.. يمكن لو كنت استتيت أكثر من كده كانت تيجيلي خبطة مكوك تموتني.. أحسن اللي جات على أد كده.. حيقولوا إيه؟ مش حيقولوا اتفصلت علشاننا؟! أحسن ما يقولوا إني كنت خَوَّاف.. لما يقولوا كده أحسن.. هَوَّ الواحد لو كان فضل راضي بالظلم كانت الناس حتقول عليه إيه؟ تقول عليه جبان؟ الواحد يشتغل راجل وينفصل راجل، أحسن ما يقف ويعيط قدام الرئيس.. أحسن ما يقولوا إني اتسببت في قطع عيش واحد.. أو خبصت في حق واحد.. والعامل اللي موت الرئيس سيرته على لسان كل الناس.. كل الناس بتدعي له.. ليه؟ لأنه ضحى علشانهم.. إللي عند العمال ما يضيعش.. أخويا قال لي: «الراجل يعيش ويموت راجل».. وحاعمل زي ما أخويا قال لي».

أفكار وأفكار وخواطر سريعة ومتلاحقة، وأنا غارق في التفكير، وأحاول أن أشجع نفسي وأزيح شبح الخوف، شبح الفصل وقطع العيش.. وإذا بالرؤساء

تتحرك نحوي.. وشعرت بالخوف من جديد.. وإذا بأحد الرؤساء ينظر إلى الأقمشة ويضع يده يتحسسها، والرؤساء الآخرون واقفون بجوار الممكن يهزون رؤوسهم، والعمال تتطلع في قلق، وينظرون خلسة من خلف الماكينات ويقولون: - إيه اللي حصل؟ عمل إيه ده؟ رايعين جايين كده ليه؟ حيعملوا معاه إيه؟

كانوا خايفين وانا واقف وركبي سايبة، والممكن يسرع في الدوران والسيور تهتز وتسرع في اهتزازها كالخائفة.

قلت في نفسي: «ما تقولوا عايزين إيه؟ أول ما تقولوا حاقول لكم على طول.. مش حاخاف.. قولوا وخلصونا».. وإذا برئيس القسم، الرئيس اللي عيَّني يضع يده على كتفي وبهز رأسه مبتسمًا، والممكن يسرع في الدوران، وإذا بالرئيس الآخر يهمس في أذني قائلاً: - اسمك في المكاتب والمهندس جاي حيشوفك.

قالها هو الآخر وزاد الخوف في قلبي، وساروا دون أن يقولوا شيئًا يطمئنني، ساروا ينظرون في الطرقات ويتطلعون في وجوه الواقفين كالباحثين عن شيء.. وإذا بهم يقفون عند أحد العمال.. واتجهت أنظار العمال نحوهم، ثم عادوا يتطلعون لي من جديد.

وقلت في نفسي: «همَّ راحوا يبصوا هناك ليه؟ يبحثوا عن حد تاني؟ يبحثوا عن غيري؟ إللي بلغ عني بلغ عن آخرين؟ دا ابن كلب.. قليل الأصل.. حيجيله إيه بس من قطع أرزاق الناس؟ إيه اللي راح يقبضه؟ إحنا كلنا في العُلب سوا.. حيدوله حاجة؟ إذا إدوله مرة مش حيدوله الثانية! إزاي عامل يخبص على العمال؟ هيَّ دي تبقى رجولية؟ هوَّ فاكر إنه مش راح يتعرف؟ وقطع العيش

زي قطع السيف.. دا لو اتعرف دا الواحد يفخت عينيه! هَوّ قطع العيش سهل؟
يقطع عيشنا وحنسكت له؟ مش معقول!«.

أفكار سريعة تتوارد دون وعي، وإذا بعبد العظيم يأتي مسرعًا، متخفيًا خلف
المكن، خوفًا من أن يراه أحد الرؤساء.. وهمس في أذني: - همّ وقفوا جنبك
ليه؟! قالوا لك حاجة؟!

فلم أجب.

وأعاد السؤال ثانيًا.. وأخيرًا قلت:

- مش عارف.. قالوا لي المهندس جاي واسمك في المكاتب.

- وفي المكاتب ليه؟

- مش عارف!

- حد خبص عليك.. فيه حاجة؟

- مش عارف!

- أنا مش قلت لك ملكش دعوة، ما تتكلمش، إلهي يجرى علينا يجرى على
الكل؟ ما سمعتش الكلام، جالك كلامي؟!

فلم أحتمل الكلام، ولم أستطع الوقوف، فجلست بجوار المكن، وجلس هو
الآخر بجواري واستمر في الكلام: - مالك؟! قعدت ليه؟

- مش قادر!

- قوم، قوم لا تشوفك الرؤساء.. إن جم وسألوك قول لهم ما اعرفش.

- مش معقول! حاكذب؟!

- وإيه يعني؟

- وإيه يعني إيه؟ هوّ اللي عمل شيء مش يستحمله؟ إشمعنى انت لما أهالي المحلة طلّعوا على العمال وضربوهم اتصدت لهم انت ليه؟! مش كنت حتموّت واحد؟ قلنا لك ملكش دعوة.. مش زعقت معانا وقلت لنا حنسكت لحد إمتى؟ نستنى لما يركبونا؟ إشمعنى دلوقت بتقول لي ملكش دعوة؟ لا يا عم ما أقدرش.. أنا حاقول الحق.. أنا اللي وقفت الممكن.. أيوه وقفته.

قلت ذلك في غضب وجسدي ينتفض، وعندما سمع مني هذه الكلمات جز على شفّتيه ولم ينبس بكلمة ولم يحتمل الوقوف وتركني وذهب، وبقيت في مكاني جالسًا بعد أن غيرت المواكيب في الدرج بلحمة أخرى، وإذا بأحد العمال المجاورين لي يقذفني بماسورة لينهني بمرور الرئيس، فهممت واقفًا سانداً نفسي على جوانب الممكن، وإذا بالرئيس يمر دون أن يلتفت لي، وتتبعته بعينين لا تريان شيئًا، وإذا به يخرج من الباب مسرعًا في الاتجاه للخارج، وتبعه رئيس آخر وآخر، وقلت في نفسي: «خلاص.. همّ دلوقت طلّعوا على برّه.. طلّعوا على الإدارة علشان يجيبوا أكياس القبض للعمال».. وعادت الطمأنينة من جديد، ووقفت رافع الرأس ناظرًا للوجه.. وإذا بي أجد كل الناس واقفة على الممكن، وتحرك بعضهم بطيئًا ومنهم من كان يسرع الخطوات، وبدأت موجة من الاجتماعات هنا وهناك منتهزين فرصة خروج الرؤساء كانت الأحاديث كلها تقول: - الزيادة.. وهل معقول حتجيلنا زيادة؟ النهارده حبان.. النهارده ولا كل الأيام.. النهارده الفاصل!

أحاديث وأحاديث.. وعاد الرؤساء من خارج العنبر حاملين الأكياس، وكلمة «هوه» تزداد، ورؤوس ترتفع، وهامات تشب، وعمال تعدو من هنا وعمال تعدو من هناك، كلهم راغب في أن يلمح ما في الكيس، وجاءني الولد الغريب.. حافيًا.. يجري، ومن خلفه السيد الصفطي واضعين أطراف الجلياب في أسنانهما، ووقفًا بجواري يهللان، ووجهاهما محمران.. وقال الولد الغريب والولد السيد الصفطي: - شفناها.. مكعبة ومليانة للآخر.. فلوس تملأ حجر! كما جاء عبد العظيم يجري، والبسمة تعلو الشفاه قائلاً: - ابسط يا عم.. جات العواقب سليمة.. الفلوس زي الرتش.

قالها أكثر من مرة وهو يلتفت ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد: - الفلوس جات.. الفلوس جات!

ولم يتمالك نفسه فوضع أصابعه بين أسنانه وبدأ يصفر ويصفر على أنغام السيور، والعمال تهلل، وكلمة «هوه.. هوه» تزداد.. وجذبني من يدي وهو يردد: - تعال لما نشوف.

وإذا بي أجد الكيس ممتلئًا بالفلوس، والرئيس جالس على المنضدة يعد، فلمحته من بعيد، وعدت إلى مكني، وقد زال الخوف، والعمال يحضن بعضهم بعضًا مرددين: - الفلوس جات.. الفلوس جات.. مالية الكيس.. عملناها ونفعت.. رزق العيال!

كلمات وكلمات.. وجاءني أحد العمال، وقال:

- الليلة تتقابل على الباب.

وجاءني آخر:

- كنت خايف لما الرؤساء جات ووقفوا جنبك.. كنا حاطين إيدنا على قلوبنا..
الحمد لله عما هم ربنا عنك!

وقلت في نفسي: «وعلى إيه؟».

واسترسل في كلامه قائلاً:

- يظهر المسألة نفعت.. بس انا ما اشتغلتش كويس المرة اللي فاتت.. كان
الواحد بيشتغل وقلبه مكسور!

وجاء آخر قائلاً:

- أنا اشتغلت على آخر الجهد ولما اشوف حاقبض كام.

فرد عليه آخر:

- أهو انت اللي طلعت كسبان.

وبينما نحن نتحدث، نادى الرئيس على عمال اليومية.. وبدأوا يصطفون واحداً
بعد الآخر، وانتظموا صفوفًا متراسة، وبدأت الأنظار تتجه إلى هناك، ووقفت
في مكاني غارقًا في التفكير، وقلت لنفسي: «على الله بس المهندس يبجي
وأطمئن.. همّ له بس قالوا لي اسمك في المكاتب؟ واسمي في المكاتب
ليه؟ لا منهم قالوا لي سيب المكن وامشي ولا منهم قالوا لي إنك عامل
كويس! الناس كلها فرحانة، وأهو الولد الغريب والولد السيد الصفطي واقفين
في الصف بيقبضوا.. حيقبضوا ماهيتهم كاملة، مفيش حاجة شغلاهم، واهو انا
واقف دلوقت، واقف تعبان، ولا مني حصلت باليومية، ولا مني حصلت بالإنتاج!
ليه المهندس ما جاش؟ يمكن يكون نسي يبجي؟ وهوّ معقول حيفضى لي

وحيجي علشاني؟ يمكن يكون قال للرئيس قبضه وقول له ما تجيش بكرة،
إنت مفصول علشان عطلت لنا المصنع؟ طيب والرئيس ليه ما ناداش؟».

وأنا غارق في التفكير والعمال فرحانة تهلل، إذا بالمهندس يدخل من الباب،
ومن خلفه حسن السمرة أحد رؤساء النسيج.. دخلا يلبسان البدل، وملغمطين
ريحة.. غطت على كل ما هو كرية في العنبر.. غطت على الشحم وعلى
الزيت وعلى ريحة «الشخاخ» التنتة المجاورة للمكن نتيجة غلق الدورة..
يسيران وتسير معهم الريحة في الطرقات كأنهما يقولان لأنفسهما لما نشمم
العمال، لما نوربهم إننا أحسن منهم.. وقلت: «خلاص.. أهم جم.. جاين
علشاني.. جاين يقولوا لي وقف المكن».. وقلت: «الساعة قد حانت.. ساعة
الفصل تقترب».. ووقفت أنظر لكل ما حولي، وللعمال المجاورين لي،
وتأملت عبد العظيم، وتأملت السيور في اهتزازها، والمكن وهو يسرع في
الدوران، ووضعت يدي على دف المكنة وهي دائرة، وتأملتها وهي تهز ذراعها
هزًا عنيفًا، وقلت في نفسي: «آخر يوم.. آخر ساعة حابقي فيها في المصنع..
حارج للبلد تاني وامشي على مهلي ورا الجاموسة وهي تمشي ببطء بعد ما
كنت باجري هنا! ومين عارف يمكن أشتغل خدام عند مشايخ القرية وأسمع
منهم كل ما يسيء ل نفسي، ويكرهني في الحياة!».

وإذا بأحد العمال يزعق، ولم أنتبه، وظننت في بادئ الأمر أنه يهلل بقرب
انتهاء يوم العمل، وإذا به يزعق وترتفع كلمة «هوه.. هوه».. رنت في أذني..
وتلفت حولي، وإذا بي أجد المهندس واقفًا في آخر الصف وحسن السمرة
بجواره وأيديهما تلوح، ولم أظن أنهما يلوحان لي، وبقيت في مكاني لا
أتحرك، وإذا بأحد المباشرين يأتي مسرعًا يهرول في مشيته نحوي، وارتفعت
نبضات قلبي، وراح الدم، وقلت: «خلاص ساعة الفصل قد حانت»، وشعرت

برعشة عنيفة سيطرت على جسدي، وأسنانني تصطك، وأسرعت خلف المباشر، وأنا أشعر أن ركبتي قد سابت وشعر رأسي قد وقف، وحاولت أن أتذكر كلمات لأمي أو لعبد العظيم أو أي كلمات أخرى سمعتها لأشجع نفسي بها، وأزيل الخوف من قلبي، وكنت أستند بذراعي على جوانب الممكن، وكلما تقدمت خطوة واقتربت منه زاد الخوف، وحاولت أن أخفي عيني فلا تتطلعان لهم، وقد لاحظ المهندس ذلك عندما اقتربت منهم، وبانت على وجهه الدهشة عندما رأيته، ونظر لي طويلًا مسألًا نفسه: «إيه ده؟!». .. وظن في بادئ الأمر أنني لست من عمال النسيج، بل من عمال الغزل الهاريين من عنابرهم.. وهمس في أذن حسن أفندي السمرة، وحسن السمرة همس في أذن المباشر.. كانوا يتهامسون وأعينهم نحوي، وقلت في نفسي: «هه ما تقولوا.. قولوا وخلصوني!».. وجاءت على لساني كلمة كثيرًا ما سمعتها من أمي وهي تقول لأخي: «إذا وقعت في شر قول يا بركة دعاء الوالدين». ووقفت أرددها في سري: «يا بركة دعاء الوالدين.. اعميهم.. اعميهم عني».. كنت أدعي وركبتي تنفضان.. وإذا بالمهندس يشاور لي بأطراف أصابعه.. واتجهت نحوه متباطئًا، وكدت أن أقع، ووقفت على بُعد خطوة منه، والعمال تتطلع من وراء الممكن بعيون حادة النظرات، منتظرين ما قد يحدث، وإذا بالمهندس يقول: - إنت اللي شغال على الممكن؟ إنت صغير أوي؟ مين اللي عيّنك؟

وحاولت أن أشب على أظافري، وقلت له:

- الرئيس هوّ اللي عيّنني.

وابتسم عندما رأيته هكذا، وانحنى نحوي وهو يغمض إحدى عينيه ويغمز بالأخرى للرئيس الواقف بجانبه، ومال على أذني قائلاً: - إنت نسّاج؟

- أيوه.. الرئيس هُوَ اللي عَيَّنِي في النسيج!

وابتسم لكلماتي ثم قال:

- مش معقول ولد زي ده يجيب الإنتاج ده! إنت اللي واقف على الممكن طول
المدة؟

- أيوه.. أيوه والله!

كنت أتكلم والكلمات تخرج سريعًا.. وعاد وسأل المباشر.. والمباشر يجيب:-
أيوه.. أيوه يا افندم.. هُوَ اللي واقف على الممكن.

وعاد وسأل حسن أفندي السمرة، ووقفوا يتشاورون، ولوح لي المهندس بيده
إيذانًا بالانصراف وهو يقول لنفسه: «مش معقول! مش معقول!».

وعدت كالريح إلى الممكن، ولم أصدِّق نفسي خوفًا من أن يعود فيناديني من
جديد.. وعادت الطمأنينة إلى قلبي، بعد أن رأيتَه يبتعد، ووقفت في ثبات دون
رعشة في مفاصلي، وشعرت بالدم وهو يسري في مفاصلي، ووضعت يدي
على خدي، فإذا بي ساخن كالمريض بالحمى، واستطعت أن ألمح عبد العظيم
وعيناه تتجهان نحوي وآخرون يتحركون متباطئين.

وإذا بالممكن يتوقف، وتوقفت المواسير، وهلل العمال، والتفوا حول بعضهم
البعض قائلين لأنفسهم:- اليوم انتهى وحنشوف حنقبض إيه!

واصطفوا خلف بعض، وتقدموا نحو الرئيس الجالس على المائدة والنقود
أمامه مرصوفة، والعيون كلها تتطلع.. وتقدم عبد العظيم، واتجهت الأنظار
نحوه، وارتفعت الهامات لكي تراه، فالكل كان يعرف أنه كان واقفًا على

الممكن لم يتركه.. وأعطى الرئيس الختم، وزحفت العمال بالقرب منه، ومد يده، وإذا بالرئيس يعد للعمال، والعمال تعد من بعده، وكل منهم يقول: - كام؟

وأخر يقول:

- استنوا.. بريزة.. وأدي كمان واحدة.. وبريزة ثالثة.. وأدي كمان رابعة.. هيه.. هيه.. جات الزيادة.. خمس برايز وقرش تعريفه كمان! الزيادة جات يا ولاد! الزيادة جات!

ولم يتمالك عبد العظيم نفسه، ولم يرن الفلوس كالعادة، ودور الجري دون أن يعدها، وقال أحد العمال: - الله يحميه.. أحسن واحد قبض.

فرد آخر:

- دا مموت نفسه من الشغل.. صلوا على النبي.. إنتو رايعين تحسدوه؟
- حنسداه على إيه؟ الواحد لو ما كانش الممكن بتاعه وحش ويبقطع فتل كان جاب أحسن منه!

- ما هيّ الرؤساء ما بتصلحش.. هوّ الممكن حيشتغل لوحده.. عايزينا نشتغل ونطفح الدم وهمّ قاعدين على طياظهم.. كل ما واحد يقول لهم تعالوا صلحوا الممكن، يقولوا بتشتغلوا بالإنتاج.

- ما هو واحد قبض كويس.

واتجهت الأنظار إلى عبد العظيم، وكان جالسًا خلف الممكن يعد البرايز، وعندما رأني هلل في وجهي قائلاً: - شايف.. كنا متخوفين.. خمس برايز أهم وقرش تعريفه.. الواحد يقدر يجيب جزمة.. إنت عملت إيه؟

- ما ندهوليش.

- إنت رايح تقبض أحسن.. المكن بتاعك شغال زي الساعة.. مش قال لك الرئيس انك الأول.. اسمك في المكاتب...

ولم يكمل حديثه.. وإذا بأحد العمال يزعم زعقات عالية متوالية: - قرب.. قرب شوية.. الرئيس بينده لك.. بينده على اسمك.

وعدوت كالريح نحوه.. وقال الرئيس:

- ختمك.

- أهو.

وحملق في الورق، وحملق في وجهي قبل أن يعد النقود، وجذبني من يدي، وتطلعت العمال من هنا ومن هناك لرؤية ما أقبضه.. وقال الرئيس:-
المهندس جالك؟

- أيوه.. أيوه جه، وشافني وما قاليش حاجة.. قال لي بس انت الأول.. قالها ومشني من غير ما يقول حاجة.

فقال الرئيس لنفسه:

- لا هو بالطول ولا بالعرض! أصغر واحد قبض أحسن من أكبر واحد! امسك آدي بريزة...

وبدأ يعد والعمال تعد وراءه، وأخذوا يعدون وأنا واقف مش مصدق.

- خمس برايز ونص.. أحسن قبض في العمال! اتجدعن.. اتجدعن على طول!
ولم أسمع كلماته هذه، وأخذت نقودي في يدي ولم أنتظر، وفعلت مثلما فعل
عبد العظيم.. وجاء العمال يسألونني، ووقفت بينهم كالتائه قابضًا على النقود
في يدي، وإذا بعبد العظيم يقول: - ما تسيبوه.. سيبوه يدور الممكن.

وقال أحد الواقفين وهو يصفق بيده:

- أمك داعية لك.

وقال آخر:

- جاي امبارح.. جاي جديد وشرب الصنعة.. علمناه وقبض أحسن منا.. قبض
قبض اتنين.. العيال كده ما بيحملوش هم.. همَّ بيذكروا في حاجة؟ بيذكروا
بس في الشغل.. مش زينا حاملين الهم على دماغنا! الواحد واقف على
الممكن ومخه مش معاه.. مخه في البلد: أم الواحد يا ترى عاملة إيه.. يا ترى
الأرض طلعت الزرع ولا ما طلعتوش.. حنجيب كيماوي بكام ولا حناكل بكام..
والبرسيم حتاكله الدودة ولا مش حتاكله.. والجاموسة حتعشر ولا مش
حتعشر! ولد زي ده إيه اللي يخليه يفكر.. مش زينا.. شغال زي النحلة طول
النهار على المكنة!

كان يتكلم والكلمات تخرج سريعة، ولم أبال بتلك الكلمات بقدر ما كان
تفكيري في كيفية حمل النقود: حاشيلها ازاي؟ جيبي مخروق! أحطها فين؟
أحطها على الدرج؟ تتسرق! أربطها في كمي مثلما كانت تفعل أمي في قَد
الفلوس في خلقة قديمة.. وفعلت ذلك.. ووقفت على الممكن أدوره، وجلست

أمسح الماكينات ويدي قد لطخت بالزيوت وجاءت الوردية، وسألني العامل: -
كم قبضت؟

ولم يصدق زميلي، وهلل.. وخرجت من العنبر وإذا بعمال الغزل والسحب هم
الآخرون يهللون قائلين: - تحيا عمال النسيج.. همَّ السبب في الزيادة!

قالوها وهم يتطلعون لنا واحنا خارجين من العنبر، فقلت في نفسي: «كنتم
زعلانين ليه؟».

امثال

وعلى الباب وجدت الشيخ علي وبجواره عدد من العمال، ورحنا منزله، وقال:
- بُكرة الصبح نروح البوطة.. نروح نتفسح.

وقال آخر وهو من مكانه:

- يَّا دلوقت.. يَّا نشرب كل واحد قرعتين.

فرد آخر:

- وعلى إيه خلينا للصبح.

وفتح أحد العمال كنت لم أره من قبل الباب ودخل وجلس بجوار الشيخ علي،
ووضع بجواره عصا من المحلب المعرج وعلى رأسه طاقيه من صوف الغنم
الأحمر، كان قصير القامة ذا بشرة بيضاء يغلب عليها الاصفرار، وسأل: - إنتو

جيتوا إمتى؟

- جينا دلوقت.

- قبضت كام يا شيخ علي؟

- ثلاثين قرش.

- ثلاثين قرش.. يعني جالك اتناشر قرش تعريفه.. يعني جالك قرش تعريفه

زيادة.

وعاد وسأل عبد العظيم عما قبضه فلما أجاب قال: - خمس برايز وقرش
تعريفة.. يعني جالك ٣٤ قرش تعريفة.. يعني جالك قرش تعريفة وشوية..
وهي دي تبقى زيادة؟

فرد آخر:

- حاجة أحسن من مفيش.. كل واحد جاله تمن جلاية.. أحسن من عينهم.. هَوَّ
حد كان طایل؟ مرة أجيب جلاية لأمي، ومرة أجيب جلاية لأختي.. مدة في
مدة أكسي إخواني.

وقلت في نفسي: «أهو دلوقت أقدر أجيب للبت رقية منديل».

وقال الشيخ علي:

- ما تيلَّا يا جماعة نتعشى.. نتعشى إيه يا رجالة؟

- هات عيش وفلافل سخنة من بَرَّه وحلاوة طحينية.. الليلة ولا كل الليالي..
نقدر إن الزيادة ما جاتش.

فرد عبد العظيم:

- ما تيلَّا نروح نتعشى في الدكان.

فقال الشيخ علي:

- حناكل فيه إيه؟

فرد آخر:

- ناكل شوية طبخ نعمر مخنا.. الواحد هفتان.. ما بيشفوش التقلية.. الواحد
مخه حيروح.. يلاً يا جماعة.

وأخيرًا وافق الجميع.. ونحن في الطريق كان الجو شديد البرودة، والشوارع
موحلة من أثر المطر الذي تساقط في الصباح، والسماء صافية، خالية من
السحب، والقمر في ليلة الأربعاء، شديد الضوء.. ورغم شدة البرد كانت
الشوارع مزدحمة، الشيء الذي لم يسبق له مثيل منذ شهور وشهور مضت..
كل شيء في الشارع يضحك.. العمال تسير جماعات واضعين أيديهم في
أيدي بعض، الضوء يخرج من الدكاكين، يجذب السائرين في الطريق، لم
يفعل البرد في العمال هذا اليوم مثلما كان بالأمس وما قبله، كان الدم يجري
في العروق من نشوة النصر والزيادة، وكان القليل يضحك ضحكات غير
سعيدة، إنها ضحكات من يريد أن ينسى الهموم، وكان هؤلاء ممن لم
يسعدهم الحظ في أخذ الزيادة، ومع هذا ساروا في الشوارع يشاركون
الباقيين فرحتهم بحكم السكن المشترك، واقتراب قراهم من بعضهم البعض..
وعلى طول الطريق عربات شتى، عربات الكشري، وأطفال من عمال الغزل
بملابسهم المملخة بالزيوت، وشعورهم المليئة بالزغبار ملتفين حولها يأكلون
في نهم، ويقهقهون كلما انتهى أحدهم من طبق، كان التسابق فيما بينهم: من
منهم ينتهي من طبقه أولاً، وكان لهذا التسابق ضجيج. وعلى عربات
الهريسة، التف آخرون يأكلون وهم يتطلعون في وجوه بعضهم البعض
متذكرين الأمس واليوم، ولم يكن باديًا على الوجوه أي بوادر للنعاس مثلما
كان يحدث عادة كلما خرجوا من العنبر، وآخرون يتطلعون إلى المحلات
شديدة الأضواء وبلوحون بأيديهم مشيرين إلى ما تقع أعينهم عليه ويتمتمون
بكلمات ليست مسموعة، وعلى محلات الأقمشة ازدحمت العمال كل منهم
يقول للآخر: - تعال نقي لي جلاية سودة من صوف العسكري لأمي.

وآخرين يقولون:

- تعالوا نشترى حته باطسته لإخواتي.

وأصوات أخرى تنادي لبعضها البعض: «يا علي.. يا سيد.. يا أحمد.. يا إبراهيم».

أصوات وأصوات، وابتسامات هنا وهناك.. وعمليات الشراء في كل مكان،
وأمام أحد المحلات المجاورة للبوسته في الميدان الفسيح المليء بالأضواء
وقف عبد العظيم: - إيه رأيكم؟ ندخل المحل ده؟

وقال الشيخ علي:

- حناكل إيه؟

- إحنا نخش واللي نلاقه ناكله.

وتقدم عبد العظيم في الدخول، واستقبلنا على الباب رجل بجلياب مخطط ذو
شارب ضخمة، أبيض البشرة، له عينان خضراوان، يميل إلى السمنة، وعلى
رأسه طربوش أحمر غامق، وقبل أن نقول شيئاً، وضع أمام كل منا طبقاً
صغيراً جداً به ماء قوطة وقطع صغيرة منها، وجلس كل منا على كرسي من
الخيزران، واصطففنا بجوار بعضنا البعض على ترابيزة من الخشب المدهون
بالبوهية الحمراء، وكانت هذه أول مرة أجلس فيها على كرسي من هذا النوع
في محل كهذا. وجلست أهر قدمي، وبجواني الولد الغريب يهز قدميه هو
الآخر، وزعق الرجل منادياً على الأصناف: - عندنا كرب! وعندنا حبشية! وعندنا
كهрман! وعندنا مبرومة!

وبهرتنا تلك الأسماء، ولم يكن أحد منا يعرف أصنافها. ونظر الولد الغريب
وقال: - أنا عاوز كهрман.

وقلت:

- أنا عاوز واحد حبشية.

وقال عبد العظيم:

- أنا عاوز واحد مبرومة.

وقال آخرون:

- هات لنا كرب.

وجلسنا في الانتظار مطمئنين إلى أننا سنأكل غير ما كنا نأكله من زمن، وإذا
بالأطباق توضع أمامنا، وإذا بالكهرمان: عدس، والحبشية: ملوخية، والمبرومة:
بامية، والكرب: كرشة.. ونظر كل منا للآخر، وصمتنا لحظة. وقال الولد
الغريب: - هُوَّ إيه ده؟! الكهرمان: عدس! والمبرومة تطلع بامية؟!

وصمتنا لحظة أخرى وقال عبد العظيم:

- يمكن يكون غلطان.. دي لازم مش بتاعتنا.. انده له يا علي.

- ما تنده له انت.

وأخيرًا ناديناها:

- تعال يا عم.. إيه ده؟ فين اللي احنا طلبناه؟ الحاجات دي ما طلبناهاش، إحنا طلبنا كهربان وحبشية.

فنظر إلينا نظرة كلها تساؤل:

- هيّ دي الحاجات اللي اتتو طلبتوها.. هوّ انتو عمركم ما دخلتوا دكاكين ولاء إيه؟

وزعق عبد العظيم في وجهه:

- خد يا عم حاجتك دي.. خدها تاني!

وجاء الرجل ذو الطربوش الأحمر وسأل:

- إيه يا رجالة؟ بتزعقوا كده ليه؟!

- إحنا ما طلبناش الحاجات دي.. هيّ الحبشية تطلع عندكم ملوخية؟ الحاجات دي إحنا قرفانين منها.. حاجات بناكلها في البلد وبننقيها من الغيط.. حناكلها عندكم بفلوس!

وابتسم الرجل، وقد لاحظ أننا غرباء ولم يسبق لنا الجلوس في مثل تلك المحلات، ولا نعرف هذه الأسماء، فأعاد لنا الحديث بأسماء أخرى واضحة وقال:- طيب تاكلوا إيه؟ تحبوا طواجن يخني تبقى لحمة في الفرن وبالوصل، الواحد بتلاتة تعريفة.. وعندنا دمعة.

ورددنا جميعًا في نفس واحد:

- هات! هات لنا دمعة.. حاجات عارفينها، وهات عيش خاص!

وعندما خرجنا قال الولد الغريب:

- ادفع لي من معاك.

وخرجنا واحدًا وراء الآخر، والجالسون في المحل يتطلعون لنا وبهملقون في الوجوه، وقال أحدهم وهو يتطلع إلينا بنظراته الحادة: - الفلاح لما يتمدّن يجب لأهله داهية! داخلين مش عارفين إيه اللي حياكلوه!

وخرجنا دون أن نلتفت له، والتفنا حول عربة الهريسة، وبعد أن انتهينا من الأكل قال عبد العظيم: - الواحد بطنه اتملت.. شايفين العرق! الدم جري في عروقي.. يا سلام! الأكل الحلو حلو.

فرد آخر قائلاً:

- كل مدة ناكل الأكلة دي.. علشان الواحد يقدر يشتغل.

وقال آخر:

- شايفين! أكلنا أكلة واحدة.. العرق غرق هدومنا.. أمال المهندس ده والرؤساء دول بيعملوا إيه؟! بياكلوا أكل زي ده على طول!

- ما هو الواحد منهم ما يهموش البرد.. وشهم أحمر.

وقال الولد الغريب:

- يلاً بينا نرّوح.. الواحد واقف ووسطه حينحش!

وقاطعه الشيخ علي قائلاً:

- بُكرة ما تنسوش نروح البوطة.. نشرب كل واحد قرعتين نبعدهم عن
نفسنا شوية.

وبدا كل منا يسلم على الآخر. ونحن في الطريق للمنزل، كنت أسير وبقواري
الولد الغريب، والولد السيد الصفطي، وكنت أسبقهما في المسير دون أن
أشعر.. كانت قدماي تدفعان بي بعيدًا عنهما وهما يسرعان خلفي.. كانت
فرحتي بما في يدي من نقود أكثر هي التي ترفعني من الأرض رفعًا، كنت في
شوق لأن أقول لصاحبة المنزل عن الزيادة، وأطلب منها أن تشتري لي
مقطعًا من الحرير الذي طالما تشوقت لشرائه. وقلت في نفسي: «أمي مش
حتزل لما تعرف إنني حاشتري القطعة من الزيادة وأديها الباقي.. هي
عايزاني ألبس كوبس».. وهزني الولد الغريب قائلاً: - إنت فرحان طالع
تجري.. قبضت أحسن مننا يا عم.. موت الولد ده جالك بالطيطاب.. أمك
داعية لك.. جينا قبلك وانت سبقتنا.. مش لكل من جري.. رزقك تحت رجلك
زي القطط.

وكنا قد دخلنا المنزل.. كانت اللبنة محطوطة على السلم كالعادة، مضيئة
الطريق لنا، ولم تكن الغرفة مظلمة بل كانت مضائة على غير العادة.. وفتح
الولد الغريب الغرفة، ولم تمر لحظة بسيطة جدًّا، حتى دخلت إحدى ساكنات
المنزل، ومن خلفها عدد من الأطفال قائلة: - كنتم فين لحد دلوقت؟!

ورد الولد الغريب:

- كنا في الشركة.. النهارده القبض.

ودخلت امرأة أخرى وتبعتها أخرى وأخرى، وكلهن يسألن عنا.. وفرشنا
حصيرتنا، فأسرع الأطفال بالجلوس، وقالت إحداهن: - إنتم اتعشيتوا؟!

فبادر الولد السيد الصفطي:

- أيوه اتعشنا في الدكان.. كلنا دمة باللحمة.

وإذا بصوت يزعق في الحوش ينادي:

- يا بت يا امثال.

وكنت عرفت أن هذا الاسم هو اسم البنت اللي تعودت أن توقظني.. ثم

دخلت صاحبة البيت وهي تقول: - صلاة النبي...

موجهة كلامها للنسوة الجالسات وبجوارهن الأطفال: - إتم قاعدين كده ليه

مترصين؟!

ثم وجهت الكلام لنا:

- إنتو اتأخرتم كده ليه؟!

ولم تكمل كلامها حتى كانت امثال واقفة بجانبها تتطلع لكل من يجلسون في

الحجرة، فقالت لها أمها: - خدي يا بت هاتي لأبوك بالقرشين دول سمك

مقلي لآحسن يبجي يفضنا.

واسترسلت قائلة:

- العيال مقصوفين الرقبة ما خلوش حاجة.. أكلوا الطبخ كله.

وسكتت امثال لحظة، ولم تجب، ثم أجابت بصوت يشبه الصمت: - حاروح

لوحدي؟

قالت وعيناها إليّ، وكأنها تقول «قوم وتعال ويايا.. تعال ونسني».. فقالت أمها: - هُوَ انتِ حتخافي؟ الدنيا كلها صاحية! الشركاوية قبضوا والشوارع مليانة بيهم.. امشي هاتي الملاية وانا أروح.

وعادت امتثال وحملت في وجهي من جديد، وقد فهمت من ملامح وجهها ما تريد، وأسرعت أقول: - خليكى وانا أروح وبها.

قالت الأم:

- خليك.. خليك يا ابني انت تعبان.

لكني اندفعت من بين من كنت جالسًا بجانبهم، واتجهت نحوها، فرفعت يدها البيضاء وملست بأصابعها على خديها الأحمرين ماسحة آثار عرق تصب على وجهها فجأة.. وسرت بجانبها، وقبل أن نخرج نادتها أمها قائلة: - ما تغيبيش يا امتثال برّه لاحسن أبوك توه جاي.

وعلى عتبة الباب وقفت امتثال تعدل من ملاءتها وهي تنظر للطريق، وعادت وفكت الملاية لتلف نفسها من جديد، واستطعت أن ألمح قميصها الأحمر الغامق وذراعيها العاريتين ونهديها البارزين، وشعرت برعشة تتنابني، وبشيء ما في جسدي يتحرك.. وعادت ونظرت للطريق مرة أخرى وهمست قائلة وهي تلف نفسها: - يا خرابي! الشوارع كلها وحل.. حامشي ازاي؟ حاقلع الشبشب ورجليّ تتبل؟ أنا لسه غسلاها.. السمك واللي حياكلوه!

وفي إحدى الحوارى الموحلة وقفت حائرة من البركة المليئة بالماء وسط الشارع المظلم فاجتذبتني من يدي قائلة: - تعال أستند عليك.. لما أقلع الشبشب.

ومالت عليّ بكتفها في هذا المكان المظلم، وانحنت على الأرض لرفع
الشبشب فكادت أن تقع، وفجأة ودون وعي مني، وجدت نفسي أطوقها
بذراعي من وسطها، فهمست في ضعف: - يا خرابي! يا خرابي! إوعى! إوعى
حد يشوفنا!

وارتعشت واحمرت وجنتاها وهي تردد:

- السمك واللي حياكله!

وخجلت من نفسي، ووقفت بجوارها وأسناني تصطك، وجسدي ينتفض، قائلاً:
- كنتي حتقعي وتتمرغي في الوحل.. أنا حوشتك!

كانت الكلمات تخرج سريعاً وهي تقول:

- ما تزعقش.. ما شافوهمش بيسرقوا شافوهم بيتحاسبوا؟

وحملت في وجهي بعد أن رفعت الشبشب من الأرض وأمسكته بيدها
اليمنى، وقالت بعد أن تطلعت حولها واطمأنت إلى أن أحداً لم يرها،
وابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها البيضاء المنتظمة: - هات إيدك
لما تتساند على بعض.. لما نسيب الحتة المطينة دي.

وقبضت على يدها قبضة قوية، وشعرت برعشة بين أصابعها، وسرت بجانبها
محاولاً إخفاء عيني عن وجهها، وسرنا في الطريق خطوة بخطوة، تميل عليّ
تارة وأميل عليها أخرى، كلما شعر أحد منا أن قدميه ستنزلقان.. وأمام محل
السمك، وقفت تصلح ملاءتها وقدمهاها البيضاءوان تلتختا بالطين، ولم تنظر
لصاحب الدكان وهو يضع السمك في القرطاس، بقدر ما كانت عيناها لي..

وصاحب الدكان يحملق في وجهها وفي عينيها الزرقاوين وبهز رأسه قائلاً: -
الكلو يتحب لاجل النبي.

وشعرت بأنه يناغيها، فرفعت رأسها إلى أعلى كأنما تنظر للسماء، وقالت في
دلال وهي تحاول أن تخفي ابتسامتها بيدها: - ما تجيب يا عم.. واتوصى.

فعاد قائلاً:

- غالي والطلب رخيص.. سمكة من العين دي وسمكة من العين دي.

وعادت وأخفت وجهها عنه، ومدت يدها النحيفة وأخذت القرطاس، وأطل
برأسه وهي تسير متباطئة قائلاً: - يصعب عليّ مشية الجميل حافي.

واحمرت وجنتاها خجلاً، وهمست في صمت:

- يا سم!

وسارت مهرولة، محاولة إخفاء نفسها عنه.. وفي الطريق حاولت الابتعاد
عنها، ولكنها عادت وأبطأت واقتربت مني قائلة: - إنت ليه اتأخرت؟! أنا كل
يوم باشوفك وانت جاي.. باشوفك من الشباك.

قالتها وهي تطوح برأسها إلى الخلف لترفع خصلات شعرها المتدلي على
الجفون، وانقبض قلبي، وحملقت في وجهها رغم الظلام الذي خيم على
الحارة، وقلت: - أنا بتأخر في الشغل.

- بتشتغل في إيه؟

- في النسيج اللي انت بتشوفيه في الدكاكين.

قلتها باعتزاز، واسترسلت قائلاً:

- وقبضنا النهارده زيادة.. شغلونا بالإنتاج.. قبضت خمس برايز وخمسة صاغ.
وعندما اقتربنا من الحارة المظلمة الموحلة، وقفت ساهمة وقالت: - حصّلنا
الحته المنيلة!

وعادت والتصقت بي قائلة:

- امسك القرطاس ده بإيدك أحسن أقع في الوحلة.

واسترسلت قائلة:

- وانت حتروّح؟

- لا.

- أمال مين اللي حيجيب لك الزوادة؟

- الولد الغريب والولد السيد الصفطي.. وحاديهم الفلوس لأمي.. وحاشترني
بالباقى قطعة من الحرير وأفصلها أفرنجي.

فقالته وهي تضع يدها في يدي:

- قول لأمي تشتريه لك.

ضغطت على يدي، وشعرت بحرارة تخرج منها وتسري في جسدي، وإذا بها
تقف فجأة عند البقعة الممتلئة بالوحل وقالت: - إوعى تبقى تسييني لاحسن
أقع.

وبدأنا نخطو خطوة بخطوة، ونرفع قدمًا وراء قدم وكل منا ملتصق بالآخر،
وصاحت قائلة: - إوعى السمك يقع من إيدك.

وجدبتني فجأة من جلبابي وهي تقول:

- يا امه.. يا امه.. كنت حاقع.

وشعرت بدفء لم أشعر به من قبل، وعندما التصق كتفي بنهديها كدت أن
أفعل مثلما فعلت في المرة الأولى، وأطوقها بذراعي، ولكن خجلي وخوفي
منعاني من مد يدي، واستمرت ملتصقة بكتفي، وهي تردد: - يا خرابي! يا
خرابي حاقع!

إلى أن اجتزنا الوحل بسلام.. وعندما اقتربنا من المنزل قالت: - ما تبقاش
تتأخر كده في الشغل.. أول ما تطلع تبقى تيجي على طول.

وتلغفت حولها وعادت ونظرت لي وقالت في همس:

- اد إيه أنا باحبك! وباخاف عليك.. زي ما باخاف على إخواني.

فقلت:

- حَبَّتْكَ العافية.

وشرد ذهني عندما سمعت كلمة «باحبك».. وقبل أن تدخل المنزل وقفت
على العتبة لتصلح ملاءتها من جديد، وتركت الملاءة على الأرض وظهر كل ما
تحتها.. ظهرت كالعروسة الحلاوة التي يخشى صاحبها من أن تمس، وقالت: -
ما تنساش تقول لأمي تشتري لك مقطع القماش.

وعلى بسطة السلم، وعلى ضوء لمبة الجاز الخافت وقفت وجذبتني من
جلبابي نحوها، وحملت في وجهي، وإذا بيدها تمتد إلى خدي، وقرصتني منه
قرصة، وكادت أن تميل عليه بفمها لولا سماع صوت رجل آتٍ بالقرب من
الباب، وقد انزلت قدماه وارتمى على الأرض، فخافت وتركتني على
البسطة وهي تسرع إلى أعلى مرددة: - ما تنساش تقول لأمي تشتري لك
المقطع.

ودخلت الحجره وقدماي مبللة بالطين، وعندما رأني الولد الغريب والولد
السيد الصفطي، صاحوا في وجهي قائلين: - ابعدا! ابعدا عن الحصيرة! إنت
حتطينها لنا؟ روح اغسل رجلك!

ودخلت بعد أن غسلتها بماء بارد كالرصاص، وجلست بينهما مغطياً قدمي،
وإذا بامرأة تدخل من جديد وتجلس بيننا.. وخرج الولد الغريب، واشترى فول
سوداني وعزمننا به عليها.

وقال الولد الغريب:

- إحنا حنرّوح بُكرة؟

قلت:

- لا.. مش انت قلت مش حنرّوح، والولد السيد هوّ اللي حيجيب لنا الزوادة؟

- آه صحيح أنا قلت.. أنا كنت ناسي.. رّوح انت يا سيد هات لنا الزوادة.

فرد الولد السيد قائلاً:

- طيب ومين حيشترى لي المقطع؟

- إحنا.. إحنا حنشتره لك.. نشترى ثلاث مقاطع زي بعض.

- وحاقول لأمك إيه؟ أمك حنزعل!

- حنزعل ليه؟! ما انا حادّيه الفلوس.. حاقدرّ إن ما جاتش الزيادة.. هيّ عايزاني ألبس كويس، فمش حنزعل.

وامتعص وجه الولد الغريب وشحب لونه، وقال:

- إنت حتدّي أمك الفلوس، وحتجيب مقطع، وأمنا رايحة تنزعل!

ودخلت صاحبة المنزل فجأة وقالت:

- يا ولاد.. إنتو عاوزين تشتروا مقاطع؟

قلنا في نفس واحد:

- أيوه عاوزين.

- مش حتدوا لأمكم حاجة؟

- لا.

وعادت للسؤال من جديد، موجهة كلامها لي:

- إنت مش جاتلك زيادة؟

- أيوه.. وحادّي لأمي منها.

فابتسمت قائلة:

- وانتو يا ولاد ما جاتش لكم زيادة؟

فقال الولد السيد الصفطي:

- لسه ما وقفناش على مكن!

ورد الولد الغريب:

- بُكرة نقف.. فكري أصله وقف على مكن صاحبه موته المكوك.. واحنا بُكرة نقف على مكن من اللي بيركبه.. بيركبوا مكن كتير في العنابر.

وعندما سمعت كلماته هذه، أحنيت رأسي إلى الأرض، ومرت أمام عيني صور عديدة مؤلمة، صورة العامل الذي وقفت مكانه، تصورته وهو واقف على المكن قبل أن يموت، تصورته وهو واقف يقنع العامل ويلوح بيديه ألا يديره، وتصورت وجهه الأسمر الشاحب وعينيه الواسعتين ورموشهما المدببة، وتصورته وهو مقوس ظهره بين «الدرق» يأخذ الفتل قبل أن يموت بدقائق، ثم وهو واقف منصوب القامة يشمر بأذرعه استعدادًا لإدارة المكن بعد أن اطمأن، وجاءه المكوك فجأة، وارتمى على الأرض ممدد الساقين ولم ينبس بكلمة، وقلت في نفسي: «كانت الزيادة له لو عاش، ولم تكن لي، ومين عارف يمكن تيجيلي خبطة ويقف غيري.. داخلها مفقود وخارجها مولود».

وهزني الولد الغريب قبل أن أكمل الصورة:

- مالك؟ إنت زعلان ليه؟!

- مفيش حاجة.. بُكرة تقفوا على المكن وتيجي لكم الزيادة زينا.

وخرجت صاحبة المنزل بعد ما أعطيناها ما تبقى علينا من إيجار، وسرحت
بخيالي طويلاً بعد أن أخذ كل منا مكانه للنوم، سرحت حول كلمة «باحبك».

مقطع السكروتة

صحت مبكرًا على صوت الولد السيد الصفطي: - قوموا وصلوني للمحطة.

كان الجو صحوًا، والسماء خالية من الغيوم، وشمس الصباح تلقي أشعتها البنفسجية على أسطح المنازل العالية، والحواري والعطف مليئة بالمياه كالأنهار من أثر مطر أمس، ومياه الغسيل والاستحمام التي قذفت من على أسطح المنازل، وأطفال صغار يغوصون في تلك المياه وهم يهليون كلما وقع أحدهم وابتلت ملابسه بالطين.. كانوا يتسابقون في اللعب وهم يغوصون في المياه، وأمهاتهم تناديهن بأصوات عالية والأطفال لا يستجيبون للنداء، وكلما وقع طفل هل الباقون، وأطفال واقفة بجوار جدران المنازل وأطراف أصابعهم تنتفض من البرد، وهم مع هذا لا يباليون، وأمهاتهم تصيح من الشبايك وأخريات تصيح من على عتبات الأبواب والأطفال لا يباليون بالنداء.

وابتسم الولد السيد الصفطي وهو يحمل قفته قائلاً: - كنا في البلد زبهم كنا نلق ملط ونتلقى المطر، والدنيا بترخ، ونلعب لعبة «البك».

وعلى المحطة قلت للولد السيد الصفطي: - قول لأمي ابنك حيجيب له مقطع وباعت لك الريال ده.

وقال الولد الغريب:

- قول لأمي ابنك حيكسي نفسه مش باعتلك حاجة.

وقال هو الآخر:

- أنا كمان حاقول لأمي أنا سبت الفلوس هناك.

قالها وركب، ونظر من الشباك ولوح لنا بيده والقطار يسير، وفي المنزل كانت صاحبه في انتظارنا، وعندما رأتنا قالت: - تعالوا اما نشترى لكم كستور.

- كستور إيه؟

- علشان تدفوا.. الدنيا برد.

- إحنا عايزين مقاطع من الحرير السكروتة.. من اللي بيهفهف من الهوا.

فابتسمت صاحبة المنزل ابتسامة عريضة من كلامنا وقالت: - هوّ الحرير بيتلبس إلا في الصيف؟!

- إحنا عايزين حرير وبس.. برد مش برد.. إحنا عايزين حرير.

فهزت رأسها وهي تغمض إحدى عينيها، قائلة لنفسها: «دول عيال.. أقل شيء يفرحهم.. والعيال ما تعرفش البرد».

وفي حوش المنزل وقفت تعدل من ملاءتها، ووقفنا بجوارها نحملق في وجوه بعضنا، وأمسك الولد الغريب يدي، وإذا بنواة بلح تنزل فوق رأسي، وصحت دون إرادة مني، ووضعت يدي مكان الخبطة ونظرت عاليًا، فوجدت امثال تطل من فتحة الشباك، بقميصها الأحمر الغامق، تخفي ابتسامتها بيدها، وعندما رأنتي انتصبت واقفة، وحملت بعينيها الواسعتين، وضربت بيدها على صدرها علامة الاعتذار، وأومات برأسها وعادت إلى الخلف خطوة، ووقفت تصلح من شعرها المتهدل والبسمة تلو شفيتها، ووجهها الأبيض يتشرب بالاحمرار، وسارت الأم بعد أن أصلحت ملاءتها، وسرت بجوارها، وكلما تطلعت خلفي وجدت امثال واقفة في الشباك تتبعنا بنظراتها في الطريق،

وقالت الأم ونحن نسير بجوارها: - نجيب لكم هدم كستور يا ولاد؟ كستور
يدفيكم!

قلنا:

- لا.. عايزين حرير سكروته.

فعدت تقول وهي ترفع قدميها المغروزين في الطين: - إيه عاجبكم في
الحرير؟

قال الولد الغريب:

- علشان نرّوح بيه البلد.

فأومأت برأسها وهي تقول:

- شبان وعايزين يفرحوا بشبابهم.

وكانت الشوارع مزدحمة، ناس تدخل المحلات وناس تخرج حاملين في أيديهم الأقمشة، وعلى طول شارع السكة الجديدة عربات يد محملة كرنب، ونسوة واقفات يشتريين، ونسوة على الصفين، من القرى المجاورة للمدينة، وأمامهن السمن والبيض والجبن والباذنجان والبطاطا، وأطفالهن الصغار بجوارهن يلعبون. وفي سوق «الجرابية»، فلاحات يضعن أمامهن صفوف العيش المخبوز في الريف، وبجوارهن أطفالهن يتطلعون في ذهول لكل من يسرون في الطريق، وفي حلقة السمك نسوة كثيرات يحملن أغطية الحلل ويتزاحمن في الشراء، ورجال يحملون الفسيخ والبصل الأخضر، ويتجهون إلى البوطة.. وعلى المقهى ناس تجلس على الصفين، وبعضهم في يده الجوزة،

والبعض فناجين القهوة.. ووسط هذا الزحام، كانت تسير ونحن من خلفها،
وإذا بصوت امرأة يرتفع من الخلف: - خير إيه؟ زاحمين الدنيا! جاتكوا شوطة!
الشركة من يوم ما جات لا احنا عارفين ناكل ولا احنا عارفين نشترى!

والتفتت الأم للخلف وقالت:

- ما لهم الشركاوية؟ من يوم ما جم عمروا البلد ومشوا حالها، كل حاجة
ماشية.. الواحدة كانت بتمشي طول النهار ما تلاقيش حد.. البيوت عمرت
بالناس، كانت حتسكنها العفاريت!

وردت أخرى:

- همّ عملوا فيكم إيه الشركاوية؟ ما هم ناس زينا! هي كل حاجة على
دماغهم؟! ما احنا بنشترى.

- بنشترى إيه؟ إلهي كنا بنشتره بقرش بنشتره باتنين.

كلمات وكلمات، وآخرون يسيرون في صمت دون أن يكون في أيديهم شيء،
وإذا بصوت يصيح مناديًا، كان هو عبد العظيم يقف وجواره عدد من العمال
وفي يد كل منهم عصا معوجة، يحملها على ذراعه، وأيقنت أن في الأمر شيئًا،
فأسرعت نحوه متلهفًا: - إيه؟ حصل إيه؟ شايلين العصي؟ ما روحتش؟

- لا.. بعت الفلوس.

- إنت رايح فين؟ أنا كنت حاجي لك.

- أنا استنيتك لحد دلوقت، ولما استغيبتك جينا هنا علشان ناخذ فسيخ ونروح
تتغدى في البوظة.

- فيني حنة؟

- على الشون في بوظة العرسة.

- طيب، أنا حاجي لك بعد شوبة.. حاشترى مقطع من الحرير وجاي لك على طول.

قلت ذلك وعدت مسرعًا، وقالت الأم:

- قال لك إيه الراجل ده؟

- دا زميلي في العمل.

- همّ رايحين فين؟

وأخفيت عنها الحقيقة، وعادت تقول:

- تعالوا أما أوريكم الأنوال الكوبسة.. بتطلع حرير كويس في قاعة «المعلم عبده».. نقدر نجيب منه حرير أرخص من الدكاكين.

وفي القاعة كان كثير من العمال يجلسون إلى أنوالهم، ونسوة يجلسن في الحوش، يلفون المواسير على الدواليب وقالت الأم: - فين يا جدع انت وهو المعلم؟

وطل العمال الجالسون على الأنوال برؤوسهم، وقال أحدهم وهو يحملق في وجهها: - المعلم جوّه في المخزن.

وترك نوله وتقدمنا قائلًا:

- اتفضلوا في المخزن.

كان المعلم جالسًا، وعلى الأرفف مئات من المقاطع من كافة الأنواع، وتشتت فكري في المقطع الذي سأشتريه.. كلها أصناف حلوة، وقلت في نفسي: «ما اشترى سكروته من اللي بيهفهف من اللي شفته على أهالي المحلة.. لابسينه ويمشوا يتقمعوا».

كان المعلم جالسًا، يسجل المقاطع في الورق، وبعد أن انتهى من التسجيل وقف قائلاً: - أهلاً وسهلاً.. حصلت البركة.

كان شابًا في الخامسة والعشرين من عمره، أبيض البشرة، ذا عينين سوداوين، طويل القامة، يرتدي جلبابًا من الصوف، وعلى رأسه طربوش أحمر غامق.. وبعد أن حيا الأم نظر لنا بوجه باسم وقال: - أي خدمة؟

قالت الأم:

- أنا جاية لك مخصوص.. وسبينا قاعات كثير.

فرد قائلاً:

- حصلت لنا البركة.

- الأولاد دول ساكنين عندي.. أمهاتهم مش هنا، طلع لهم أحسن حاجة عندك.. عيال عايزة تفرح.

فأسرعت قائلاً وأنا زايع العينين بين الأرفف المحملة بالأقمشة: - نقي لي مقطع حرير سكروته.. مقطع سميني.

وأخذت ما وقعت عليه عيناى على أحد الأرفف، واختار الولد الغريب مثلها، وهللت فرحًا عندما دفعت ثمنه البالغ عشرين قرشًا. وقال المعلم: - المحل ده بتاعكم.. كل شيء تيجوا هنا تاخدوه.

وقلت للأم ونحن فى الطريق:

- عايزين نفصلهم أفرنجي.

فرد الولد الغريب:

- أنا عايز أفصله بلدي.. زي اللي أهل بلدنا بيلبسوه.. أخويا بيلبس كده.

فعدت أقول:

- لا.. أنا عاوز أفصله أفرنجي زي الناس اللي فى المحلة الكبيرة.

وقلت للأم:

- روجي انتِ واحنا حنحصلك.

وهمست فى أذن الولد الغريب:

- تعال عبد العظيم فى البوظة.. تعال نحصله.

واجتزنا الطريق وسط الزحام، وضجيج الباعة.

في البوطة

وأمام البوطة، وقفت أنظر في الوجوه، وكان الازدحام شديدًا، ولم يكن في البوطة مقعد واحد من الخيزران، كلها كراسي خشبية مصنوعة من القش، ودكك كثيرة متزاحمة، وأمام كل دكة منضدتان عليها مواجير مغطاة بأغطية من الخشب، وعلى الدكك المتقابلة رجال سمر الوجوه ذوو ملابس زرقاء وشوارب مفتولة، وآخرون قد ملأ الشيب رؤوسهم، يتهامسون في هدوء، وعمائمهم بجوارهم، وظهر من ملامحهم أنهم من البنائين الذين يعملون في الشركة. وفي الداخل كان الشبان يجلسون جماعات، والعصي بجوارهم. ووقفت أبحث وسط الزحام وأتطلع في الوجوه المنهمكة في تبادل الكؤوس، غير عابئين بمن يسرون في الطريق، ولمحت عبد العظيم فوقفت أصيح مناديًا له، ولكنه لم يرد، فقد كان منهمكًا في الكلام مع من يجلسون بجواره، ودخلت أشق طريقي وسط الزحام والأرجل الممتدة بين الدكك، ووقفت بجواره وأمسكته من جلبابه، فهم واقفًا وأفسح لي وللولد الغريب مكانًا بينهم، وهز رأسه مشاورًا للجالس في الوسط وهو عامل لا أعرفه يميل إلى السمنة، قصير القامة، أسمر الوجه، ضيق العينين، ذو شارب كثيف، وعلى رأسه لبدة بيضاء، يرتدي جلبابًا من الجبردين بخطوط حمراء، لم يتفوه بكلمة بل ملأ كأسًا وأعطاه لي وهو يبتسم قائلاً: - كأس للسلطان!

فامتعضت إذ نظرت إلى ما بداخله وترددت لحظة، فابتسم الجالسون، وحاولت أن أشجع نفسي، فكنت كلما قربته إلى فمي نحيته جانبًا في ضيق، وصاح عبد العظيم: - غمض عينيك واشرب، إنت حتخاف؟

فقلت في همس:

- دا أسود وربحته تطرّش.

- عيب ما تقولش كده، أمال راجل إيه؟!

وعندما سمعت «راجل إيه» أغمضت عيني وتجرعته وكدت أن أتقياً لولا خوفي من الجالسين، وأسرع عبد العظيم فأعطاني ملعقة من السلطة المليئة بالشطة، وقلت للجالسين: - دي بتلسع!

قلتها وأنا ألحس شفّتي بلساني. فرد أحدهم:

- دي بوظة بايتة، اطلبوا له بوظة من الصابحة.

وقال آخر:

- هاتوا له من فوق الوش.. هوّ ده يستحمل؟ هاتوا له من الرغوة.

وقال آخر:

- هوّ احنا حنفضل نشرب كده لإمتى؟

فرد أحدهم:

- لما ننبسط، الواحد عايش لحظة بلحظة، هوّ حد عارف بُكرة حيحصل إيه.. املا يا جدع.. فين المزّة.. سقف على إيدك يا جدع وهات بوظة وهات مزّة.

ورفع الماجور وملاً، والضجيج في كل مكان، وناس تصيح وناس تهيص، وعيال صغيرة تعلق في أكتافها مقاطف ترمس وسوداني وتتحرك بين الدكك، وبنات

في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة ينادين: - الباذنجان أبو توم.. القوطة
المخللة.

وأخريات يزعنن بأصوات منغمة:

- السمك المشوي.

وأخريات:

- السوداني الحمش.

ويتوقفن بين كل دكة وأخرى ساندات أكتافهن على الجالسين، موزعات
البسمات، قائلات: - خد مننا ربنا يكسبك، استفتحنى ربنا يفتحها في وشك
ويوعدك بنت الحلال اللي تهتُّيك.

فيبتسم الرجال ضاحكين، وينظرون لهن نظرات شبه مغلقة، وضجيج يصم
الآذان، وشبان في الأركان يهزون رؤوسهم طربًا على أنغام النسوة البائعات،
وكؤوس البوطة ترفع وأفواه تشرب وأصوات تصيح: - اشرب يا جدع ما حدش
عاش.

وفي وسط كل هذا الضجيج ارتفع صوت جميل قائلاً: «يا ليل يا عين».. صوت
كصوت البلابل، وتنخفض الأصوات وتتوارى شيئًا فشيئًا، ويصمت الجالسون،
وتتجه الأنظار لصاحب الصوت، وترتفع الأيدي لتسند الرؤوس التي أثقلها
الشرب، ويستمر صاحب الصوت في الغناء فيقول: «يا ليل يا عين».. وترتفع
أصوات تقول: - قول من تاني.

وأصوات تقول:

- اسمع يا جدع انت وهَوَّ.

وبصمت الجميع وبعود صاحب الصوت ليقول بصوت منغم:

من فعل الأيام هجت السباع م الغاب

وحطوا واطي لقليل المعرفة والغاب

والكلب لما حكم هدم السكن والغاب

وارتفعت الأصوات من كل مكان.. آهات من كل جانب، وطواقي تقذف في الهواء، ولبد تقترب من السقف، وأيدي تصفق، وأخرى تلوح، وآخرون يقولون:
- الله.. الله.. قول يا جدع من تاني.. الكلب لما حكم هدم السكن والغاب
قول.. قول يا عم!

واستمر المغني يقول استجابة لرغبة الطالبيين:

واتقدم الفار على القط وكل زاده

والنسر راح لليمامة واحتمى بيها

صعب عليها جاله الفكر المشوم زاده

قصقص له ريشه على الجناحين وما فيها

والنملة قرصت حنش بحصى نسي زاده

والفيل صبح أسير في الدنيا وما فيها

وأبو فصادة حكم كل الطيور وظلم

واتأخر الجيد من الحكم الشديد وظلم

وارتفعت الأصوات من الأمام ومن الخلف:

- تاني يا جدع.. تاني والنبي.. واتأخر الجيد من الحكم الشديد وظلم!

فأعادها مرات ومرات بنغمات حزينة مؤلمة أشجت القلوب وألهبت العواطف

ثم عاد يقول: والجوز نزل فرد كذب في الحصى والظلم

والوقت لما ظلم خف القمر وآهو غاب

وصمت الجميع عندما انتهى الموالم، ومالت الرؤوس وتساندت بالأيدي، وغرق

كل منهم في بحر من التفكير، وبعد فترة صمت قال عبد العظيم وهو يطرق

أطراف أصابعه ويهز رأسه: - يا سلام.. الدنيا وحشة.. الموالم دا علينا، حنة

رئيس ما يسواش ثلاث طور فول.. الواحد لو خبطه قلم حيوقعه الأرض يقفل

علينا الدورة! يا سلام ع الكلب لما يحكم، صحيح لو حكم الكلب يهد السكن

والغاب، وأبو فصادة آهو أد العصفور وحكم كل الطيور وظلم، أهو عامل زي

الرئيس، إللي الواحد لو نفخه حيطير، وشوفوا الفيل أد إيه.. فحل.. صبح أسير

الدنيا وما فيها.. والفيل دا يبقى مين؟ يبقى احنا.. أصبحنا أسرى، حنة غفير

يضرب فينا، ورئيس يحكم فينا، وأهو صاحب المصنع سايب مكنه يموتنا، ولا

فيش حد يبجي يحاسبه.

فرد آخر:

- ما تسبيك من الشغل دلوقت، هُوَ احنا في الشغل، إحنا في البوظة، وزع يا سلطان، وزع لنا نشرب، هي حتنها كده، يوم لنا ويوم علينا، هُوَ انتو ما سمعتوش الموال اللي بيقول «وأيام بتيجي على ولاد الملوك تنذل.. بُكرة يقولوا...».

وقال آخر:

- بُكرة يجيلنا اليوم.. سقف يا شيخ علي، وهات لنا كرسيين دخان وقول له يغير الميه.

وآخر يقول:

- جرى إيه يا سلطان ما تجيب لنا مزة، هات لنا شطيطة.. منها مزة ومنها أكل.. هي من كرشة البهايم.. يبقى اسمنا كلنا لحمة.

وآخر يقول:

- هات لنا جمبري.. يقوي الباه.

وانهمكنا في الشرب، وأطفال مهلهلو الثياب تقذف بأنفسها تحت الدك للبحث عن الأعقاب، وآخرون مالت رؤوسهم من فعل البوظة، وضجيج الباعة وصراخ السكرى، وتقياً البعض، ووقف أحد العمال بجوار الباب، كان طويل القامة ذا شارب ضخم، وخبط على المنضدة بالعصا ولوح بها في الهواء وهو يقول: - أنا جدع.. الكلب لما حكم هدم السكن والغاب.. يا سلام لما الكلاب تحكم! يحكمونا؟ لا.. أنا عشوش.. أنا عشوش.. غريبة.

والتفتت الأنظار إليه وهو يلوح بعصاه حتى جلس.

وقال عبد العظيم:

- الواحد دماغه لف.

- من إيه؟

- من البوظة المهبية.

- أصل حضرتك داخل في المقدر جديد.. بُكرة تاخد.

وقال آخر:

- هات يا عم نشرب.. كنا زماننا في البلد.. أخرتونا.

- يعني كنت حتروّح تعمل إيه، ما انت قاعد تهيص، مش أحسن ما كنت زمانك مطاطي راسك قدام العمدة.. دا لما الواحد كان يشوفه من على بُعد عشرين قصبة، كان لازم ينزل من على الحمار ويسحبه في إيده، ولما يحصّله يطاطي دماغه في الأرض، وإن ما عملش كده تبقى سنته سودة!

- يعني هنا ما شاء الله.. ما أظطر من ستي إلا سيدي، طلعتنا من نقرة وقعنا في دحاديرة.

- مهما كان هنا أحسن.. ما عدناش بنشتغل بلوشي، النهارده أحسن من إمبراح، كنا بنشتغل بخمسة تعريفة والنهارده جات لنا زيادة.

وبينما نحن منهمكون في الحديث، إذا برجل ذي جلاب أزرق وبشرة سمراء، ملأ الشيب رأسه وملأت التجاعيد وجهه، يسير حافي القدمين وصدرة مفتوح،

يقف على الباب كالمعتوه، يتطلع في الوجوه ويردد: - فين؟ فين هم؟ هم؟
فين؟ دلوقت حادور عليهم فين؟ دورت في كل حته!

فقال الجالسون:

- مالك؟ مالك يا عم؟ بتدور على مين؟

واستمر يردد:

- هم؟ فين؟ هم؟ فين دلوقت؟ اللفت مؤتهم.. مؤت تسعة.. تسعة ماتوا في
المصنع!

وهم البعض واقفين، والتفوا حوله يسألونه وهو يقول:

- سيبوني.. سيبوني أشوفهم.. قلت لهم ما تروحوش النهارده.. النهارده الحد
والعفاريت بتطلع في المحروق دا ما سمعوش كلامي!

كانت الكلمات تخرج سريعة وهو يردد:

- اللفت.. اللفت مؤتهم.. الجنزير انقطع.. جنزير اللفت اللي في المصبغة..
إلي بيثيل مية النار.. وقع عليهم وقطعهم وهم هناك جوه.. جوه مترصين
جنب بعضهم.. غرقانين في الدم!

وعندما سمع الجالسون الخبر، اختفت البسمات، وشحبت الوجوه، وحنى
البعض الرؤوس إلى الأرض، وأخفى البعض رأسه بين راحتيه، واختفى الرجل
عن الأنظار يبحث. وساد الصمت لحظة، حتى الباعة المتجولون، وقفوا
مشتتي الفكر، وقفوا يتفرسون في الوجوه وهم يحملون أوعيتهم بما تبقى

مما يبيعون، وقطع الصمت صوت من الخلف يقول: - إحنا وقفنا تايهين كده
ليه؟ ما تيلًا نروح نشوفهم!

فرد آخر:

- وحنشوفهم ازاي؟ الأبواب متسككة.. وهمَّ حيلوهم لحد دلوقت؟ زمانهم
لفوهم في الخيش وتاووهم!

وقال آخر:

- واحنا حنعمل إيه؟ هوَّ حد منهم كان عارف إيه اللي حيجرى له.. لو كان حد
منهم عارف اللي حيحصل، ما كانش حد منهم عتب في اليوم الأسود ده!

وزعق أحد الواقفين:

- إنتو حتقعدوا تتكلموا لإمتى؟ ما تفضونا من الكلام ده.. إلی راح راح.. هوَّ
إحنا لو رحنا حنوصل عمرهم.. همَّ زمانهم اندفنوا.. هوَّ اللي بيموت في
المدعوقة بيقعد ساعة، ما خلاص زمان كل شيء انتهى.. اقعد يا جدع انت
وهوَّ خلِّي كل واحد منا يشرب له كاسين، داخلها مفقود وخارجها مولود..
مفیش حد منا ضامن عمره.. هوَّ حد عارف بُكرة حيحصل لنا إيه؟

وصمت الجميع واهتزت الرؤوس، وبدأ الباعة المتجولون يصرخون، وقلت
لعبد العظيم هامسًا: - ما تيلًا نكتب شكاوى، ونختم عليها الناس.

فرد قائلًا:

- حنكتب شكاوى لمين؟ ما قلنا للنيابة والنيابة ما سألتش! هوَّ فيه حد بيسأل
عنا، ما قلنا لها على كل حاجة عملت لنا إيه؟!

فرد الشيخ علي:

- هُوَ انت لسه حتتكلم على النيابة.. مفيش فايده.. الشكوى لغير الله مذلة.

قالها وسكت. قلت:

- نكتب شكاوى للحكومة نختم عليها الناس.. عندنا في البلد حيعملوا كده.

فعاود الشيخ علي حديثه وهو يومئ برأسه:

- حكومة مين وبتاع مين؟! هُوَ انت ما سمعتش الموال، بيقول «الكلب لما حكم هدم السكن والغاب.. وأبو فصادة حكم الطيور وظلم».. دول عاملين زي أبو فصادة.. حيعملوا لنا إيه؟

قلت:

- هُوَ عندنا في البلد عارفين وبيقولوا نكتب والظرف اللي ما يصيبش يدوش.

وزاد الجدل، وتعالَت الأصوات، وقال واحد منهم يرتدي جلبابًا أبيض وطاقية بيضاء: - هُوَ احنا حنخسر حاجة؟ إنتو خايفين ليه؟ ما تسمعوا الكلام.. هاتوها وانا أكتبها لكم.. أنا كنت باكتب شكاوى لما كنت باشتغل عامل تلفون عند العمدة.

فرد عبد العظيم:

- حنكتب نقول إيه؟

قلت:

- نكتب نقول كل حاجة.. كل اللي بنشوفه.. نقول احنا بنشتغل من الصبح لحد
نص الليل، والرؤساء بتضربنا، والممكن بي موت كل يوم عمال، ومفيش حد
بيجي يسأل، وقلنا للنيابة وما عملتناش حاجة.

فرد الشيخ علي قائلاً:

- القرش اللي نصرفه على الورق نجيب لنا بيه حاجة.. مفيش فايده.. والله
الفلوس دي حتروح ع الأرض.. كان غيركم أشطر.

فرد أحد الواقفين ملوحًا بيديه في وجهه:

- ما تسكت يا شيخ.. هُوّ انت دايمًا كده تكسر قلبنا.. الراجل بيقول هاتوا
الورق وانا أكتبه.. هُوّ بيعرف يكتب.. أنا حادف ٢ مليم من معايا تمن فرخ ورق.

ورد آخر:

- وانا كمان.

وثالث:

- وانا كمان.

ورابع قال:

- أنا حادف تمن ورقة البوستة.. حادف إن الزيادة ما جاتش.

وقلت:

- أنا كمان حادف.

فرد عامل التلفون:

- خلاص هاتوا الورق.

وأسرعت وأحضرته من الدكان، وقال الشيخ علي:

- هيه.. قول لنا يا سيدي بقى حنكتب إيه.. قول لنا.

قالها وهو ممتعض الوجه كأنه واثق ألا فائدة من الكتابة، وبدأ عامل التلفون يكتب: حضرة رئيس الحكومة.. نحن الموقعون أدناه عمال الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى.. بنك مصر نتشرف بتقديم شكوانا هذه لتكون على علم بما يحدث لنا.

أولاً: من يوم أن حضرنا من قرانا واشتغلنا والممكن يقتل منا كل يوم عاملاً، وآخرون كسرت أرجلهم أو قطعت أيديهم أو فقئت عيونهم، والمستشفى مليئة بكل هؤلاء، ولم يحقق أحد في تلك الحوادث وهم يُدفنون دون أن يعرف أحد مكانهم.

ثانياً: المرض ينتشر كالوباء في كل البيوت وخاصة مرض السل، من ازدحام السكن وسوء التغذية، وقد مات الكثيرون دون أن تدفع لهم دية.

ثالثاً: نعمل ١٢ ساعة دون راحة، ونقف على الممكن مبدلين أرجلنا كالحمير دون رحمة، وللعلم قلنا للنيابة ومع هذا لم تحقق.

نرجو النظر في شكوانا هذه، جعلكم الله عوناً للمساكين.

وقال:

- إيه رأيكم؟

فرد الحاضرون:

- كويسة.. هات.. هات نختم.

فقال:

- كل واحد يجيب ختمه.. يَلَّا.. يَلَّا يا جدعان.. يَلَّا علشان نخلص ونروح البوظة الثانية ونمضي الناس اللي فيها.. الظرف اللي ما يصيبش يدوش.. يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة.

ولم نتوانَ في وضع أختامنا.. ثم عدنا للشراب من جديد. وقال أحد الواقفين وهو يتطلع للسماء: - هُوَّ يا رب اللي نبات فيه نصبح فيه!

وقال أحد الجالسين:

- خد يا جدع اشرب.. الدنيا على كف عفريت.

وقال عبد العظيم:

- مين حبيجي معايا، نمضي اللي في البوظة الثانية؟

وردت أصوات من أماكن متفرقة:

- يَلَّا واحنا نروح معاكم.

وخرج عبد العظيم ونحن خلفه حاملاً الورقة في يديه، وفي الطريق كانت العمال تسير جماعات جماعات، بعضهم ينظرون إلى النسوة الواقفات في

الشبابيك، وبعضهم يقضمون بعض المأكولات، وكلما طلبنا من أحد ختمه، كان يبادر إلى القول: - حتملوا بيه إيه؟ حتمضونا على ورق؟

فيرد عبد العظيم شارحًا:

- علشان الناس اللي بتموت وما يندفعلهمش دية.. إنتو ما سمعتوش.. تسعة النهارده ماتوا.. مؤتهم اللفت وانحرقوا بمية النار!

ووقف بعضهم ينظر إلينا وشفاهم بين أسنانهم وقال بعضهم:

- خد يا اخويا.. خد اختم.

وقال آخر:

- خد الطعه في الورقة.

وقال آخر:

- يا عم احنا طول عمرنا مفيش حد مصّانا.. طول عمرنا مفيش حد ختمنا..
حنيجي هنا نختم.. سيونا في حالنا!

ورد آخر:

- نسيكم؟! نسيكم ازاي؟! ده علشان مصلحتكم.. هوّ تعمل طيب تلاقيه
ردي؟!

فسار دون أن يلتفت إلينا وهو يردد:

- هَوَّ احنا حنحاكم ربنا؟ عمرهم جه لحد كده وخلص.. هَوَّ انتو حتشاركوه؟
خلوا الواحد منا في حاله!

وهمس عبد العظيم في أذني وهو يضغط على شفثيه بأسنانه:

- امسك الورقة دي.. دول ولاد كلب.. كل واحد منهم عاوز له قلمين.. دول زي
الحمير.. الواد بيعمل لنا كده ليه؟! امسك.. امسك الورقة دي.

وأمسكته من يده قائلاً:

- هَوَّ مفيش حد غير دول؟ تعال.. إنت حتعطلنا.

فوقف ينظر إليهم نظرات حادة، واستمر يحملق في وجوههم، وهم بيتعدون
حتى اختفوا عن الأنظار.

وفي البوظة الأخرى، لم نلق أي عناء في إخراج الأختام من جيوب الجالسين
كلما شرحنا لهم سبب شكوانا هذه، وكلما دخلنا مجلسًا بادر السلطان
بإعطائنا كؤوسًا من البوظة وهو يقول: - اشرب.. اشرب انت وهَوَّ الأول.. إنتو
حتمضونا على إيه؟ مش على شكوى.. علشان إيه؟ مش علشاننا.. خد يا عم
الختم بتاعي أهه.. طلع يا اخويا انت وهَوَّ ختمك، وادبهم يختموا يمكن يكون
باب السما مفتوح.

ويرد أحد الجالسين:

- هاتوا لما نقراها.

ويقول آخر:

- اقرأ وسمعنا.

وكلما سمعوا الشكوى قالوا:

- الله يحميكم يا ولاد.. ولاد الخير كثير.

فيقول آخر:

- هُوَ فيه خير؟ وانتو إيه اللي خلاكم تاعيين نفسكم كده؟ ما اللي يجرى على الناس يجرى عليكم! حد يقول للرؤساء عليكم وتروحوا في شربة ميه ولا تلاقوش حد ينفعكم!

ورنت هذه الكلمة في أذن عبد العظيم، كما رنت في أذني، وتوقف عبد العظيم لحظة شارد الذهن كمن يقول في نفسه: «صحيح.. وانا مالي.. حد يقول عليّ وأتفصل من الشغل وأمي في البلد في انتظار القرشين لتسديد الإيجار».. وفجأة أعطى الورقة لأحد الذين يسيرون معنا، وسار صامتًا متباطئًا، ونحن نتقدم وهو يتأخر، وابتعد عنا خطوات وهو يمسك جبهته ويعتصرها، وكلما وقفنا أمام مجلس آخر شارحين ما في الورقة كانوا يبادرون إلى إخراج أختامهم ويتزاحمون على من يضع ختمه في البداية، وبينما كان العمال يبادرون إلى إخراج أختامهم كان عبد العظيم يبتعد وبتعد، وكلما دخلنا بوظة وخرجنا منها تطلع إلينا وتتبعنا من بعيد.

وامتلأت الورقة بالأختام، واتجهنا إلى صندوق البريد، وعندما رمينا الخطاب أسرع عبد العظيم في اللحاق بنا، وأمسك بيدي دون أن ينبس بكلمة، وهمس الولد الغريب في أذني قائلاً: - هُوَ عبد العظيم اتأخر ليه؟ ده واحنا بنمضي في الأول كان ماشي معنا خطوة بخطوة، ولما الراجل قال اتتو مالكم ما تخليكو

في حالكم بدأ يبتعد! هُوَّ خاف؟ هُوَّ احنا دلوقت في الشغل، إحنا في الشارع،
ولا فيه ريس ولا حد حيشوفنا؟! هُوَّ خاف من إيه؟

وقطع عبد العظيم همسه قائلاً:

- قلنا نستنى علشان نوفر، وآدي احنا صرفنا اللي كنا حنرَّوَح بيه! ويا ريتنا
صرفناه في حاجة مفيدة، صرفناه في شوية أكل وشوية بوظة! دا لو كان
الواحد جاب له جلاية كويسة.. جلاية الواحد يلبسها وهُوَّ مرَّوَح! هُوَّ اللي في
الكرش بيبان؟ الواحد ما خدش بالمثل اللي بيقول: «فوت على حبيك معرّش
ولا تفوتش عليه مكرش».

فرد آخر:

- هُوَّ انت حتقعد تقول لنا حكم؟! هُوَّ احنا نحوش من رزق يوم بيوم والنصيب
على الله حنحوش من إيه؟ هُوَّ حد عارف إيه اللي حيجرى لنا!

وكانت الشوارع مكتظة بالعمال، والنسوة يتطلعن من الشبايبك كاشفات عن
أذرعتهن العارية، والعمال ينظرون إليهن، وبعضهن يعوج لبدته للأمام،
وآخرون يدفعونها للخلف، كلما وقعت عيونهم على امرأة تسير في الطريق،
والجميع يتجهون نحو مولد الششتاوي الذي ينصب فيه السامر كل يوم أحد.
وهناك يتجمع العمال يتسلون. ولم يكن المولد خاصًا بالعمال وحدهم، فأهالي
المحلة أيضًا كانوا يتبركون بسيدي الششتاوي، وكانت هناك عربات كثيرة
محملة بكيزان الحلبة والترمس، والكل ينادي على بضاعته، والكل يشتري
بركة من الشيخ، والحواة تلعب في أماكن أخرى، فتخرج الكتكوت من
البيضة، والفطير من العلبة، وتفتح بطن الولد، والعمال تنظر للحاوي وهو

يقول: - إلهي يحب النبي يوسع.. إلهي يخرب بيتك يا إلهي ما تقول الصلا على النبي!

والجموع ترد بأصوات عالية، ويعود الحاوي فيمر بين الواقفين والجالسين جامعًا منهم النقود، وهناك نسوة واقفات أمام باب الشيخ يرددن الدعوات وأيديهن مرفوعة إلى السماء: «إلهي يعدلها لك يا بنتي.. إلهي يبعث لك ابن الحلال اللي يهتّيك».. وأخريات يسرن وسط الزحام محزقات الملايات على خصورهن متباهيات بأذرعتهن العارية، ويتسمن وهن يفسحن لأنفسهن الطريق، ويكشفن عن أسنانهن البيضاء غامزات بإحدى عيونهن.. وكانت الضحكات والبسمات والتهاليل تنبعث من كل مكان على طول الطريق، ورجال يتقيأون بجوار الجدران من كثرة ما شربوا من البوظة، وآخرون يتمايلون على جانبي الطريق، وبعضهم يردد «أنا جدع».. كانت الفرحة بزيادة الأجرة تعم القلوب، والهواء يشتد، وتقرب بعض السحب، وأحسست أن رأسي تدور، وتوازني يختل، وقدمي تلتفان على بعضهما، وبدأت أترنج والعرق يتصبب من جبيني رغم برودة الجو.. ولاحظ الولد الغريب ذلك فصاح على عبد العظيم، وبدأت أسير بينهما وجسدي يتمايل.. وقال أحد السائرين في الطريق: - ما تمسك يا جدع انت الولد ده كويس!

وقال آخر:

- روحوه.. ده وشه مفيش فيه نقطة دم!

وقال ثالث:

- ودوه جنب الحيطه يستنطق!

وقال آخر:

- تعال هنا اقعد.. حط صباغك في حلقك، هات كل اللي في بطنك!

وهمس عبد العظيم في أذني:

- مالك؟

وقال الولد الغريب وهو يبتسم:

- إنت سكران؟

وبدأت أتقيأ، وكادت أمعائي تخرج.

وقال أحد الواقفين:

- أحسن اللي نزله، كان حيكتم عليه يموتته.

وقال آخر موجهًا كلامه لمن معي:

- حرام عليكم يا جدعان.. عيل زي ده تسقوه بوظة؟ هوّ ده يستحمل؟ ده

الكبير ما يستحملهاش!

والتف حولي عدد ممن يسيرون في الطريق، وعلى الضجة أطلت امرأة بدينة

من أحد المنازل وصاحت قائلة: - يا ضنايا! ماله يا جدعان؟ مال الولد ده؟

وصاحت منادية على إحدى بناتها:

- يا بت يا خديجة، انزلي ادلقي على دماغه كوزين ميه واغسلي له وشه يا
بت.. يا ضنايا يا ابني على الغربية وأصحابها.. اجري يا بت.. اجري شوية.. الواد
حيسورق!

والولد الغريب يمسكني من إيدي وأنا لا أستطيع أن أتبينه هو من غيره من
الواقفين لأن عيني قد امتلأتا بالدموع التي تساقطت دون أن أبكي، وكانت
الأصوات ترن في أذني ولا أعرف أحدًا، إلا من خلال صوته، وإذا بالماء ينزل
على رأسي كالثلج، وشهقت شهقة عالية، وانتفض جسدي، ويد ناعمة تلامس
وجهي، ماسحة الدموع من عيني، والأم تزعق: - حطي يا بت ميه على راسه
خلي روحه ترد!

فتحت عيني بعد أن مسحتها البنت بفوطة حمراء، وهمس عبد العظيم في
أذني باسمًا: - مالك؟

قلت:

- مفيش.. قلبي غم عليّ.

- من إمتي؟

- من ساعة.

- ما قلتش ليه؟

- أنا كنت فاكر إنها حتخف.

وقالت الأم وهي تصيح من الشباك:

- خدوه وروحوه.. روحوه يا جدع انت وهُوّ وغطوه بحاجة ثقيلة.

وقلت في نفسي: «ثقيلة إيه؟ هُوّ احنا عندنا حاجة! إللي ما يعرفكش يجهلك».. وأخذني عبد العظيم من يدي، وسرت أتمايل.. وفي القهوة قال أحد الواقفين: - هات له كوباية قهوة يشربها.

وقال آخر:

- هات له شاي يدفي بطنه.

وبعد أن شربت شعرت بالدم يجري من جديد في جسدي، وقال عبد العظيم:
- هربت دمننا.. كشيئا في بعض زي القنافذ!

فخجلت من نفسي بعد أن رأيت عددًا من الناس ينظرون إليّ، وقال أحد الجالسين موجهًا كلامه لعبد العظيم: - مش انت معاه يا جدع؟ ليه تسببه يشرب؟ دا ما يستحملش!

وكنت كلما سمعت هذه الكلمات ازددت خجلًا، وحاولت إخفاء وجهي، وحاولت أن أبين للجالسين أن كل شيء قد زال، فصحت طالبًا شايًا، وبعد أن شربته قال الولد الغريب: - يَلَّا نرَوِّح.

وكانت القهوة مزدحمة بالعمال والضجيج يزداد.

وخرجت من القهوة تاركًا هذا الضجيج، واتجهت للمولد، وكانت جموع كثيرة تتدفق، وأعداد غفيرة تقف جماعات على جانبي الطريق يتهامسون فيما بينهم، وآخرون يشمرون أكمامهم المخططة، كاشفين عن قمصان بيضاء مزهرة، وكانت تدور بينهم أحاديث مختلفة حول ما سمعوه اليوم عن التسعة

الذين قتلهم اللفت، ووقف أحدهم يقول: - القبض النهارده كان كويس..
الفلوس النهارده في جيبنا.

وآخر يقول:

- كتبنا النهارده عريضة للحكومة، وناس جات البوظة وختمنا عليها.

وآخر يقول:

- موت يا حمار على ما يبجي لك العليق.. يوم الحكومة بسنة!

وصاح آخر:

- هَوّ مفيش حاجة عاجباكم؟ ما تقولوا عايزين إيه؟ إيه اللي انتو عملتوه لما
عمال النسيج وقفت المكن والمهندس قال حتشتغلوا بالإنتاج؟ قعدتم تشتموا
فيهم شتايم ملهاش حد وأهو دلوقت أخذتم زيادة.. أخذتوها على حسابهم..
حد منكم عمل حاجة؟!

كان يتكلم والآخرون ينصتون، وبعضهم ينظر شزرًا، وآخرون يمرون أمامهم
دون أن يلتفتوا لما يقال، واسترسل قائلًا: - إنتو عاملين زي العجايز اللي
قاعدين على المصطبة، فلان عمل، وفلان خلّي، وفلان مات ومفيش حد
مشي في الجنازة بتاعته غير عشرة، وفلان ماشي من غير لباس، وبنات فلان
حبلت، وفلانة عاشقة فلان.. إنتو عاملين زبهم! عملتم إيه؟ مفيش حاجة! فيه
ناس بتعمل علشانكم، واهو النهارده شوفتوهم بيمضوا الناس على العرايض.

- وعاوزنا نعمل إيه؟

- مش عاوز حاجة.. عاوزكم بس ما تشتموش، مش عاوزكم تقطعوا في جدر حد.. أنا كنت زيكم كده الأول، كنت زعلان لما جه الرئيس وقال حنشتغل بالإنتاج، ما كنتش عارف يعني إيه إنتاج، لكن النهارده أصبحت عارف، وبعد ما كنت بادعي على عمال النسيج أصبحت بادعي لهم، همّ دلوقت اللي بيدوروا على حقنا.. بيطالبوا بدية لكل اللي يموت.. يبقى انتو عايزين إيه؟ مش كتر خيرهم؟ إللي ما يقدرش يعمل حاجة يقدر على كلمة كويسة يقولها!

وجاء عسكري من راكبي الخيل ففرق الواقفين.. كانت الشمس تميل إلى الغروب، مطلقه ضوءًا أحمر، وثمة سحب آتية من بعيد تغطي على زرقة السماء، وعمال يغدون هنا وهناك متشابكي الأيدي، متجهين إلى المنازل في انتظار ما يخبئه لهم الغد.

أفندية في العنبر

وفي يوم ممطر والسماء ملبدة بالغيوم، والزوابع تشتد، والهواء يقصف بالشبايبك، وأبواب المنازل تصر كلما لفحها الريح، إذ بالغرفة تفتح علينا، وكنا مغطين أنفسنا ببعض الخرق القديمة من شدة البرد، في أحد أركان الحجرة، وإذا بالولد السيد الصفطي يدخل علينا وهو يزعق في وجوهنا: - قوموا.. إنتم قاعدين؟ إنتم قاعدين ليه؟! أنا فضلت مستنيكم على المحطة ما لقيتاش حد منكم جه، فجبت شيال معايا واقف برّه.

فاتجهدنا إلى الخارج مهللين، وعندما أدخلنا القفف قال:

- أمك لما شافتني داخل البلد لوحدي صرخت في وجهي: «فين الولد؟ فين فكري؟ هوّ ما جاش ليه؟»، واستمرت تبكي وأختك تبكي بجوارها وهي تقول: «فين أخويا؟ ما جاش ليه؟».. وأنا أحلف.. وهمّ ما يصدقوش.. ما صدقوش إلا

بعد ما حلفت على المصحف إنك كويس، وما صدقوش أكثر إلا بعد أن أخرجت الريال من جيبي وقلت: «هوّ بعث لك ده والباقي راح يكسي نفسه.. حيجيب له مقطع حرير».. وعندما أخذت الريال طبقت عليه بإيديها، وابتسمت لما عرفت إنك قبضت زيادة، وتمتت بكلام ما سمعتوش.. والبت رقية سألتني عليك، سألتني على المنديل، وقالت لي: «قوله ما تنساش».

وعاد ووجه كلامه للولد الغريب:

- أمك زعلانة منك، زعلانة لأنك ما بعثهمش فلوس.. وأخوك السعيد انفصل من الشغل، فصلته البلدية.. ومعهمش فلوس.. استلفت تمن الدقيق وخبزت لك العيش ده.. كانت منتظرة منك فلوس، وبتقول لك شوف لأخوك شغلة وياكم.. هوّ جاي يوم الحد، الحد الجاي.

وعندما سمع الولد الغريب الخبر شحب وجهه ورغرغت عيناه بالدموع، ومال برأسه على القفة ليخفي دموعه عنا.. وتمتم: - أمي زمانها بتعيط.. لو كنت عارف كنت بعث فلوس.. بعثها لها وقدرت على نفسي!

واسترسل قائلاً:

- أخويا جاي وأمي حتفضل مع مين؟ مفيش حد وياها! دا هوّ اللي كان بيونسها ويطلع عليها وبخش! حتبقى مقطوعة! حتنام لوحدها ع الفرن!

وأخفى عينيه وبكى، واستمر يبكي طويلاً.

وقال الولد السيد الصفطي:

- هَوَّ انا قلت لك علشان تقعد تعيط لنا؟ أمك قايلة لي ما تقولوش.. كانت عارفة إنك حترعل، ولكن أخوك هَوَّ اللي قال لي: «قول له علشان ياخذ باله إني جاي».

وعاد قائلاً:

- إنتو جبتوا لي المقطع؟

قلنا:

- أيوه.. جنبها زي بعض.

فاحمر وجهه وقال بتلهف:

- هيَّ فين؟

وعندما رآها اقترب وكاد أن يقبلها، وأخذها بين ذراعيه وحملق فيها وهو يردد كلمات تعبر عن فرحته، وكانت عيناه تضحكان من الفرحة.. وبينما هو غارق في فرحته، كنت أعبت في القفة لأرى ما بعثت به أمي، وإذا بي أجد علبة أسرعت بفتحها وإذا بها مليئة بالبيض، وقلت في نفسي: «البيض ده أختي محوشاه علشاني.. أمي كانت بتبيعه علشان تجيب بيه برسيم للبهائم.. محوشاه لي لما أروَّح».. ووجدت في القفة صرة مليانة فطير، وفرخة مطبوخة.. وتهلل وجهي فرحًا عندما وجدت كل هذا بالقفة، وتطلعت حولي وإذا بالولد الغريب قايع في مكانه ويداه على خديه، والولد السيد يعبت بالثوب.. وحاولت أن أهدئ الولد الغريب، فقلت: - إنت قاعد حزين ليه وإيدك على خدك؟ هَوَّ انفصل من إيه؟ انفصل من الوظيفة؟ مش كان طول النهار ماسك المقشنة ويكنس في الشارع.. هيَّ البلدية دي شغلة؟ ولما يبجي هنا

حيصل إيه؟ مش كله شغل، إنت خايف عليه من إيه؟ هَوَّ كان طول النهار واقف في الشارع وكان معرض للخطر، عربيات جاية وعربيات رايحة عليه، مش كانت عربية ممكن تقطعه.. كله شغل، هنا زي هناك.. قوم هات ناكل.. خليه يبجي يونسنا بدل ما احنا قاعدين زي الغلابة!

ونحن نتحدث وإذا بصوت جرس يرن رنات متواصلة في غرفة مجاورة، وقال الولد السيد: - يَلَّا الميعاد قرب.

وخرجنا من المنزل والرياح تقذف بالأتربة، وكل من كانوا يسيرون في الطريق يضعون أيديهم على أعينهم.. وكان العمال القادمون من بلادهم يسيرون بملابسهم المزهرة وذقونهم المحلوقة.. وعربات تعدو مسرعة بصناديق من خشب في الاتجاه للمصنع، وعربات أخرى محملة ببالات القطن تخرج من بوابير الحلاجة، تغوص في الوحل.. وأطفال يرفعون أطراف ملابسهم، ويجرون خلفها مهللين.. وصفارات المصانع تدوي في كل مكان معلنة نوبة العمال.. وحمامات بيضاء ترفع أجنحتها، وتهدل هديلاً متواصلًا وهي تعدو مسرعة من أعلى الأبراج العالية، ويقابلها حمامات أخرى متعددة الألوان.. وعمال تخرج من كل مكان، ومن شوارع متعددة يتهامسون، والبعض الآخر يسب ويلعن أصحاب البيوت الذين يطلبون منهم زيادة الإيجار.. وبجوار عربة نقل محملة ببراميل سوداء مليئة بالزيوت عطلت في الطريق، رجل ضخم لطخ الطين ملابسه، وخده يسيل منه الدم، يسب هو الآخر ويلعن.. وأمام باب المصنع كان الدخان يتصاعد من المداخن العالية، دخان أسود حجب رؤية المنازل المجاورة.. وتجمع الآلاف على طول الشارع في انتظار فتح الأبواب، وزعقت الصفارة الأخيرة، وتدفق العمال إلى الداخل، وبدأت

الموتورات تعمل، وتحركت السيور، وتطير الغبار المتراكم، وحجب العمال فلا يرى بعضهم البعض.

وأدرت ماكيتتي، وإذا بي أجدها تسير بطيئة غير ما كان بالأمس، ووضعت أذني بجوار الترنك تارة وبجوار التروس تارة أخرى باحثًا عن السبب مثلما يفعل زملاء، وإذا بي أسمع صفييرًا ينبعث، أيقنت أن بالماكينات خللاً جعلها تبطئ في الدوران، وإذا بي أجد قطعة من الخيوط ملفوفة بين الترنك والطاره، وجلست بجواره أسلكها بسلك أحضرته، وبعد الانتهاء من التسليك أحضرت جانبًا من الأسطبة ومسحته، وقلت في نفسي: «أي شيء يدخل بين التروس من الممكن أن يعوق المكن عن الدوران، ويتسبب في عديد من التصليحات تقلل إنتاجي».. والرؤساء لا تقترب ولا تهتم بعملية التصليح وأنا وحدي أقوم بتصليح الماكينات، وعدت وقلت: «كلما كان المكن نظيفًا كان أسرع في الدوران، وأضمن في آخر المدة أن أحصل على أجر أكبر، كل واحد لازم يجد عن، ومش حيقبض إلا على قدر إنتاجه».. وبهذه الطريقة أبعد شبح الرؤساء، وأتفادى كلامهم: «إنت ضعيف.. إنت مهمل.. إنت ما تنفعلش.. إحنا حنفضلك»، سيل من التهديدات لا لشيء إلا لأننا نطلب منهم تصليح الماكينات.. إنهم لا يرغبون في العمل ولا يوسخون أيديهم.. إنهم يرغبون أن يأتوا من بيوتهم ويعودوا مثلما أتوا، فلا فائدة من الذهاب إليهم، فعلينا نحن أن ننتبه إلى ما في الماكينات ونتتبع العيوب، سببها وعلاجها، وإلا فإن علينا أن نتحمل إمارة الرؤساء واضطهادهم لنا. إن العيوب الكثيرة التي تحدث في الأقمشة، ناتجة عن الإهمال في التصليح، والعامل وحده هو الذي يتحمل عبء الغرامات، والرئيس لا يتحمل شيئًا من ذلك مع أنه هو المسؤول. إن العامل بكثرة وقوفه على المكن يستطيع أن يعرف بسرعة العيوب ويحدد مكانها، هو الذي يستطيع أن يبلغ الرئيس عنها، وإذا أبطأ الرئيس فعليه أن

يسرق المفاتيح ويربط الصواميل لأنه صاحب المصلحة في زيادة إنتاجه،
ليتفادى كل ما هو مهين لكرامته.

وأنا غارق في التفكير، إذا بعبد العظيم يأتي مسرعًا وهو يقول: - بص.

وإذا بي أجد ناسًا كثيرة داخله من الأبواب، ناس لم تفتح الشمس وجوههم،
أفندية عاوجين الطرايبش على ناحية، وآخرين فارقين شعورهم.. والتفوا
حول الماكينات جماعات، واضعين أيديهم خلف ظهورهم، وبحملقون في
الوجوه الواقفة، وجوه العمال وهي تعدو من هنا ومن هناك، ويعودون
ويتطلعون إلى أعلى، إلى السيور التي تعلن هديرها.. وبعضهم لم يحتمل
الضحيج فسدوا آذانهم.

ووقفت العمال تنظر، وآخرون منهم يرفعون هاماتهم ويتساءلون:

- مين دول؟ دي لازم الحكومة.. الحكومة جات.. وإيه اللي راح يجيبها؟ مفيش
حد مات من الرؤساء.. يمكن الشكاوى بتاعتنا راحت؟ يلاً نقول لهم.. نقول
لهم على كل حاجة.. هم لازم جاين يحققوا.. الرؤساء واقفين وياهم، وإيه
يعني.. كل ما جماعة يقفوا جنب عامل لازم يحكي لهم.. يحكي لهم بسرعة
دون أن يشعر الرئيس.. أمال هم جاين ليه؟ مش جاين يسمعوا شكوانا؟
لازم نشتكى لهم.. لو ما اشتكيناش رايعين يكتبوا عليها من مجهول،
وبحفظوها، ويبقى تعبنا راح على الأرض.. كل واحد منا يتكلم.. علشان يعرفوا
إن الشكاوى للجميع.

وانتشرت العمال، وانتشر الأفندية في العنبر يتطلعون، والرؤساء تسرع في
اللف حول الماكينات، وآخرون يشرحون لهم كيف تدار المكنة، وكيف تخرج
الأقمشة، والعمال تنتهز انشغال الرؤساء ويتحدثون مع الواقفين، شارحين كل

ما هو موجود بالمصنع من متاعب، عن غلق دورة المياه، وعن سيرهم حفاة، وعن عدم دفع تعويض لمن يموت.. وكان الأفندية يسمعون باهتمام ويتحدثون مع بعضهم، ووقف بجانبى شلة أفندية يتطلعون إليّ قائلين لبعضهم: - دا صغير في السن.

وتحدثوا مع الرئيس، واقترب منى سائلًا، وعندما شرحت لهم بشكل خاطف كل ما يحدث من الرؤساء إذا بالرئيس ينظر لي في غضب، ولم أخشَ غضبه، وواصلت الحديث معهم، وكانت الأفندية تسمع وبعضهم يكتب ما سمعه، وملت برأسى نحو التروس، وإذا بواحد يهمس في أذني: - بتشتغل كام ساعة؟

- اتناشر ساعة بدون راحة.

كنت أتكلم وهو يكتب.. وإذ به يقول:

- ساكنين بكام؟

- عشرين وخمسة وعشرين.

وعدت وقلت:

- إنتم إيه؟ مش انتم الحكومة؟

قال:

- إحنا طلبية جايين من مصر نتفرج.. ومعانا هنا صحفيين حنقول لهم.

فانقبض قلبي وقلت بصوت حزين خافت:

- إحنا كنا بنحسبكم الحكومة، فأسرعنا واشتكينا لكم.

وبعد أن خرجوا من العنبر، التف العمال جماعات وأخذوا يتحدثون، فمنهم من يقول: - أنا كنت باقول يا سعادة البيه يتموت هنا ناس بالسل، والمستشفى مليانة، وهوّ كان بيضحك كلما قلت «يا سعادة البيه»، وعاد يقول أنا طالب اجتماع وعاعمل دراسة، ومنهم من كان يهز رأسه أسفًا، ومنهم من كان لا يسمع، ومنهم من كان يحاول الابتعاد عنا.

وقال أحد الواقفين من العمال:

- تعبكم راح على الفاضي.. طلّعوا طلبية.

فرد آخر:

- إحنا خسرنا حاجة؟ كل ما حد يخش من الأفندية نشتكى لهم. المرة دي مش من الحكومة، المرة الجاية تبقى هيّ.. هوّ حد عارف شكل الحكومة، ما هم زي بعض كل واحد لما يخش نقول له، يمكن تيجي الطوبة في المعطوبة، هي الشكاوى بتاعتنا حتروح على الفاضي بكرة ييجوا.

والحديث مستمر، وإذا بعامل من عمال الغزل يحمل أسطوانة في يده ويجمع المواسير، وإذا به يتبرع بالقول: - فيه أفندية دخلت العنبر ولما الرؤساء شافوهم لموا العيال الصغيرة وخبوهم في الصناديق.. لموهم كلهم وحشروهم جنب بعض، ولم يتركوهم إلا لما الأفندية خرجت.

وهز أحد العمال رأسه وقال:

- يخبوهم ليه؟ لازم فيه حاجة.. بكرة تبان.

وإذا بالرئيس يمر، وقد لمح أحدهم، وتفرق كل منهم على مكنته، وبدأ كلُّ
يعمل أكثر من ذي قبل، وخاصة الذين لم يحصلوا إلا على زيادة ضئيلة في
المدة السابقة.

وأفندية يحنون الرؤوس

وبينما نحن نعمل، والممكن يسرع، والرؤساء يتحركون والوجوه تبتسم، وإذا بلائحة جديدة تعلق على الجدران، واتجه العمال نحوها، يقرأون البنود الآتية: - كل عامل يترك فتلة مقطوعة خمسة سم بالأقمشة تخصم عليه خمس قروش صاغ. وكلما زادت تضاعف الخصم.

- كل عامل يتسبب في إتلاف ماكينة أو كسر قطعة فيها مثل المكوك أو التروس أو الذراع أو ما شابه ذلك تخصم بكاملها من الأجر.

- كل عامل يترك مكته ويتحدث مع آخر يخصم له يوم، وكلما تكرر ذلك تكررت الغرامة.

وقوبلت اللائحة بوجوم شديد من العمال، وقال أحد الواقفين وهو يسب ويلعن: - فتلة خمسة سنتي يتخصم عليها خمسة صاغ؟! هوّ الواحد بياخذ كام؟! يعني حنشتغل ببلاش!

وقال آخر:

- الفتل ونقدر عليها، طيب والذراع والتروس احنا حنكسرهما؟ دول عاوزين يشتروا الممكن على حسابنا، إحنا نشتغل ونطفح الدم وهمّ يقبضوا! إن أعطونا قرش ياخذوا عشرة! دول ما كفاهمش موت الناس بدون تعويض!

وقال آخر وهو يبلع ريقه:

- همّ دول فيه حد يغلبهم؟!!

وقال آخر:

- كل واحد ياخذ باله.. ياخذ باله من شغله.. مفيش حد يدي للرئيس فرصة،
دول متغاضين منا.

وقال عبد العظيم وهو منكس الرأس:

- همَّ ما استكفوش!

وعاد يقول وهو يتلفت حوله:

- لهم حق يعملوا كده، ما هم كل يوم بيثوفوا الداخل أكثر من الطالع.. أمال
بينوا العنابر دي منين؟!

وقال آخر:

- على حسابنا.

وعاد وقال:

- متكسرين متكسرين.. مفيش فايده.. نكسر لهم المكن ونمشي هوَّ حد
بيموِّت العمال غيره؟!

وقال آخر:

- هوَّ المكن ده ملوش صاحب؟

فرد آخر:

- هُوَ فِين صَاحِبِهِ؟ دِي وَسِيَّة مَلْهَاش صَاحِب.

فرد آخر:

- أَمَال مِين اللِّي بِيَعْمَل الْجَزَاءَات دِي؟

فرد آخر:

- الرُّؤْسَاء هَمَّ وَحْدَهُم اللِّي بِيَعْمَلُوا فِينَا كَدَه.

فرد آخر:

- نَمُوَّتْهُمْ.. نِيْتَم عِيَالَهُم.

وقال آخر:

- وَالْعِيَال ذَنْبُهُمْ إِيه؟ مَا هُوَ مَا ت مِنْهُمْ وَاحِد حَصَلَ إِيه؟ وَلَا حَاجَة.. زَادَ التَّعْسُفَ وَعَيْنُوا فِي الْحَالِ غَيْرَه.

أَحَادِيث وَأَحَادِيث، وَاتَّجَهَ كُلُّ مَنْهُمْ إِلَى مَكْنَه بِنَفْسٍ مَكْسُورَةٍ، وَقَلَّتْ فِي نَفْسِي: «إِلِّي عَلَى الْوَاحِدِ يَعْمَلُه.. وَاللِّي عَلَى اللَّهِ يَكُونُ، الْوَاحِدِ يَشْتَغَلُ عَلَى أَدَّ مَا يَقْدَرُ.. الْمَهْمُ يَحَاسِبُ.. يَعْنِي الْمَكْنَةُ حَتَّى حَلَاوَةٍ، فِين وَفِين عِبَالٌ مَا تَنْكَسِرُ.. هُوَ فِيهِ حَدٌّ ضَمْنُ عَمْرِهِ؟ حَنْزَعَلُ نَفْسِنَا لِيهِ؟ الْفَتْلُ لَازِمٌ نَاخِدُ بَالِنَا مِنْهَا، مَا هُوَ صَحِيحٌ أَسِيْبَهَا لِيهِ، دَا أُمِّي لَمَّا بَتْرُوحُ تَشْتَرِي قِمَاشَ مِنَ الدَّكَانِ بَتَقْعُدُ تَبْصَ فِي كُلِّ مِتْرٍ، وَإِنْ لَقْتِ فِتْلَةً مَقْطُوعَةً، مَا تَرْضَاشُ تَاخِده، وَتَرْجِعُه لِلرَّاجِلِ، فَيَبْقَى لِيهِ نَسِيْبُ الْفَتْلِ، هُوَ فِيهِ حَدٌّ بِيَشْتَرِيهِ غَيْرِنَا، إِنْ مَا اشْتَرَيْنَا هَوْشَ أَحْنَا بِيَشْتَرِيهِ غَيْرِنَا، لَازِمٌ نَطْلَعُه كَوَيْسٍ، وَالْفِتْلَةُ لَوْ قَضَيْنَا عَلَيْهَا مَا تَقْعُدْشُ ثَانِيَةً، ثَانِيَةً وَاحِدَةً وَتَطْلَعُ قِمَاشَ أَحْسَنَ، هُوَ الْوَاحِدِ حَيْشْتَغَلُ الثَانِيَةَ

بخمسة صاع أو بريزة.. دا شغل يومين وزيادة.. فليه الواحد يعطيهم الفرصة ياخدوا عرقه؟ الواحد ياخذ باله علشان بتاع الفحص ما يجيش ويقول له تعال وشوف العيوب اللي في شغلك.. دا يبقى جاي زي عزرائيل الموت، فليه نستعجل؟ العجلة من الشيطان.. هيّ المكنة بتشتغل أد إيه في الساعة؟ متر؟ اتنين؟ ثلاثة على الأكثر؟ ثمنهم كام للعامل؟ مليم.. بنقبضه كام؟ دا نهار العامل ما يتعاضم يقبض أربع برايز أو خمسة، فليه ندي لهم الفرصة ياخدوهم علشان دقيقة؟ بناقص خمسة متر ونطلع الباقي نضيف.. همّ بيسرقونا ولازم احنا نحاول منع السرقة بإننا نطلع قماش أحسن».

وبينما أنا غارق في التفكير إذا بالواد الغريب يزعق، فاتجهت نحوه مسرعًا، وقال وهو يلقي بالنظرات هنا وهناك: - العمال اللي أنا واقف وياهم بيتكلموا على الغرامات، وقال أحدهم: «مفيش فايده.. نكسر المكن ونخلص، ونستنى الرؤساء بالليل وهمّ طالعين ونخبطهم خبطة ما يقوموش منها». وقال آخر: «مفيش فايده نوقف المكن زي ما وقفنا لما طالبنا بالزيادة.. لو ما كناش عملنا كده كنا فضلنا زي ما احنا». ورد آخر: «هوّ انتم حتودونا في داهية؟ هوّ انتم ما عندكوش غير الثورة؟ الواحد إخوانه بتستناه كل مدة.. هوّ انتم ما عندكوش غير قطع أرزاق الناس؟! شوفوا لكم حاجة غير كده.. إللي يقول نموّت، واللي يقول نكسر، واللي يقول نوقف المكن.. هوّ إيه؟».. وكان يتكلم بحماس وعروق رقبتة نافرة وعيناه حمر زي حنة اللحمة.. وشوح بيده وهو يقول: «إللي يمشي وراكم ما يكسبش».

ثم أضاف ويد على الفرامل وأخرى على الدف، والمكنة تسرع في الدوران تهزه بعنف: - مفيش أحسن من اللي باليومية.. الواحد ماشي على حل شعره.. لا واحد يقول له فتلة مقطوعة ولا مكنة مكسورة، ولا دراع مقطوع

ولا صامولة راحت ولا حاجة.. آخر المدة نقبض ماهيتنا كاملة، اشتغلنا ما
اشتغلناش عارفين ماهيتنا بالمليم.

وقالها وهو منفرج الأسارير، وابتسم ابتسامة كشفت عن بياض أسنانه
الصغيرة التي تشبه أسنان «الفأر»، وقبل أن يعود همس في أذني: -
استعجلت ووقفت على المكنة خلاص.. حينخرب بيتك.. كل المدة حتبقى
غرامات.

وجاءني عبد العظيم، ولم يقدر على الكلام، كان يشكو من مغص جاءه تَوًّا،
كان يضع يده مكان الألم وهو يتلوى ويخرج من بين شفثيه آهات مكتومة،
وزاد الألم فلم يقدر على الوقوف، ثم سقط على الأرض، يقبض بكلتا يديه
اللتين لم تقويا على الاستمرار لأن الأرض كانت أقوى، واستمر يكبش ويتمرغ
بين الممكن، والعمال تختلس النظرات من بعيد دون أن يقوى واحد منهم على
المجيء إلى جواره، فقلت في نفسي: «فين الرؤساء؟ هَوَّ احنا حنسيه كده؟
حنسيه يموت؟ هَمَّ راحوا فين؟».. واتجهت أبحث بين الممكن وأنا أردد: «هَمَّ
حيعملوا إيه فينا؟».

وإذا بالرئيس واقف بجانب دولاب الملابس المرخص للرؤساء، ومعه عدد آخر
يتحدثون متساندين على الحائط بأذرعهم.. وترددت لحظة في الاتجاه
نحوهم، وأخيرًا تقدمت ووقفت على بعد خطوات منهم، وقد لمحني أحدهم
فحملق في وجهي بعينه الضيقتين التي تشبه عيون الصقر، وأسرعت في
التقدم قائلاً: - العامل عبد العظيم حيموت، نايم جنب الممكن بيتمرغ في
الأرض!

وحملق في وجهي الجميع وهزوا رؤوسهم وقال أحدهم وهو ينظر إلى
الآخرين: - ما يموت.. حيحصل إيه؟

قال آخر:

- يلاً يا واد امشي على مكنك.

فرد آخر:

- ما تروح يا أخي وتشوفه.. هؤ كل يوم لازم يطلع واحد ميت من العنبر؟!!

ورد آخر:

- دلوقت يصحى ما دام ما ماتش خلاص.

وتركتهم يتحدثون، واتجهت نحو عبد العظيم فوجدته نائماً يكبش في الأرض،
وتقدم منه أحد العمال، ورفع نحو صدره قائلاً: - حط صباeck في فمك.. تقياً..
حط صباeck.

وعندما فعل عبد العظيم ذلك تقياً كثيراً، وأخذه أحد العمال ووضع به جوار
الحائط، وبعد فترة ليست قصيرة حضر أحد الرؤساء ووقف على بُعد خطوات
منه، وسأل أحد العمال.. وبعد أن أفهمه العامل أخرج ورقة وكتب كلاماً
وأخذها العامل واتجه للخارج، وبعد فترة جاء يحمل في يده كوباً، وأعطاه لعبد
العظيم، وبعد قليل قام عبد العظيم أصفر الوجه، وسار على مهل في اتجاه
المكن، ولم يقوَ على الوقوف، فجلس بجوار المكن واضعاً رأسه بين راحتيه،
ولم يخرج للغداء وقت الظهر، والعمال المجاورون له لم تترك مكانها طوال
الوقت، وكلما مر أحد الرؤساء كان يتساند بكلتا يديه واقفاً، ويعود من جديد

للجلوس بعد أن يتعد الرئيس، رويدًا رويدًا والساعة تقترب من الثامنة ميعاد انتهاء نوبة العمل.

وانتهى اليوم، ولم يكن العمال منشرحي الصدور مثلما كانوا بالأمس بسبب اللائحة الجديدة التي صدت نفوسهم.. كانت المنازل والشوارع تبدو قاتمة رغم الضوء الخافت الذي ينبعث من أماكن متفرقة، وكان الحديث حول اللائحة الجديدة، وحول ما بها من غرامات، وحول العمال التسعة الذين قتلهم اللفت بالأمس، وحول الأفندية الذين دخلوا المصنع، وحول الأطفال الذين أخفاهم الرؤساء داخل الصناديق.. ومرت الأيام وتتابع الأحداث وشُفي عبد العظيم من مرضه ولم يعد الدم إلى وجهه الأسمر، بل استمر شاحبًا وذات يوم ونحن متجهون إلى المصنع، إذا بجماعات من الأفندية، جماعات كثيرة تقف بالقرب من الباب، وكانوا يتطلعون كلما سار العمال أمامهم بعيون مغمضة، وتساءل العمال: - الحكومة جات؟ لازم نقول لهم!

وقال آخر:

- لما نخش جوّه همّ حيجوا.

ولم تمض لحظة من بدء العمل إلا ودخل المهندس، ومن خلفه عدد من هؤلاء، وعندما وقعت عيونهم على العمال وهم يلفون حول المكن غمض بعضهم عينه نصف غمضة، وبدأوا يلفون حول المكن وفي الطرقات، في طابور لا ينقطع، والعمال تنظر إليهم بعيون متسائلة، والماكينات تسرع في الدوران كالخائفة، والسيور تزيد من سرعتها. ودخل المهندس ومن خلفه كل من كان في العنبر، وكان العمال كلما رأوا المهندس يسرعون في اللف حول المكن وهم يحملون بالعيون في الأفندية قائلين لأنفسهم: «مَن يكون هؤلاء؟»

هل جاءوا ليرونا؟ وماذا يقولون عنا؟ هل نشكو مما نعانیه؟ وما قيمة الشكوى؟! إنهم يسيرون خلف المهندس بانتظام ولا يتركونه لحظة، لم يقترب منهم أحد من العمال يسأله، لم يكن في يد أحد منهم ورقة! إنهم يسيرون خلف المهندس رافعين القامة، وعندما يتحدث معهم يحنون رؤوسهم، فيم يتحدثون؟ إنهم يختلفون عن رأيناهم بالأمس، إنهم يسيرون في أدب، وينظرون للمهندس بعيون شبه ناعسة، لم يرفع أحد منهم عينيه في وجه المهندس، كأنهم يخشونه خشية الموت، إنهم مختلفون عن جاءوا بالأمس، إنهم لا يتحركون! إن الذين جاءوا بالأمس انتشروا بين العمال وتحدثوا معهم دون أن يعيروا المهندس أو الرؤساء أي التفاتة، وكانوا يكتبون في الورق كل ما سمعوه من العمال، فلم لا يفعل هؤلاء مثلهم؟.. وفجأة التفوا حول الساعة الملتصقة في الحائط والمهندس واقف بجوارهم يلوح بيديه وهم واقفون في خشوع، وكل منهم يشبك يديه خلف ظهره ويؤمنون برؤوسهم كالخائفين، وبعد أن أنهى المهندس حديثه خرجوا من العنبر دون أن يلتفتوا، وبقي المهندس مع الرؤساء، يلوح بيديه في اتجاهات مختلفة من العنبر، وبعد أن اتجه الرؤساء في الاتجاهات التي لوح إليها وقفوا يتحدثون، واستمر العمال في تساؤلهم.. وتبين فيما بعد أن العنابر الجديدة سيبدأ العمل فيها، وأن من جاء العنبر اليوم، ما هم إلا أفندية تخرجوا من المدارس وجاءوا هنا ليعملوا، وقد سمع أحد العمال المهندس وهو يقول لهم: «إنكم ستعملون هنا وأمامكم فترة من التدريب.. التدريب العملي مع من سبقوكم، إن الماكينات هنا تحتاج إلى تمرين خاص، إنه يختلف عما تعلمتموه في المدارس، ولهذا فأنتم في حاجة إلى تدريب وتمرين، وسيقف كل منكم مع من تدرب على العمل»، وسأله أحدهم: «كم من أجر ستعطوننا؟».. فرد المهندس: «كل منكم حسب شهادته، وسوف تراعي الإدارة ذلك».

وأدركت سبب انحناء رؤوسهم، وقلت في نفسي: «إن العمال ليسوا وحدهم الذين يحنون الرؤوس، فها هم أفندية تخرجوا من المدارس وعلى أجسامهم أزهى الملابس ومع هذا يحنون الرؤوس ويقفون أمام المهندس صاغرين.. أكل العيش هو الذي جعل الإنسان يقبل مثل هذا الموقف، وسوف يخضعون لما يصدر إليهم من أوامر».

وعدت وتذكرت ما قاله المحامي في المحكمة: «إن الذين يصدرون الأوامر هم الذين يجب أن يوضعوا في القفص.. إنهم يختفون وراء الكواليس».. وها هو المهندس يقول: «سوف تراعي الإدارة ذلك».. وما هي الإدارة؟! إنها هي التي تصدر الأوامر.. وكل ما نعانيه هو بسبب الإدارة.. ضرب العمال صادر من الإدارة.. موت العمال أيضًا صادر من الإدارة.. وعدم دفع التعويض صادر من الإدارة.. كل هذه الغرامات صادرة من الإدارة.. وتلطيح وجوه العمال بالزهرة صادر من الإدارة.. وعلى هؤلاء الرؤساء تنفيذ ذلك.. إنهم ينفذون الأوامر للمحافظة على أكل العيش، إنهم إذن يخشون الفصل كما نخشاه نحن، ولهذا ينفذون الأوامر.. كل منهم يحاول أن يثبت ولاءه، منهم من يحاول أن يخضع العمال، ويجعلهم لا يتحركون، ومنهم من يقدم غرامات للإدارة، غرامات على العمال أكثر من غيره لكي يثبت كفاءته.. إنهم يثبتون كفاءتهم في ضرب العمال، وفي ملء الدفاتر بالغرامات، ولا يثبتون أي كفاءة في تصليح الآلات ومنع الحوادث، والإدارة تسمع منهم في كبرياء وهي لا تعرف ما يدور داخل العنابر، وما تعانيه نفوس العمال من مرارة.. إنها تعرف فقط الغرامات.. لو دفعت الإدارة تعويضًا لعامل مات، أو سجن واحد من الإدارة التي قال عنها المهندس لتغير الحال! إنهم لا يحاسبون.. إن الذين سيأتون في الغد سيقفون بالباب قبل أن يدخلوا العنابر، سيستمعون إلى التعليمات!

وصحوت من تفكيري على صوت أحد العمال يقول: - بُكرة العنابر الجديدة سوف تفتح، وستأخذ كل عمال اليومية.

وانتهى اليوم وقد صح كل ما توقعناه.. فقد وقفوا في طابور طويل أمام مكتب الضابط المجاور للإدارة يحمل كل منهم على ذراعه بالطو أبيض في انتظار أخذ الأوامر، وعندما دخلوا العنابر لم يكونوا مثل من سبقوهم في التخرج، وأطلق عليهم لقب المساعدين.. كانوا يسرون بين الآلات شاردي الذهن، ينظرون إلى وجوه العمال متأملين، كان بعضهم أسمر البشرة، وآخرون ذوو وجوه بيضاء، كان كل منهم يفكر في تنفيذ الأوامر التي صدرت إليهم.. خاضعين لمن سبقوهم في العمل من الرؤساء الذين يتلقون منهم أوامرهم.. وقال العمال في نفوسهم: «إن هؤلاء المساعدين سوف يساعدونا على تصليح الماكينات، والممكن سوف لا يتعطل كثيرًا.. إن كثرتهم هذه ستساعدنا على أن ننجح أكثر».. ولكن حدث ما لم نكن نتوقعه! فالمساعدون لم يقبلوا على العمل بحماس، فقد حددت لهم الإدارة الأجر، لبعضهم ستة قروش وللبعض الآخر سبعة، والتفوا في حلقات صغيرة يتحدثون.. فمن قائل: - هل نحن قادمون من وراء البهايم؟ هل هذا أجر؟ ستة قروش إيه؟ نطفح الدم في المدارس وناخذ الشهادات.. شهادات أد الدنيا وآخرتها ناخذ هذا الأجر؟

وآخر يقول:

- هل أهلنا كانت بتعلمنا وتدفع لنا مصاريف من اللحم الحي، وآخر الأمر نشتغل بهذا الأجر؟ هل أحد يصدق إن واحد متعلم ومعاه شهادة يشتغل بستة قروش؟

وقال آخر:

- آدي آخرة المدارس.. هل الست قروش سوف تؤكلنا؟ كانت أهالينا بتأكلنا،
دلوقت نقول أكلونا؟ دول الستة صاغ دول ما يجيوش هدوم؟ مش معقول!
أنا سوف أسحب أوراقي وأقدمها للحكومة.

فرد آخر:

- هيّ الحكومة فيها شغل؟ دي بيشتغل فيها بالواسطة! إحنا نشتغل على أد ما
يدونا مش حنوسخ إيدينا، وكل منا يحافظ على ملابسه، هل الفلوس دي تقدر
تجيب منها حاجة؟

وعندما سمعت ذلك، قلت في نفسي: «مفيش فائدة يكونون كمن سبقوهم..
لا هم رايعين يشتغلوا ولا حاجة، فلازم الواحد ياخذ باله كويس ويعتمد على
نفسه كويس ولا يروح للمساعد ولا غيره، إلا بعد ما يغلب.. همّ حيعملوا إيه؟
مش حيجوا يشوفوا ويسيونوا ويمشوا؟ الواحد يسرق المفتاح ويصلح الممكن،
والواحد منا عارف كل حاجة دلوقت.. مش لما تنفك صامولة الواحد يربطها»..
وارتفع صوت أحد العمال يقول: - خلاص حيفتحوا العنابر الجديدة.. حيفتحوا
عنبر النسيج نمرة ٢ والمساعدين دول كلهم حتروح هناك تشتغل.

قلت:

- حيشتغلوا إيه؟ دول بيقولوا مش حنعمل إلا على أد ما ناخذ! دول عملولهم
سته صاغ في اليوم!

فرد آخر قائلاً:

- الواحد أمه تربيته وياخذ شهادة وأخرتها ياخذ ستة قروش صاغ.. دول أفندية
على الفاضي.. الحمد لله إن أم الواحد ما تعبتش فيه وبعته أهله للمدارس
كان الواحد يمشي على الفاضي، أحسن كده الواحد لو مشي عريان ما حدش
يقول له إنت عريان ليه! دا احنا لو اتجدعنا حناخذ أحسن منهم.

وبينما نحن نتحدث إذ بعبد العظيم هو الآخر يأتي ويشترك في الحديث،
وسارت الأمور إلى النصف الثاني من النهار، وكانت الماكينات تدور وبعضها
يتوقف، والرؤساء في غفلة عن كل ما يحدث في العنابر.

تأملات وجراح

ووقف أحد العمال من الذين تبقوا من أهالي المحلة بجوار مكنه المتوقف، يلف حوله ويتطلع بعيون زائغة ويرفع هامته، ويعود وينظر بعيدًا عسى أن يجد أحدًا من الرؤساء، وسار يبحث فلم يعثر على أحد، فعاد في هذه المرة وتوقف بجوار العداد الملتصق بالمكنة، وكانت عيناه تضيق وتتسع وهو ينظر فيما حوله، ويعود ويضع طرف أصابعه في فمه.. كان يفكر في شيء ما يصنعه، لا يعلمه أحد سواه، ولكن حركاته كانت توحى بأنه سيفعل شيئًا ما بالعداد، وكان يعود وينظر في العداد ويعود ويتطلع للعمال بحركات مضطربة.. كان يرقب العمال منبهراً بانشغالهم، ويبدأ في تنفيذ ما في ذهنه من عمل، وقد لاحظت أنا ذلك.. وكلما رأيته يتطلع ذات الشمال وذات اليمين، كنت أحاول أن أخفي وجهي لأطمئنه أن أحدًا لا يراه، وكنت أعود وأتطلع خلسة لأرى ماذا يفعل، وفجأة أخرج من جيب جلابيه مفكًا صغيرًا وقبض عليه بيديه، وانتابته انتفاضة شديدة ملكت كل جسمه، وكان صدره يعلو ويهبط ووجهه الأبيض المشرب بالاحمرار قد انقلب إلى اصفرار شديد، وفي سرعة البرق حطم جانبًا من الباعة، جانبًا صغيرًا جدًّا على خانة العشرات، وبلغ ريقه بعد أن اطمأن إلى أنها تحطمت، وتطلع من جديد وهو زائغ العينين، وقلت في نفسي: «ماذا فعل؟ لماذا يحطمها؟ هل حطمها عن غيظ؟ هل يريد أن يحطم المكنة لأنها لم تسرع في العمل أم ماذا؟ ولماذا ترك المكنة وكسر الباعة وحدها؟ هل لأنه لم يستطع كسر المكنة فكسر الباعة؟ وكسرها يعمل إيه؟ هل ينفس عن نفسه؟ عما بصدرة؟».

وفوجئت به يعود وهو ينتفض بشدة ووضع المفك على خانة العشرات وخبطه خبطة بكلتا يديه على العداد.. خبطة قوية، وعاد وكررها عدة مرات، وقد

أيقنت سبب هذه الفعلة، أيقنت أنه يسرق في العداد.. فسألت نفسي: «لماذا يفعل هذا؟ لماذا يسرق؟ هل الدافع هو توقف المكن؟ هل الدافع عدم اهتمام الرؤساء بتصليحه؟ صحيح أن المكن يعطل من الصبح وهذا العطل على حسابه.. ولو استمر على هذا سوف يأتي آخر المدة ولا يجد في جيبه «ولا مليم»، وسوف يقبض ما أنتجه.. وإذا كان المكن متعطلاً راح يقبض إيه؟ لو وجد حد يشتكي له.. لو الرؤساء حد بيحاسبها لما فعل العامل هذا، وهل هذا هو الحل؟».. ونظرت له نظرة لاحظ فيها أنني قد رأيت، وإذا به يقول: -
حامل إيه؟ شغلونا بالإنتاج.. ومش راح أقبض إلا ما أنتجه.. وأهه آدي انت شايف المكن عطلان.. عطلان من الصبح.. ورحت للرئيس أكثر من مرة، ولكن الرئيس في وادي واحنا في وادي آخر!

وسكت لحظة وتنهذ بغيظ وهو يحاول أن يبلع ريقه واسترسل قائلاً: - حارّوح لأهلي ازاي؟! حارّوح آخر المدة من غير ولا مليم؟ وهيّ أمي حتصدق؟
حتصدق إن المكن عطلان؟!

وتطلع إليّ وهو يحدق فيّ النظر:

- وإخواتي منتظرين.. منتظرين أعمل كده.

وكز على شفتيه، وخبط بقدمه في الأرض.. قلت:

- افرض حد شافك؟ حتعمل إيه لو أمك سمعت إنك حرامي، وانفصلت لهذا السبب؟ حتعمل إيه؟

فعاد وخبط بقدمه اليمنى وقال:

- مين المسؤول؟

قلت:

- ساعتها مفيش حد راح يسأل.. الجاموسة لما بتقع بتكثر سكاكينها.. كل واحد عايز يدبح.. ويبقى الكلام كله حول الجاموسة، ومفيش حد بعدها راح يسأل عن السبب.

- يعني لما أعمل كده كل الأنظار تتجه لِيَّ؟ كل الناس حتكرهني؟ أمال الشركة اللي بتسرق آلاف العمال كل يوم مفيش حد ليه بيحاسبها؟ بس احنا لو عملنا حاجة كل الناس تكرهنا؟!

- أنا اللي شفتك.. وأحسن ما تعملهاش.. الصحن لما بيتكسر ما بيتصلحش.. ولو اتصلح يفضل مشوه ومفيش حد بياكل فيه!

قلت هذا وتركته واضعًا يديه فوق جبهته.. وإذ بأحد العمال يأتيني على الممكن، وتبينت أنني لست وحدي الذي رآه.. فقد رآه آخرون، وبقي العامل على مكنه واقفًا دونما حركة إلا وقت أن يأتي الرئيس، فيحذف بيده الفرامل، وبعد أن يمر يعود وبوقفها.

وفي اليوم التالي، عاد وفعلها، واستمر يسرق في العداد طوال أيام.. وفي يوم القبض كانت الأنظار كلها متجهة له ليعرفوا ما سيقبضه.. أنظار كل من رآوه.. وإذا به يقبض أكثر ممن كانوا يجهدون أنفسهم، فقد قبض أكثر من ستين قرشًا، مع أنه لم يكن يعمل في اليوم أكثر من ساعة، ساعة فقط، وما يتبقى من ساعات اليوم كان يقضيه خلف الممكن أو يلف حوله أو يقف بين العمال.. وكلما رأى أحد الرؤساء آتيًا أسرع وأدار الممكن.. واستمر هكذا.

وفي يوم وقف وكأنما يحدث نفسه: «زي الرؤساء ما بتسرقتنا، نسرقهم، مفيش حد أحسن من حد».. اجتمع بعض العمال وقال أحدهم: - يا سنة سودة! هُوّ احنا حنفضل ساكتين كده لإمتى؟ الواحد طافح الدم وعينه اتتمقت من أخذ الفتل! هُوّ فيه أكثر من دي فوضى؟! نقبض أقل منه والواحد انحش وسطه؟

وشوح في وجوه الواقفين بيده:

- اتناشر ساعة واقفهم على الممكن، ويبجي واحد ما بيقفش أكثر من ساعة، ويقبض الفلوس دي كلها؟! الطيب ما ينفعش في البلد دي.

فرد آخر:

- نعمل زيه.. حنخاف من إيه؟

قلت:

- من ربنا! الحرام بياخذ الحلال في رجليه.. الحرام ما ينفعش.

فرد آخر:

- خليك مع الحلال بتاعك، هُوّ اللي بيتعمل فينا ده كله مش حرام؟ هيّ الغرامات اللي بناخدها والناس اللي بتموت وأطفالهم تتيتم مش حرام؟! همّ مش كفاهم الظلم! كل يوم بيعتدوا علينا، خلاص، كل واحد يقدر على حاجة يعملها، مفيش في قلوبهم رحمة، حناكل طوب؟! بنشتغل ليه؟ هُوّ فيه حد بيسأل ولّا بيقدر، إللي حارق دمه في الشغل زي اللي قاعد طول النهار ما بيعملش حاجة.. نعمل زيه.. المهم ما نخليش حد يشوفنا.

وتركتهم واتجهت نحو عبد العظيم أسأله.. وإذا به يقول: - من بص لعيشة غيره حرمت عليه عيشته.. غمض عينيك عن كل ما تراه.. كل واحد يعمل ما بدا له.. ما دام ربنا مدي له شوية عافية ما يستخسرهمش.

وأدار المكن وتطلع نحوي:

- هُوّ فيه حد بيثيل ذنب الثاني؟ كل واحد معلق من عرقوبه.

كان يتكلم وعينه مصوبة نحو العامل الذي يسرق في العداد: - سييهم.. «مَنْ عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها».. مفيش حد راح يتحاسب إلا بعمله.. إللي بيعمل طيب ينكتب له.. فيه ملايكة بتسجل عمل كل واحد.

واسترسل قائلاً:

- إنت بتصلي؟

- لأ.

- ليه؟

- مفيش.. مفيش وقت.. يا دوب الواحد بيصحى الصبح ويروّح آخر النهار هلكان.. يا دوب بياكل ويروح متلقح نايم.

- دا دين.. الصلا دين على الواحد.. لازم يقضيه.. صلّ علشان ربنا يكسبك.

- أمي طول عمرها بتصلي.. وباما رفعت إيديها للسما وطلبت منه إنه يغنيها.. لحد دلوقت لا اتغينا ولا حاجة.. زاد علينا حاجة؟ سيينا في غلبنا!

فشحب وجهه وامتعص امتعاضة أبرزت وجهه الصارم.. وعاد وتكلم في حزن:
- ما تقولش كده!

عاوز تقول إن ربنا ما بيعملش حاجة؟!

- لحد دلوقت أمي بتدعي، وكل يوم بتدعي، وياما وقفت ناس في بلدنا على
أسطح البيوت ينكشوا شعورهم داعيين على الظلم وخاصة على العمدة، ومع
ذلك فالعمدة حي، وأولاده في المدارس، ووجوههم منورة، وخدودهم موردة،
وعندهم بهائم كثير، بهائم بتحلب، وأولاده يشربون من هذا اللبن، وكثير من
أبناء القرية وجوههم مصفرة، ومليانة بقع بيضاء، ويسIRON خلف الحمير
المحملة بالسبخ يلهثون.. والعمدة ياخذ الرجالة بالعافية للعمل في أرضه،
وياخذ النسوان لتلزيق الجلة فوق بيته، وده اللي يخلي الناس بترفع إيديها
للدعاء عليه.

فشخط في وجهي:

- إنت يظهر عليك كافر! إوعى تقول الكلام ده قدام حد!

قلت:

- ما فيه ناس كثير عندنا بتصلي، وبيطلعوا الفلوس للغلابة بالربا، الجنيه
ياخدوا عليه ريال، وأمي قالت لإخواتي روحوا صلوا، وإخواتي يرفضون،
وكثيرًا ما رفضت أمي الأكل معهم على الطبلية، وفضلت تحلف، وكل يوم
تحلف على إخواتي، لما أخوبا إبراهيم زهق وراح صلى، وأول يوم صلى
الجزمة راحت، طلع من غيرها، اتسرقت من قدامه وهو راع، الجزمة ما
كانش حيلته غيرها.. وقعد يسب ويلعن ورَّوح حافي.. وأمي تقول له:

«معلّش.. بُكرة ربنا يعوضها لك».. «إنتِ اللي شورتني عليّ الشورة دي!».. ويقول: «ربنا رب قلوب هوّ احنا حتحاسب على إيه؟ إحنا شقيانين.. كل واحد لابس عمة أد الدنيا وماسك سبحة نازلة الأرض ومفيش في قلوبهم رحمة.. بيشغلونا وياكلوا عرقنا». وكادت أمي أن تكرشه، لولا تدخل من يحبونا، وردوا اليمين إلى أخي، وعاد إلى الجامع ليصلي في السيد البدوي، ولما انتهى من صلاته، خرج ليجد ملاحظ البلدية قد مر فلم يجده فخصم له ثلاثة أيام.. وفضل يسب ويلعن.. ولم تعد أمي بعد ذلك تقول لأحد من إخواني «روح صلّ»، بل كثيرًا ما رددت: «المؤمن دايمًا مصاب».. فأنت عايزني أروح أصلي؟ أصلي فين؟! هوّ الواحد قادر يتحرك من على الممكن.. دا احنا هنا ألّعن من البلدية.. هي الرؤساء هنا بيعرفوا ربنا؟! الرؤساء لو شافوا الواحد منا واقف بيصلي، مش حيخصموا له بس، يمكن كمان يفصلوه، وساعتها مفيش حاجة حتتفع الواحد ولا صلا ولا غيره!

وبينما نتحدث انقطع أحد سيور الممكن ولف على الطنبور، وفضل يلف يلف وبخبط في السقف، وإذ بأحد ألواح الزجاج يقع فوق رأسي، فوقعت على الأرض ولم أسمع سوى أصوات آتية من بعيد، كنت أسمعها كالحالم.. أصوات تقول: «الحق يا جدع»، «الواد حيموت»، «واحد يقلع جلايبته ويلفها على دماغه»، «الدم بيشرشب واحد يكتمه»، «الواد دمه حيتصفي».. والأصوات تبتعد وتبتعد، ولم أعد أشعر بشيء.

وفي النصف الثاني من الليل بربشت عيني على أنين متواصل من أماكن متعددة.. أنين يقطع الأكباد. وإذا بي أجد نفسي على أحد الأسرة في عنبر واسع، كل مرضاه من العمال، وحاولت أن أتبينهم فلم أقدر لما في رأسي من ألم. كانت ملفوفة بالقطن، ولم يكن بها مكان يخلو من القطن والشاش..

وشعرت بألم متزايد، وبقيت في مكاني نائمًا، دافئًا رأسي في الوسادة،
وعجزت عن تحريكها، وازداد أنين المرضى النائمين، وإذا بصوت خافت ينادي
ويئن عند كل كلمة: - يا تمرجي.. يا تمرجي.. جنبي سخن يا تمرجي.. غطيني يا
تمرجي.

وصوت آخر يقول:

- اعدلني يا تمرجي على جنبي الثاني.

وثالث يقول:

- الحقني.

أصوات وأصوات وأنين لا ينقطع.. وقلت في نفسي: «يا نهار أسود! الواحد
حيموت! ده أمي لو عرفت هتلتطم! فين الواد الغريب؟ وفين عبد العظيم؟ ما
حدش سأل ليه؟ وإيه اللي كان وقفني تحت السير؟ ليه ما بعدتش؟ فين
المكن بتاعي؟ زمان حد وقف عليه؟ مين يا ترى اللي استلم مكاني؟ كانت
إيدي خدت عليه، وعرفت كل ما فيه من عيوب، بل وعالجت الكثير منها،
وكدت أن أكون الأول في الإنتاج على إنني أصغر العمال سنًا.. هل الرؤساء
هترجعني لما أرجع؟ يا رب الواد الغريب يبجي علشان يجيب لي أمي.. تيجي
هيّ وأختي.. حاموت من غير ما يشوفوني؟ يا خرابي!».

وصحوت من تفكيري على صوت طفل يزعم منادياً:

- يا تمرجي.. يا تمرجي.. فيه واحد مات.. مات يا تمرجي!

وتوالت المناداة، وأحسست بكركة من على الأسرة، وإذا بصوت يقول: -
أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وأخر يقول:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

وثالث يضيف في مرارة ساخرة:

- والله ده حظه كويس.. لقي حد يتشاهد عليه، غيره مات ما حدش شافه!

وعندما سمعت كل هذا كانت دموعي تتساقط وقلت: «أين أمي؟ مين يجيها
لي دلوقت؟ آه ياني، حاموت هنا غريب! حاموت غريب من غير أمي ما
تشوفني!».. ودخل رجلان يلبسان جلابيب بيضاء العنبر مسرعين واتجها إلى
الداخل.. وبعد قليل عادا يحملان الجثة، ومن ورائهما الطفل وهو يقول: -
رجليه، رجليه عريانة غطوها، غطوا رجليه!

ولكن أحدًا لم يلتفت لكلامه، واستمروا مسرعين، وواصلت بكائي المكتوم،
ومرت أمام عيني صور عديدة.. تصورت أختي يوم أن هربت، وكانت تسير
خلف الحمار بجلبابها الأسود، وعندما رأتي جرت خلفي في الشراقي وهي
تزعق: «تعال يا اخويا، تعال ما تخافش».. تصورتها يوم أن ضربتني أمي وهي
تزعق في وجهها: «بتضربه ليه يا بت الكلب؟ يا بت الكلب يا امه!».

وإذا بصوت أحد المرضى يقطع تتابع الصور قائلاً: - الولد ده من ساعة ما جه
وهو نائم على السرير ما بيتقلبش!

وزعق آخر:

- سيبه.. سيبه في حاله دلوقت بنسمع أنيه!

ولكنه اقترب مني، ولم أستطع احتمال رائحته النتنة المنبعثة من ساقه المقطوعة، وحملق في وجهي، وإذا به يرى دموعي المتساقطة على خدي، وهمس في صوت يشبه الصمت: - إنت بتعيط؟ بتعيط ليه؟

وأمسك طرف الملاية، ومسح لي الدموع، واسترسل قائلاً: - خد البرتقان ده.. خد بل ريقك.. إحنا زي بعض.. إنت مينين؟

ولكني لم أستطع الإجابة، وأشرت له بيدي طالبًا منه السكوت لأن الكلمات كادت أن تشق رأسي. واقترب منا مريض آخر وقال: - ما تسيبه يا أخي!

وتنهد وهو يقول:

- الله يكون في عونہ!

وترك البرتقال بجواري، وتركاني شارداً الذهن، أفكر في أختي التي تنتظر عودتي.. وعدت إلى تصوراتي متطلعًا إلى السقف.. أتساءل: كيف ستتقبل أمي هذا الخبر؟ سوف تشنق نفسها بالطرحة، وسوف تلتخ وجهها بالطين.. ومع تدفق هذه الخواطر والصور ازدادت ضربات قلبي واشتد خفقه، وقلت لنفسي: «إمتى الصبح يطلع؟».. ودخل أحد التمرجية يدق الأرض بحذائه الغليظ، وتوجه نحوي، وأمسك بيدي، وقال: - ليس هناك ما يستدعي الطبيب!

وأعاد الغطاء وتركني. كانت آهات المرضى المتصلة والمتقطعة تملأ العنبر بجو من الحزن الشديد، وعاد التمرجي مرة أخرى، وكشف الغطاء عني، وأمسك بذراعي وغرس فيه إبرة صرخت حين غرسها، ولم أشعر بشيء بعد

ذلك. وفي الصباح التف حولي المرضى وكانوا حليقي الرؤوس، وحاولوا بث
الطمأنينة في نفسي: - إنت كويس.. بلوتك خفيفة!

وكشف لي كل منهم عن بلواه: منهم من تقطعت أصابع يديه، ومنهم من
تقطعت رجلاه، أو شوهدت مية النار «وجهه».. ورائحة اليود تنبعث من
جروحهم التي طال علاجها، وقال أحدهم: - إحنا خلاص ما عادش لنا شغل في
المدعوقة دي ولا في أي مكان آخر.. أما انت فمصيبتك أخف.. أخف بكثير..
هتقعد يومين، وهتخرج تاني للشغل.

وقال آخر:

- إزي الأجور دلوقت؟

وحكيت لهم عن توقف المكن، وتشغيل العمال بالإنتاج، وتبادلوا النظرات،
وهم يرددون: - الأجور زادت، يا سلام! بس احنا اللي حظنا زي الزفت! ملناش
بخت!

ورد آخر:

- إنت حتحاكم ربنا؟ كل واحد بياخد نصيبه! كل ده ما يساوبش حاجة قدام
البلاوي اللي احنا فيها دي!

فرد آخر:

- قضا أخف من قضا.

وانطلقت من أحد الأسرة تأوهات فقال أحد المرضى: - دا واحد جه في نص
الليل.. الحكيم قطع رجليه، درفيل المكنة هوّ اللي قطعها له.

وأدركت بنفسى بعد ما رأيتة من البشاعة والبؤس والظلم لماذا رفضت المحكمة أن تلبى دعوة المحامى الذى قال فى المرافعة: «تعالوا إلى المستشفى الأميرى لتروا بأعينكم ضحايا جرائم من يختفون وراء الكواليس ويصدرون الأوامر». وقلت فى نفسى: «لا شك أنهم يعرفون ما سيرونه.. فهم قرأوا بلا شك أقوالنا أمام النيابة، ومع ذلك فقد حكموا على العامل».. اليوم فقط تأكدت أن المحكمة عندما رفضت الحضور إلى المستشفى كانت تعلم ما حدث، وأن النيابة عندما تسترت على ما يحدث وأهملت أقوالنا تعلم هي أيضًا حقيقة ما يحدث.

وارتفع من بعيد صوت أحد المرضى:

- الزيارة.. الزيارة جات برّه.. حتخش دلوقت.

كان يتكلم والدماء تعود تجري فى أوصاله ويسألني: - مش عاوز حاجة؟ مش عاوز تقول حاجة لأهلك؟

وأجبت باقتضاب:

- أهلى مش هنا!

واندفع الزوار داخلىن، عدد كبير يتدافع فيه خليط من الرجال والنسوان والأطفال.. بينهم فلاحات تمتد ملابسهم السوداء إلى كعوبهن، وأطفال صغار يتعلقون بأمهاتهم والكل يبحثون فى الأسرّة عن مرضاهم، وبعض المرضى يرشدون من يعرفون من الزوار إلى من يعرفون من المرضى، وكان أشد ما يؤلمني ويحرك كوامنى بكاء الأمهات عند تقبيل أبنائهن وهن ينظرن إلى ما تشوه من أجسادهم.. والتف الجميع حول الأسرّة وهم يضعون ما أحضروه

معهم من طعام أو فاكهة، والأطفال يصرخون ويضحكون ويجري بعضهم وراء البعض وراء الأسرّة غير مباليين بما حولهم، فهم في وادٍ، والآباء والأمهات والمرضى في وادٍ آخر. وارتفع صوت امرأة ممتلئة الجسم كانت تجلس على السرير المقابل لي، وقد وضعت يدها على خدها: - يا عيني! كل الناس بتزور..
إشمعنى اللي جنبك ده ما عندوش حد؟

واتجهت نحوي بعينيها، ثم قامت فجأة وأخذت بعض المأكولات والفاكهة من صرة بجانبها، واقتربت مني: - خد يا اخويا.. أهلك لسه ما عرفوش.. خد يا حبيبي بكرة يبجوا لك.

وانتابتني قشعريرة، وارتجف جسمي، وتدفقت الدموع في عيني، وهي تططب عليّ قائلة: - خد أنا زي أمك.. ربنا يكتب لكم السلامة.. ما تنقهرش..
إنت مينين؟ قول لي وانا أروح لأمك أو أبعث لهم.

وانضم إلينا بعض النسوة الأخيرات يحملن لي مما أحضرنه وهن يممصن شفاههن متحسرات!

- يا واد يا فكري!

ارتفع صوت يأتي نحوي من باب العنبر:

- يا فكري يا خولي!

ورن الصوت في أذني، صوت الولد السيد الصفطي.. وانتفضت من سريري كمن أتته نجدة من السماء، ولم أستطع أن أزعق كما يفعل فوقفت ألوح بيدي، وصاح عندما رأيته: - أهه.. تعالوا.. تعالي من هنا يا امه السيدة.

وعندما سمعت اسم أمي، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فارتيمت على السرير وجسمي ينتفض، ودخلت أمي مهرولة وهي تصيح: - فين؟ فين يا ولاد؟!

ومن خلفها أختي.. وانكفت عليّ وكادت أن يغمى عليها.. ولم تكن أمي وحدها، فقد صحبتها كثير من الجيران ومعهم صاحبة المنزل ومعهم امثال تقف بجوار أمها وتتنظر لي، وقد امتلأت عيناها بالدموع، دموع بيضاء تلمع حبيسة بين الجفون.. والنسوة يحاولن منع أمي من البكاء ويقلن لها: - ما تشجعيه يا ولية! هوّ انتِ حتقعدى معاه؟ كلها ساعة زمن وتروّحي!

وزعقت امرأة من الخلف تقول:

- قلب الأم.. قلب الأم يا ولاد.. سييوها.. إلهي ما ينحرقش قلبها عليه ويطلع لها بالسلامة.

وأختي تمسح الدموع في عينيها وهي تقول:

- مالك يا واد؟ بعد الشر عنك! سلامتك يا اخويا!

وارتمت عليّ من جديد.. وترصص آخرون على أطراف السرير.. وتبدلت الدنيا من حولي وامتلاً السرير بأكياس الفاكهة.

وقالت صاحبة المنزل لأمي:

- إنتِ في البلد واحنا وياه هنا.. ده زي ولادنا.

وحاولت أختي فك الأربطة من على رأسي، ولكن النسوة منعنها: - سيبه مربوط أحسن الحكيم يزعل.

وجاء أحد التمرجية وقال لأمي:

- بتعيطي ليه يا ولية كده؟ ده بعد يومين ولّا ثلاثة حيطلع لك.

واقتربت امتثال مني وابتسمت وهي تقول:

- متسلبط كده ليه؟ هوّ مفيش على الحجر غيرك؟

وهمست في أذني:

- خد ما توريهاش لحد.

ودست في يدي قطعة نقود فضية.. بينما انهمكت أمها في الحديث.. ولكن عينيها لا تفارق عيني.. وكانت أُمي كلما رأت المرضي راقدين حولي بوجوههم الشاحبة وأذرعهم المقطوعة، اشتدت في البكاء، وهي تردد بين الحين والحين: - مالنا ومال الممكن اللي يموت الناس؟! وهوّ فيه حد يبجي لقضاه برجليه؟!

وقال لي الولد الغريب:

- الممكن بتاعك الريس سايبه لك، وهوّ اللي قال لي روح شوفه.. وعبد العظيم عيط، عيط علشانك كثير، وكان عايز يبجي لكن الرئيس ما رضاش، وقال له لو رحت حاخضم لك ثلاث أيام.. وأنا رحت جبت أمك، وامثال هيّ اللي ادتني أجرة القطر.

ولما قال ذلك قرصته امتثال في فخذة وهي تقول:

- ما تزعقش! ما تقولش!

وظلت امتثال طول الوقت جالسة القرفصاء على الأرض بجوار السرير،
وأختي بجوارها.

وزعق التمرجي:

- خلاص.. الزيارة خلصت!

وقالت لي صاحبة البيت وهي تعطيني قطعة من ذات القرشين: - ابقى إديهم
للمرجي.. وإوعى ياخذ منك الحاجة اللي احنا جايينها!

وقبلتني من فمي، كما قبلتني أمي من كل مكان في وجهي مرددة: - شد
حيلك!

وأضافت أمي:

- حاجوزك وأفرح بيك قبل ما يحصل حاجة! ما حدش ضامن عمره!

والتفتت تكلم مَن حولها:

- هوّ اللي فاضل.. آخر العنقود.. هوّ اللي حيلتي!

وخرجوا وقد أخذوا قلبي معهم.. وعاد وساد السكون في العنبر، ولم يعد
يقطعه إلا التأوهات والأنين.. واتجهت إلى النافذة لأرى أهلي وهم يسيرون..
وخيم الحزن على العنبر، وساد المستشفى سكون، وكأن السعادة قد رحلت
مع خروج الزوار والأطفال الذين كانوا يشيعون البهجة في النفوس.

ولوحت لي أمي في الحوش بيديها، وكانت امتثال تسير خلفها وهي تومئ
برأسها نحوي.

ومن بعيد كانت مداخن المصانع العالية تقذف بدخانها الأسمر الكثيف الذي يغطي السماء، وما زال المصنع يدور وضحايا الماكينات باقون يتعذبون.

وصاح التمرجي من وسط العنبر:

- كل واحد ينزل الحاجات اللي فوق سريره.

وتذكرت ما قالته لي أم امثال، وتحركت في بطاء إلى السرير: - مش معقول ياخدوا الحاجات.. أنا لسه ما دُقتهاش.. حاديهم القرشين الصاغ.

والتفت حولي فإذا بالمرضى يحاولون إخفاء حاجاتهم بينما التمرجي ينظر إليهم.. ودخل التمرجية يفتشون الأسرّة، وبأخذون ما أخفاه المرضى.

وفكرت أن أصبح لو أخذوا حاجاتي.. وأنده على الحكيم.. لن أعطيهم أي شيء.. أديهم وأحرم نفسي؟!

وكان التفتيش يدور بهمة، والأشياء تتراكم في ملاءة فرشوها وسط العنبر.. والمرضى ينظرون إليهم وقد امتلأت عيونهم حزناً.. وعندما جاءوا عندي قلت لهم خدوا الفلوس، فأخذوها واستمروا في جمع الحاجات من فوق السرير، فزعقت زعقة مدوية شقت سكون العنبر: - أنا ما كلتش! وأمي جايباه معاها! جايباه علشانني! مش أخذتم الفلوس! حرام عليكم! كفاية كده!

وحاول أحدهم أن يكتم فمي لولا دخول أحد الحكماء فوجد كل ما أخذوه التمرجية مكوّمًا على الملاية، وهم واقفون متلجلجون، ونظر الحكيم للملاية، وقال لي بصوت هادئ: - مالكم؟ مالك بتعيط ليه يا شاطر؟

- خدوا الحاجات مني.. الحاجات اللي أمي جايباها! والله لسه ما دُقتها!

ووقف ساهمًا ينظر للملاءة، ثم عاد والتفت إلى المرضى وقال: - كل واحد
ييجي هنا.

فاجتمعنا حوله.. فقال:

- كل واحد ياخذ حاجته.

وتدخل أحد التمرجية قائلاً:

- حيوسخوا العنبر.. إحنا لمينا الحاجات دي علشان ننصف.

ولم يبال الحكيم بكلامه.. واستمر يتابع رجوع الأشياء لأصحابها.. وابتسم
المرضى وهم يسترجعون حاجاتهم، واقترب مني أحدهم قائلاً: - إيه اللي خلاك
قلت كده؟ دلوقت لما الدكتور يمشي حيموتونا! دي أرواحنا في إيديهم! هيَّ
«الحكما» تعرف حاجة! ده يمكن يدوا حقنة للواحد يموت فيها! هوّ فيه حد
بيحاسبهم؟! جيت لنا الأذية يا شيخ! استلقى وعدك! التمرجية كلهم كده، ولازم
نعمل معاهم كده، هيَّ دي أول مرة؟! طول عمرهم كده!

- أذية إيه اللي انا جبتها؟ لو عملوا لنا حاجة نشكي للحكيم.. صاحبة البيت
قالت لي كده.

وتركني واتجه لسريره وهو يقول:

- استلقى وعدك بقه.. ابقى خلّي حد ينفعك!

كان المرضى على الأسرّة يأكلون في سرعة ونهم شديد، كما لو كانوا خائفين
من عودة التمرجية مرة أخرى.. وجلست على سريري أحاول تناول الطعام
الذي أحضرته أمي، ولكني ما إن بدأت حتى شعرت بألم يدق في رأسي،

وانتابتني رعشة شديدة.. واتجهت بعيني إلى النافذة، فرأيت سرّبًا من الغربان
الجائعة تقف على أشجار الصفصاف، في انتظار ما يقذف به المرضى من
فضلات.. وكانت رأسي تدور، وقلبي خائف مما سيفعله التمرجية معي.. وجال
بخاطري أن أحل الرباط وأبلل الجرح بالماء حتى لا يؤلمني الرباط عند
الغيار.. واستقر رأبي على ذلك.. وفجأة دخل ثلاثة «حكما» العنبر مارين على
الأسرة وبدأوا يكتبون في الورق.. واقتربوا من سريري، وتناول أحدهم
تذكرتي وكتب عليها شيئًا.. وقال أحدهم للآخر: - إنت كتبت له خروج وشفأؤه
لم يتم بعد!

فرد عليه:

- أعمل إيه المستشفى مليانة والداخل أكثر من الخارج، واحنا مضطرين أن
نفسح أماكن، والمصانع زي ما انت شايف حوادثها كتيرة والوارد منها أكثر من
طاقة المستشفى!

فعاد الحكيم الأول يقول له:

- لكن فيه حالتهم سيئة أوي ومش ممكن يطلعوا!

فرد قائلاً:

- على أي حال، أنا ما كتبتش خروج إلا للميؤوس من شفأئه.. أو اللي ممكن
يكمل علاجه ويبجي العيادة الخارجية للغيار.

واستمروا في حديثهم بجوار سريري وأنا أتابعهم، وسأل واحد منهم: - ما
جاش رد من الوزارة على تقاريرنا بخصوص عنبر السل؟ دلوقت حالات السل
منتشرة بشكل خطير، والعنبر مليون على الآخر!

فهز الآخر رأسه ولم يجب.

وانصرفوا من العنبر.. ولما قرأت ما كتبوه على تذكرتي.. فرحت فرحًا شديدًا،
فقد كان أمرًا بخروجي.. وقلت في نفسي: «أحسن ما يموتني التمرجية»..
وصاح أحد المرضى: - حاخرج أروح فين وانا مش قادر أمشي؟

والتف حوله المرضى قائلين:

- أحسن اللي كتبوا لك خروج.. حتستنى هنا لغاية ما تموت؟ روح اتعالج في
بيتكم!

وكشف الرجل عن رجله المقطوعة وهو ينفطر من البكاء، بينما فاحت رائحة
رجله التنتنة، فغطاه أحد المرضى وهو يقول: - ما انا رجلي زيك أهو، لكن
فرحان اللي خارج لأهلي.

وقال آخر ممن لم يكتب لهم بالخروج:

- يا ريت أخرج أنا كمان.. وأقعد وسط أهلي!

ودخل أحد التمرجية ومعه عدد من التذاكر، أخذ ينادي على من كتب لهم
بالخروج.. وجال بخاطري أن أترك ما جاءت به أمي للمريض الذي عطفت
زوجته عليّ قبل دخول أمي.. وفعلاً جمعتها وتركتها له على السرير.. وسلمني
التمرجي ملابسني، وخلعت ملابس المستشفى وارتديت ملابسني، وخرجت
مسرعة من العنبر.

الحنين إلى المكن

أسرعت الخطى في طريقي إلى البيت.. وقد ثار في نفسي الحنين إلى العمل وإلى المصنع.. الحنين إلى المكن وإلى وضع أذني عليه لكي أعرف موضع الخلل فيه. ولكن ما العمل وأمي سوف تصر على أخذي معها إلى القرية نهائيًا.. هل أترك المحلة وأعود ثانيًا إلى القرية؟

ستقول «إخواتك البنات أولى بيك عاوزين يفرحوا بيك.. حتموت هنا غريب».. ولكن لا.. لا أستطيع العودة إلى القرية.. سأقول لها إن الجرح ليس من المكن، ده لوح قزاز وقع عليّ، والرئيس ما زال محتفظًا بالمكن لي، لأنه يعلم أنني من العمال الأكثر مراتًا على العمل، أحب مني المحافظة على المواعيد، وعدم اللعب، والرؤساء يحبون المجددين من العمال، لأنهم هم أيضًا يحبون أن يبرزوا أمام رؤسائهم.

لو ذهبت اليوم سأفقد كل ما بنيته وكل العطف، وسأفقد المكن الذي تعودت عليه يداي، أليست هي التي طلبت مني أن أكون زي الناس اللي في مصر؟ كيف إذن أعود إلى القرية؟ واستغرقتني مخاوف التفكير، وانتهت فجأة فوجدتني في مكان لا أعرفه.. لقد ضللت الطريق، والظلام من حولي، وضوء ضعيف ينبعث من بعض النوافذ لا يكاد يضيء الطريق.. وهبت رياح باردة جعلتني أسرع الخطى في الشارع الخاوي.. وأنا أحاول تذكر الطريق.. وإذا بصوت ديب هائل يرج زجاج النوافذ.

واندفعت نحوه على ضوء السجائر المتوهجة.. فرأيت جيوشًا من العمال تسير مسرعة، تدك أرض الشارع في طريقها إلى المصنع.. آه.. عمال الوردية الثانية في طريقهم للعمل.. ووددت أن أرى عبد العظيم بينهم.. وشققت

طريقي وسطهم.. كنت قد عرفت طريقي فسرت في بطاء وعدت أفكر في ما ستقوله أُمي.. «لقد تبهدلت من أجلك، ولست مستغنية عنك». ولكني أصبحت الآن عاملاً.. تعلمت أن أدير المكن وأخضعه لي بعد أن كنت أخافه.. ومن واجب كل إنسان أن يعمل ويعتمد على نفسه.. وهل من الممكن أن أكون عالة على أخي؟ وإلى متى؟ الأفضل أن يكون لي عمل يتفق مع هوايتي.. وأخي لو تحملني اليوم فلن يتحملني اليوم الآخر.. أنت اليوم عندما تنظرين إلى الأقمشة في المحلات تقولين، هذا ما صنعه ابني، وكلما اشترينا ثوبًا ستتذكرين أنه من صنعي.. أليس هذا ما كان يتمناه أبي؟! ويمكنك الآن أن تقولي إنك عملت بوصيته.. وأن ما تنتجه أرضنا من أقطان نغزله وننسجه بأيدينا.. وإذا كان المرضى المشوهون الذين رأيتهم اليوم في المستشفى لا يعرفون للمصنع صاحبًا يطالبونه بالتعويض، فهذا لن يستمر طويلًا وسيعرفون لهذا المصنع «صاحب».. لقد شكونا وكتبنا وسأخذ حقوقنا، وزى ما قال عمي الحاج محمود الصعيدي: «العيار اللي ما يصيبش يدوش».. اتركيني أعمل هنا لأساعدك، فواجبي أن أعوضك وأسعى لراحتك.. فأنا مهما فعلت لن أوفيك جميلك، إذ رفضت أن تتزوجي بعد موت أبي.

وعلى باب المنزل وجدت امتثال واقفة وبادرتني عندما رأتنى: - إيه اللي جابك؟ إنت هربان؟!

وطوقتني بذراعيها، وقبّلتنى من فمي، وشدتنى إلى الداخل وهي تصيح: - يا ست أم فكري.. فكري جه.

ولم تكن أُمي وحدها في الحجرة، بل كان معها كثير من السكان، وأسرعوا لاستقبالي وقد ملأت الفرحة وجوههم، وكل واحد يريد أن يجذبني إليه في حنان. وأخذتنى أُمي في حجرها كالطفل، ووضعت رأسي أمامها وأخذت

تأملني.. وساد الحجر المرح.. ودخل الولد الغريب عائداً من الخارج ويده طبق به غسل وطحينة وهو يهلل من شدة الفرح.. ولشدة اضطرابه أوقع الطبق وهو يحاول وضعه في أحد الأركان، واتجه نحوي وأخذني في حضنه.. ودخلت امتثال وهي تفسح لنفسها طريقاً وسط الزحام وناولتني كوباً من الشربات الأحمر، وقالت أختي بانفعال: - عقبال ما نقدم لك يا أختي في كتب كتابك.. ويكون قريب يا رب!

وردت إحدى الساكنات:

- وتكون عليه!

وانشرحت أسارير امتثال، واحمرت وجنتاها، وانفجرت في الضحك، وعندما انتهت من ضحكاتها غطت وجهها بيدها، وتنهدت وعضت على شفتيها، وسارت إلى الباب.. وهزت أُمي رأسها وعادت تتأملني.. وعادت امتثال مرة أخرى وهي تحمل في يدها مقطع الحرير السكروته قائلة: - خد، أُمي جابته لك من عند الخياطة.

فردت أُمها قائلة:

- عقبال بتاع العروسة.

وهزت أُمي رأسها.. ولم يعرف أحد لماذا هزت أُمي رأسها، أما أنا فعرفت.. إنها تقول في نفسها: «متى يطلع نور الصباح لآخذه من هنا، ولن يعود أبداً.. إنتو حاطين عينيكم عليه ولَّا إيه؟ إللي تقول «ويكون عليها» واللي تقول عقبال بتاع العروسة! همَّ بيغنوا ويردوا على بعض؟ يعني يا ابني اللي جرى لك

مش من شوية.. دي عين وصابتك.. اللماضة بتاعته دي حتجيب أجله»..
وحاولت أن تخفي غيظها فأحنت رأسها إلى الأرض.

وفي الصباح أيقظتني أمي، وقبل أن نخرج أسرعنا امتثال ورشت العطر
على جلبابي، كما ملأت كف أختي هي الأخرى، وهمست في أذني: - ما
تتأخرش!

قالتها وهي تكاد تبكي.

كانت أمي تسير بخطى سريعة وهي تردد:

- قرب.. خف شوية.. إخوانك زمانهم قاعدين على نار.. أنا سايباهم وعنيهم
مهربة من العياط.. كانوا عاوزين كلهم ييجوا.. ربيت في قلوبنا الرعب!

ودخلنا القرية، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، يشع منها ضوء أحمر
غامق، والطريق الموصل إلى القرية مزدحم بالأطفال والرجال العائدين من
الحقل سايبين البهائم والماعز تجري أمامهم.. وكنا كلما مررنا على بعضهم
كانوا يلوحون بأيديهم القابضة على الشرشر: - حمد الله على سلامتك..
مبروك يا امه السيدة.. الحمد لله اللي جات العواقب سليمة.

وعندما يلمحون ما على رأسي من قطن وأربطة مشدودة كانوا يطأطئون
الرؤوس متألمين.

كان أول من قابلني بالمنزل هو أخي محمد، وزعق وهو يأخذني في حضنه: -
بت يا زينب.. أخوكي جه.

وكانت الدموع تتساقط من عينيه وهو يزعق.. دموع ساخنة أحسها بوجهي وهو يُقبِّلني.. وكادت أختي تقع من فوق السطح عندما سمعت زعيق أخي، لولا أن جلابها تعلق بجذع شجرة.. والتفت النسوة وكادت أن تقع كارثة.. وعندما نزلت كان وجهها قد شحب ومال إلى الاصفرار.. وراحت تُقبِّلني وهي غير عابئة بما حدث لها.. وامتلأ البيت، وكانوا يمسحون دموعهم قائلين: - إيه اللي زنقك على الغربية؟

فردت إحداهن:

- وعد ومكتوب!

ودخلت البت رقية وهي تلهث من الجري، ما إن سمعت الخبر حتى أسرعته، وأفسحت لنفسها وجلست بجواري وبجوار زينب، والتف حولي كثير من البنات والصبيان والأنظار كلها متعلقة بجلاببي الحريري: - إيه ده؟ إيه الحاجات اللي تزغلل العينين دي؟

يقولونها وهم يتحسسونه بأيديهم.

وهمست رقية في أذني وكان قلبها لا يزال يدق، ولمحت في وجهها ما تريد أن تقول: «هات إيدك.. حطها على صدري شوف قلبي بيدق ازاي؟».. وبعد أن هدأت أنفاسها سألت: - جبت لي المنديل؟

خجلت من نفسي وكدت أقول لها «إحنا في إيه ولَّا إيه» واكتفيت بهز رأسي.. فعدت تقول وهي تضع أنفها على كتفي: - مين اللي حط لك الريحة دي؟

فابتسمت، وكدت أقول لها امثال، ولكن شيئًا ما عقد لساني فاكتفيت بهز رأسي من جديد.. وشعرت من ملامح وجهها الشاحب أنها عرفت، عرفت أن

إحدى البنات هي التي وضعت العطر على جلابي، وبالتأكيد أختي هي التي قالت لها، وربما قالتها بفخر شديد.. انزعجت واصفر وجهها وأخفت وجهها في الأرض وخرجت مسرعة.

وأحضرت أمي المبخرة لتبخرنني، وكانت رائحة البخور الزاعقة تملأ أنفي، واقتربت مني أمي وهي تتمتم بصوت منخفض: - رقيتك من عيون صاحبة البيت.. ومن كل العيون الحسادة.. رقيتك.. رقيتك...

والنسوة يقلن:

- ارقيه.. ارقيه.. حطيتها تحت جلابيته.

وصاحت أخرى:

- وقفه على رجليه خلي البخور يطلع من صدره.. حطي شبة وفسوخة.

وقالت أمي وهي تهمس في أذني:

- رقيتك من عيون الحاضرين.

وبعد أن أنهت أمي عمليتها، جلست وأمامها المبخرة، وأخرجت الشبة والفسوخة من النار وتأملتها، وشهقت شهقة عالية وهي تقول: - هي.. والله بعينها.. شكلها.. تعالي يا بت يا خسكية.. تعالي شوفي مين دي.. دي صاحبة البيت اللي حسدته.

وقالت أخرى:

- تفي في وشها.. وفوتيتها علينا!

وأخذت كل امرأة تبصق عليها كلما تناولتها. وقالت أخرى: - حطيتها تحت كعبه
وخلية يهرسها برجليه!

وتذكرت كلمات عبد العظيم عندما حدثته على البومة فقال لي إن النساء
يتوهمن أشياء لم تحدث.. ثم قلت في نفسي لأمي: «خبر إبه يا ولية؟! صاحبة
البيت تحسدني على إيه؟! دا هي اللي نفعاني في الغربة! وهي اللي راحت
معايا واشترت لي المقطع! يعني همّ قالوا للوح القزاز يقع فوق راسي؟!
سيبك من الكلام ده!».

وبعد أن خرجت النسوة في منتصف الليل اقتربت أُمي مني، وقالت في
صوت أمر خافت: - امشي ورايا ولا تكلمش حد، حتى لو رمى عليك السلام ما
تردش!

وسارت أُمي في حذر، والليل حالك السواد والقمر قد اختفى، وليس في
السماء إلا النجوم التي تلمع، وبالقرب من الجامع الذي يتوسط قرיתי، وقفت
أُمي وكان الهواء يلفح وجهي، وهمست: - امسك.. امسك بإيدك الشمال..
امسك الصرة دي وارميها ورا ضهرك.

وسألت عما بها فهمست قائلة:

- الشبة والفسوخة.. العين.. عين الحاسدين.. أي حد حيفكها الصبح حياخد
العين دي منك!

وقذفت بها بعيدًا.. وتطلعت أُمي إلى السماء وهي تردد بصوت مسموع: - يا
رب.. اهدي لي ابني وخليه معايا!

ومر بنا كلب بلون الظلام، ووقف على بُعد ينبح، وانزعجت لنباحه، وأمسكت
بأمي، وأمسكتني من ذراعي عائدين إلى البيت وهي تتمتم بكلام غير
مسموع، والكلب يواصل نباحه من بعيد: - حد الله يا رب! عزرائيل جاي لمين؟
جاي لمين ياخذ روحه؟ الكلاب بتنيح والبهائم تطاطي ودانها، همّ اللي
بيشوفوه!

ودخلت فوجدت أخي الذي أخذني إلى جواره وسألني: - احكي لنا.. احكي لنا
عن اللي شفته في المحلة.

فحكيت عن البوظة، وكيف وقعت في الطريق.. فهز رأسه وابتسم وقال: -
إنت وقعت؟ وقعت في الشارع؟ ورحت البوظة مع مين؟

- مع الرجالة.. أمي مش قالت امشي مع أكبر منك، أكبر منك بيوم يعرف
عنك بسنة.

وطال الليل واستمر الحديث.. عن الناس في المستشفى وعن الخبيزة وعن
المكن.. ومن شدة البرد، قذفت برأسي في حضن أمي الدافئ، ونمت.

وفي الصباح جاء أحد أصدقائي الذين يعيشون في القرية وقال: - تعال معايا.

قالها وهو منشح الصدر.. وسرت بجواره دون أن أسأله إلى أين، وإذا به
يتوقف عند «تربة مهجورة» عبث العابثون بأبوابها حتى فتحت، وهمس لي: -

عايز تشوف الميتين؟ تشوفهم وهمّ نايمين؟ أنا شفتهم.. ناس ماتوا من

زمان.. أجيب لك راس راجل عينيه فارغة؟

قلت في انزعاج وقد ملكني الخوف:

- فتحت التربة! إزاي؟ مش حرام تعملوا كده؟!

فقال في همس:

- العيال.. العيال همّ اللي جابوني!

ولم يمهلني ومضى إلى الداخل ووقفت أترقب، وهو يدخل كالثعبان، وغاب قليلاً ثم خرج يحمل رأس رجل، فاقتربت منه والخوف يملكني، وعندما رأيتها فزعت، وكدت أجري لولا أن جال بخاطري أن أرى إن كان عليها كلمات مكتوبة على الجبين، كما قال لي عبد العظيم، فلم أجد كتابة على الجبين، وعدت إلى المنزل وأنا أرتعد من الخوف.. وجلست وحدي على المصطبة، ورأسي على راحتي أفكر.. لم يكن هناك أحد من إخواني، فقط كانت الفراخ تروح وتجيء، والديوك تؤذن محدثة ضجة، وحاولت أن أدخل الفراخ الخزانة لأريح نفسي من حركتها، ولكنني عجزت لكثرتها، فعدت وجلست، وحاولت فك الأربطة من على رأسي، وإذا برقية تدخل مسرعة، وقالت وهي متماسكة متزنة: - أمك فين؟ أمك فين؟ أختك فين؟

قلت:

- خرجوا وسابوا الفراخ رايحة جاية.

لم تنتظر وبدأت تكنس الأرض، وقد شممت ثوبها إلى أعلى ركبتيها كما يفعل عمال النظافة وهم يمسخون الممكن، وأزالت كل آثار القذارة من الحوش.. ونظرت إلى ساقها العاريتين، في مثل بياض يديها، وشعرت برعشة تجتاحني.. أما هي فأقبلت في تباطؤ وجلست بجواري، وسترت نفسها بطرحة سوداء، كانت كورتها في حجرها وقت أن كانت تكنس.. واجتاحني رغبة في

أن ألمس جليباها وصدورها.. واقتربت منها وألصقت جسمي بها، فتزحزحت بعيدًا وقالت بانزعاج: - إنت اتجننت؟!

ولكن رغيتي كانت تشتد، وارتعشت وعدت ألتصق بها، لكنها أشاحت بوجهها نحو الباب، وترددت وطال ترددي، وأنا لا أتبين بوضوح ما يثور بداخلي، وإذا بها تططق أصابع يدها، ووجهها محتقن محمر، وصدورها يعلو ويهبط، ومالت بوجهها نحوي وإصبعها على خدها، واستمرت تنظر لي من وراء عينين شبه مغمضتين.. وشعرت بشيء من العتاب في عينيها، فاقتربت منها، وتزحزحت ولكن ليس بعيدًا كالمرّة السابقة، وبقيت على المصطبة، ووجهها يزداد احمرارًا، ولمست بيدي جليباها فازداد جسدي ارتعاشًا.. وعضت هي على شفتيها وانفجرت باكية.. وازددت اقترابًا، وأمسكت يدها فلم تقاوم، وازددت جرأة، وطببت على كتفيها محاولًا تهدئتها، وإذا بعينيها تزدادان اتساعًا، ومررت بيدي على جسمها متذكّرًا ما قالته لي يوم زيارتي السابقة للقربة: «تعال خش لي.. واحلف على عينك ما تقول لحد».. واستجمعت شجاعتي وقلت أقول لها مثل ما قالت لي، ولكن حدث ما لم أتوقعه، وارتعشت، وكل جسدي يرتعش.. فنظرت إليّ بعينيها الميتين وقالت: - إنت خايف؟ خايف من إيه؟

فاندفعت وطوقتها بذراعي، وضممتها نحوي، فشهقت شهقة عالية، وقذفت بي إلى الخلف بعيدًا، وهي تردد: - يا خرابي! يا خرابي! يا فضيحتي! الباب.. الباب مفتوح.. هو انت اتجننت؟!

وهبت واقفة، واندفعت في سرعة نحو الباب وأغلقتة وهي تردد: - يا نهار أسود! يا نهار أسود! حد يشوفنا؟!

وتوهج وجهها، واندفعت نحوها غير عابئ بما سيحدث، فالتصقت بالحائط
وأمسكت جلبابي وهي تردد: - يا نهار أسود! هوّ إيه ده؟! هوّ إيه ده؟!

وتدفعني إلى الخلف مرة، وتجذبني إليها مرة أخرى، وهي تردد في همس: -
هوّ إيه ده؟! همّ أهل المحلة علموك القباحة؟ إوعى.. إوعى كده!

وفجأة انهارت مقاومتها، ومالت برأسها على كتفي، وأسبلت عينيها، وانتفضت
انتفاضة عيفة، وعادت وجذبتني بذراعيها وطوقتني، واستمرت فترة خائرة
القوى، ثم دفعتني بعيدًا عنها بعنف وهي تقول: - يا قلبك! يا قلبك الجاسر!

ووقفت تصلح من شعرها الذي تهدل، وطوحت به إلى الخلف، وعصبت رأسها
بمنديلها، واتجهت نحو الباب، وابتعدت واضعة يدها على عينيها لتخفي نفسها
عن ناظرها.. وجلست أفكر فيما فعلت بعد أن هدأت: «ليه أنا عملت كده؟ لو
حد شافني كنت حاقول إيه؟ لو أمي شافنتني كانت حتقول إيه؟ حتقول أبو
ديل نجس، إنت أصلك سايب، وناقص رباية! ولو شافني حد من إخواني
حيقول يا خاين، إحنا قلنا زي أختك وسييناها معاك في كل وقت تقوم تعمل
فيها كده؟! وهيّ كانت حتقول إيه؟ حتقول هوّ اللي عمل كده؟ حتدافع عن
نفسها أحسن يموتوها». وقلت لنفسي: «مش حرام؟ الواحد حيروح من ربنا
فين؟ أنا لو شفت واحد ماسك أختي وعمل فيها العملة دي كنت حاسيبه؟
كنت قطعته تحت وهيّ كانت زمانها في التربة! أمال أنا عملت كده ليه؟ هل
أسمح لأختي تعمل كده؟ واستعدت بالله، وقرأت «قل هو الله أحد» مرات،
وقلت «توبة.. توبة»، ووضعت رأسي بين يدي وأنا أستغفر وأستغفر».

كنت كلما سرت في القرية وددت أن أراها، وكلما رأيتها قادمة من بعيد أقول
لنفسي: «أكلمها».. وكلما أقترب منها ينتابني الخجل، وأحاول إخفاء عيني في

الأرض.. ولكنها كانت ترفع وجهها وكأن شيئاً لم يحدث، فعلمت أنها لم تخرج من بيتنا غاضبة.

وكنت كلما أدخل منزلاً من المنازل ينظر الكثيرون إلى جلابي: الولاد، والبنات يتمنين للشباب الذين يحبونهم مثل هذا الجلاب. وشعرت بالملل من بقائي في القرية، لأن كل شيء فيها يسير ببطء.. وشعرت بالحنين للعودة، بالحنين للممكن وهو يدور مسرعاً، ويزداد سرعة في دورانه.. وكما كنت أشعر بالحنين إلى أُمي شعرت بالحنين إليه، الشيء الذي لم أكن أشعر به من قبل!

وقفوا بعيدًا والنار مشتعلة

كان وصولي قبل بدء الليل بساعات، واتجهت فورًا إلى المنزل، وكان الولد الغريب والسيد الصفطي يجهزان ما يلزم لهما من طعام قبل الذهاب إلى المصنع.

وعندما رأياني تهلل وجهاهما فرحًا، وسألاني عن الأهل، وكانا ينصتان باهتمام شديد، ويتلون وجهاهما عند كل كلمة أقولها عن أهلها.

وفي الطريق إلى المصنع قال الولد الغريب:

- إنت اتأخرت ليه؟ البت امتثال ما كانتش على بعضها رايحة جاية تسأل ومسهمة زي اللي ضاع منها شيء عزيز عليها!

وكمل الولد الغريب:

- ومرات كثيرة كانت تنور لنا الحجرة، وطلبت منا في يوم من الأيام هدومنا عشان تغسلها، ولكن الواد السيد رفض وهمس في ودني: «لاحسن تشوف القمل اللابد في الخياطة».

كان يتكلم وهو يتلفت حوله فسألته مندهشًا:

- إنت خايف؟

- أيوه خايف.. إنت أصلك ما شفتش.. أهل المحلة عملوا عصابات، عاملينها في كل مكان.. بيستفردوا بالناس على غفلة ويدوروا الضرب بالسكاكين ويختفوا.

واسترسل قائلاً:

- من يومين واحنا ماشيين سمعنا عصاية نزلت ترف على دراع عامل، وقف يلف.. يلف، وانكفى على الأرض وهو يستغيث ويصرخ من الألم.. جرينا ناحيته ولقينا اتنين رجالة وрана في الضلمة، وقالوا لنا: «مش هتفلتوا من إيدينا يا ولاد الكلب!» لكن كنا أسرع منهم.. من وقتها ما عدناش بنمشي إلا مع بعض..
وينبعد عن الشوارع الضلمة!

كانا يتكلمان وهما يمدان الخطى خلفي لأن قدمي كانتا تسبقاني شوقاً لرؤية الممكن.. وكان الجو باردًا، والظلام يخيم على الشوارع.

وبالقرب من المصنع سألت الغريب عن عبد العظيم ففاجأني بقوله: - دلوقت حتشوفه.. عمل دقن زي السكسوكة زي شعره، شعره طول في حته من دقنه، وشايل مصحف بيقرأ فيه بعد ما ياكل.

ابتسمت وأسرعت الخطى.. كانت حشود العمال مجتمعة عند الباب.. انطلقت الصفارة، فأفسحت لنفسي وسط الحشود، وسمعتهم يتكلمون بحماس ويلوحون بمناديل الأكل، وكل منهم يمني نفسه بالانتقال إلى العنابر الجديدة ويترك الماكينات التي ملأها الصدا.

وقلت في نفسي: «لو كل واحد أزال الصدا بالجاز لكان الممكن أسرع في الدوران.. الممكن زي الجلاية الجديدة تتسخ باللبس ويلزمها الغسيل والنظافة».

دخلت العنبر، وأبطأت الخطى في الطرق الموصلة إلى مكني، أنظر إلى السيور في اهتزازها، وأذني قد سددها من الضجيج، وأخيرًا وصلت إلى

مكني، وكان لقاء اختلطت فيه مشاعر الفرح بالأسى، فقد وجدت التروس والأجناب وقد عشش عليها الغبار.. نظرت إلى مكني وعينا في ظل حزن لهذه الوساحة.. وكما يضحى المحب ليرى المحبوب في أجمل صورة، تمنيت لو أخلع جليابي لأزيل به الأثرية التي عششت في كل مكان لولا أن العمال حولي يقبلونني مرحبين بي.

وجاء عبد العظيم مبتهجًا مآدًا ذراعيه، ورفعني إلى أعلى، وعاد وضممني إلى صدره في حنان، وقبلني ثلاث مرات مثلما ضممني أخي عند أول لقاء، وإذا بي أكتشف أن أحد العمال ربط منديله بجوار الفرامل، فأيقنت أن مكني سلموه لغيري، للعامل صاحب المنديل المربوط، فابتعدت بعيدًا، بعيدًا كي لا يلحظ العامل حزني، ودخلت الرؤساء وانتشروا بين الممكن.

ووقفت في مكاني أرقب العامل الذي لم يبدأ في العمل بعد، وهو يحاول إدارة المكنة وكأنما يده تعبت في قلبي.. ولمحني الرئيس فلوح لي بيده، فاتجهت نحوه.. وعندما اقتربت منه ابتسم فشجعتني ابتسامته وجعلتني أزداد اقترابًا، ووقفت أمامه كالزنهاج، وحييته رافعًا يدي، فانفرجت أساريره، واتسعت ابتسامته كاشفة عن أسنانه البيضاء المرصوفة، واقترب وبداه خلف ظهره، وهز رأسه ثم مال بها على أذني قائلاً: - إنت كنت فين؟ إنت اتأخرت أكثر من اللازم!

وسكت ساهمًا يفكر، والعمال القريبون منه يلفون حول المكن مسرعين ويودون لو أنه انصرف.. وعاد وجذبني من يدي، وسار دون كلام، ثم وقف بالقرب من مكني، وأشار إلى العامل بيده، ودفعني بيده وهو يقول: - يلا أنت مكانه.. كنت حتموت وانت بتشتغل، وأقل تعويض لك وقوفك على المكن من جديد!

واندفعت إلى المكن كالريح، وخلعت جلبابي، وأخذت أمسح به الغبار ليعود إليه لمعانه.. والتف العمال حولي يهنئونني بعودتي، وجاء عبد العظيم بعد أن ابتعد الرئيس تمامًا، وبدأ يصلح بسرعة خاطفة بقايا الفتل المقطعة في السداء، ويقول لي: - اجتهد.. عوض ما فاتك!

ثم أضاف:

- أنت مبسوط؟

فأجبت:

- مبسوط إنني رجعت لمكني اللي كنت باحلم بيه واللي اتعودت عليه!

وهز عبد العظيم رأسه في استغراب وأضاف:

- أول مرة يعملها الرئيس، يرجع عامل لمكنه، لكن إنت راجل جدع وتستحق!

قالها وهو يربت على كتفي، فبادرته بقولي:

- كله من فضلك، وتعليمك.

فابتسم وهز رأسه، وأسرع عائدًا لمكنه.

وفي النصف الثاني من الليل، تجمع عديد وعديد من العمال، وكانوا يتحدثون بصوت مرتفع يحاولون أن تسمع أصواتهم من خلال الضجيج، ودار الحديث كله حول زيادة إيجارات المساكن. وعجبت لتجمعهم على غير المعتاد في مثل هذا الوقت الذي يغلب فيه النعاس، فاتجهت نحو عبد العظيم أسأله

فقال: - كل شيء بيزيد.. أصحاب البيوت رفعت الإيجار، وأبو ثلاثة مليم أصبح بخمسة مليمات، وأبو مليم طماطم أصبح بمليمين!

فقلت له متعجبًا:

- ده في اليومين اللي غبتهم؟!

أجاب:

- من نهار العلاوة والحاجات كل يوم بتغلى، والعمال بتلغن الزيادة من يوم ما جات.. أصحاب البيوت.. وبتوع الطعمية.. الطعميية الواحدة الواحد بياخذها على لقمة واحدة! واللي خدناه باليمين خدوه بالشمال!

والعمال ما زالوا يتحدثون وقد ترك بعضهم الممكن متوقفًا، والبعض الآخر يدور حوله في بطاء، والرؤساء في غفلة عن ذلك، نائمون.. والذي أثار دهشتي واشمئززي أن العمال الذين كانوا يتحدثون، كان كل واحد منهم يحمل «مردن» المكوك في يده وبخبط به على خانة العشرات في العداد.

والسرقات تزداد كل يوم، وحاولت في أول الأمر أن أغمض عيني آخذًا بنصيحة عبد العظيم: «أغمض عينيك لما تشوف واحد بيعمل معصية».. ولكنني لم أستطع أن أسكت، واتجهت إلى كل من أعرفهم من الذين يسرقون أحاول أن أثنهم عن ذلك، فوجدتهم جميعًا يكررون ما قاله لي عامل المحلة الذي بدأ بالسرقة الأولى: - مش معقول نرّوح من غير ولا مليم لأهالينا! إيه اللي رماك على المر.. إللي أمر منه.. هوّ الواحد عايز يسرق؟ إللي ملوش خير في أهله ملوش خير في حد! معقول نطفح الدم طول الليل، وأهلنا تموت من الجوع!

- يعني انتو زي اللي بيلعبوا حاوريني يا طيطة!

- مضبوط.. إنت جبتها على حقيقتها.. همَّ يسرقونا من هنا واحنا نسرقهم من هناك.. نقول لهم صلحوا المكن ما يصلحوش.. نسرق في العداد.. عرفنا آخرتها.. نعمل إيه؟ كنا بنتحايل.. دلوقت لأ.. كلمة ورد غطاها: تعال صلح، جه جه.. ما جاش أهى خبطة ورا خبطة نجيب ثلاثين بنط، وكل مكنة جايبة ثلاثين بنط، وآخر المدة نقبض أكثر من أجدع واحد من اللي عاملين أوليا.

قلت:

- إحنا نقدر نعتمد على أنفسنا في تصليح المكن.. مرة بعد مرة كل واحد يقدر يكتشف عيوب المكن.. ويصلحه!

وتركته واضعًا يده على جبهته وعيناه حمراوان، والنعاس يملأهما.. وأسعدني عندما جاء لي وهو يقول مبتهجًا: - خلاص يا عم.. من بُكرة حاعمل بالكلام اللي انت قلته.. الواحد اتعلم الكسل واتكل على السرقة.. والليل كان بيطول من كتر البصمان للساعة.. الشغل بيقطع الوقت، والقرش الحلال مفيش أحسن منه.. أنا لما شفت المكن بتاعك شغال قلت ليه ما أبقاش زيك.

وتطلع إلى مكنه الواقف في غيظ وأضاف:

- أنا لو كنت أقدر أرجع العداد كنت رجعته!

واتجه إلى مكنه يمسحه من الغبار.

ومع اقتراب الصباح انفكت صواميل كامه ذراع المكن، فأوقفتها، واتجهت أبحث عن المفتاح فلم أجده، وحاولت أن أوفق مفتاحًا - يغينيني عن الرئيس -

من بعض قطع الحديد الملقاة بجوار المكن، فلم أستطع لأن المفتاح المطلوب من نوع خاص هو نمرة أربعة.

وتلفت بعيني أبحث عن الميكانيكي، ووقعتا على واحد من الجدد واقف بجوار دولاب الملابس. ولم أكن أعرف اسمه.. وتوقفت على بُعد خطوة منه متهيّبًا، واستجمعت شجاعتي ووقفت بجواره وهو مستند بذراعيه على الحائط، وحييته رافعًا يدي بالسلام، وأومأ برأسه، فتقدمت وفي صوت خفيض طلبت المفتاح لربط المكنة.

- مين حيربطها؟

- أنا.

- إنت؟!!

قالها مستغربًا.

- أيوه.. أيوه أعرف أربطها.

- تعال وريني حتربطها ازاي.

قالها وهو يجذبني من يدي.

وقبضت على المفتاح بيدي المرتعشة خوفًا من وقفته.. وعندما ربطت الصواميل الثلاثة فرحت، وقرصت عليها، وهو واقف ساند بكوعه على جوانب المكن يرتجف، وخصلات شعره تهتز صاعدة نازلة بفعل هواء السيور.. وعندما أدت المكنة اقترب مني وسألني: - عرفت ازاي إن الكامه مفكوكه؟

- من توقف المكنة عن الحركة وعدم قدرتها على حذف المكوك في الدرج.

- وعرفت ازاي إنها الكامنة؟

- فتشت فيها.

فهز رأسه طويلاً وقال:

- لو كل عامل عمل زيك كان ريح الميكانيكي ووفر جهده وزاد إنتاج العامل.

لاحظت من نبرة صوته، وموقفه، أنه ليس شريراً، وتمنيت لو أن كل «الميكانيكية» الجدد مثل هذا الرجل في طيبة قلبه.. وقبل أن ينصرف ويترك مكاني، إذا بزميل له آخر، وعلى وجهه سيماء الطيبة هو الآخر، ممتلئ الجسم، وجهه يميل إلى الاسمرار يأتي ويتحدثان.

وسمعت اسم سالم يتردد في حديثهما، وسمعت هذا الزميل يقول له: - أنا جبت قميص أزرق ومطوية بحدين.. مش حتيجي معايا مصر الفتاة؟
فرد عبد العزيز نهود، وكنت قد عرفت اسمه من زملائي قبل أن أتوجه إليه: -
لا.. أنا مليش دعوة بالحاجات دي.. إنت واحد يظهر عليك فاضي.

كنت وأنا أدور حول المكن تلتقط أذناي شيئاً من حديثهما عن غير قصد، وانصرفا متشابكي الأيدي في خطوات بطيئة.

انتهى الليل دون أن تقع حادثة ضرب في عنبر النسيج، لا من الرؤساء، ولا فيما بين العمال، فيما عدا بعض الإصابات البسيطة جداً! كأن تتلف التروس أصابع أحد العمال، أو تقع تقالات الحديد على أصابع قدم عامل آخر.

وانقشع الليل، وبزغت الشمس، والتقيت بزميلي عامل الوردية الجديدة،
ووجدته فرحًا.

وتتابعت الأيام، وذات يوم من أيام الشتاء القارسة الباردة، وأطراف أصابع اليد ترتعش، والأجسام تنتفض، والعمال تخرج من المنازل جماعات تصطك منهم الأسنان، وترتجف الأبدان، داسين الأعناق بين الأكتاف، كاشين في أنفسهم، والآذان محمرة، ولسان حال كل عامل يقول: «لو كان الواحد في يوم الباردة ما يخرجش من حجرته!».«

وعلى طول الطريق إلى المصنع والبرد يشتد والجلابيب تلتصق بالأجساد، وبعض النسوة في كسوف يخفين رؤوسهن في الأرض، وهن يحاولن جذب ملابسهن قبل أن تطير، وبعض الرجال يحملقون حيث تكشف ملابس النسوة وهي تطير.. كنت أسير في الحشد المتحرك وأنا كاشش في نفسي كالقنفذ، ودخلت العنبر، ولم أستطع أن أضع يدي على الفرامل من شدة البرد.. ولم يمض وقت طويل، إذا بدخان كثيف يملأ العنبر كاد أن يخنق العمال، وتطلعت الأنظار، وتلفتت الوجوه تبحث عن مصدره، قال أحد العمال وهو يحاول أن يدفئ كفيه في إبطيه: - فين النار دي ندفى عليها.. دي فكرت الواحد لما كان يقعد في الدرة يشوي.

وإذا بالرؤساء يخرجون من العنبر، وخلفهم المباشرون والميكانيكية، واجتاحتنى الرغبة كما اجتاحت غيري، أن نعرف مصدر هذا الدخان الأسود الذي يملأ العنبر، واتجهت نحو الباب، وإذا برائحة شيء يحترق والعمال تندفع من العنابر تستنشق الهواء في الطرقات، وإذا بهم يجدون الطرقات أكثر اختناقًا، والدخان يتصاعد ويتكاثف فيها، يحجب الناس عن رؤية بعضهم البعض

الآخر، واندفع العمال غير مباليين بما قد يقع عليهم من غرامات، اندفعوا نحو الباب الخارجي.. وأصوات عالية تتساءل: - مش معقول يكون حد بيدّفى!

- هيّ دي نار حد يدّفى عليها؟ ده حتى شرب السجاير ممنوع!

والدخان يزداد تكاثفًا.. واندفع العمال من جديد نحو الخارج، بينما تراجع آخرون وقد تذكروا أنهم تركوا طعامهم على الممكن يريدون أن يحضروه، واندعش العمال عندما رأوا السماء مغطاة بسحب كثيفة من الدخان الأسود، وكانت دهشتهم أشد عندما رأوا نارًا مشتعلة تتصاعد من مخازن بالات القطن المكدسة في بدروم تحت عنبر الكرت.. ووقفوا متهيئين مذعورين.. إلا أن صوتًا ارتفع من بين النيران: - الشركة بتتحرق!

كانت الرياح تهب في قوة، والنيران تتوهج وتقذف بعواميد متلاحقة من الدخان الأسود، تقسم السماء المتوهجة، وتتجه في اتجاهات متمايلة كأنها شجرة لها فروع متعددة، وقطع من القطن المشتعل تتصاعد إلى أعلى.. وارتفع صوت من بين النيران والدخان: - إتم واقفين تتفرجوا والنار بتاكل القطن؟!!

وصوت آخر يضيف:

- ربنا ينتقم منهم.. خليهم يتلقوا وعدهم.. ويتدفنوا من غير ما حد يعرف لهم تربة!

وثالث:

- هوّ الحرام ينفع؟!!

إلا أن أحد العمال من عمال السحب الذين يغطي رؤوسهم الزغبار صاح فيهم: - إنتم واقفين تتكلموا؟ منتظرين إيه؟! حتستنوا لما تتحرق؟!!

وصاح آخر وهو يضع يده على صدره يريد أن يوقف الرعشة التي شملت بدنه: - فين شهامة الفلاح؟ اهجم يا جدع انت وهو! نسيتموا لما كنا في البلد نرمي نفسنا في النار؟!!

وتجمع الرؤساء والمديرون بعيدًا عن النار والدخان.. أما العمال فاندفعوا إلى البدروم يقابلون الوهج المشتعل من البالات، وخلع أحدهم جلبابه وطوح به بعيدًا حتى لا تمسك فيه النار.. وفعل آخرون مثل ما فعل، واندفعت جموع أخرى كثيرة.

وبينما نحن نزيح البالات التي لم تمسك بها النار إلى الخارج إذا بالسقف تتساقط منه المياه، فتزداد النار اشتعالًا، واختنق البعض وساد الذعر، والأصوات تتعالى تعبر عن حركة تضم الجميع وتحث على التضحية من الجميع: - ارفع يا جدع! لو اتحرقت الشركة حنرّج كلنا لبلادنا ويشمت أهل المحلة فينا!

وكلما أمسكت النار بأحد العمال رفعه آخرون إلى الخارج.. وشحذ العمال جهودهم، وتدحرجت البالات الثقيلة كما يدحرج الإنسان كرة صغيرة.

ويتنادى العمال لإنقاذ بالة قبل أن تمسك بها النار في حركة جماعية عمالية جبارة: - ارفع.. هيلاهوب.. هيلاهوب.

واندفعت وراءهم ناسيًا الجروح التي لم يتم التئامها في رأسي.. والولد الغريب والسيد الصفطي يحاولان إرجاعي دون جدوى.. وأمسكت النار

بجلباب أحد الواقفين، فأسرع إليه الولد الغريب وأمسك به يحاول إطفاء النار، فالتهت يده وتسلختا.. وكنت وقتها أدفع مع آخرين إحدى البالات إلى الخارج، وإلى جوار البالات التي تم إنقاذها كان يتمدد عدد من الجرحى المصابين بحروق في أرجلهم وأيديهم وملابسهم محترقة ويتمددون في انتظار إسعافهم.. وعربيات الإسعاف في كل مكان تعمل أو يعمل من بها من الرجال بتفانٍ وشجاعة.. يلقون بالمصابين إلى داخل العربيات كما يلقى الطوب من قمينة محترقة.. ورائحة اليود منتشرة في جو المكان.. وقرعات أجراس مدوية من عربات حمراء تدخل تباغًا عليها رجال ذوو همة وشجاعة بفانلاتهم الزرقاء، وعلى رؤوسهم خوذات نحاسية.. يلمع فيها وهج النيران.. يركبون الخراطيم في سرعة نادرة.. والعمال تلقي بنفسها في النار وتشارك في دفع بالات القطن نصف المشتعلة.. وصوت يصيح في تأثر وصدق: - لا محبة إلا بعد عداوة! زق يا جدع.. إياك بس يتمر فيهم!

وسقط رجلان من رجال الإطفاء.. وامتدت النيران إلى بالات القطن المعزولة أمام المخازن، وانضم إلى العمال عدد من الميكانيكية الجدد، وتطاير القطن المشتعل، ورجال المطافئ يسقط بعضهم من الاختناق.. وعلى البعد يقف المديرون والمهندسون ذوو الوجوه الحمراء من الخواجات يضعون أيديهم على صدورهم منصوبي القامة، لا يتحركون.. ولوح أحد الميكانيكية الجدد بيده في وجوههم وقال: - همّ واقفين كده ليه زي الأصنام؟!

ورد أحد زملائه:

- دول ياكلوها باردة.. ويقفون وقت النار والشدائد من بعيد.

ولاح لي وجه عبد العظيم من وراء كتف أحد العمال ومن خلفه آخرون يصعب معرفتهم من كثافة الدخان.. كان يصرخ غاضبًا: - الميه بتزود النار! كل واحد يملا حجره تراب ويرميه على البالة.

كان العرق يتصبب من جبينه رغم برودة الجو.

وقال آخر:

- تراب إيه؟ هوّ احنا في البلد؟ هوّ فين التراب؟

ورد عبد العظيم:

- جنب الحيطه عندك.. ارموه على البالة اللي هناك.

وكانت عربات الإسعاف وعربات المطافئ تدخل وتخرج وأجراسها تدق كأجراس الكنائس الحزينة وهي تشيع عزيزًا مات.

وبعد جهد شاق تلاشى الدخان شيئًا فشيئًا.. ومع تلاشي الدخان وخبود النيران اقترب الرؤساء والمديرون، اقتربوا شيئًا فشيئًا يأمرّون العمال في غلظة بالتوجه إلى العنابر.. ولم يكن العمال قد هدأت أنفاسهم فتباطأوا يبحثون عن ملابسهم فلم يمهلوهم، وأصدروا الأوامر للخبراء فأسرعوا يفرقون العمال. واتجه العمال إلى العنابر يسبون ويلعنون وقال أحدهم وهو يعدو: - أنا مش قلت.. بعد النار ما تنطفي حيعاقبونا!

وقال أحد الميكانيكية الجدد:

- إحنا لم نطفئ النار عشانهم.. إحنا اقتحمنا النار علشان بلدنا.. وعشان ولادنا!

وقال آخر وهو يلهث:

- وقفوا بعيد لما كانت النار قايدة.. إنهم كلاب لا يصلحون إلا لإصدار الأوامر،

مش قلت لك يا عبد العزيز!

فأجاب عبد العزيز وهو يلتقط أنفاسه:

- صحيح.. حاجة مؤسفة! لكن كلامك صحيح يا سالم.

واتجه العمال إلى الممكن.. يبحثون عن خرق يمسحون بها أيديهم، مستحضرين

صور من ماتوا ومن رقدوا على الأرض ممددين يلفحهم الهواء ويكشف عن

سواعدهم المتجمدة. واقتربت ساعة انتهاء العمل والعمال ما زالوا يفكرون..

وانتهى اليوم والسواد يغطي الوجوه والملابس.

زي أولاد المحلة

ونحن في الطريق إلى المنزل، قال عبد العظيم، وهو يضع يده في جيب جلاباه: - ثلاث تريع اليوم راح واحنا بنطفي الحريقة، كل ده على حسابنا!

قلت:

- إنت حتروح فين؟

- للجامع.. تيجوا معايا؟

- إنت مش قلت إنك تعبان؟

- البيت بتاعنا مفيهش ميه.

- وإيه يعني؟ إن ما صليتتش النهارده حتتاسب؟

- بتتكلم ليه باللهجة دي؟ تعال صل معايا.. وسدد ما عليك.. خلص الدين قبل يوم القيامة!

- أنا تعبان وخلصان، مش كفايانا اتناشر ساعة شغل؟

وأسرع الولد الغريب قائلاً:

- روح بيتك يا عبد العظيم، صل لك ركعتين في البيت ونام.

- الأوضة اللي انا ساكن فيها مليانة ناس بتتهكم عليّ: «إنت رايح على الجنة حدف».. «اتوسط لنا عند ربنا.. قول له العمال تعبانة واغفر لهم خطاياهم»..

إزاي أصلي قدامهم؟ أحسن أصلي في الجامع، وأروح طاهر.. آكل لقمتين
وأنام.

ومن بعيد لاحت مساكن المهندسين والمديرين مصطفة إلى جوار بعضها،
تنبعث منها الأنوار المتلألئة، ورائحة المأكولات الشهية تثير المعدة وتجري
اللعاب.. ثم لاح شيخ امرأة ورجل ملتصقين بالحائط، يُقبلها وتُقبله، فتوقف
عبد العظيم عن السير فجأة وهو يردد: - أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله
العظيم!

فحملق أحد العمال في وجهه وقال له:

- إيه؟ نزلت عليك الولاية؟!

واكتفى عبد العظيم بالنظر إليه في إشفاق، وقهقه الولد السيد.. وأمام الباب
الخارجي كان البعض يقفون في حلقات يتحدثون ويتنادون: - استنى شوية.. ما
تمشيش لوحدك.

وعبد العظيم ما زال يدعونا إلى الجامع، التقطت أذني حوارًا: - حنسكت
لإمتي؟ هيَّ أهلنا علمتنا وآخرتها نشتغل ببلاش؟ ستة صاغ نعمل بيهم إيه؟

وصوت آخر يقول:

- لازم تتساوى مع الرؤساء الآخرين.. لازم نقبض بالشهر زيهم!

ويضيف صوت آخر:

- اتكلموا كلام معقول.. هيَّ كل الناس بتشتغل بالشهر؟ نطلب زيادة معقولة.

ويضيف رابع:

- بتقول إيه؟ همّ الرؤساء اللي بيقبضوا بالشهر أحسن منا في إيه؟ مش متخرجين زينا؟ مش مدرسة واحدة اللي اتخرجنا منها؟ عاملين لهم مساكن، وسايبينا تايهين في كل بيت ليلة مع اللي يسوى واللي ما يسواش!

وتجمع العمال حولهم، وصمت الجميع، وساروا.. ولأني أردت أن أعرف ماذا يريدون، أخذت عبد العظيم ومن معنا وسرنا وراءهم، ولكنهم ظلوا صامتين.

كان السواد يملأ السماء ويخفي النجوم، والعمال يسرون في الطريق ورؤوسهم تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، يجرون أرجلهم المتعبة، ويتبادلون الحديث في صوت منخفض.. وعند أحد أعمدة النور المجاورة للبحر وقف عبد العظيم فجأة وقال: - أنا تعبان! أنا تعبت!

وجلس في الأرض واضعاً يده على جبهته، ولاذ بالصمت.. كان الهواء يداعب شعره، والموج يتلاطم في البحر.. وقلت: - من يوم ما أطلقت لحيتك، ورحت الجامع، وانت كلامك بقى قليل! كنت زمان غير كده! هوّ كل اللي يصلي ينزل عليه سهم الله! ليه عملت كده يا عبد العظيم؟!

ورفع يده على جبهته ورد على تساؤلي قائلاً: - أنا رحت الجامع عشان أكفر عن ذنوبي!

ودق بقدميه الأرض وارتعشت عضلات وجهه.

قلت:

- ذنب إيه؟

قال:

- ذنب وقعت فيه.. الشيطان شاطر.. لعب بيَّ!

قالها بحرقة، واغرورقت عيناه بالدموع، وتنهَّد بحرارة، وأطرق كمن ينتظر حكماً قاسياً، ثم عاود الكلام: - الواحد لو كان في البيت لوحده ودخلت عليه امرأة كان الشيطان ثالثهما.

قلت:

- مين المرأة دي؟

وتلفت حوله، وطلب من الولد السيد أن يتعد: - دي أول مرة أتكلم مع واحد في هذا الموضوع لثقتي الكبيرة فيك.. تفتكر صاحبة البيت اللي رحنا لها يوم الخناقة؟

- أيوه.. المرة اللي كانت لابسة ملابس فاضحة.

- أنا رحنا لها أكثر من مرة.. لم يمر يوم إلا وكنت هناك.. كانت تعرض نفسها عليَّ كل مرة.. وفي يوم أحد أخرجت ابنها وقعدت قدامي، وكشفت عن ساقها.. بياض إيه!

قالها دون أن يدري، وعض على شفثيه وجفف دموعه، وحاول الكلام فتلعثم لسانه، ونظر إليَّ بأسى، وعاد وأخفى عينيه بيديه: - الشيطان شاطر! بيدي هذه التي سوف يأكلها الدود سحبتها بعنف نحوي.. واستسلمت.. ولم أعرف بعد ذلك نفسي.. وخرجت.. وعلى الباب أمسكتني ابنتها من جلبابي ودارت بي الدنيا.. والآن أريد أن أكفر عن ذنبي!

قالها وهو يخبط رأسه في العمود، وعاد يبكي من جديد.. وواصل كأنه يكلم نفسه: - أتجوزها؟ مش معقول! وأمي وإخواتي مين حيساعدهم؟ وإخواتي بعد ما يتجوزوا مين حيهتم بالبيت وبسرح في الغيط؟ أمي هيّ اللي حتعمل كل حاجة؟! أمي عايزة تجوزني واحدة تساعدها في البيت، تحفر معاها الزريبة، وتشيل السبخ من تحت البهايم.. مش هيّ دي اللي حتساعد أمي! دي هدومها لحد الرُّكبة، وعندها ثلاث ولاد.. وأنا لسه ما دخلتش دنيا.

وسكت.. ثم قال بصوت أعلى:

- أنا حاجوز واحدة من بلدنا تعرفني وأعرفها، واحدة تعيش مع الزمن. ونهض وهو يؤكد لي وهو في الحقيقة يؤكد لنفسه: - مش حاروح بعد النهارده ناحيتها.. حابعد عن الحي ده كله.

ثم وضع يده في يدي وقال:

- حاروح البيت وأصلي هناك.

طلبت منه أن يأتي معي فرفض، وسار في الطريق ينقل رجله في صعوبة، ورأسه بين كفيه، وجسمه ينتفض من شدة البرد.. واعتراني حزن شديد من أجله، وأردت أن ألحق به فشدني الولد السيد قائلاً: - تعال انت رايح فين؟
بُكرة تشوفه.

طوال الطريق كنت لا أرى شيئاً إلا صورته.. مرة مرفوع الرأس يشجيني كلما مر المدير، أو كلما انتابني خوف من الممكن، ومرة وهو يحدثني عن أمه وأخته يوم أن تركهم في القرية دون أن يتمكن من مساعدتهم في حث الأرض ورش السبخ، ومرة يوم أن خطف المقص مني وطاح في أهل المحلة لأنهم

اعتدوا على العمال، ووجهه الأسمر المشيع بالاحمرار والابتسامة تعلق وجنتيه بزهو النصر وهو يتقدم من الشيخ علي واضعًا يده في يده، أما صورته اليوم بوجهه الشاحب المحزون، فقد بدا لي أكبر بكثير عن يوم أن وقفت بجواره على الممكن.. كان كالرجل العجوز الذي أضناه الزمن، وكبر في غير أوانه، وغطت وجهه التجاعيد.

دخلت الحجره، وكانت مظلمة، والولد الغريب نائم في أحد الأركان، غارق في النوم وهو فارد يده المربوطة بالشاش أمامه.. وصحا عندما أضيئت الحجره، ولمحني فأخفى عينيه بيديه، فلمحت الدموع من خلال الأربطة، وعندما اقتربت منه زاد في البكاء، حتى أصبح كبكاء الطفل يوم مولده.. وعلى صوت البكاء جاءت صاحبة البيت، وقالت وهي تحل له الأربطة: - إنتم مالكم؟ هيَّ عين وصابتكم!

ثم صرخت في ابنتها:

- امشي يا بنت.. إنت واقفة كده ليه! ناوليني لوفة من بتاع النخل تكون حمرة، واحرقها قوام، وانخليها لحد ما تبقى زي الششم، هيَّ دي اللي حتنشف الجرح بسرعة وما يبقاش مدهنن.

كانت امتثال واقفة أمام أمها، لا تتابع ما تقوم به أمها مع الجرح بقدر ما كانت تصوب عينها نحوي وكأنهما يقولان لي: «إنت جيت إمتى؟ ودخلت ازاي؟ دا انا واقفة في الشباك من المغرب علشان أشوفك وانت داخل».. ورغم كثرة طلبات أمها ظلت عيناها عليَّ كأنها تستطلع أفكارني.

وكانت الأم تسأل وأنا أجيب متلعثمًا، فقد كان شبح عبد العظيم ماثلاً أمامي.. وهمت واقفة وهي تقول: - كان مالكم ومال الحريق؟! ما كانت تتحرق على

أصحابها!

وقال الولد الغريب في صوت لا يكاد يسمع: - فكري هُوَّ السبب.. رح
أحوشه انحرقت.

وطقطقت امثال أصابعها وتصعبت، وأضاف الولد الغريب: - أنا حاعمل إيه
بعد الزوادة ما تخلص.. مين راح يديني؟!

وأدار وجهه للحائط وهو يردد:

- كان مالي.. إنت السبب!

وجذبت الأم ابنتها فترددت وكادت تقول لأمها: - ما تسيبيني وياهم!

ودفعت الأم في غيظ.. ونظرت امثال لأمها في غيظ وهي تعدو نحو الباب.

واستمر الولد الغريب في بكائه، ولم ينم إلا بعد أن طمأنه الولد السيد بقوله:
- بُكرة تقوم وتيجي معانا.. يمكن الرؤساء تحسب لك اليوم.

وأكدت أنا نفس الكلام.

وفي الصباح كان الولد الغريب بجانبني، وكلما مر الرئيس على الممكن، كان
يخفي يديه خلف ظهره، وعندما مر الكاتب مليت اسمه، وساعدني العمال
المجاورون لي بالوقوف في وجه الكاتب كي لا يراه.. واستمر يأتي معي
ونفعل ذلك كل يوم إلى أن شفيت يدها تمامًا وفك الأربطة.

وذات يوم أحد، لم يذهب أحد منا إلى البلد على عكس عادتنا وقلنا لأنفسنا:
«لما نشوف أهلينا حتعمل إيه؟».

وقال الولد السيد:

- إحنا نتفسح النهارده.. ونمشي في البلد على كيفنا.

قلت:

- فين؟

قال الولد الغريب:

- في شارع محب.

واقترح الولد السيد:

- نروح نشرب كركربه في قهوة.

فقال الولد الغريب مصممًا:

- شارع محب أحسن.. هناك جنيئة البلدية.. ومزيكة الأيتام بتبقى هناك!

ودون أن نستقر على رأي، لبس كل منهما جلبابه الحريري، ووقف الولد الغريب يسرح شعره أمام مرآة صغيرة اشتريناها، وانحنى الولد السيد يلبس حذاءه الأبيض الكاوتشوك.. ولولا معرفتي الوثيقة بهما، ما كنت عرفتهما، فهما في زينتهما لا يختلفان عن أهالي المحلة إلا في لون البشرة الأكثر بيضاء والعيون الخضراء.. أما همّ فأكثر سمرة في الوجه إلا أن شعر كل منهما يختلف عن الآخر.. شعر الولد الغريب أكرت، وعيناه ضيقتان، ووجهه يميل إلى الاصفرار قليلاً، وله دقة خضراء جنب أنفه، وأخرى تحت الذقن، وكان دائم السكوت، وكثيرًا ما كان يحذف الصغار بالطوب، كلما ناداه أحدهم «يا

أبو دقة»، ووجهه كان يزداد خجلًا.. أما الولد السيد فكان ذا وجه أبيض، وعيناه دائماً دامعتان.. وشعره يغيظ بوقفته الولد الغريب، حتى كاد مرة أن يقصه له بموس من أمواس الحلاقة.. أما أنا فلبست حذائي الأسمر الذي اشتريته لي أمي.. وتأهبنا للخروج.. وفاجأنا صوت امتثال يرن عاليًا: - على فين كده لابسين اللي على الحبل؟

قال الغريب:

- رايعين شارع محب.

قالها وهو يغمض إحدى عينيه.. أما السيد فقال وهو يضع يده على رأسه: - حنروح القهوة نشرب كركريه.

ثم أخذ يهز كتفيه وهو يصلح من جلبابه.. وعادت امتثال وسألتنني: - وانت؟

- وياهم.

قالت:

- إوعوا تتأخروا! ما تتأخروش برّه!

وهزت رأسها لي، وأسندت ذراعيها على الحائط فبان صدرها، وركزت نظرها في عينيَّ وكأنها تريد أن تقرأ أفكاري.

وعلى بسطة السلم أسندت امتثال ظهرها على الترايزين، وتقدم الولد الغريب والولد السيد، وكنت أمسح حذائي بخرقة لأزيد لمعانه، وأسرعت للحاق بهما، وإذا بها تفرد قدميها لتعوقني، فتوقفت قبالتها، فلاح لي كزهرة في حاجة إلى من يقطفها، وانتابتنني رجفة شديدة، وكدت ألمس ما علا من

صدرها، ولكن شيئاً منعني، وإذا بها تمد يدها وتقول: - خد العطر ده.. وخط
على جلابيتك وعلى شعرك.

ولم تتوانَ هي فأسرعت وملست بيدها على شعري، ثم أضافت: - إنت
حتتأخر؟

ثم همست في أذني:

- حاول تسيبهم بّره، وارجع بسرعة.. أنا مستنياك!

واقتربت بجسدها مني، وكدت أن أفعل ما فعلته مع البنت رقية، لكنني
تذكرت استغفاري وقراءتي بعد ذلك «قل هو الله أحد»، واكتفيت بأن لمس
كتفي صدرها.. إلا أنها عادت ومدت رجليها لتعوقني عن الخروج، فدفعت بها
جانبًا، وأسرعت باللحاق بالغريب والسيد الصفطي.. وعلى باب العطفة
وجدتهما واقفين ينتظران، وكانت هي واقفة على الباب تنظر لنا.

كانت السماء مليئة بغيوم حجبت الشمس، والشوارع زاخرة بالعمال في كل
ناحية، والأنظار تتطلع إلينا في ملابسنا الحريرية التي لا يلبسها الناس إلا في
الصيف، وتندر أحدهم قائلاً: - يظهر عليهم ما لبسوش حرير قبل كده.

فرد آخر:

- دول يظهر من الفلاحين وببشتغلوا في الشركة.

كانت العربات الكارو في كل مكان، تعدو مسرعة أو تغرز في الوحل محملة
بالطوب، ومبانٍ متعددة تقام في كل مكان، وعمال الكهرباء تحمل على
الأكتاف لفقًا من أسلاك النحاس الأصفر، وآخرون يدكون الأرض بعد أن أقاموا

أعمدة النور، وآخرون يمدون في الأسلاك في شوارع لم تسكن فيها العمال بعد، ونسوة يسرن وشبان يلاحقونهن.

وأمام البوستة وقفت امرأة وقد لفت جسمها بملاءة سمراء كاشفة عن وجهها الأبيض وعيونها الخضراء، وعلى بُعد خطوات منها وقف رجلان يلبسان الملابس الإفرنجية وهمس أحدهما: - تدفع كام وأنا أجيبها لك؟

- زي ما تقول.

- حدّ.

- عشرة صاغ.

- عندك أوضة؟

- بس روح وملكش دعوة!

ووقف الولد الغريب يحملق فيهما، وحاول السيد أن يجذبه من جليابه فقاوم: - لما نشوفهم حيعملوا معاها إيه! لما نشوف مين فيهم يخسر الرهان.

وتقدم الرجل من المرأة، ووقف قبالتها وابتسم.. وأخفت المرأة وجهها بطرف ملاءتها، واستدارت برأسها، فاقترب أكثر وأكثر، غير عابئ بالمارة في الطريق، وهمس في أذنها، فإذا بها تسير خلفه، ولحق بهما الرجل الآخر.

وحملق الولد الغريب في وجهي مشدوّهًا، وعاد وتطلع للولد السيد، وابتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه المعوجة وقال: - تعالوا يلاً، تعالوا نشوفهم رايعين

فين!

وعاد وقال كمن تذكر شيئاً كان قد نسيه: - يا نهار أسود! هيّ النسوان هنا
سهل كده!

وقال الولد السيد:

- يمكن تكون قريبتهم.

فهز الغريب رأسه وقال:

- تبقى قريبتهم، وبتراهنوا عليها؟!

وأضاف وهو يلوح بيده:

- والله ما احنا إلا رايعين وراهم نشوفهم همّ داخلين في أني بيت.

ودورنا الجري خلفهم، ثم أبطأنا السير عندما أصبحنا على بُعد خطوات منهم،
وهم يدخلون من عطفة ويخرجون من أخرى، والمرأة تسير خلفهم، تعدل من
ملاءتها، وتكشف عن ساقها البيضاء وكعبها الأحمر.

وقال الولد الغريب:

- لما نشوف بنت الكلب دي حتخش معاهم في أني بيت؟

كانت الشوارع مبتلة، والهواء يقذف الشبابيك فيرج الزجاج رجّاً، وتوقفوا أمام
أحد المنازل.. ودخل الرجل الأول، ومن شباك الدور الأول أطل برأسه، ولوح
بيده، والهواء يصك الشبابيك.. فتقدم الرجل الثاني ومن خلفه المرأة تهز
كتفيها.

وتقدمنا إلى الشباك بخطى بطيئة.. وهمس السيد في أذن الغريب: - شيلني..
شيلني لما أشوف، لما أبص عليهم.

ورفعه الولد الغريب.. وإذا بالرجلين واقفان، والمرأة تخلع ملابسها.. فأسرع
واحد منهما يغلق الشباك بعنف بعد أن نظر إلينا وهو شاحب الوجه.

ووقفنا من بعيد ننتظر المرأة حين خروجها.. والولد السيد يكرر وصف ما كان
رآه من جسمها وهي تخلع ملابسها ووجهه محمر، وشعر رأسه يلعب به
الهواء.. وإذا بالشباك يفتح فتهلل وجه الواد الغريب.. وأطل أحدهما برأسه
فلمحنا، فعاد وأغلق الشباك من جديد.

قلت لهما:

- يلاً بينا.. هَوّ احنا حنفضل واقفين؟ دول مش حىخلصوا دلوقت!

فقال الولد السيد:

- نستنى نشوف إيه آخرتها وياهم.

فأجبت بحسم:

- ملناش دعوة.. ربنا يسهل لعبيده.

واحمر وجه الولد الغريب من الغيظ، ولما شرعنا في السير قلت: - لو فضلنا
واقفين ما كانوش خارجين في يومهم.

وكنا كلما تقدمنا خطوات ينظر أحدنا للخلف عسى أن يكونوا قد خرجوا..
وأمام أحد المقاهي المكتظة بالعمال تسمر الولد الغريب في مكانه، ورفض

أن يتحرك وقال: - يَلَّا نَعْد فِي الْقَهْوَةِ.. عَلَى شَرَطِ نَشْرَبِ كَرَكْرِيَه.

وبالقرب من الباب ذي الصلّفتين، وضع كل منا قدمًا على الأخرى، كاشفين عن الشرابات الملونة.. وصفق الولد الغريب على يديه وطلب كركريه.

عزومة

ونحن ننتظر الطالبات كان خمسة من الجالسين يتناقشون مناقشات حادة.. كانوا يرتدون جلابيب بيضاء مزهرة وكل منهم يفرق شعره. وملامحهم تدل على أنهم ليسوا من العمال.. فالشمس لم تلمح وجوههم. وظهر من حديثهم أنهم من الميكانيكية الجدد. فقال أحدهم محتدًا: - إيه الفرق بيننا وبين الغنم؟

- تقصد إيه بالغنم؟

- أقصد العمال اللي جاين من ورا البهايم! حد منكم يقدر يقول إيه الفرق بيننا وبينهم؟ ستة صاغ إيه اللي احنا بناخدهم؟!

وخطب على التراييزة بكلتا يديه ثم أضاف:

- إيه الفرق بين الجاهل اللي جاي من ورا الحمار، وبين واحد متعلم أهله صرفوا عليه دم قلبهم؟!

ذكرتني هذه الكلمات بما قاله وكيل النيابة في المحكمة. وتفرس المتكلم وجوه الجالسين وهز رأسه وعاد يقول: - همّ بيشتغلوا بالإنتاج والواحد منهم ييقبض من خمسين لخمسة وستين قرش في المدة.. إحنا بنقبض كام؟ اتنين وسبعين قرش؟! إيه الفرق؟!

وقال آخر وهو يرفع صوته فوق صوت الأول:

- وانت محموق أوي كده ليه؟ ما تقول حل بدل ما تسرع وتتكلم كلام ملوش معنى.

وقال آخر:

- أنا بس عاوز أعرف، ليه بتشتتم في العمال؟ همّ دول اللي حددوا لنا الأجر؟!

فرد في احتداد واضح:

- دول ما بياكلوش إلا البرسيم! الواحد منهم بيحب الأكل في شوال.. عيش متفرقت عامله بسياسة، ويقعد يسف فيه جنب الحيطه.. والشركة بتعاملهم زي البهايم!

واعترض آخر:

- يا ريت.. البهايم بتتعامل أحسن منهم، الواحد منهم ياخذ على قفاه ولا يقدرش يبص وراه.. ليه الشركة ما تتأمرش؟!

وقال آخر:

- همّ العمال ذنبهم إيه؟ مفيش واحد فيكم قدم حل لحد دلوقت.. مثلاً نجتمع.. ونجمع بتوع الشهادات ونطالب كلنا بالزيادات.

وقال آخر وهو يهز رأسه:

- لقد بح صوتنا.. والنتيجة لا شيء!

وعاد السابق يرد عليه:

- إنتم بس قاعدين تتكلموا، ولا انتو عايشين في الدنيا.. إللي قاعد يقول العمال بهائم، واللي بيزود ويقول البهايم أحسن منهم! حد منكم عرف عمال

النسيج عملوا إيه؟ حد اتحرك واتكلم مع حد فيهم؟ دول وقفوا المكن، كلهم وقفوا، وحولوهم من يومية خمسة تعريفة للعمل بالإنتاج!

ثم شوح في وجوههم غاضبًا:

- احمدوا ربنا اللي ما اتخرجتوش قبل كده.. كانت الشركة عملت لكم أربعة صاغ في اليوم، وشغلت العمال قبل كده بقرش صاغ وبتلاتة أبيض، وشغلوهم كمان ببلاش.. احمدوا ربنا.. إنتم عارفين عمال النسيج عملت إيه كمان؟ واحد منهم مؤت الرئيس، والشطارة مفيش حد منهم اعترف! دي شهامة ولا لآ؟! يستحقوا الشتايم اللي نازلة عليهم من المتعلمين!؟

وسكت لحظة ونكس بصره للأرض، ثم رفعها وتطلع حوله.. وقال:- بدل كده علموهم، دول منكم.. إذا كنتم عاوزين تحققوا مطالبكم، اتصلوا بالعمال.. وبالذات عمال النسيج.. حد منكم سمع عن عباس حليم؟

- وعباس حليم ده يبقى إيه؟

- آه.. واحد زيك مش عارف عباس حليم!

وقهقه بصوت عالٍ:

- أمال بتلوموا العمال على إيه؟ عباس حليم النبيل ابن العيلة المالكة.

- بيعمل إيه؟

وابتسم ساخرًا وخبط على التراييزة:

- متعلمين إيه؟ إنتم ولا انتم هنا.. ده ما بيضربش إلا بالكرباج، بيضرب الأغنيا اللي في الشركات.

وتطلع كل منهم إلى الآخر:

- أهو ده اللي احنا عايزينه.

- عشان تعرفوا إنكم مش في الدنيا! ناس زيكم حيجيوه، بني آدمين ما بيخافوش، حيجيه سواقين التاكسي.

- وعرفت مينين؟

- عرفت منهم.. جاي يعمل نقابة للعمال.. نقابة لكل العمال اللي في المحلة الكبرى.

ومن بعيد جدًّا، من أماكن متفرقة، ارتفعت نداءات «الله أكبر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح».. وكان أذان العصر، وقاموا للصلاة.

ودفع الولد الغريب الحساب للقهوجي وقال:

- يَلَّا بينا نروح على شارع محب، نسمع مزبكة الأيتام بتدق هناك.

وقال السيد الصفطي:

- يا ريتنا نستنى لما يرجعوا من الصلا، دول كانوا بيتكلموا عن العمال.. كنت عاوز أعرف عباس حليم ده حيجي إمتى!

- وليه ما سألتهمش؟ كنا سألناهم علشان نقول للعمال عن النقابة.

وقال الولد السيد:

- وكنا حنسألهم ازاي واحنا ما نعرفهمش؟

قلت:

- الراجل أبو شعر أحمر هوّ اللي كان بيتكلم كويس وعارف أحسن من
الباقيين.

وقال الولد الغريب متفلسفًا ومستعجلًا الانصراف: - حنستعجل ليه؟ يا خير
بفلوس بُكرة يبقى بلاش.

كانت الشمس تميل للغروب، ونحن في طريقنا للمنزل.. وبين الحين والحين
كنت أتحسس جيبي خوفًا من ضياع الفلوس التي احتفظت بها لأبعث بها إلى
أمي في أقرب فرصة.. وعندما اقتربنا من المنزل تذكرت قول امثال لي:
«سيهم برّه وتعال».. وقلت في نفسي: «هيّ عاوزاني ليه؟ قالت لي ليه
كده؟ دلوقت تزعل علشان نسيت».

وعندما وصلنا إلى المنزل كانت امثال واقفة في الشباك، وعندما رأنتي
اختفت.. وبعد قليل ونحن في الحجرة عادت تنادينني: - تعال.. أمي عاوزاك.

كدت أسألها: «عايزاني ليه؟ إحنا دافعين اللي علينا!».. وجال في خاطري أنها
ربما تريد مثل أصحاب البيوت الآخرين أن ترفع الإيجار.. وعادت تستعجلني:-
يلاً.. أمي فوق.

وفي قوة جذبتي من يدي، ثم أمسكتني من جلابي، ولخوفي على جلابي
تركت نفسي حتى التصقت بصدرها.. كان الولد السيد وقتها واقفًا على الباب،

فمسكت بطرف أصابعي، وسرت وراءها، تسبقني على السلم، وكلما طلعت سلمة تلفتت وراءها.. وأنا غارق في التفكير فيما ستقوله أمها لي.. فهذه أول مرة ترسل لي أمها.. كانت دائماً تأتي هي إلى حجرتنا كلما أرادت منا شيئاً.. وامثال عند كل بسطة تزعق: - قرب! إنت خايف؟! إنت مكسوف?!

وبالقرب من باب حجرتها وقفت قبالي رافعة خصلات من الشعر من على عينيها.

كان الباب مغلقاً، ورائحة شهية تنبعث من الداخل، فتطلعت إلى عينيها فلاح لي أكثر جمالاً.. أسنانها البيضاء التي كشفت عنها الابتسامة باتت كأسنان طفل لم يذق أكلاً من قبل، وكان وجهها مشرقاً، وصدرها يعلو ويهبط.

واقتربت مني حتى التصقت بي، وقالت في همس:

- ما جيتش ليه بدري؟

- أنا اتأخرت مع الأولاد.

- خد.. حط ريحة قبل ما تخش.

وملأت كفها ودعكت يديها بها، ثم ملست بها على صدري فاقترب وجهها مني، واندفعت بلا إرادة وجسدي كله قد تحرك عندما لمس صدرها، وشعرت بدفء قربها مني، وكبست صدرها، فجزت على أسنانها وقالت في همس: - إيه ده؟
إيه ده؟

ودفعتني بعيداً فاندفعت ثانياً، ولكنها في هذه المرة تركت يدي وجذبتني نحوها، وقبّلتني من خدي.. وإذا بصوت أقدام يأتي من أول السلم، فدفعتني

بعيدًا عنها في حنان، وقذفت بالباب.. ودخلت خلفها وقلبي مضطرب الخفق.

وجدت أمها جالسة على كنبه، بفستان كاشف عن ذراعيها وساقها حتى الركبة، عارية طارحة شعرها الأصفر المتموج للخلف، وعيناها الخضراوان تضيئان بنظرات تبعث الطمأنينة، ووجهها أبيض مشيع بالاحمرار.

كدت لا أعرفها في بدء دخولي، لأنني لم أرها في تلك الملابس من قبل، ولا في هذا الجمال، فقد كنت أراها في ملابسها السمراء التي لم تكن تخلعها.. كان أمامها تراييزة مصطفى عليها صحون منقوشة ومعالق بيضاء لامعة.. وفي الركن سرير بأربعة عواميد من النحاس الأصفر مفروش بملاية منقوشة متعددة الألوان، تصل حتى البلاط الأبيض، وفي مواجهة المدخل دولا ب درفتين من البنور، رأيت نفسي في بنوره بكامل هيئتي، والحجرة مغلقة الشبابيك ينبعث منها الدفء.

وفي ركن آخر كنبه يجلس عليها رجل أبيض الوجه بيضاء يميل إلى الاصفرار، تعدى الخمسين، يملأ الشيب شعره، نحيف جدًّا، يتكلم في بطاء المريض الذي طال مرضه.. وبجواره امرأة أخرى تعدت الأربعين ودون الخمسين، لم يسبق أن رأيتها.

تملكني الخجل فقالت الأم مبتسمة:

- تعال، خش، اتفضل، اقعد على الكرسي.

وقال الرجل:

- حصلت البركة.

قالها بعد سعال استمر فترة و صدره يعلو ويهبط.

وجلست قبالتهما ورأسي إلى الأرض، إلا أنني كنت كثيرًا ما أختلس نظرات لوجه الأم متمنيًا الجلوس إلى جوارها.. ثم أختلس نظرات إلى ساقها العاريتين.. وكنت أجدها هي الأخرى تنظر وتطيل النظر إليّ.

وقال الأب لابنته:

- هاتي يا امثال.

وإذا بالأطباق تفرش التراييزة والمعالق.. وتحركت الأم وجلست بجواري، فارتعشت رعشة خفيفة، وتحركت يدي لتلامس سيقانها، ولكنني حشتها وأنا أقرأ «قل أعوذ برب الناس».

قالت الأم:

- هاتي يا بنت فوطة يحطها على رجله.

وقلت في نفسي: «يا أرض انشقي وابلعيني! فوطة إيه؟ معالق إيه؟ حاكل ازاي؟ أنا ما كلتش بمعالق أبدًا! هوّ أكل المعالق يشيع! طول عمري باكل بإيدي، حتى الرز المدسوس في الفرن ما كناش ناكله إلا بإيدينا.. وكنت باسابق إخواتي، والجدع اللي يغلب الثاني في الأكل.. آكل ازاي بالمعالق؟ أرفض الأكل مع إني جعان؟».

وكان كل شيء قد أعد على التراييزة، وأمسك الجميع بالمعالق، وأنا راسي في الأرض.. وقالوا جميعًا في نفس واحد: - اتفضل.

فقلت وكنت قد عزمت على ألا أقرب الأكل:

- أنا شبعان.. اتعديت بّره في الدكان.

فضلت أن أكذب على أن يقال إنني ما اعرفش آكل بالمعالق، أو يشتموني في سرهم.. ولكن الأم حلفت وقالت وهي تتهدد: - ما توقعش حلفاني! إحنا النهارده عازمينك، والأكل ده معمول علشانك!

وأمسكت بلقمة صغيرة وبدأت ألبط من طبق الدمعة كما لو كنت ألبط مش.. إلا أن الأم أمسكت بالملعقة وحاولت وضعها في يدي، وأنا أرفض، وهي تحلف، وأنا أرفض.. وتحت إلحاحها أمسكت بالملعقة في غضب بعد أن ألح الأب وألحت امتثال.. وبدأت آخذ على طرف الملعقة بعض حبات الأرز محاذراً ألا يسقط شيء على المفرش، متذكراً قول أمي: «إذا قعدت في مجلس كل على مهلك، وقوم بنص بطن، وكمل الأكل في بيتك».

وأكملت ثلاث معالق بالعافية، وحمدت الله بصوت عالٍ، مع أنني لم أكن شبعت.. واتجهت للحمام أغسل يدي ووجهي في الأرض، أتحاشى أن أنظر إلى أحد أو أرى نظراتهم.. وأحيت ظهري أشمر جلابي متفادياً البلل، وإذا بجسم خلفي تنبعث منه رائحة العطر التي مسحتها امتثال في صدري.. وقلت في نفسي: «أعمل نفسي مش شايفها، وأرجع إلى الخلف وألصق ظهري بصدرها ثم أعتذر».. وفعلت ذلك إلا أنني وجدنتني وسط صدر أعرض وأعلى.. وكان صدر الأم التي قالت بصوت هامس: - هوّ انت ما عدتش بتشوف؟ هوّ انت بترجع بظهرك!

وتلعثمت وانخطف لوني:

- معلهش ما حسبتش حد ورايا.

إلا أنها احتضنتني من ظهري مسبله عينيها وقد احمرت وجنتاها وقالت: - خد
الفوطة.. امسح إيدك.

وأحيت رأسي خجلًا، ومسحت في جلابي فوضعت الفوطة بين يدي: - خد
الفوطة.. الجلابية حتخسر.. ما تتكسفش!

ومسحت يدي.. وخرجت.. إلا أنني لم أذهب إلى الحجره، بل دورت الجري
على السلم قافراً درجاته.. ووجدت الولد الغريب والسيد الصفطي جالسين
بالجلابيب الحريرية لم يخلعاها بعد.. وجلست بجوارهما ساندًا رأسي إلى
الحائط.. وسرحت قائلاً لنفسي: «أحسن إني ما قعدتش عشان ما حطش
وشي في وشها! إزاي أحط وشي في وشها؟ ليه بس؟ ليه عملت كده؟».

كان قلبي يخفق عاليًا، ووجهي يزداد اصفرارًا.. وقال الولد الغريب، وهو يغمز
بإحدى عيني: - إنت مالك؟ جاي تجري زي اللي عامل عملة؟

وقال الولد السيد:

- أيوه يا عم.. كل يوم كانت بتسأل عليك.. مفيش على الحجر غيرك.. ومفيش
في الحجره غيرك!

ومنعني الخجل من الرد، وقال الولد السيد وهو يغمز مبتسمًا: - طلعا وراك
وشفناك على البسطة.

وقال الولد الغريب:

- أيوه يا عم، أكلوك أكلة طول عمرك ما كلتها.

وكدت أركله بقدمي غيظًا لكنني توقفت.. أما هو فأضاف: - يا عم.. قوم هات لنا طعمية.. ما دام هو أكل.

وإذا بصوت الأم يرتفع مناديًا عليّ، ولم أرد، فاستمرت تنادي.. فقال الولد الغريب: - قوم يا عم كلم، لسه بيندهوا عليك.

إلا أنني لزممت مكاني، وإذا بها تقف في الباب بنفس الملابس التي كانت ترتديها، بل لفت رأسها بجداول شعرها الأصفر.. وجذبتني من يدي تحاول أن تأخذني معها، ولكنني عصلجت، فجلست على الأرض وسألتني: - نزلت ليه؟

- تعبان.. عاوز أرتاح.

- إنت مكسوف؟

سكت.

- قوم.. قوم معايا ما تتكسفش.. ارفع راسك وكلمني.

كان الحوش مظلمًا إلا من لمبة غاز خافتة الضوء يلعب بها الهواء، وفجأة دفعت برأسي بين نهديتها وعادت تضميني بذراعيها: - قوم ما تتكسفش.

وغرزت أصابعها في أكتافي، وضغطت على الأرض بقدميها، وجزت بأسنانها على شفيتها.. وإذا بالولد الغريب والولد السيد يقفان بجوارنا.. فارتخت يداها، وتطلعت لهما في غيظ، واتجهت إلى السلم وهي تردد: - ردوا الباب.. ردوه قبل ما تناموا.

وساد الصمت الحجرة، صمت لم تعرفه من قبل، إلا من وشوشة بين الولد الغريب والولد السيد لم أتبين منها شيئًا.. ثم أخذ كل منهما مكانه للنوم،

وناما.. وبعد فترة ليست قصيرة خلعت جلبابي وتمددت بجوارهما.

واسترجعت ما حدث، وسألت نفسي: «هل ارتكبت ذنبًا؟ وكيف أستغفر وأكفر عنه؟».. ونمت دون أن أصل إلى شيء.. كل ما أذكره أنني قبل أن أغرق في النوم استعدت بالله وقرأت الفاتحة ثلاث مرات، مثل أمي عندما تحاول أن تبعد عنها الأحلام المزعجة.

وفي النصف الثاني من الليل صحت على زغد من الولد الغريب في جنبي وهو يقول: - اصح! اصح! مالك؟ إنت مكبوس؟!

كنت وقتها أصرخ بصوت عالٍ من آثار حلم أرعيني، فقد رأيت في النوم جملاً أجرب أطاح بي وهو يخرج من حلقومه رغوّة بيضاء، وكلما أسرعت بالجري كان يلاحقني، وقذفت بنفسي، خوفاً من ملاحقته في معجنة طين سوداء، كانت من العمق بحيث أخفت كل جسدي حتى عيني، ورأيت بها روبة الوحل وهي تتماوج في بطاء من كل ناحية لتقضي على حياتي، ومن بعيد وقف الجمل يضرب الأرض بخفيه وينبعث من حلقومه رغاوي كثيفة، ويندفع نحوي في غيظ ليفترسني، وأنا أزعق مستغيثًا، مغروسًا في الأرض.

وبينما أنا أستغيث أيقظني الولد الغريب واختفى بعدها كل أثر للنوم من عيني، وتمنيت لو أن الظلام انقشع وحل محله نور يبعث في قلبي الطمأنينة.

ولم أقص الكابوس على الولد الغريب وكنت هممت بذلك.. فأنا قد سمعت أمي وهي تقول لأخي: «لا تقصص أحلامك على أحد إلا إذا كان كبيرًا، وإلا بعد أن تسمع منه كلمة «خير»، فإن لم تسمعها توقف عن قص حلمك عليه».

وسألت نفسي: «مَن إذن يفسر لي منامي هذا؟ ليس أمامي إلا عبد العظيم،
أو أم امثال»... وبمزيد من التفكير استبعدت أم امثال، لما حدث مني معها
وقت أن كنت أغسل يدي.

وعدت وقلت لنفسي: «بس هيَّ جات بعدها ودفنت رأسي في صدرها!
وعادت وقبلتني وهي تضميني في حضنها! لماذا إذن أخاف؟ إنها قبلتني من
خدي مثلما كانت تفعل أُمي! إنها لم تفعل شيئاً يغضبني، بل حاولت إرضائي،
فلماذا أستمر في خجلي؟».

وفي الصباح لم أر الأم ولا ابنتها.. انتظرت أن تنادي، ولكن صوتها لم يجلجل
في فناء البيت كما تعودت أن أسمع.

أسرار المكن

أزف الوقت، وأخذ كل منا منديله، وسرنا في الطريق إلى العمل.. وفي الطريق بدأنا الولد الغريب بالسؤال: - إحنا حناكل لحد إمتى من الطابونة؟ الماهية ما تكفيناش ناكل وندفع أجرة السكن.. حد يروح يجيب لنا زوادة ناكل منها.

وقال السيد الصفطي:

- إحنا حنتمحك تاني؟ نستنى أما نشوف أهالينا حيعملوا إيه! حيسألوا فينا ولّا لأ!

وقال الولد الغريب:

- هوّ احنا حنضربهم؟ الفلوس حتخلص منا ولو حد منهم جه مش حيلاقوا معانا ولا مليم.

ثم قال لي:

- ما تتكلم.. إللي حيمشي ورا السيد مش حيكسب.

- إنت مش وافقت.. لما تبقى مش أد الشيء ما تعملوش.. هوّ انت حتعمل مناخة كل شوية؟!

فسكت ولم يجب بعد أن نظر إليّ بعينين يتطاير منهما الشرر.

وعاد الولد السيد وقال:

- خلاص.. ناكل من الطابونة، ناكل عيش خاص وفلافل.. نسيب البلد مدة.

فرد الولد الغريب:

- ده عيش مفيهوش بركة، الواحد بياكل ثلاث أرغفة وما يشبعش!

- بُكرة بطنك تاخد عليه، اعمل مرّة من البندر.. هُوّ انت ما سمعتش اللي بيقلوه علينا: «عيش مفرفت من البلد.. يعبوه في أشولة ويسفوا منه»..

نعمل من البندر مرة!

وغطى على كلامنا ضجيج المكن وزئير السيور وعجلات عربات اللحمه التي

تعدو في الطريق مسرعة.. وأنا على مكني، اقترب مني بعض العمال

المجاورين وقالوا: - ما سمعتش.

- ما سمعتش إيه؟

- العنابر الجديدة انفتحت.

وبعد لحظات دخل الرؤساء العنبر وبأيديهم كشوف من الورق، وساروا مسرعين يتطلعون في الوجوه ثم يعودون يتطلعون في الورق. وفجأة جمعوا

عمال اليومية كلهم، ومن بينهم الغريب والسيد، وقفا يتطلعان نحوي

ووجهاهما يتهللان بالفرح ويلوحان لي، وإذا بالرئيس يأخذ عمال الإنتاج من على المكن، ويضع آخرين مكانهم، واقترب مني، وأشار لي بيده بعد أن نظر

في الورق الذي معه، وتوجهت إليه في تباطؤ، وقبل أن أصل إليه، دفع بأحد

العمال ليحل محلي.

وسألت نفسي: «ماذا حدث؟».. وسألت العمال فلم يجيبوا، فهم أيضًا لا يعرفون.

وجمعنا الرئيس، وعلى الوجوه كآبة، وقال:

- إنتو دلوقت أحسن من غيركم.. حنوديكم عنابر أخرى جديدة حنشتغلوا على أربع ماكينات.. مين عاوز يستنى هنا ومين عاوز يروح العنابر الجديدة؟

وتطلعت إلى مكني وملاً الحزن قلبي، وقلت للرئيس:

- سييني هنا!

وقال غيري:

- سيينا هنا.. إللي عرفناه أحسن من اللي ما نعرفوش.

وكان العمال يعلنون تدمرهم الذي يكتبونه.. وعاد الرئيس وقال:

- كل واحد يقف ورا الثاني.

قالها وسكت.. ولم ينبس أحد من العمال بكلمة.. واكتفوا بهمهمات غير

مسموعة.

وأحس الرئيس بما يعتمل في النفوس من مرارة تختفي وتبدو في وجوهنا الشاحبة.. واتجه إلى الداخل وسارت العمال خلفه، وبدأ في تسليمنا الممكن، وما إن ابتعد حتى أخذ العمال يخرجون ما في صدورهم: - إيه ده؟ حنشتغل ازاي؟ هوّا احنا قدرنا على مكنتين لما نقف على أربعة؟ الواحد حيلف حواليهم

زي الحلزونة!

وقال آخر:

- هُوَ احنا حنلاحق نصهم مواكيك؟ يا سنة سودة! دا الواحد لما كان بيروِّح ما كانش بيقدر يقيم وسطه من الشغل على مكنتين.

وقال ثالث:

- المشكلة مش في الأربع ماكينات، لكن مشكلة اللحمة اللي زي الزيت، الماسورة ما تتحملش أكثر من ثانية واحدة، لحمة تخينة خيط/١٢.. مش معقول نشتغل على قماش مفتخر ودمور اللحمة بتاعته زي الدوبارة.

وقال رابع:

- يا ريت على أد اللحمة والمكن من غير شوك توقف المكنة كل ما تخلص ماسورة اللحمة.

وقال آخر:

- هُوَ ده مكن يشغلوه على أربعات؟! ده مكن جاي من بلاد بَرَّه مصدي وعمالين يغسلوه هنا بالجاز!

وقال آخر:

- يا جماعة هَمَّ عاوزين يطفحونا الدم، ويشغلونا مطرح اتنين، ونطلع آخر المدة ولا حاجة ناخدها.. إللي نقبضه على ماكنتين نقبضه على أربعة!

وتركتهم يتحدثون ويولولون، واتجهت متراخياً نحو ماكيناتي الأربع قائلاً لنفسى: «لقد اتخذ الرؤساء القرار، وليس أمامنا إلا التنفيذ، ولا فائدة من

الصراخ أو الولوجة، أو التباطؤ أو التراخي».. وتطلعت وإذا بي أرى الرؤساء يرمقوننا من بعيد بنظرات حادة ليروا ما سنفعل.. وتذكرت الحلم الذي رأيته وقلت في نفسي: «أنا ابن حلال.. الحلم فسر نفسه.. واقفين زي الجمل اللي جري ورايا إلى أن وقعت في الوحل، ووقف من بعيد يحفر في الأرض ولا يكتفي بما أنا فيه، بل يريد افتراسي».

وها أنا أرى الرؤساء من بعيد يتحفزون مع علمهم بأن هذا الأمر ليس سهلاً.. لسرعة الممكن ورداءة الخيوط، وعدم وجود شوكة، وعدم اهتمامهم بالتصليح.. وعدت أقول لنفسي: «همّ دول يهمهم حاجة؟! همّ عاوزينا نقف على الممكن، نقف وخلص، وسطنا ينقطع، نقبض ما نقبضش، همّ مش خسرانين حاجة».

وفكرت أيضاً متسائلاً: «همّ ليه ما وقفوناش كلنا على أربع ماكينات؟». ولم أجد تفسيراً لذلك، وعدت أفكر: «نكتب شكاوى.. لمين؟ للحكومة زي ما كتبنا؟!». وفكرت أيضاً: «وهيّ الشكوى دي مين راح يختم عليها؟ ثلاثمائة عامل.. أربعمائة.. ألف.. وإيه يعني.. الباقي كله مش حيمضوا ما داموا واقفين على ماكتين».. وانتهى بي التفكير إلى ما يشبه القرار: «حافضل واقف ونفسي مكسورة، وآخر المدة حاعمل إيه؟ هوّ حد حيديني وانا في غربة؟ لازم أشتغل على آخر جهدي، وأكسر نفسي، علشان أدي لأمي وإخواتي.. همّ عاوزين يزهبونا ويكسروا نفسنا، ونمشي ما تتلفتش ورانا.. لازم أشتغل وأوريهم إني قدها وقدود، حاتعب، الواحد مش حيقدر يقيم وسطه، مش مهم.. لازم نشتغل».

وبدأت أخلع جلبابي، وشمريت أذرعتي، وبدأت أدور ماكينه وراء الأخرى بعد أن أخذت كل الفتل، وكتبت اسمي عندما بدأت العمل، حتى لا أتحمّل عيوب من سبقوني.

واتجهت أنظار عديدة نحوي، وخاصة من العمال الكبار الواقفين على مكنتين، ودار المكن واستمر في الدوران، وتلفت قائلاً لنفسي: «فين الرؤساء؟ فين همّ دلوقت ليروني وأنا واقف على المكن ليتأكدوا أنني استطعت أن أديره، بل استطاع غيري أيضًا بشيء من الجهد أن يديره، ونستطيع أكثر من ذلك لو بذل الرؤساء معنا بعض الجهد، إلا أنهم لا يفعلون».

واشتغلت بحماس، وبدأت أُلّف كالنحلة حول المكن.. ولم تقع عيناى على أحد من الرؤساء.. وعدت ووضعت يدي على الفرامل بعد أن فردت وسطي، وطقطقت ظهري، وتطلعت لما حولي ناظرًا للماكينات، قائلاً لها في غيظ وهي تدور: «فين لما كنت باخاف أقرب منك.. فين لما كان عبد العظيم يمسك بكلتا يدي ويضعها على الفرامل قائلاً «ما تخافش.. زق.. زق ما تخافش».. فين الأول.. وفين دلوقت.. شتان بين موقفين كنت خايف ودلوقت مش خايف».

وعدت أتأمل المكن وأخاطبه: «كثيرًا ما أخفتني.. كثيرًا ما ارتعب جسدي من الاقتراب منك وقت أن كنت تدفع بالعمال إلى عجلاتك فتنفجر بطونهم وتتدلى ألسنتهم! كان عبد العظيم على حق يوم أن حثني أن أهاجم عليك ولا أهابك، وأسيطر عليك قبل أن تسيطر عليّ.. وهأنذا الآن لم أعد طفلًا هاربًا من أمه، هاربًا من الكتاب، لم يسبق له أن رأى ماكينة في قريته.. لم أعد مجرد صبي، بل لم أعد مجرد عامل يعمل على ماكينتين، بل أصبحت أدير أربع ماكينات».. ونظرت له برأسي مرفوعة ويدي تتحرك من فرملة إلى أخرى وأواصل خطابي له: «أنتم الآن خاضعون لي، بعد أن كنت بالأمس خاضعًا لكم، أديركم وأوقفكم عندما أريد، وأستطيع أن أدفع الفرامل بيدي، وأستطيع أن أدفع بها بقدمي دونما خوف».

وأوقفت الماكينة، وقذفت بالمكوك في الدرج، ووضعت قدمي في الفرامل، بدلاً من يدي ودفعت بها قوياً، فدارت دونما إبطاء.

واجتاحني إحساس بالفرح بعد أن شعرت بسيطرتي، واتجهت نحو الولد الغريب على مكنه لأريه ما فعلت مع مكني، فحاول منعي خائفاً، ولكنني صممت على ألا أديرها إلا بقدمي.. وبعد أن دارت نظر إليّ في ذهول وهو لا يكاد يصدق، فأعدت ما قاله عبد العظيم لي.. كنت أريد بذلك أن أكسر عنده عقدة الخوف من الماكينة لا بالكلام وحده بل بالفعل كذلك.

وعلى بُعد خطوات منا وقف بعض العمال يراقبونني وابتسموا لما فعلت.. واتجهت نحو مكني وبدأت أديره بقدمي مخاطباً له من جديد: «أستطيع أن أفكك قطعة قطعة، وأكومك ثم أعود أركبك، كما أستطيع أن أتركك تحت رحمة الغبار وأحرمك من التزييت إلى أن تحترق وتصدأ».. ونظرت في ابتهاج للماكينات ثم أدت ظهري لها وأخرجت القطن الذي كنت أسد به أذني، حتى أعود فأسمع وأستمع بالضجيج، ضجيج المكن وزئير السيور، وأصوات العمال العالية عند انتهاء نوبة العمل.. ثم عدت وتطلعت إلى المكن دون أن تتجه عيناى إلى الساعة المعلقة على الحائط وسط عنبر النسيج، وتطلعت حولي إلى العمال بوجوههم الشاحبة وهم يجرون خلف الماكينات لملاحقة الفتل الزائدة، ولتقطع العقد التي تركها عمال السداء، نتيجة استعجال الرؤساء لهم، ورأيت آخرين وقد أخفوا رؤوسهم، وآخرين منتصبى القامة، وأيديهم على الفرامل استعداداً لحذف المكوك في الدرج، وآخرين وهم يسيرون متباطئين في الطرقات حاملين على الأكتاف لوحات ملأى بغزل القطن، وآخرين مائلين مستندين بظهورهم على أجناب ماكيناتهم المعطلة في انتظار مجيء الرئيس الذي تعبت الأعين في البحث عنه، إذ إن الرؤساء كانوا في

الحجرة خارج عنبر النسيج.. وعدت وتطلعت إلى الموايك وهي تندفع من درج إلى درج في سرعة لم ترها العين، وقلت في نفسي: «من هذه السرعة المجنونة، ومن هذا الاندفاع القوي خرج المكوك، خرج من الدرج نتيجة عيب ما، وبدلاً من أن يتخذ الاتجاه الصحيح، اندفع خطأ، وبنفس هذه الاندفاع القوية قتل العامل الذي وقفت مكانه، قتله في الحال، واندفع الدم من رأسه أحمر سائلاً، ثم لزجاً ثم تجمد في الحال على أجناب المكن وفي الطرقات، وانتهى العامل في لحظات وإلى الأبد، وكأنه لم يوجد، انتهى لخطأ في المكوك، كان من الممكن تلافيه، لو أن العامل عرف السر، سر اندفاع الموايك في غير اتجاهها الصحيح.. كم من عمال قتلتها أيها المكوك؟ وكم من وجوه شوهدت؟ وكم من عاهات ستبقى إلى الأبد إلى أن ينتهي العمر؟ من المسؤول؟ إنها عدم المعرفة بأسرار المكن، أسرار لا يعرفها العمال لأنانية الرؤساء، يحتفظون بأسرارك ليقوا هم أصحاب هذا السر.. وهذا هو ما دفعني ودفع الكثيرين غيري لكراهِيتك، أما الآن وقد انكشفت تلك الأسرار لي، لحبي الشديد للمعرفة، وانتباهي لهم وهم يقومون بالتصليحات في بعض الأحيان، وبأعمال الصيانة في أحيان أخرى، بحل وربط الصواميل بعد انتهاء كل سداء، لولا انتباهي لما عرفت أنا الآخر أسرارك، واستمرت كراهِيتي لك، وإذا كنت أنا قد عرفت فهناك كثيرون وكثيرون جداً ممن يشحنون في عربات النقل من بلادهم ومن قراهم لم يسبق لهم رؤيتك، إلا أنهم سمعوا عنك من سنوات طويلة أنك لا تدار إلا بالدم، دم ابن آدم الحي.. كنت بالأمس مثلهم عندما كنت في قريتي، يوم كانت أمي كسائر الأمهات يمنع الأطفال من الاقتراب من بوابير الطحين قائلات: «إياكم أن تقتربوا من هناك، فإنها لا تدار إلا بعد أن يذبخوا لها أطفالاً وبزفروا بدمائهم العدة، وتدار بعدها بالعفاريت!».. إنني قد سمعت هذا في القرية، وما زلت أسمعه كلما ذهبت إليها، إنها فكرة قديمة، وقديمة جداً، لا أعرف مصدرها، وما زلت تتردد للآن، والكل يرددتها

مع أنهم لا يعرفون مصدرها.. أما وقد عرفتك، وعرفت أنك تدار بالكهرباء،
فإنني أستطيع أن أحبك وأحب الممكن كله، بل وأعشق الضجيج الذي تحدثه..
أنا لم أعد أطيق الحياة في قريتي الهادئة التي يسير فيها كل شيء ببطء..
إنني أحب السرعة التي تتمثل في حركتك.. وصدقني إنني أحبك مثلما أحب
أمي التي ترملت عليّ ورفضت الزواج بعد أن مات أبي لكي تجنبني المهانة
والإذلال.. أمي التي اختارت لي أن أكون حرًا.. وأحبك مثلما أحب أخي الذي
غرس فيّ الكرامة والاعتزاز بالنفس.. وأحبك مثلما أحب الولد الغريب، والولد
السيد الصفطي.. وأحبك مثلما أحب أختي خسكية، وكل من يحبونها.. وأحبك
مثلما أحب كل الناس الذين يعملون لكي لا يجوعوا.. أقول ذلك الآن لأنفس
عن نفسي قليلًا.. إنني كنت بالأمس أكرهك، أما الآن فأصبحت أحبك، لأن
حياتي أصبحت مرتبطة بالوقوف إلى جوارك والدوران حولك، ولأن فدان
الأرض وتسدّد إيجاره أصبح هو أيضًا مرتبطًا بذلك.. إنني منذ تلك اللحظة يا
ماكيناتى الأربع سأواليك بالتزيت، وسأمسح عن أجنابك كافة الزغبار والأتربة،
وسأجعلك كالعروسة في ليلة الزفاف.. سأجعل كل من يدخل العنبر من
الزوار يعود وفي ذهنه صورة طيبة عن العمال.. سأفعل هذا لأن هذا يزيد
الإنتاج، وسأفعل هذا لأننا أصبحنا متلازمين لا غنى لأحدنا عن الآخر».

وتطلعت إلى الساعة ورأيتها يلتقي عقرباها عند الثامنة مساءً.. وعدت
وتطلعت للممكن في انتظار نوبة الوردية الجديدة، مجتهدًا أن أترك لزميلي
عامل الوردية الثانية، ما يعينه على زيادة الإنتاج، وشعرت بقدمي وقد تصلبتا،
وذراعي وقد تراختا، ووسطى وقد أصبحت أقيمه بصعوبة.

وجلست بين الممكن وقد تمكن مني الإرهاق، وحسست بيدي على ما أنتجتته
من أقمشة وفرحت وعدت أخاطب الممكن: «أليس لك صاحب؟ وأين ومن

هو؟ بقي لي أن أعرفه!».

كان عقربا الساعة قد توقفا عند الثامنة، الثامنة مساء، ودخلت نوبة الوردية الثانية، وإذا بأصوات جديدة عديدة وعفوية ترج الجدران!

الجزء الثالث

إهداء

إلى الذين غابوا عنا وما زالوا يعيشون بيننا.

وإلى الذين ما زالوا يساعدون على استمرار الرحلة واستمرار المسيرة إلى
أن نتتصر.

فكري الخولي

اجتماع

خرجت من العنبر بعد أن سلمت مكني متمنيًا أن أصل للبيت لأستريح من
عناء العمل، بينما كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يسيران بجانب
يطيران فرحًا، قائلين: - خلاص. استلمنا المكن وما بقاش حد أحسن من حد.

وعاد الولد السيد الصفطي قائلاً:

- كل مكنة جابت ٨٠ بنط.

وقال الولد الغريب:

- المكنتين بتوعي جابوا ١٥٠ بنط.. يعني كل مكنة جابت ٧٥.

واسترسل قائلاً:

- مكن تعبان.. طول النهار بيقطع فتل.. أخلص من مكنة ألقى الثانية مقطعة!

عاد وسألني:

- مش أحسن من اليومية؟

قلت:

- أحسن.

قال:

- إنت أول ما اشتغلت كنت بتجيب كام؟

قلت:

- مكنة كانت بتجيب ٩٠ ومكنة بتجيب ٩٥.

- على طول؟

- في أغلب الأحيان.

- يعني احنا مش حنقبض؟!!

- ليه؟! دا أول يوم.. بُكرة إيدك تاخد.. تاخد على الشغل.

- إنت قبضت خمسة وخمسين قرش أول مرة.. أما احنا حنقبض كام؟

- كل ما اتجدعنتم كل ما قبضتم أحسن.

فعاد الولد السيد الصفتي قائلاً:

- بقه اليومية مش كانت أحسن لنا؟!!

فرد الولد الغريب:

- يومية إيه؟! ما تسيبك.. هُوَ احنا حنفضل كده؟!!

قلت:

- لازم تتجدعنوا لاحسن بُكرة يشغلوكم على أربعاء.

فهز الولد الغريب رأسه وهو يردد:

- قال الله ولا فالك.. الواحد مش عارف يقيم وسطه! دا انا الأول كنت فاك
إن الشغل على الممكن سهل.

- علشان تعرفوا إن الله حق!

- دلوقت بس أنا عرفت.. الله يكون في عون اللي بيشتغل على أربع
ماكينات.. الواحد اتخيل من البص ورا الممكن.. الواقف على أربعة يتعمي!

فرد الولد الغريب قائلاً:

- الواحد قلبه انقطع من شفت الموايك!

قلت:

- قلبكم انقطع من الشغل على ماكينتين.. أمال انا أعمل إيه؟!

وقال الولد السيد:

- نفسك انسدت، وأديك ماشي تنهج.

وعاد قائلاً:

- أنا دلوقت بس عرفت إنها شغلانة تقصّر العمر.

وبينما كنا نتحدث، وإذا بصوت يزعق.. كان صوت عبد العظيم، فاتجهت نحوه،
وإذا به مع آخرين، مستندين بظهورهم إلى جدار بواجير الحلاجة القريبة من
المصنع، واقفين في جانب مظلم.

استطعت أن أراهم بصعوبة، فحياني بيده المطبقة على السبحة، وقدمني
للآخرين قائلاً: - هُوَّ ده اللي وَقَفَ الممكن يوم ما طالبنا بالزيادة.

فهز كل منهم رأسه، ومد إليَّ الآخرون أيديهم، فعاد عبد العظيم قائلاً: - إنت
كنت فين لحد دلوقت؟

- كنت باسَلِّم الممكن.. سَلِّمته لزميلي.

- عملت إيه النهارده؟ عملت إيه في الشغل على أربعة ماكينات؟

- شغلتهم.

- جبت كام؟ كام بنط؟

- كل مكنة جابت خمسة وتمانين.

- يعني يبقى كل الممكن جاب كام؟

فرد أحد الواقفين:

- بيقوا كلهم جابوا ٣٤٠ بنط.

وعاد وقاطعه أحد الواقفين:

- خبر إيه؟ هُوَّ احنا حنقعد نتكلم في السكة! ما تيلَّا.. الناس زمانهم منتظرينا.

وعاد عبد العظيم وأمسكه من كوعه، وهمس في أذنه: - ابقى اتكلم الكلام ده
هناك.. هناك ناس كثير حنتكلم معاهم.

وعاد عبد العظيم وقال:

- تعال وبيانا.

- فين؟

- تعال وبس.

- بس ازاي؟! مش لازم أعرف؟! لازم نعرف احنا رايعين فين!

فرد أحد الواقفين:

- شيء لمصلحتك.

- أنا تعبان!

فعاد عبد العظيم وقال:

- تعال لما نشوف.. أما نشوفهم عايزينا ليه.. دا انا قلت لهم عليك وما
رضيتش أروح وياهم إلا لما آخذك ويايا.

كان يتكلم والولد الغريب والولد السيد الصفطي يغمزان لي، ولكنني لا أبالي
بغمزهما، وتلفت لهما قائلاً: - ما تيجوا بنا يا ولاد!

وإذا بهما يقولان:

- لا.. لا.. إحنا تعبانين.. تعال نروّح.

قالوها في غضب.. وترددت لحظة، ولكن لرغبتني في معرفة ما سيحدث قلت لهم: - رَوِّحُوا انتم على بال ما آجي!

فعاد الولد الغريب قائلاً:

- نرَّوح ازاى! نرَّوح ونسيبك؟ نسيبك تيجي لوحدك؟ البيت بتاعنا ضلمة.

وعاد الولد السيد قائلاً:

- خلاص.. نستنى لما نرَّوح سوا.. مش معقول حنسيبك تيجي لوحدك.. إللي يجرى عليك يجرى علينا.

فهز عبد العظيم رأسه وهو يردد:

- فيكم الخير والله يا ولاد!

وسار عبد العظيم في المقدمة مع مَنْ كان بجواره، وبدأوا يدخلون منعطفًا ويخرجون من آخر، وكانت رائحة نتنة تنبعث من أكوام الزباله بجوار المنازل القصيرة، وشوارعها المبتلة من كثرة ما قذف من المنازل من مياه جعلت المنعطفات كالبرك.. وقال أحد العمال: - إنتم رايعين فين؟ مفيش حته تانية؟ مفيش شارع تاني نروح فيه؟ إيه الشوارع المطينة دي؟!

يَلَّا نرجع.. يَلَّا نشوف حته نور.. يَلَّا يا جدع انت وهَوَّا!

فرد آخر:

- مفيش حته تانية غير دي.

فزرق آخر:

- عالم ببواطن الأمور! مَسِّي يا عم.. أهى ليلة.. لما نشوف الحاجات الكويسة
اللى انتم عمَّالين تقولوا لنا عليها! إياك نلاقي السعد!

وتقدمنا الخطى فى الظلام.. وفى مكان قريب من المصنع دخلت العمال..
دخلت العطفة. وبجوار أحد المنازل توقفت العمال، وخبط أحدهم على
الشباك، ودخلنا إحدى الحجر، وقبل أن نجلس مال على أذنى عبد العظيم
قائلاً: - ما تتكلمش.. إوعى تتلامض لما نشوف حيحصل إيه.

قلت:

- هَوَّ انت ما انتش عارف؟

- لا.

ودخلنا حجرة لم يكن بها شىء سوى قفف كثيرة بعضها بجوار بعض، وحصير
مفروش فى الأركان، ولمبة جاز على الرف عبقت الحجر بالدخان.

لم نستمر فى الجلوس طويلاً حتى دخل علينا آخرون، وجلس كل منهم فى
مكان فى أحد الأركان المبتلة من آثار نشع على الجدران، وكان من بين الذين
دخلوا ثلاثة لم يسبق لى رؤيتهم: أحدهم بجلباب صوف كحلى ولاسة حرير
بيضاء، والثانى بينطلون أزرق به بقع كثيرة من زيوت الممكن وحذاء غليظ
أسمر له رقبة سوداء شبيهة بما تلبسه العساكر.

وازدمت الحجر، ولم يبق فيها مكان لقدم، واصطف آخرون خلف الباب..
وقال أحد العمال: - يلاً خلصونا.. الواحد بطنه سقطت من الجوع! يلاً علشان

نلحق نشترى حاجة لنا قبل الدكاكين ما تسك.

وقال آخر:

- إحنا جاينين ليه؟

ورد ذو الالاسة الحرير البيضاء:

- ما حدش قال لكم؟

- لا.. ما حدش قال لنا.. ما نشعرش إلا واحنا جاينين.. كل ما سمعناه إن فيه حاجات حتسمعوها.. حاجات كويسة.

وانحنى ذو البنطلون الأزرق، وعاد وركز على إحدى قدميه واضعًا طرف أصابعه على فمه، وعاد ووضعها على ذقنه، واتجهت الأنظار، اتجهت كلها نحوه، وخاصة عندما قال: - اسمعوا يا جماعة!

وإذا بالحجرة كلها تنصت، ومالوا بأذانهم نحوه.

وعاد وأشعل سيجارة ووضعها بين أصابعه المرتعشة، وبدأ يقول في صوت هادئ: - إنتم عارفين؟ عارفين الشركة بدأت ازاي؟ بدأت بحوالي ٣ آلاف عامل.. بدأت بطرقة واحدة، طرقة نسيج واحدة، وغزل وسحب وبرم وكرد وتنظيف.. حوالي أربع ماكينات طباعة وماكينتين للتبييض وديزل صغير. دي الشركة عند بدء العمل. النهارده بقت أد إيه؟ بقت أد إيه بعد خمس سنوات والسادسة اللي إحنا ماشيين فيها دلوقت؟ فيها كام طرقة دلوقت؟ طرقة نمرة واحد وطرقة نمرة اتنين وطرقة ثلاثة وطرقة أربعة.. أربع طرقات.. علاوة على ذلك، ديزل ضخم يشغل كل تلك الطرق، وورشة خراطة وبرادة

ليس لها مثيل في مصر، وأيضًا مكن الطباعة والصباعة ازداد أضعاف أضعاف
ما كان عليه من قبل.. واليوم لو حسبنا حنلاقي عدد العمال بس النهارده
حوالي سبعتاشر ألف عامل.. ولسه عنابر أخرى جديدة!

قال ذلك وسكت، وأشعل سيجارة.. وتطلعت الأنظار إليه وهو يقول: - هيّ دي
الشركة!

قالها بنفس الهدوء.. وعاد وتطلع إلى اليمين وإلى اليسار، وأطبق إحدى يديه
وأغمض إحدى عينيه، وقال في صوت رن في الحجرة: - هيّ دي الشركة!
زادت وكبرت! إزاي كبرت؟

تشغيل العمال ببلاش في بداية عهدها!

وعندما بدأت العمال تهرب عادت وأعطت لكل عمال الغزل قرش صاغ واحد
في اليوم! أعطتهم بعد سنة بدون أجر.. ما عدا عمال النسيج.. خمسة
تعريفة.. هيّ دي الشركة! كبرت على أشلاء أعداد من العمال اللي كل يوم
بتهرسهم عجلات المكن، وتخطفهم السيور دون أن تدفع لهم الشركة «مليم
واحد» من التعويض.. يموت العامل كالكلب اللي ملهوش صاحب!

تململت العمال وتزحزحت عندما قال ذلك، ولكن عيونهم لم تتزحزح من
الاتجاه نحوه، وعاد وانتفض وهمّ واقفًا، ودس يده اليمنى في جيب بنطلونه
الأزرق، وجز على أسنانه، وعاد بنفس الصوت الهادئ بعد أن قذف بدخان
سيجارته في الهواء: - حد شاف المستشفى؟! حد شاف اللي شوّهم
المكن؟! حد شاف المرضى بالسل اللي بيطفحوا الدم هناك؟! عنبر بحاله
امتلاً وكل يوم بيزيد! إحنا نموت ونشوه، ومباني تقام، ومداخن ترتفع، ودخان
يتصاعد.. يتصاعد عاليًا!

ولوح بيده وهو يقول بصوت عالٍ:

- حنستنى كده لإمتى؟! حنستنى عشرين وتلاتين في حُجرة؟! حنستنى فريسة
للمرض؟! الوباء انتشر في المحلة.. انتشر فيها كلها.. مفيش بيت إلا وفيه سل
من كثرة المتكدسين في السكن.. قولوا! اتكلم انت وهَوِّ! بعد ما كان العامل
واقف على مكنتين وقفوه على أربعة! كل واحد عارف بيحيب كام بنط؟! كل
واحد عارف بيحيب كام متر من الأقمشة في اليوم؟! لو الواحد منكم عرف ما
كانش سكت.. سكت لغاية دلوقت.. حسبة بسيطة لو عملناها حنلاقي العامل
الواقف على أربعة ماكينات بيحيب في الاتناشر ساعة حوالي مية وعشرين
متر.. بياخد عليهم كام؟! بياخد خمسة قروش صاغ! ثمن مترين منهم
بيشترهم، والباقي مية وتمنتاشر متر.. كل ده داخل في جيوبهم.. جيوبهم هَمَّ!
ويا ريت حتى بيسيونا في حالنا.. كل يوم الغرامات بتزيد! إلهي بيعطوه لنا
باليمين بياخده منا بالشمال! ما يهمهمش حاجة! ناكل.. ما ناكلش.. نتعري..
القمل يعيش في هدومنا.. عيالنا تموت ما نلاقيش كفن! كل ده ما يهمهمش!
وفيه ناس بيقولوا لنا اصبروا! نصبر لحد إمتى؟! الصبر حرق الدكان!

وعاد وزعق بصوت عالٍ رج الحُجرة:

- مية وعشرين متر في اليوم، ومع هذا نمشي عرايا! الواحد منا عريان..
هدومنا مقطعة.. ليه؟ لأن مفيش معانا فلوس! حنجيها منين؟ مش حنجيها
واحنا قاعدين كده، واحنا قاعدين نبص لبعض!

وقاطعه أحد العمال:

- الكلام ده احنا عارفينه.. عارفينه من طأطأ لسلام عليكم.. نعمل إيه؟

قولوا لنا يا متعلمين.. قولوا لنا إيه اللي نعمله؟

قال ذلك في غضب، وعاد ووضع يده على خده في انتظار الإجابة.. وعاد ذو البنطلون الأزرق قائلاً: - نعمل إيه؟ نعمل إيه؟! نعمل كل حاجة.. إحنا ما بقناش لوحدنا، معانا ناس تانية.. ناس كبار جدًّا.. ناس من مصر.. ناس تقول للشيء كن فيكون!

فرد أحد العمال:

- ده يبقى ربنا.. مفيش غيره!

ورد ذو البنطلون الأزرق:

- ربنا له رسل.. كل واحد منا رسول الله في الأرض.. يرشد فلان وينهى فلان.

ورد آخر:

- أمال ليه مفيش حد بينهى الظلمة؟!

ورد آخر:

- ما هو ربنا راح يجيب ما هو أقوى.

وعاد ذو البنطلون الأزرق:

- ما هو اللي راح يجييلنا واحد من اللي ربنا باعتهم لنا.. جاي لنا عباس حليم.

فرد آخر:

- مين جابه؟! حد راح له؟!

فرد ذو البنطلون الأزرق:

- أيوه.. ناس جايباه.. ناس من مصر وناس من هنا.. قالوا له على الظلم، وهَوَّ
جاي.. جاي علشاننا.. واحنا ما جيناش إلا علشان كده.. جينا نقول لكم علشان
انتم كمان تتكلموا!

قال ذلك وسكت.. وساد الحجرة صمت، وعلت الفرحة الوجوه، وإذا بصوت
يرتفع: - إحنا ما جيناش النهارده إلا علشان كده.. كل واحد فيكم يتكلم مع
الآخرين.

وإذا بصوت آخر يقول:

- هَوَّ حيعمل إيه مع الظلمة؟!

فرد ذو البنطلون الأزرق:

- بالكرباج! بالكرباج حيضربهم! حنشوفهم وهم متكتفين.. متكتفين بالأحبال!
وازدادت وجوه العمال احمرًا، ومالوا بعضهم على بعض قائلين: - يا سلام!
حيكتفهم! بالكرباج؟! جاء اليوم اللي حنشوفهم متكتفين فيه بالحبل..
حنشوفهم وهم ماشيين زي القروود! حنشوف عباس حليم وهَوَّ بيقول لهم:
«عجين العجوزة ازاي»!

وانتهى الحديث، وأشرق الوجوه بالبسمات.

وعاد وقال ذو الجلباب الجبردين المخطط: - بُكرة.. بُكرة حتشوفوا عباس
حليم.. حتشوفوه على الشوارع.. حتشوفوه في الصور!

وعندما سمعت ذلك تذكرت ما سمعته في القهوة من أيام، وسألت صاحب
البنطلون الأزرق متلهفًا: - إمتى عباس حليم جاي؟ إمتى جاي؟ وحنشوفه؟
حنشوفه ماسك الكبراج؟!

قلتها متلهفًا:

- إمتى يبجي اليوم؟!

وإذ به يقول:

- قريب.. قريب خالص.. يوم الأحد.. يوم الأحد القادم.

وخرجنا من الحجرة وفي ذهن كل منا رُسمت صور عديدة.. في خيالي
تصورت عباس حليم الآتي من مصر.. إنه رجل لا تسعه بوابة المصنع..
تصورت أنه تخين جدًّا، كما تصورت شنبه المبروم الذي تقف عليه الصقور!
وتصورته وهو واقف ماسك كبراج، كبراجه الطويل الملفوف عليه أسلاك من
النحاس الأصفر، وهو مفرد على الأرض استعدادًا لضرب الرؤساء، وخاصة
بعد ما سمعت اليوم ما سمعته في القهوة من عبد العظيم «إللي له ظهر ما
ينضربش على إيده».

فرد عبد العظيم:

- تقصد إيه؟

- أقصد الشركة.

- ما انتش مصدق يعني وَلَا إِيه؟

- مصدق أوي.. بُكرة تشوف.. حتشوف الرؤساء وهي متكتفة.. بُكرة الميه
تكذب الغطاس.. بلاش غرورا!

وعاد وطبطب على كتفي:

- اسمع من هنا وفوّت من هنا.. الواحد يبسمع الكلام ده.. كلام يخلي البحر
طحينة!

وإذا بصوت يرن من الخلف قائلاً:

- خلاص.. بُكرة حتشوفوهم.. حتشوفوهم زي القروذ في الشارع.. واحنا
بنجري وراهم وهمّ مربوطين بالحبل!

أصوات وأصوات على طول الطريق:

- عباس حليم جاي.. بُكرة جاي.

فرد آخر قائلاً:

- طبعًا.. طبعًا حيزربهم.

وعاد آخر:

- حيزربهم لوحده؟ حيزربهم ازاي؟! أmaal احنا حنعمل إيه؟

فرد آخر:

- حنتفرج.. هَوَّ احنا نقدر نعمل حاجة؟

- أيوه يا أخي نعمل كل حاجة.. ما نعملش ازاي؟ هَوَّ جاي إلا علشاننا؟ قال
حيعمل نقابة.

- لمين؟

- حيعمل نقابة للعمال كلهم.

فقال آخر:

- طيب يا عم ما تزعلش.. إنت زعلان ليه؟ بُكرة الميه تكذب الغطاس.

ورنت هذه الكلمات في أذني، وملت على عبد العظيم قائلاً: - ما هو صحيح..
حيضربهم ازاي؟

فرد عبد العظيم:

- هَوَّ انت زعلان ليه؟ هَوَّ انت مش سمعت؟ كل الناس بتقول إنه جاي.. جاي
علشانهم.. إحنا مش حيبقى لنا دعوة.. حنقف نتفرج عليهم.

قلت:

- وحنقف نتفرج ازاي يا عبد العظيم؟! داك الساعة مش حتيجي الطوبة إلا في
المعطوبة.. هَوَّ يضربهم بَرَّه، وبرجعوا هَمَّ يضربونا جَوَّه!

فعاد قائلاً:

- ما احنا كلنا حنروح النقابة.

قلت:

- وهيَّ النقابة دي حتاخذ كل العمال؟

قال:

- طبعًا.. تاخذ كل العمال.. نقابة كبيرة.. هوّ واحد زي ده قريب الملك وحيجي ياخذ أوضة صغيرة؟! ده حيجي ياخذ بيت كبير يساعنا كلنا.. ووقتها اللي يعمله ربنا هوّ اللي يكون.

وتوقف عن السير تجاه ناحية شارع البهلوان وعاد قائلاً: - الدنيا دلوقت نور.. تقدرُوا دلوقت ترؤحوا.. وانا خارج لأنني تعبان وُبكرة حنتقابل.

عباس حليم في المحلة

ونحن في الطريق إلى المنزل لم يكن يشغل ذهني شيء سوى ما سمعته اليوم وما سمعته منذ أيام، يوم أن كنت في القهوة من أحاديث حول عباس حليم.. وفكرت: «الكل يتحدث أنه منقذ، وإن الذين يتحدثون هم من الميكانيكية الجدد.. هم الذين كانوا يتحدثون في القهوة، وهم أيضًا من تحدثوا اليوم.. إنهم بلا شك متعلمون». وتذكرت ما كانت تقوله أُمي يوم أن كنت في القرية، قبل أن أشتغل في المصنع.. تذكرت ما قالت لي: «عايزاك تتعلم».. تذكرت هذه الكلمة، وقلت في نفسي: «لو سمعت كلامها وتعلمت لكنت الآن مثلهم، أتكلم كما يتكلمون وأعرف مثل ما يعرفون.. ها أنا الآن أسمع منهم ما كان في الإمكان أن أقوله لو تعلمت». وعدت وسألت نفسي: «أكان في الإمكان أن أتعلم مثلهم لو أن أبي قد عاش؟ ولكنه مات بعد ولادتي بشهرين أو ثلاثة ولم يترك لنا مليمًا واحدًا! وحتى أُمي قد استدانَت ما كفتته به.. صحيح أن أُمي حاولت أن تعمل بالوصية، حاولت أن تعلمني حتى ولو فك الخط، ولكن أكان من الممكن أن أكون مثل هؤلاء؟ طبعًا لا.. لأنهم قد تعلموا في المدارس، والمدارس عايزة فلوس، وكما قالت النيابة في محاكمة الذي قتل الرئيس الظالم: «إنها الصفوة المختارة التي قد تعلمت من خلال العرق والدم»، وكانت تقصد النيابة دم أهاليهم».. تذكرت هذا وقلت في نفسي: «لولا أن لهؤلاء أهل لم يكن من الممكن أن يتعلموا».

وعدت وتذكرت ما كنت أسمع من أبي: «ما لم تعلمهم الأهل سوف تعلمهم الأيام والليالي».. وها أنا الآن أتعلم من تلك الأيام، أتعلم من خلال كلمة هنا وكلمة هناك، أتعلم من خلال انتباهاتي لكل ما يقال.. وقلت في نفسي: «لو استمررت على تلك الانتباهات سوف أتعلم وأعوض نفسي عما فاتني.. أتعلم

من خلال حياتي».. وعدت وقلت في نفسي: «إن الميكانيكية هم الذين يتكلمون عن عباس حليم، ولكنهم لم يتكلموا عن العمال وما يمكن أن يعملوه.. يقولون إن عباس حليم يضرب بالكرباج.. يضرب الرؤساء.. وإذا كان هو سيفعل ذلك فلم يتكلمون عن النقابة؟! إنهم يقولون لنا تكلموا مع العمال.. ولم يقولوا لنا ما ستفعله العمال قدر ما قالوا ما سيفعله عباس حليم!».. أسئلة عديدة محيرة.. ثم عدت وقلت في نفسي: «يوم أن تكلمت مع عمال النسيج عن الزيادة لم يكن في ذهني ولا في ذهن أحد من العمال ما سيفعل سوى أن عمال المحلة قد توقفوا عن العمل، وأن الشركة قد فصلت معظم من توقفوا، وما قيل من أن أهالي المحلة قد توقفوا وحدهم دون العمال.. قيل يومها هذا.. كما قيل إننا لو توقفنا جميعًا، ووقفنا كل الممكن لأخذنا كل ما طلبناه.. قيل هذا يومها أيضًا ولم نكن قد اتفقنا على من يتقدم بعملية توقيف الممكن، يومها وقفنا حائرين، لولا أنني قد أوقفته.. أوقفته، ولم أكن أظن أن أحدًا من العمال سوف يتبعني، لم أكن أظن هذا لأنني قد شعرت بأن صغر سني يحول دون ذلك، ولكن حدث غير ما توقعت، وتوقف كل الممكن لأن العمال كانت لها في ذلك مصلحة.. لم لا يقال إن العمال ممكن أن تعمل ويكون لها شأن؟ لم لا يذكرونهم؟ لم يقال إن عباس حليم وحده هو الذي يفعل وسيفعل؟».. نفس الأسئلة التي سبق أن حيرتني.. وأخيرًا قلت في نفسي، متذكرًا ما كنت أسمعه من عديدين في قريتي: «يا خبر بفلوس بُكرة يبقى ببلاش».. وعلى إيه؟ مفيش حد فاضل غيره نشتكى له، وما دام الناس بتقول إنه منقذ العمال، أهو بُكرة يوم الأحد جاي، وحنبقى «نقعد جنب الحيط ونسمع الزيت».. كلام سمعته من أمي.

وكنا قد وصلنا إلى المنزل، وعندما دخلنا الحجره لم أتمالك نفسي من كثرة التعب، كما لم يتمالك الولد الغريب ولا الولد السيد الصفطي أنفسهم،

ففرشنا الحصيرة دون أن نكنس الحجرة.. كما لم يتمالك أحد منا أن يذهب لشراء فول مدمس من الدكان، فاكتفينا بالعشاء ببعض قطع المخلل الموجودة بالحجرة.. وبعدها أمال الولد الغريب والولد السيد الصفتي رأسيهما إلى الحائط، ولم تمر لحظة إلا وقد ناما.. ولم أشعر إلا بعد أن سمعت شخيرهما، فهملت لغلق الحجرة، وأخذت مكاني بينهما.. وإذا بالحجرة تنفتح ببطء شديد.. وهالني المنظر.. كانت واقفة على أطراف أصابعها وملاءتها السوداء مدلاة على كتفها العاري من الأكمام.

ولم تتحمل عيناى المنظر، فكان جسمها شبه عار عدا قميص نوم شفاف بلا أكمام، وشعرها منكوش ومدلى على جبينها، فأحنيت رأسي في الأرض، بينما كانت هي تطل برأسها في الحجرة لترى من بداخلها، فسمعت الشخير المنبعث، وعادت وأطلت برأسها نحو السلم، ثم عادت بعد أن اطمأنت وأمسكت بالباب ودفعت به في تباطؤ لكي لا يحدث ضجيجًا أو أزيزًا يوقظ النائمين، ودفعت بنفسها إلى الداخل، وعادت وردت الباب خلفها وألصقت نفسها خلفه، وهالني المنظر.. جسمها.. سيقانها العارية حافية القدمين.. كان كل ما بها ينتفض، وصدرها يعلو ويهبط.

اعتقدت بعدها أنها جاءت غاضبة، أو أن أحدًا يجري خلفها، لأن منظرها كان يوحي بذلك، ووقفت قبالتها مشتت الفكر غير قادر على الوقوف من كثرة ما بجسدي من الانتفاض أنا الآخر، فحاولت إبعاد عيني عن التطلع نحوها، ولكن عيني لم تهاودني، كالتي تقول: «اتركني أشبع من هذا الجسد! اتركني أغوص في كل ما فيه من جمال! لماذا تحرمني؟ لم تحني الرأس؟ إنها جاءت كاشفة عن كل ما بها لكي تشبعني أنا! تعوضني عن البص في الحديد! حديد الممكن وشحومه السوداء! تقوم انت وتمنعني؟! ادفع بي نحوها لأستمع».

ولم أستطع المقاومة، ووقفت أمامها وعيناى قد تصلبتا على وجهها الشاحب، ووقفنا قبال بعض وعين كل منا في عين الآخر دون أن ينبس بكلمة، وتحركت قدماى، تحركت ببطء نحوها.. وتذكرت ما سمعته من عبد العظيم: «إذا وجدت امرأة مع شاب كان الشيطان ثالثهما».

استغفرت الله، وقرأت سورة الفاتحة، وعدت وقرأت سورة «قل أعوذ برب الناس».. قرأت هذا سريعًا محاولًا أن أمنع نفسي من التحرك نحوها، ولكن هذا كله لم يمنع جسدي من الحركة ولا من الانتفاضات الشديدة!

فاتجهت مدفوعًا دون إرادة مني، وارتفعت يداى لتلمس جسدها.. وفجأة توقفت بالقرب منها محاولًا أن أكلمها، أن أسأل ما بها، ما أدخلها هكذا عارية.

ورفعت أصابعها على فمها قائلة:

- هس! هس! هس!

فأثرت الصمت، وعدت واستغفرت الله، وقرأت، وقرأت، ولكن كان هناك شيء خفي أقوى من القراءة.. شيء لم أتبينه دفعني دفعًا نحوها، وإذا بيدي تمتد وتمتد بثقل شديد رغم كل ما بذلته من جهد لمنع يدي من الاقتراب منها، وأطبقت بقوة على ذراعها العارية، ووقفت أنتفض قبالها وعيناى تحمقان بكل ما بها.. حاولت هي أن تنزع يديّ وقد ماتتا على يديها، فعادت وضممتني نحوها، وجلست على الأرض وهي تهمس: - إنت كنت فين؟ كنت فين لحد دلوقت؟

- كنت في الشغل.

- في الشغل؟! في الشغل لحد دلوقت؟!

- أيوه.

- أنا حلمت وأنا نائمة إنك بتجري والناس بتجري وراك! فقامت مفزوعة من النوم ونزلت أجري علشانك!

وعادت قائلة:

- من أول الليل وأنا رايحة جاية على الأوضة ما لقيتش فيها حد.

كانت بتتكلم وصدرها يعلو ويهبط، وعيناها تتسعان، وعادت وقبّلتني، ورفعت يدها، وعادت بأطراف أصابعها لترفع خصلات شعر نزلت على جبينني، وعادت قائلة: - شعرك ملبد ليه؟ شعرك كان ناعم! هوّ مليون قطن من إيه؟

- من الشغل.

- ما تسرحوش؟

- أسرحه إيه؟! هوّ انا مالك! دا انا باصحي من الفجر ويا دوب باعقد الرغيفين وباطلع جري!

- هوّ المصنع مفيهوش ميه؟

- ميه فين؟ دول قافلين الدورة، لا تفتح إلا نصف ساعة في اليوم! وكلنا بنطلع شعرنا منكوش!

- يا خرابي! أمال بتعملوا إيه طول النهار؟!

فخجلت أن أجيبها.

وضممتني بذراعها، وتنهدت ومالت بخدها على وجهي، فأحسست بدفء ينبعث منها، ولم أتدارك بعدها نفسي وكأن جسمي قد مسه ماس كهربائي، فانتفضت انتفاضة شديدة.. نسيت السور التي كنت أقرأها، واستجمعت شجاعتي وعزمت أن أفرد أذرعتي وأحتضنها من وسطها، ولكن شيئاً ما قد منعني.. وتجسمت أمامي صور عديدة، صور متلاحقة.. صورة عبد العظيم وهو جالس بجوار عمود النور على البحر ويده مقبوضة على جبهته والدموع تسيل من عينيه وهو يردد: «إيدي.. إيدي داهيه.. إيدي اللي راح ياكلها الدود، هيّ اللي جرجرتها.. جرجرتها بالقوة».. وتذكرت عندما حاول أن ينطح رأسه في العمود وهو يقول: «باكفر عن ذنوبي».

عندما تصورت هذا شعرت بجسدي يتراخي ويتراخي، كما تجسدت أمامي صورة زوجها المريض وهو يسعل على الكنية يوم أن كنت معزومًا عندها، تصورته وهو يقول: «اتفضل. اتفضل كل».. تجسدت صورته أمامي وهو يسعل ويواصل سعاله.. وإذ بي أشعر بأن جسدي كأنه دلق عليه صفيحة ماء باردة، فوجدت نفسي أنسحب، أنسحب في هدوء، وهي تدفع بي نحوها وأنا أدفع نفسي بعيدًا، بعيدًا عنها، وهي تعود وتجذبني من قدمي، وكادت أن تحدف بنفسها فوقي بعد أن تكوم قميصها إلى ما فوق فخذيتها، وكدت أن أعود، وإذا بالولد الغريب يقوم مفزوعًا وهو يصرخ صرخات متتالية وهو يردد: - فين؟ فين؟ فين الحرامي؟

وتطلع ذات اليمين وذات اليسار، وإذ بها تسرع تلف نفسها في الملاية وهي تنظر نحوه بعينين يملأهما الغيظ، وهمت واقفة تنظر وتنظر نحوه دون أن تنبس بكلمة كالمتسائلة: «هوّ شافنا؟ هوّ بيعمل كده ليه؟ بيصرخ ليه؟ هوّ عاوز يجيب الناس من برّه لاجل اللي ما شافش يشوف؟».. ولكنها اطمأنت

عندما عاد ونام مرة أخرى.. وتطلعت لي، فلمحت من خلال تطلعتها، عينيها وهي مغرغرة بالدموع، فجذبتني نحوها مرة أخرى، وضممتني في تردد: - ما تبقاش تتأخر برّه! أنا باقلق علشانكم!

قالت هذا وسكتت، وكانت عيناها قد تساقطت منهما الدموع، وخرجت من الحجرة وهي تمسحهما بطرف ملاءتها.

وعدت وعدلت الولد الغريب والولد السيد الصفطي من نومتهما المتعبة، وأخذت مكاني بينهما، وحاولت أن أتذكر ما حدث، وإذ بجسدي يعود ويتحرك عندما تجسدت صورتها أمامي، فاستعدت بالله ونمت بعدها هادئ الأعصاب.

وفي الصباح اتجهت للعمل، ولم يكن في ذهني سوى ما أراه على الجدران من صور، وعلى طول الطريق لم يغمض لي جفن عن التطلع في الأركان، وإذا بي أجد العمال هي الأخرى تتطلع ذات اليمين وذات اليسار.. فأيقنت أنهم الآخرون يتطلعون لما أتطلع إليه قائلاً لنفسني: «لا بد أنهم قد عرفوا».

وبالقرب من البوستة كانت ناس كثيرة واقفة، ناس ترش الملح ما ينزلش، وآخرون يندفعون مهرولين من أماكن مختلفة، وكل منهم وضع ذيله في أسنانه، فأسرعت الخطى، وهناك وجدت صورة ضخمة، صورة بعرض الحائط والجميع يتفرجون، والصورة لرجل واقف، مشمر أذرعته، وفي يده كرباج طويل جدًّا.. وإذا بأصوات عديدة تردد: - هُوّ ده.. هُوّ ده اللي جاي يوم الأحد.

ومنهم من يقول:

- شايف الكرباج! شايف يا واد انت وهُوّ! كرباج لسوع جتتهم!

أصوات.. أصوات.. وشخصت الأعين في الاتجاه نحو الصورة، وإذا بصوت آخر:
- صور قدام.. صورة تانية على الجدران من هنا لحد المصنع.

وبينما نحن نتحدث وإذ بأتومبيل يتوقف وسط تلك الحشود.. واندفع منه اثنان..
واحد منهم لابس بدلة وعلى رأسه طربوش أحمر غامق، وأخرج من الأتومبيل
رزمًا متعددة، وكانت هذه الرزم عبارة عن صور لعباس حليم في مواضع
مختلفة.

وفي سرعة وزعت في الحال، والثمان ثلاثة مليمات للصورة.. ولم يكتف
الواحد من العمال بصورة واحدة، بل اشترى كل منهم أكثر من واحدة،
واشترت ثلاث صور: صورة وهو واقف بجوار حصان أسمر، وأخرى وهو
راكب أتومبيل وبطل برأسه من الشباك، وثالثة وهو مشمر عن ذراعيه ولافف
الكرياج على ذراعه. وكانت هناك صور أخرى عديدة تباع كنت أود شراءها لو
كان معي نقود أكثر.

وعلى طول الطريق كانت العمال، كل العمال، تحمل الصور، لم تكن يد خالية
من صورة، وكل منهم يتفرج وآخر يقول: - بتاعتي أحسن!

وآخرون يسألون:

- اشتريتها مين؟

- من شارع البهلوان.

وآخر يقول:

- من شارع الحنفي.. هناك صور كثيرة.. اشترينا على أد ما معنا، وبكرة
حنشترى ونعلقها في الأوضة.

وآخر يقول:

- حاعلقها قدامي.

وآخر يقول:

- حاعلقها فوق رأسي.

والجميع يرددون:

- هَوَّ ده.. هَوَّ ده اللي حينقذنا.

وكل منا دخل إلى العمل وفي ذهنه أنه يحمل عباس حليم الحي لا عباس
حليم الذي على الورق.

واجتاحنتي رغبة ملحة أن أعلق تلك الصور.. أعلقها أمامي على الممكن خوفًا
من أن توضع تحت الممكن وتبتل بالزيوت.. ولم أتردد، فعلقته كل صورة على
ماكينة بجوار الورق، وإذا بي أجد العمال تفعل مثلما فعلت، فبان العنبر كله
عبارة عن صور ترتفع وتنخفض حسب الورق، وعمال تعدو من هنا وعمال
تعدو من هناك ليتفرجوا.

وإذا بالمباشرين والمساعدين وبعض من الرؤساء يعدون هم الآخرون في
الاتجاه نحو الصور.. وكان البعض ينظرون لها وهي معلقة وشفاهم تتحرك
بكلمات ليست مسموعة، والبعض الآخر قد أمسك بالصور وقطعها إلى حنت،
والبعض الآخر اكتفى بلمها وأعطاهها للعمال ثانية.. أعطوها لهم خلسة.. وكانوا

من الميكانيكية الجدد، وقد فهم من خلال تصرفهم هذا أنهم لا بد أن يكونوا
مشاركين، أو على علم بما قد يحدث يوم الأحد القادم.. يوم أن يأتي عباس
حليم.

ومع أن الرؤساء قد مزقت الصور، إلا أن ما تبقى كان أكثر، وبين الحين
والحين كانت العمال تخرج من تحت مناديل الأكل الصور، وتقف أمامها
متأملين ورؤوسهم تهتز إعجابًا كلما نظروا للكرباج الملفوف على يده،
ويعودون ويتطلعون للرؤساء ممن قطعوا الصور، ويتمتمون بكلمات، وكانت
نظراتهم باديًا فيها الحقد.

كان العنبر كله شبيهًا بخلايا النحل.. خلايا النحل الهائج، والممكن يتحرك
والسيور تهتز، والرؤساء تعدو من هنا وآخرون يعدون من هناك، وعمال تقف
وأيديهم على الفرامل رافعين رؤوسهم في انتظار ما قد يحدث من الرؤساء.

واقترب مني أحد الميكانيكية الجدد، ممن عينوا أخيرًا، ملوحًا بيده، وعندما
وقفت بجواره قال لي وهو يركن ذراعيه على أحد أجناب الممكن: - هه.. إنت
زي الناس دول؟

قلت:

- ناس مين؟

- ما انتش عارف؟

- لا.

- هه.. الناس اللي اشترت الصور وعلقتها على الممكن؟

فتأكدت أنه يمتحنني، وخاصة أنني قد علقت الصور وهو لا بد قد رأني قبل أن أشيلها، وهو لم يأت إلا ليمتحن قوتي ويعرف ما إذا كنت خائفاً أم لا.

وترددت لحظة قائلاً لنفسي: «أقول إيه؟ أكذب؟ لا.. يمكن يقول أنا شفتها، وشفتها متعلقة.. أبقى أودي وشي فين! أعمل إيه لو حط إيدته تحت الممكن وطلع الصور».. فأسرعت قائلاً: - أيوه.. أيوه.. أنا اشتريت، اشتريتها زي الناس اللي اشتروها.

- اشتريتها بكام؟

- بتسعة مليم.

- تسعة مليم! مش كنت أولى بهم!

وعاد قائلاً:

- الواحد منكم يبقى في قفا مليم وبروح يصرف فلوسه على الفاضي.. يصرفها في كلام فارغ.. إنتم فاكرينها سايبه؟! كلب مين اللي ضحك عليكم وخلاكم تصرفوا فلوسكم على حبة ورق لا حتجيب ولا حتودي! قل لي مين يا ولد اللي ضحك عليك؟ قل لي وانا أروح له.. أروح له أفقعه قلمين على خلقتة علشان يحرم يضحك على الناس!

أدركت في الحال أنه يريد أن يعرف، فقلت له في سرعة خاطفة:

- مفيش حد.. وهمّ حيقولولي ليه؟ أنا اللي اشتريتها!

فعاد قائلاً:

- ليه؟ هيّ الفلوس فاضت؟

وكدت أن أقول له «وانت زعلان ليه؟ هوّ احنا أخذنا الفلوس من جيبك!»،
ولكنني ترددت أيضًا وخفت من أن أفصل من المصنع كله.. وقلت: - هيّ
حتفيض من إيه؟ هوّ احنا معانا حاجة؟! أنا وفرت ثمن الغموس واشتربتهم
وحاتغدى عيش حاف!

وعاد قائلاً:

- وإيه اللي كان غاصبك؟ وهمّ حيعملوا لك إيه؟

فلم أجب على كلماته هذه.. فعاد قائلاً:

- إتم فاكرين إيه؟ فاكرين إنها سايبة؟ همّ دخلوها في أدمغتكم؟ فاكرين جاي
وحيعمل وحيخلي؟! دا كلام فاضي اللي انتم بتقولوه! حيضرب مين ولا مين؟!
دي شركة فيها عشرين ألف واحد حيجي هوّ يضربهم؟! حيضرب كل دول؟!
هاهاها!

قلت:

- وهوّ حيضرب العمال؟ دا جاي علشانهم!

فقال:

- دي شركة.. عالم تاني.. مفيش حد يقدر يخشها.. دي مليانة خفر ومليانة
ضباط، وفيها ناس تانية، ناس ما حدش شافهم، وقت الجد حيشوفوهم.. هوّ
فيه حد يقدر عليهم؟! بيضحكوا عليكم شوية ناس!

قال هذا وسكت.. فاعتقدت أنه يكسر من عزيمتنا، فلم أبال بما قال من كلمات قائلاً لنفسه: «مش معقول تكون كل الناس بتتكلم وكلامهم يطلع على الفاضي!».«

وتركته واقفاً، وبدأت ألف وألف حول الممكن لكي لا أسترسل في الكلام.. وعاد هو من جديد ووقف بجواري، وقبل أن يتركني قال لي: - بُكرة تقتنع إن كل اللي بيقلوه لكم ده كلام فاضي.

وجز على شفتيه قائلاً:

- لولا إنك عامل جدع، منتبه لعملك لقطعتك الصور.. أنا شفتك وانت بتشيلها، وشفتك وانت بتعلقها، و عملت نفسي مانيش شايفك.. خلي بالك لاحسن حد غيري يبقى يشوفك.

قال هذا وتركني يتطلع في وجوه بقية العمال.

وانتهى اليوم، وخرجت العمال من العنابر يحملون تحت إبطهم ما تبقى من صور، وكانوا في سيرهم يحكون الأرض بأقدامهم المتعبة محدثين أصواتاً عالية.

ومرت الأيام تباغاً وصور عديدة تعلق كل يوم على الجدران، وعمال عديدون يقفون في انتباه متأملينها وشفاهم تتحرك ويرفعون أيديهم إلى السماء، ولم يكن عمال الشركة وحدهم هم المتحمسون، بل كان هناك عمال آخرون.. عمال النسيج اليدوي من أهل المحلة يمرون هم الآخرون على بعضهم بعضاً قائلين لأنفسهم: «يوم الفرج قَرَب».. وعمال بوابير الحلاجة هم الآخرون، حتى عمال المخابز! كنت أرى ذلك كلما مررت في عطفة أو شارع.. كان

الكل في حالة انتظار.. في انتظار يوم الأحد.. حتى النساء خرجن من المنازل، ووقفن أمام الصور يتفرجن في الشارع من كثرة ما سمعنه من كلمات.

وجاء يوم السبت، والعمال على طول الطريق يتحدثون قائلين لأنفسهم: «خلاص! بُكرة جاي.. بُكرة حنشوفه.. مفيش حد منا حيروّح».. كانوا يسيرون بهامات مرفوعة، داكين الأرض بأقدامهم، وكلما اقتربوا من المصنع كانوا ينظرون لكل شيء فيه بعيون حادة النظرات مستحلفين للرؤساء، ويعودون وينظرون في غيظ للغفر.

وفي المساء كانت المحلة كلها ساهرة، عمال تروح وعمال تيجي في الشوارع، وعربات الكارو محملة بالأخشاب، وأخرى محملة بالكراسي متجهة للمكان المخصص للاستقبال بجوار البورصة خلف شارع سوق الطباخين.. ولم ينم العمال ليلتها.

وفي الصباح خرجوا إلى الشارع.. عمال الغزل بالجلابيب الزفير المخططة، وآخرون بجلابيب من الدبلان، وآخرون بجلابيب من الكتان المقلم.. وعمال بواجير الحلاجة هم الآخرون قد خرجوا.. وعمال النسيج اليدوي خرجوا بملابسهم الحريرية البيضاء.. وسواقو التاكسي كانوا أكثر الناس حماسًا بلزق الصور على الجدران.. واتجه العمال نحو الصوان الضخم وتجمعوا، تجمعت الألوف، وإذا بصوت يقول: - أيها العمال! أيها العمال! فلنتجه للمحطة.. فلنتجه جميعًا لمقابلة الزعيم.. الزعيم جاي في القطر.

وتحركت العمال في طوابير متراسة.. عالم تسد عين الشمس! وفي ثوانٍ دخل القطار بطيئًا بطيئًا، محدثًا ضجيجًا: «تشك.. تشك».. وصفارات عالية متقطعة: «توت.. توت.. توت».. وتدافعت العمال إلى الداخل، وبينما كان

القطار يزعق ويدخل في بطاء اندفعت العمال إلى الداخل، وإذا برجل يطل
من الشباك.. رجل أبيض له عينان زرقاوان، ضخم الجثة، حليق الذقن
والشارب.

وتوقف القطار، وبدأت العمال تقذف بنفسها من كافة الأبواب، وازدحمت
على الرصيف، واتجهوا نحو العربة، وتعالى الهتافات تدوي.. هتافات تصم
الآذان: عاش الزعيم!

عاش الزعيم المنقذ!

عاش قاهر الظلمة!

عاشت العمال!

واختطفوه خطفًا، وحملوه على الأكتاف.. خرج من على الرصيف للباب
الخارجي محمولًا على الأعناق.

وفي الميدان الفسيح كانت العمال تسد كل الطرق المؤدية.. عمال تحمل
الأعلام.. أعلام خضراء، ولافتات مكتوبة بمياه الذهب مرحة بالزعيم! وآخرون
محمولون على الأعناق، وهتافات تدوي، وعربات التاكسي مزينة بباقات
الورد.

وبينما كانت الهتافات تدوي كانت عمال الوردية الثانية قد خرجت، ولم تتجه
إلى المنازل لتستريح، بل اتجهوا بملابسهم الملطخة بالزيوت وشعورهم
الملبدة بزغبار غزل القطن يجررون أقدامهم المتعبة هاتفين: عاش الزعيم
المنقذ!

عاش قاهر الظلمة!

هتافات على طول الطريق.. والنسوة تطل من الشبايبك ومن شرفات
المنازل يزغردن زغاريد متواصلة.. وكانت الهتافات ترح جدران المنازل.

وصل الموكب إلى الصوان الضخم في أكثر من ساعتين مع أن المسافة من
المحطة لم تكن تستغرق دقائق، وتصدر الصوان من الداخل معظم
الميكانيكية الجدد، وكانت هذه مفاجأة بالنسبة للكثيرين، وتساءل كل منهم: -
إيه دول؟! إيه اللي جايبهم؟! جايبين ليه دلوقت؟! مش همّ دول اللي بيضربوا
العمال؟! مش همّ دول اللي قطعوا الصور؟!

وقال آخرون:

- معلهش! ما هماش كلهم.. فيهم ناس كويسين.

وقال آخرون:

- كويسين إيه؟ كلهم ولاد كلب! حنقول له عليهم.

ودخل عباس حليم إلى الداخل محمولاً على الأكتاف على تصفيق حاد
متواصل وهتافات حتى خُيل إليّ أن كل ما بداخل الصوان تزحج، واندفعت
العمال خلفه.. اندفعوا إلى الداخل يحمل كل منهم حذاءه تحت إبطه خوفاً من
ضياعه وسط الزحام، مرددين ما يقال من هتافات.. وإذا بصوت ينبعث من
الداخل: - أيها العمال! أيها العمال! كل واحد يسكت نفسه.. كل واحد يسكت
اللي ربحه.. ما حدش يهتف.

والعمال لم تسأل:

- نريد كلمة من الزعيم! نريد أن يخرج الكرياج لنضرب الظلمة!

ونط آخر على الكرسي ولوح للعمال بكلتا يديه، واستمر يلوح ويلوح: - هدوء..
هدوء.. حتسمعوه.. حتسمعوا كلمة الزعيم.

وأنصتت العمال وانتظرت، ووقف آخر ولم يتكلم طويلاً بل اكتفى بكلمتين
وسط هتافات في داخل الصوان وخارجه إلى أن بحت الحناجر، وإذا بصوت
آخر يقول: - والآن.. ستسمعون كلمة النبيل.. ستسمعونها عالية!

وانتظرت العمال، وما زالت تنتظر، وصمت كل من كان في الصوان وخارجه،
وعندما سمعت ذلك قلت للولد الغريب: - يلاً نروح.. نروح قدام.

ونظر لي في ذهول قائلاً:

- نروح فين؟! بص.. بص قدامك! شايف الدنيا عاملة إيه؟! الدنيا موت.. الواحد
قادر يتعتع!

قلت:

- تعال يا عم نطلع قدام!

قال:

- لا.. تعال نطلع برّه.. الدنيا حر والواحد حيموت!

- حتموت من إيه؟

- من الحر.. حنسمع إيه.. نسمع الكلام ده.. أنا عطشان.. الهدوم بتاعتي بقت
ميه.. ميه من العرق!

- لو كل واحد قال كده يبقى مفيش حاجة راح تحصل.. لازم نيجي نسمع.. إحنا
لنا مصلحة في السمع.. أmaal كنا بنتعب نفسنا ليه؟!

وإذا بعباس حليم على المنصة وسط أعلام خضراء ملوِّحًا بيديه، وتعال
هتافات.. هتافات هزت كياني، فزعت في وجه الولد الغريب: - إنت واقف
تتكلم؟! يلاَّ غطوا علينا.. شايف طلوعوا فوق الدكك.. امسك يا ولد في هدومي
وتعال.. تعال نقف!

- نروح ازاي؟!

فزعت في وجهه، وأخيرًا أمسك بجلبابي، وبدأنا نرحف من تحت أقدام
الواقفين، حتى وصلنا إلى قدام بعد شق الأنفس.

وحملت بعيني في الاتجاه نحوه، بينما كان الولد الغريب ينهج، من حين لآخر
يخرج لسانه ويمشِّيه على شفثيه ويعود ويبلع ريقه.. وأطلت النظر في انتظار
ما يقوله عباس حليم لأسمع ما يشفي غليلي، وإذا بتهتهة: «ب.. ب.. ب..
ب..» تنبعث من فمه.. كلام ليس معروِّفًا، ولم يستطع أحد من الواقفين أن
يفهم، وتلفتت العمال متسائلة.. كل منهم يسأل الآخر: - إيه؟ بيقرأ إيه؟ هوَّ
بيتكلم باللوندي؟!

فرد آخر:

- هوَّ بيكلمنا؟ دا بيتكلم مع الميكانيكية!

وقال آخر:

- دا بيتكلم خواجاتي!

وآخر يقول:

- طبعا يا عم هو حيستعنانا! حيكلمنا ليه؟ دا حيتكلم مع الناس اللي يفهموه.

وقال آخر:

- ما تسمع يا جدع انت وهو.. بلاش دوشة.. هو احنا جاين نسمعكم ولا

نسمعه!

فرد آخر بتهكم:

- فصيح! فصيح أوي! فصيح أهلك! حتسمع إيه؟! إنت مش حتفهم حاجة حتى لو

كنت دخلت الأزهر.. كلامه ما تفهمهوش لا انت ولا اللي خلفوك!

وكادت أن تنشب معركة لولا تدخل من كانوا بجوارهما وقال آخر:

- يتكلم كلام نفهمه.. واحد يزعق عليه.. ازعق عليه يا جدع انت وهو.. يلا

نزعق.

وكان عباس حليم قد انتهى من كلماته بتهتهة ليست معروفة أيضا. وزعق صوت من الأركان رن في الأذن: - ما فهمناش حاجة! فسروا لنا كلامه! يقول

إيه؟

وترددت الأصوات مطالبة، ووقف واحد ممن كانوا بجواره قائلاً:

- أيها العمال.. عباس حليم جه النهارده، زيارة علشانكم.. هَوَّ بيحبكم.. ويقول إنه راح يفتح نقابة هنا.. نقابة يشترك فيها كل العمال.. عمال المحلة.. والاشتراك قرش صاغ للعيال الصغار، وتلاتة للكبار، وخمسة للأكبر.. وكل واحد يتصور صورتين.. صورة للكارنيه.. والكارنيه حياخده معاه.. حياخده له.. والزيارة اللي جاية هَوَّ راح يبجي بعد ده ما يتم.. راح يبجي وحتشوفوه حيعمل إيه.

قال هذا وسكت، وعاد وزعق من جديد زعقة عالية أرغمت الجميع أن يسمعوا: - حخلص تار سبع سنين.. سبع سنوات من الظلم اللي عشناه.. حيمشي قدامكم وحيوريكم حيعمل إيه.

وعندما سمعت العمال ذلك لاح في وجوههم الأمل، وتألقت أعينهم بالرجاء وعاد قائلاً: - أيها العمال.. يا عمال المحلة.. جاء وقت العمل فلا تضيعوه.. وليعلم كل منكم أن الطريق شاق.. شاق وطويل، وعلينا جميعًا.. علينا أن نقتنصه.. لا يجب أن نتوانى.. أن يتوانى أحد منا في دفع الاشتراك في النقابة.. من خلال النقابة نكتب الشكاوى ونتقدم بها لكل من يهمله الأمر.

تقدمنا في الماضي بالشكاوى، وصناديق البوسطة امتلأت، ولم يتحرك أحد ممن بيدهم الأمر، وتجاهلوا ما يؤلم العمال.. لم تتحرك الحكومة للآن.. حتى النيابة هي الأخرى قد أغمضت عينيها.

وزعق من جديد زعقة عالية، ولوح بيده، وعاد وشبك يديه من جديد، شبكهما خلف ظهره: - جاء وقت العمل.. جاء الوقت لنقف جهازًا لنقول: أين من دفنتموهم تحت التراب؟! أين من دفنتموهم في الظلام؟ أين ما يستحقونه من تعويض؟

قال هذا وسكت، ولوحت العمال بأيديها، وهتف آخرون من الخلف:

يسقط الظلم!

وحامي الظلم!

وانطلقت الهتافات تدوي، هتافات هزت العمدان، واستمرت الهتافات..
هتافات وهتافات.. وانطلق صوت آخر محذراً: - إياكم أن تخذعوا.. إوعوا حد
يقول جه وما عملش حاجة.

وقال آخر:

- اليوم ده ليس يوم ضرب من ظلمونا.. إن يومهم آتٍ.. إن يومهم لقريب..
قريب جدًّا لو اتحدثتم.. لو اتحدثت أيديكم اتحادًا لا ينفصم!

وختم كلامه بالهتاف لعباس حلیم ثلاث مرات، وبحياة العمال ثلاث مرات
أيضًا.. وتعالى الهتافات تدوي: عاشت العمال

عاشت وحدة العمال

يسقط الرؤساء الظالمون

وخرجت العمال بعدها من الصوان يجرجرون أقدامهم المتعبة، وعلى الباب
وقف كل منهم يصلح من ملابسه التي تهدلت، وآخرون يلبسون أحذيتهم،
وآخرون يسرحون شعورهم المنكوشة، وعلى جانب الطريق وعلى طول
الشارع تجمعت العمال في حلقات.. منهم من يقول: - نقبنا راح على شونة..
قعدنا نقول هوّ جاي.. جاي يضرب.. وأهو جه ولا ضرب ولا سيّح دم!

وقال آخر:

- دا جه من غير كرباج.

وآخر يقول:

- كل تأخيرة وفيها خيرة.

وآخر يقول:

- العجلة من الشيطان.. صبرنا كثير وما بقاش إلا القليل.. هي الدنيا اتبنت في
يوم؟!

وآخر يسأل:

- هوّ ليه كان بيتهته؟

فرد آخر:

- كان بيتكلم كلام فيه أَلغاز علشان مفيش حد من الشركة يعرف جاي إمتى
ويععمل إيه.

فرد آخر:

- زمانهم قاعدين في الشركة بيشخوا!

أحاديث وأحاديث.. ونحن نسير قال الولد الغريب:

- شايف.. الجلاية انقطعت!

قالها في غضب.

- ده اللي جالنا.. ده يمسكني من هنا، وده يمسكني من هنا لما قطعوها لي..

كل ده علشان خاطر ك!

وعاد قائلاً:

- آدي اللي جالنا من عباس حليم.. جاب لنا إيه؟ جاب لنا جلابية؟ ما خدناش

غير البهدلة ووجع القلب!

وعاد وبص في الجلابية المهلهلة بعينين دامعتين، وتوقف فجأة، واحمرت
عيناه، وعرقصت قورته، وكشر وجهه، وسكت لحظة وهو يتأمل الشرط اللي
على كتفه، وتمتم: - وشك وش خسارة! لو قعدنا في البيت ما كانش أحسن؟!!

كنا استريحنا!

فابتسمت لكي أهدئ من غضبه، وقلت في هدوء:

- لو قعدنا في البيت كنا حنسمع الكلام ده؟ كلام أول مرة نسمعه ومن المفيد

إننا نسمعه! إلهي زينا لازم يسمعه.

فلوح في وجهي وكادت أطراف أصابعه تطرف عيني، وعاد ونظر لي في

غيظ: - كلام إيه اللي احنا سمعناه؟ كلام في الهوا.. طلع طظ فش.

قلت في هدوء أيضاً:

- أنا عارف إنك زعلان علشان جلابيتك.

فعاد قائلاً:

- طبعًا زعلان، ما ازعلش ليه؟ سارقها؟ دا انا اشتريتها من لحم الحي! عندي كام جلابية؟ جالنا إيه في اليوم الأسود ده؟! ما خدناش حاجة غير الشحططة ووجع القلب!

واستمر يسب ويلعن، وقلت في نفسي: «أحسن أسيبه لما يهدأ.. ما هو صحيح عنده حق.. الواحد ما يشتريش الجلابية إلا بعد خلع الضرس».. قلت هذا في نفسي، واقتربت منه محاولًا تهدئته، وإذا بصوت يرن في أذني، فتلفت حولي، وإذا بعبد العظيم يلوح لي بيديه من أحد المقاهي بشارع الحنفي فأخذت الولد الغريب، واتجهنا نحوه.

كان جالسًا مع الآخرين في حلقة طويلة ممتدة، منهمكين في أحاديث، فأفسحوا لي مكانًا بجوارهم، وقد فهمت أنهم يتحدثون فيما حدث اليوم، فأنصت بأذني لما يقال، وكان المتكلم عاملاً لم يسبق لي معرفته، وهو من عمال النسيج في صالة نمرة «١» عبر التعبئة كما يسمى في ذلك الوقت، لأنه كان يخرج أقمشة مبرد وهي لبدل العساكر، وكان المتكلم أسمر الوجه وله رأس كبيرة وشعره حلق بالمكنة.. كان يتكلم ويداه على ذقنه: - أنا مش عارف.. مش عارف.. واحد في مصر وحيعمل؟! كلام مش داخل دماغ!

قالها وسكت.. فرد عبد العظيم بعد أن تطلع حوالبه بعيون زائغة كمن يبحث عن شيء، وعاد وأحنى رأسه وهزها مرة، وعاد وهزها طويلًا، وكوم السبحة في يده، وعاد ينطقها عاليًا، وعاد ونطقها من جديد، وقال في صوت هادئ: - أنا ما كنتش عاوز أتكلم، ولكن بعد أن سمعت من الأخ مصطفى قوله «أنا مش عارف واحد من مصر راح يعمل إيه»، الكلام ده ما يقاش كده.. الكلام هل العمال في حاجة إلى واحد زي ده تستند عليه؟ هيَّ الرؤساء الكبار خايفين منه؟ هل نشترك في النقابة؟ ده الكلام اللي يجب إن احنا نقوله، أنا

رأيي مثلاً إن لا قدر الله وما عملش حاجة إن الرؤساء الكبار رايجين يعيشوا في رعب مدة.. والهتافات اللي حصلت النهارده حتخوفهم، وحتخليهم يفكروا.. حاجات ما حصلتش قبل كده.. الحاجات دي شجعت العمال وحتشجعهم وحتخليهم يعرفوا إن فيه ناس زي عباس حلیم ممكن يبقوا وياهم.. باقول ممكن، وعشان كده احنا ما خسرناش حاجة، ومش حنخسر حاجة، وحتخلي العمال تخش الشغل وراسهم مرفوعة.. النهارده غير زمان يا مصطفى.. ولا إيه؟

فرد مصطفى محمد قائلاً:

- أنا راخر باقول كده، وما عنديش اعتراض.. ولكن أنا باسأل.. باسألك: هل هو واحد لوحده يقدر يعمل كده؟ إللي خايف منه إن العمال تعتمد عليه وما تعتمدش على نفسها! كل ما سمعناه إنه راح يبجي يعمل كل حاجة.. ودا اللي انا باقول عليه لا.. مفيش واحد لوحده يقدر يعمل حاجة.. لازم يعتمد على العمال.. لازم ينظمهم.

قال هذا وسكت.

وقلت في نفسي: «دا بيتكلم كويس.. دا عارف كل حاجة، وعارف الحاجات دي مين.. يا ريتني كنت أعرف مثل ما هو عارف».. قلت هذا في نفسي، وقلت: «أسأله إيه يعني النقابة؟ أسأله؟ باسمع من بدري عن النقابة، سمعت هذا من الميكانيكية، وسمعت من عباس حلیم النهارده أيضاً.. النقابة دي تبقى إيه؟ يقولوا من خلالها نكتب الشكاوى.. طيب ما احنا كتبنا الشكاوى من قبل.. كتبنا الشكاوى للحكومة! أمال تبقى إيه النقابة دي اللي يكتبوا من خلالها الشكاوى؟!».. فقلت أسأله وأسأل عبد العظيم أيضاً.. يمكن هم

يعرفوا.. وانا كمان أبقى عرفت منهم.. فسألت: - اتكلمتوا عن النقابة.. تبقى
إيه هيَّ النقابة دي يا مصطفى يا محمد؟ هل هي راجل يا مصطفى يا محمد؟

فابتسم وقال:

- النقابة هيَّ احنا.

قلت:

- طيب إذا كانت النقابة هيَّ العمال، والعمال هيَّ في المصنع، وكتبنا الشكاوى
من قبل فإيه الفرق؟ تقدر تقول لي يا مصطفى يا محمد؟

فعاد قائلاً:

- أنا راخر مانيش عارف إيه الفرق!

قلت:

- نسأل مين يا مصطفى يا محمد؟

فقال:

- نسأل اللي قالوا عليها.

فعدت وسألت عبد العظيم، فرد هو الآخر وقال:

- أنا راخر ما اعرفش!

وعاد قائلاً:

- إحنا حنتعب نفسنا ليه؟ بُكرة نسأل اللي قالوا لنا عليها.. ولكن الشيء اللي ممكن نقوله إن مفيش حد منا كان عارف إن عباس حليم ده راح يبجي.. واهو طلع لنا من تحت الأرض.. بلاش مقاطعة.. العمال هيّ كل حاجة.. ولكن إذا كان واحد راح يعمل حنقول له لأ.. لأ ما تعملش؟! نسيه يعمل، واحنا وراه.. ويلاً بينا وبلاش مقاطعة.. يلاً ندفع الاشتراك.. يلاً بينا.. يلاً نتصور.

أشواق وأمل

عدت إلى المنزل منهك القوى.. كانت العمال تشغي في الشوارع وعلى
الأرصفة، تتجمع في حلقات تحت أعلام خضراء عالية، أمام ماكينات
المصورتية يتصورون، كل منهم يدفع بالآخر: - أنا مستعجل!

- وأنا راخر مستعجل.. خدني جنبك.. خدني وراك في الصف!

- أنا تعبان!

- كل الناس تعبانة، مين هنا مش تعبان؟

- صدري واجعني.. تاغبني م الكحة!

- صدرك تاغبك؟ اتفضل خش.. خش يا عم.. خش مطرحي!

- وانت؟

- حاروح في الآخر علشان مفيش حد يقول إشمعنى.

وآخرون يولولون:

- يا واد يا محمد.. حتتصور ازاي؟

- حاتصور زي ما انا.

- اخلع اللبدة عشان تبقى كويس.

- لا.. خليني زي ما انا.. خليني عاوجها على ناحية.

- حتتقمع؟

- طبعا حاتقمع.

وآخرون... وآخرون:

- يا واد يا سيد.. يا واد يا حسين.. زرر جلايتك يا واد انت وهو علشان صدرك
ما ييقاش مفتوح!

واتجهت إلى المنزل تاركًا الأصوات تدوي، ويدي مطبقتان على الصورة،
كانت أول مرة أتصور فيها، وكنت أخرجها على طول الطريق من جيبي،
وأقف بين الحين والحين أتأمل صورتي.. وكان الولد الغريب يحملق هو الآخر
في صورته متمنيًا أن تراها أمه لو رَوَّح في القريب.. ولم نجد الولد السيد
بالداخل، فأشعلنا عودًا من الكبريت، وأضأنا اللمبة، ولم نستمر طويلاً في
الجلوس إلا ودخل مطأطئاً رأسه على غير عادته، وعيناه مغلقتان وشعره
منعكش كأنه آتٍ في التوُّ من معركة.. وجلس على طرف الحصيرة يخلع
الجزمة.. وانتظرنا أن يتكلم وبقي صامتًا على غير عادته كالنعسان، فسألته،
فأجاب دون أن يلتفت في صوت يشبه الصمت: - كنت برّه.

- بتعمل إيه؟

- باتفسح.

- فين؟

- في الشارع.

- ما جيتش ليه ويانا؟

- وانا مالي.. مالي انا ومال وجع الدماغ ده!

- يعني بعدت.. بعدت عن وجع الدماغ؟

فلم يجب، فعدت وسألت:

- مالك؟ معرقص قورتك ليه كده؟ فيه حاجة؟ فأحنى رأسه في الأرض واستمر صامتًا، وأسرع الولد الغريب وأعطاه صورته، فأطال النظر فيها وأعادها دون أن يبتسم، فأيقنت أن شيئًا ما حدث، فأعدت السؤال من جديد: - مالك؟ ما تتكلم! إنت رايح تحزننا!

فعاد وأحنى رأسه في الأرض واضعًا يديه على عينيه، فاقتربت منه وألححت، وإذا به يبكي: - الفلوس.. الفلوس ضاعت.. ضيعتها!

- وضيعتها فين يا ولد؟! حد سرقها؟

- لا.

- أمال؟

- فيه واحد لقيته في شارع السكة الحديد حاطط قدامه طبلية وناس كثير متلميين حواليه وماسك في إيده ثلاث ورقات من بتوع الكوتشينة وبيزرق: «إللي يحط هنا يكسب.. تدفع قرش تاخذ اتنين.. تدفع اتنين تاخذ أربعة».. ولقيت الناس كلها بتكسب، فقعدت أبص والناس بتحط إيدها ع الورق، وقعدت أقول لنفسى: «ليه ما العيش ما دام كله مكسب»، ورحت مطلع القرش وحاطه ع الطبلية فطلعت على الفاضي، وطلعت غيره وغيره لما

الفلوس كلها خلصت! خلصت الفلوس مني ولم أكسب، وخلعت جلايتي، كنت
عايز أبيعها عشان أكسب الفلوس من تاني فمفيش حد رضي يشتريها!
ووقفت أعيط جنب الرجل، لكن ابن الكلب ما رضيش يرجع لي ولا مليم من
فلوسي!

فهز الولد الغريب رأسه:

- وانا راخر هدومي انقطعت من الزحمة!

وأضاف:

- إنت خسرت فلوسك، وانا خسرت الجلاية!

فرد الولد السيد:

- الجلاية تتخيَّط.. شيء يتقدر عليه.. أما الفلوس اللي راحت فمش عارف
حاعمل إيه طول المدة! لسه بدري ع القبض!

فرد الولد الغريب قائلاً:

- استلف.

- وحاسدها منين؟

- لما تقبض.

- هوّ القبض حيقضي إيه ولاّ إيه؟

فزَعق الولد الغريب في وجهه قائلاً:

- أَمال كنت عاوز تكسب؟ فإكر إنها طاوية الإخفا؟! ما سبتنا ورحت ودلوقت
جاي تعيط؟! بتعيط لما خسرت؟! افرض كسبت يا أخي.. كنت جيت علينا
بتهلل والباب ده ما كانش ساعك تخش منه!

وهز رأسه:

- مش كده ولا إيه؟ والراجل دكهوه كان حيخش على بيته وبدور العياط لو
خسر.. عملت فالج ودورت الجري ع القمار! هوّ اللي يروح ع القمار يكسب؟!
قال هذا وسكت، وانتظرت أن يقول الولد شيئاً، وإذا به يقول: - وانتم مالكم؟!
هيّ مش فلوسي؟!

وعاد مرة أخرى معيظاً، وإذا بنقرات متوالية على الباب، فأسرع الولد الغريب
وفتح، وإذا بامثال تدخل ملفوفة بملاية أمها السوداء، واندفعت إلى الداخل
وأسندت ظهرها على الحائط، ووقفت تنهج كما لو أنها آتية من مشوار طويل،
وتزحلق الملاية من على رأسها فتهدل شعرها ذو الخصلات على بدنها، ولم
ترفع أصابعها لرفع تلك الخصلات واكتفت بتحريك رأسها.. وتطلعت، وطال
تطلعي، وشعرت للتو بحركة تنتاب جسدي، وتحرك شيء ما، وكان صوتها
الهامس: - كنتم فين يا ولاد؟ اتعلمتوا اللعب!

فأسرع الولد الغريب وأعطاهها صورته ووجهه يتهلل فرحاً: - شوفي.. شوفي
الصورة.. اتصورنا النهارده.. اتصورت أنا وفكري.

ووقفت تحدق في الصورة بعينيها الواسعتين متأملة، وقالت بصوت أكثر
عذوبة بعد أن نظرت لي بعينين متسعيتين: - فين؟ فين صورتك؟ وريها لي.

ومددت يدي بعد أن اقتربت منها.. ووقفت تحملق بعينيها في الصورتين، ثم
تعود وتحملق في وجه كل منا، وارتفع صوتها: - شعركم منعكش في الصورة
كده ليه؟

- م الهوا.. الهوا نعكشه!

وعادت:

- أمال فين صورتك يا واد يا سيد؟

فرد الولد الغريب منفعلاً:

- ما اتصورش وِيَّانا! ضَيِّع الفلوس في لعب الورق!

وعندما سمع الولد السيد ما قاله الولد الغريب، وضع رأسه ما بين يديه وبكى:

- هئ.. هئ.. هئ!

واستمر يبكي وبنهنه، ورد قائلاً:

- وانتم مالكم ما هي فلوسي؟! مالكمش دعوة!

واقتربت امثال منه وطبطبت على كتفه:

- ما تزعلش! فداك الفلوس!

وأطبقت بيدها على الصورتين، وعادت قائلة:

- حاخدم معايا أوربهم لأمي.

وسارت نحو الباب بظهرها، وعيناها ترمشان لي كالقائلة: «تعال.. تعال ورايا..
مش قادرة أقول قدامهم.. مش قادرة أقول حاجة بلساني باقولها بعيني..
تعال ورايا ع السلم».

وتسمرت في مكاني، وهي تتزحزح ببطء بظهرها إلى الخارج ورموشها
المدببة تطبق ثم تفتح كالقائلة: «كل غمضة من عيني بتقول لك تعال».

واستمرت تتزحزح إلى أن خبط ظهرها على الباب، فاعتدلت تعدل من
ملاءتها على العتبة وعيناها لم تفارقاها ناظرًا لكل جسدها قائلاً لنفسها: «لما
تمشي حاروح مدور الجري وراها، حاجري على السلم واعمل نفسي عاوز
الصور، وأفتح إيديها بالعافية وهي حتعصلج.. مش حترضى.. و...».

وشعرت بالدم يجري في جسدي، وانتظرت على مضض أن تنتهي من تصليح
ملاءتها وتتجه بعيدًا لكي أجري.. وكان الولد الغريب قد غمز الولد السيد وركزا
على ركبهما يتطلعان لها ويعودان وبطيلان النظر لي ثم يعودان يتبادلان
النظرات، راكزين على أيديهما كالقطط التي تقف في تحفز في انتظار أحد
الفيران التي تخرج من الشقوق لافتراسها، قائلين في سرهما: «ما تطلعي..
ما تطلعي.. بتلكعي ليه؟ عايزة حاجة؟ عاوزاه؟ ما تقولي.. قولي له يطلع
وراكي.. واقفة تتحزقي في الملاية أوي وترجعي وتسيبها! عايزة توري له
قميصك الحرير الأبيض وجسمك اللي زي الشمع.. هو عارف.. فكي الملاية
ولميها.. أيوه كده.. أهو كده أمال!».

وبعد أن انتهت من ملاءتها عادت ونظرت لي، وأغمضت إحدى عينيها كالقائلة:
«أنا حامشي.. حامشي على مهلي.. حصّلتني».

وتحركت أنظار كل من الولد الغريب والولد السيد الصفطي في اتجاه
وقفتي.. فوقفت كالتائه بين الخروج وبين البقاء قائلاً لنفسي: «حاطلع.. يبصوا
ما يبصوش.. مش مهم.. حيحصل إيه؟».

واندفعت خارجًا أنادي كالمجنون:

- يا امثال.. يا امثال!

آخذًا باب الغرفة في يدي.. صوتي شق سكون الليل الهادئ: - يا بنت يا
امثال.. هاتي الصورة.. هاتي الصورة يا بت.

واندفعت نحوي امثال لتكتم فمي:

- إيه؟

- هاتي الصورة.

- اسكت!

- هاتي الصورة حافّج عليها إخواتي.

- ما تزعقش!

كنت أزعق ولم أكن أظن أن صوتي عالٍ، وكتمت أنفاسي من جديد وأنا أفتح
يديها بالعافية، فقاومت، وانسابت ملاءتها وقميصها الأبيض قد برز في الظلام
فأضاء جسمها لي، وخدودها الحمراء بانّت رغم الظلام الدامس، ومطت
بوزها نحوي في همس: - ما تزعقش!

قلت أنا الآخر في همس:

- هاتي الصورة.

- إوعى.. إوعى إيدك!

وتلفت حولي فلم أجد ضوءًا ينبعث من الحجرات المجاورة، فلم أتمالك بعدها نفسي، وأمسكت بوسطها في يدي، وجذبتها نحوي رغم مقاومتها: - إوعى إيدك!

وتعلقت برقبتي.. وغرزت رأسها في صدري، ثم سكتت، فأدرتها دون مقاومة، أدرتها إلى الحائط وأطبقت على شفيتها قائلاً: - هيه.

- لا.. لا.. لا.

ثم أفاقت فجأة، وزحزحتني بعيدًا بكلتا يديها قائلة في صوت يشبه الصمت وهي تقرصني من خدي: - لا.. لا.. كله إلا كده.. سييني.. سييني أطلع!

وتزحزحت إلى الورااء على البسطة تصلح من ملاءتها وشعرها الذي تهدل.. وعيناها لم تفارقاني، ووجهها الباسم الذي لم يحجب الظلام ضوءه.. وأسبلت عينيها وهي تقول: - لا.. إوعى.. إوعى.. ما تعملهاش تاني!

وأردت أن أدفع بها من جديد نحوي، فدفعتني بعيدًا، وألصقتني بالحائط.. واندفعت إلى فوق وهي تردد: - بعد ما افرجهم.. بعد ما افرجهم حاجيها لك.. حاجيها لك تاني.

وقزحت السلم في خطوات، ثم اختفت بين حواريه المتعرجة وهي تلوح بيدها ويدها الأخرى مطبقة على الصورة.

- حاجيها لك.. حاجيها لك.

وانتشرت رائحة جميلة تنبعث في الهواء البارد بين الباب الخارجي والداخلي للسلم.. ووقفت أتطلع ذات اليمين وذات اليسار شاعرًا، ولأول مرة، أنني غير قادر على النزول، وغير قادر على أن أتزحزح من مكاني وهي تبتعد مسرعة إلى فوق، فاندفعت وراءها، وإذا ببابها مغلق، فعدت وكأن قلبي قد اختطف.

عدت إلى الحجرة، وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يأكلان، فاندفعت بينهما، وانتظرت، وطال انتظاري، ولكنها قد غابت فنمت.. نمت قبل أن تعود.

صوت على أصوات أطفال عالية آتية من بعيد رنت في أذني كالحلم، وعندما صوت اندفعت خارجًا، اعتقادًا مني أن الوقت قد تأخر وأن يوم العمل قد ضاع.

وفي ذعر اندفعت إلى الخارج.. خارج الحجرة، ناظرًا للأبواب المجاورة لي فلم أجد بابًا قد فُتح، فأسرعت خارج البيت أسأل عن الساعة، فلم يكن أحد يسير في الطريق سوى أطفال بملابس رثة مهلهلة، يقفون على الأبواب زاعقين بعضهم على بعض محدثين ضجيجًا، وعربات يد صغيرة تعدو محملة بقدر الفول المدمس يدفع بها أصحابها في سرعة نادرة ويتوقفون أمام محلات البقالة لوضعها قبل أن تفتح، ونسوة ذوات عيون خضراء تطل من أعالي شبايك المنازل بقمصان نوم بلا أكمام كاشفة عن صدور عارية بيضاء وشعور مبتلة، يقذفن بمياه الاستحمام في الشارع، ثم يعدن لإلقاء نظرة في الطريق.

كان الضباب ما زال مخيمًا، الشمس لم تشرق بعد.

واجتاحنتي رغبة ملحة لم تجتحتني من قبل.. رغبة أن أرى امتثال قبل أن أخرج، ولم أعرف لهذه الرغبة سببًا.. شوق لم أعهده من قبل!

وأسرعت إلى الداخل عسى أن تطل هي الأخرى من الشباك، وانتظرت تحته وطال انتظاري، وعيناى لم تفارقا الشباك لحظة، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وأزف الوقت.

وفي الحجرة صحيت الولد الغريب والولد السيد الصفطي من نومهما، وازدادت الرغبة في اللقاء، واجتاحنتي كلما لاح وجهها الباسم المحمر وعيناها المسبلة على السلم.. آه لو تأتي! قائلاً لنفسى: «الله يخرب بيت الشغل وبيت صحابه على بيت اللي بيروحوه! الشمس بتروح طالعة من هنا وبندور الجري ع الشغل من هنا! ما بنامشي إلا بعد نصف الليل والناس كلهم نايمين! لا بنملك نقعد مع حد، ولا حد بيملك يقعد ويَّانا! حامشي من غير ما اشوفها؟! مش معقول! ما اروحش الشغل؟ واليوم؟ اليوم حيروح! ومش بس، والغرامات اللي بتنزل على دماغنا زي الرز! وعلى إيه نسَمَّع نفسنا كلمة.. كلمة من واحد ما يستاهلش.. أول ما اطلع من الشغل أروح جاي».

وأسندت رأسي إلى الحائط، ووقفت ساهمًا، في الوقت الذي كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يربطان العيش في المناديل.. وعدت وترددت بين الذهاب إلى العمل وبين الجلوس بجانبها.. بعيدًا.. بعيدًا عن كل من الولد الغريب والولد السيد.

ومرت بخاطري خواطر متلاحقة، مستذكِّراً كلمات من هنا وكلمات من هناك.. كلمة من أمي، وكلمات من أخي.. ووقفت أمام هذه الكلمات كثيرًا.

كثيرًا ما سمعت أخي: «إللي معاه مال، يمشي في الطريق ويميل».

وتوقف ذهني عندها: «صحيح، إللي معاه مال يمشي في الطريق وبميل..
والمال ده يبجي منين؟ م الشغل! واللي ممعاهوش قرش ما يساوبش
قرش».

فاندفعت خارجًا: «الشغل أحسن».

وإذا بعيني ترى عمالًا يخرجون من أماكن متعددة متمهلين في السير، لم
يكونوا في سيرهم حانين رؤوسهم كما كانوا منذ أيام مضت، بل كانوا في
سيرهم ينظرون لبعيد.. لكل ما هو قادم، محدثين أصواتًا لا تنقطع.. مناقشات
حادة على طول الطريق حول ما حدث بالأمس من هتافات قائلين: - ما حدش
منا راح يسكت!

- نستنى لما يبجي!

- ما حدش منا كان مصدق إنه جاي!

وأصابع تمتد، وأخرى تلوح:

- شايفين الغفر.. الغفر واقفة.. واقفين على الباب شايلين العصي في أيديهم
مستعدين للضرب!

وأصوات أخرى:

- لو حد منهم جه ناحيتنا.. لو حد مد إيده حنضريهم! إللي له ظهر عمره ما
ينضام.. قريب الملك النهارده وبّانا!

وأصوات أخرى ترتفع.. ترتفع في حماس:

- فلننتظر.. فلننتظر!

وبجوار المكن توقفت، والرؤساء تجري في الطرقات ناظرين لنا بعيون
يتطاير منها الشرر وشفاههم تتحرك.

فيمَ يتمتمون؟ لا أدري!

وأدرت المكن متفادياً نظراتهم المليئة بالغيظ، واندمجت في الشغل متنقلاً
من فرملة إلى أخرى، غير عابئ بما قد يحدث، وأسندت ظهري على أجناب
المكن، والمكن يدور ويدور.

وسرحت متمثلاً امثال أمام عيني وكأنها بجواري على المكن، ونظرت إلى
السيور، وحملت في السقف بعيني، وعدت ونظرت للساعة وكأنها واقفة لا
حركة فيها قائلاً: «دوري.. دوري مسرعة لأتمكن من المرواح قبل أن تنام».

واهتز جسدي كلما تجسدت الصورة، وتأملت ملابسها، وتلفت كالمجنون جازاً
على أسناني عندما توقف المكن قائلاً: «بتوقف ليه؟ ما توقفش! ضيعت
الصورة من ذهني!».

ومن الغيظ كدت أن أدفع الفرامل لأوقف المكن كله وأدفع نفسي للخارج،
ولكن الخوف من الغرامات حال دون ذلك، وغرقت في التفكير، ولم أنتبه إلا
بعد أن أمسكني الولد الغريب من جلبابي وهزني هزاً، وتلفت كالمذعور، وإذا
بي أجد عينيه تكيان والدموع تنزل على خديه وأصابع يد معلمة على وجهه
جعلته محمراً، فسألت متلهفاً: - مالك؟ بتعيط ليه؟ امسح عينك.. امسح
الدموع.. إنت بتنهه!

جری إبه یا ولد.. حصل حاجة؟

- مفيش.. الرئيس ضربني.. ضربني بالقلم على أصداعي!

- ليه؟ عملت حاجة؟

- مفيش.. كنت واقف ع الممكن أرقص.. أرقص م الفرح لما سمعت إن عباس حليم جاي، ففرحت ووقفت أرقص ع الممكن وهُو دايـر.. فبصيت لقيت الرئيس جاي وراح مدور الضرب بالأقلام.

- وعيـطت قدامه؟

- أيوه.. عيـطت قدامه.

- طيب امشي.. امشي من جنبي.. هُو بيعيط إلا المرّة.

قال في حزن:

- أـمال كنت أـعمل إيه؟

- تعمل إيه؟ تعمل إيه إيه؟ ما تعيطش قدامه.. إنت فاكر إن العياط راح يحنن قلبه؟ إنت طمعتـه.. كل ما يمر ويلايـقك راح يدور فيك الضرب.. الضرب على طول.. حيستـهفاك!

- أـعمل إيه؟

- خلاص.. راح تعمل إيه؟ كل اللي انضربوا قبلك مفيش حد منهم عيط.. عيطوا في سرهم واستحملوا.. استحملوا الضرب قدامه.

- هُو إيه؟!

قالها وسكت.. وعاد قائلاً:

- القلم نزل على صرصور ودني خلاني واقف قدامه زي الفرخة المدبوحه..
هوّ انا عيطت إلا غصب عني.

ومسح إحدى عينيه، واسترسل:

- حرقه الضرب عيطتني!

- كسرت قلوبنا! كنت تكتمه! تكتم العياط لما يمشي!

فالتف حولنا آخرون مشتركين في الحديث.. قال أحدهم بغيظ: - ضربوه م
الغيظ.

وقال آخر:

- هوّ بس اللي كان واقف ع الممكن يرقص؟ كلنا كنا بنرقص! هوّ ابن الكلب
استهفاه! هوّ فاكر حيخوفنا؟

وقال آخر:

- والله العظيم لو جه ناحيتي مش راح أفخت إلا عينيه.. هوّ مش حنقى زي
العامل اللي مؤّت واحد منهم.

فلوح عامل بإحدى يديه:

- وعلى إيه نودي نفسنا في داهية؟ ما هو جاي اللي أقوى منهم!

ونحن نتحدث، إذا بأصوات تعلو من بعيد، والرؤساء تعدو مسرعة في كافة الاتجاهات يدفعون كالمجانين كل من يقابلهم: - دور الماكينة.

- عطلانة.

- ما يهمش.. دورها دلوقت يا ابن الكلب.. المدير بيمر.

وتحرك المدير وهو يتمم بالشفاه كأنما يقول لنفسه: «بهايم! شحناهم في العربات، والنهارده يهتفوا ضد الشركة».. ومن خلفه الرؤساء تقرش على الأنياب.. ولم يحتمل نظرة العمال له فأسرع إلى الخارج ولم يكمل السير في العنبر.

وعادت البسمات، واهتزت الرؤوس فرحًا، وتطلعت نحو الولد الغريب وإذا به رافع المكوك عاليًا.. ماشي يتمختر كالقائل للعمال: «أهو.. حاتشجع.. أنا اتشجعت.. لو ضربني حد مش حايعط».

واقتربت الساعة، وانتابني الفرح لقرب انتهاء اليوم قائلاً لنفسي: «دوري يا ساعات دوري».. ممنيًا نفسي أن أرى امثال حتى ولو من الشباك، حتى ولو لم تكلمني، وقلبي يدق كدقات الممكن كلما تجسدت صورتها أمام عيني.. وتكهرب جسدي، فدفعت بالفرامل فرملة إثر أخرى، ناظرًا للسيور في اهتزازها والعمال في تمايلهم، والمباشرين وهم يتجمعون في حلقات، وإذا بعقارب الساعة السابعة تتوقف على الثامنة.. فاندفعت إلى الخارج دونما انتظار لزميلي عامل الوردية الثانية.

ومن خلفي كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي.. حاولت أن أزوغ في الزحام عسى أن أتمكن من لقائها بعيدًا عنهما قائلاً لنفسي: «أقول إيه لما

أشوفها؟ ما كنتش قادر أروح الشغل علشانك؟ أقول لها زي ما قالت لي؟».

مش معقول! فيه واحد يقول للواحدة أنا باحبك؟ عندما تصورتك أمامي كنت أدفع بالفرامل، وإن ما أنتجتة اليوم من أقمشة أكثر مما أنتجتة في أي يوم من الأيام؟ حاقول لها إنني ما كنت أستعجل يوم العمل في يوم من الأيام. مثلما كنت أستعجله اليوم، وإنه مر رغم الساعات الطويلة دون أن أشعر.

وأنا غارق في التفكير.. إذا بصوت أقدام ترتفع خلفي، وهمسات عالية تهمس: - بتهرب منا؟ بتهرب منا في الزحمة؟ فاكر إيه؟ حتسبقنا؟ إحنا مراقبينك!

وتلفت، وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي هما المتحدثان، فتباطأت في السير قائلاً: - إيه يا ولاد؟!

فتبادلا النظرات وابتسما:

- إيه؟ إنت اللي كنت فين؟ إنت بتسألنا؟

هوَ احنا اللي سيناك؟ إحنا عارفين.. عارفين ليه انت مشيت.. بتسبقنا عشان تروح لها.. اطلع من دول.. بتضحك علينا؟

قلت مغتاضاً:

- باضحك عليك إيه يا واد انت وهوَّ.. اختشي!

- رايحين نقول لأمك.. رايحين نقول لها إن البنت وأمها رايحين ياخدوه.. ياخدوه مئك!

كنت أحدثهم ورنين غير منتظم يشبه رنين المكن يرن في أذني مع أن المصنع قد ابتعد، وعربات نقل محملة بما أنتجه العمال من أقمشة تحدث هديرًا في الشوارع، وعربات أخرى فارغة في اتجاهها للمصنع، وتحت الكوبري السفلي بجوار أحد بوابير الحلاجة كان عدد من العمال بينهم مصطفى محمد واقف هو ومحمد الكافوري، في حديث حول النقابة، والتف حولهم آخرون وآخرون..
قال مصطفى محمد: - إنتم مستنيين إيه؟

وتكاثر العدد ورد الكافوري:

- مستنيين أحد الميكانيكية.

فزقق أحد الواقفين:

- عاوزين إيه منهم؟ ده مفيش حد منهم بيدعي حد للنقابة!

وزقق آخر:

- دول لما بيشوفوا المدير بيشخوا.. بيشخوا على نفسهم لما يشوفوه.. جربوا النهارده قدامنا!

وقال آخر:

- ملناش دعوة.. همّ في حالهم واحنا في حالنا! دول بيخافوا!

وزقق آخر:

- همّ دول راح يبقوا ويانا؟ حيقوا ويانا ليه؟

هَوَّ فيه فرق بين دول وبين غيرهم؟!

وقال آخر:

- ما تستعجلوش.. كلهم زي بعض.. مفيش فرق!

وقال آخر:

- هَوَّ فيه حد بيجري وراانا.. أما نتجمع.

وأردت أن أذهب إلى المنزل للقاء امتثال قبل أن تنام.. هكذا فكرت، وكانت يد مصطفى تشدني قائلاً لي: - تعال وبنانا.

وخجلت منه.. وفي شارع البهلوان، وفي الدور الثاني دخلت، وفي طابور ضخم دخلت العمال واحداً وراء الآخر، وجاء صوت هادر من إحدى الغرف في الأرض.. صوت صاحب المنزل: - إيه؟ رايحين فين؟ رايحين كلكم فين؟ البيت حيثهد!

- رايحين النقابة.

- هيَّ راح تساعكم؟! يقطع النقابة وأصحابها!

فرد أحد العمال:

- همَّ دول حاجة؟ ده لسه جاي!

وتوقف الرجل على الباب محاولاً أن يمنع العمال: - حتهدوه لي! حتهدوه لي!

ولم يتمكن.. واندفعت العمال إلى فوق وهو يصرخ في الأرض.

وعلى بسطة السلم كانت يافطة مكتوب عليها بالخط العريض: «النقابة العامة للعمال».

وفي داخل الصالة صورة ضخمة تجمعت العمال حولها، وبعيون محملقة.. قال أحدهم: - شايفين؟ شايفين مناخيره؟ شايفين وشه؟ زي ما شفناه.. زي ما شفناه بالضبط.

وزعق مصطفى فيهم:

- إنتو جايين تتفرجوا؟

- أيوه جايين نتفرج.. أمال جايين نعمل إيه؟

فرد مصطفى قائلاً:

- اقعد يا جدع انت وهوّ.. اقعد على الكرسي.

وبدأ يدفع بيديه الواقفين:

- اقعد.. اقعد.. اقعد ع الكرسي!

- حنقعد فين؟ هوّ فيه حته! الأوضة مليانة!

- أيوه جايين نقعد.. لما نشوف عباس حليم جاي إمتى!

- حنسأل مين؟

- نسأل الميكانيكية اللي جم قعدوا معاه ووقفوا جنبه.

وقال آخر:

- دلوقت بييجي.. حبيجي في الوقت اللي هوّ محدد.. همّ الميكانيكية عارفين حاجة؟

وصوت آخر يقول:

- يلاً بينا نرّوح.. يلاً بقه يا جدعان.. بقى لنا مدة مفيش حد منهم جاي.. حنسمع إيه منهم؟ همّ دول زي قلتهم! إللي راح يعمل عباس حليم.. عباس حليم بس!

وصوت آخر:

- طولوا بالكم.. عايزين نشوف منهم إمتى جاي؟

والأحاديث مستمرة، وإذا بأفواج أخرى من العمال تدخل، ولم يبق في الصالة موضع لقدم، والتصق العمال بعضهم ببعض، واتجهت الأنظار كلها نحو الصور المعلقة على الجدران.. وطال الانتظار ولم يأت أحد من الميكانيكية.. قال محمد الكافوري بحماس: - يلاً بينا ده وجع قلب! آدي احنا جينا وما استفدناش حاجة!

ولم ينتبه أحد من الواقفين.. وخيم الصمت.. والتفت العمال فجأة، وإذا بواحد يفسح لنفسه الطريق.. شاب طويل أسمر، يلبس جاكته وقميصًا أزرق بزرابير بيضاء وينطلون شورت به بقعة كبيرة من زيت المكن، وتطلع إلى الوجوه كالباحث عن شيء، ولما لم يجده عاد مسرعًا إلى الخارج، وأسرع خلفه مصطفى محمد وتبعه الكافوري، ثم تبعتهم أعداد أخرى غفيرة، وبقي آخرون ينظرون لبعضهم البعض في تلهف: - إيه؟ حصل إيه؟

وعاد مصطفى قائلاً:

- خلاص خلاص يا جماعة مفيش حد منهم جاي!

قالها بحزن، وتدافعت العمال على السلم عائدين من حيث جاءوا.

وجاءت البنات

وعلى ناصية نفس الشارع وقف مصطفى وبجواره الكافوري وأعداد أخرى من العمال يتساءلون في دعر.. وفي صوت هامس لمن حوله قال: - الدنيا مقلوبة! سمعت دلوقت من الميكانيكية إن الشركة حتعين بنات في الشغل..
تحول الشركة إلى بنات!

فرد محمد الكافوري في يأس:

- أهو ده يبقى الكفر.. الكفر بعينه!

وقال آخر مكتئبًا:

- واحنا حنروح فين؟

- حيروّحونا.

وأخر:

- كيفصلونا.. الشركة حتفصل كل من اشترك في النقابة.. أمال إيه؟ همّ
حيسكتوا؟ لما سمعوا إن عباس حليم جاي! همّ حيسيبوه لما يضربهم؟!

وشحبت الوجوه، وساد الظلام، وقطع الصمت أحد الواقفين:

- بقه فيه بنات حتقف ع الممكن؟! دا ما بيقاش فيه دم!

ديك الساعة ما حدش يقدر يحكمها! بنات إيه دول؟! يا نهار أسود يا جدعان!
البت تجري ع الراجل؟ مش معقول! مين يستغنى عن بنته؟! دا كلام فاضي!

بقه فيه راجل في الدنيا حتى لو كان شحات يقبلها على نفسه؟! يقبل إن بنته
تتغرب وتقف في وسط الرجالة؟ دي تبقى قلة حيا!

وقاطعه آخر وهو يكاد يكلم نفسه:

- إنت راح تعمل واعظ؟! إنت راح تعمل إيه؟ قول لنا نعمل إيه لو عينوهم؟

- نموّتهم.. هوّ أكل العيش بالساهل؟

وزعق آخر:

- يا جدعان مش معقول! دي إشاعة.. إشاعة طلعتها الشركة من يوم ما
عرفت إن عباس حليم راح يبجي.. والله العظيم دي إشاعة.. أنا باقول الكلام
ده وُبكرة تشوفوا.. بُكرة تعرفوا.

سمع العمال هذا، ووقفوا ساهمين وكأن هذه الكلمات الأخيرة نزلت عليهم
كالصاعقة، متجهين إلى منازلهم يفكرون فيما سمعوه.

كانت الشوارع شبه خالية، خالية من الضوء تمامًا، وسرت مهمومًا شاردا
الذهن، ومن على بُعد خطوات من المنزل لمحت شبحًا يطل من الشباك،
وكانت امتثال.. وعلى الضوء المنبعث من الحجرة لوحت بيدي، وأشاحت
برأسها إلى الوراء وابتسمت، وأطلت نظري واكتفينا بالنظر، وتوقفت لحظة
في انتظار أن تنزل، فلوحت برأسها كأنما تقول لي: «مش قادرة لأنك
اتأخرت».

فدخلت مفكرًا فيما سمعته، قائلاً لنفسني: «مش معقول! مش معقول
الشركة حتعين بنات!».. ولم يطل بي التفكير فنعست من كثرة التعب.

ومرت الأيام وتتابع، وازدادت الإشاعات حول تعيين العاملات، وقابلها العمال بالغضب: - لو حدث هذا حنضربهم.

وقال آخرون:

- عاوزين بنات يشغلوهم.. طبعًا عاوزين يشغلوهم زي ما همَّ عاوزين.. ما هم غلابة ما يقدروش يدافعوا عن نفسهم! إشمعنى دلوقت؟! ما جابوش ليه بنات من الأول؟!

وزعق آخر:

- لما عرفوا إن العمال راحوا النقابة وعرفوا الطريق.

وكلما زادت الإشاعات ازداد العمال غيظًا، ناظرين لما حولهم وكأنهم مع الممكن في وداع، قائلين في نفوسهم وهم ينظرون إلى الممكن: «مش راح نسيك! ولو سيناك حنكسرك قبل ما نسيك! حنسيك لهم؟! حنسيك للبنات؟! حنرجع البلد تاني؟ يا سنة سودة! مش معقول! إيدينا خدت ع الشغل ده.. إيدينا نعمت.. نعمت من قلة مسك الفاس.. ده احنا لما نروح زيارة إيدينا بتغافأ من مسكة الفاس! حتيجي شوية بنات تاخذ الممكن منا؟ واحنا؟ حنسرق؟ حنروح فين؟ نخلي لهم المكان؟ دي مصيبة».. أفكار قاحلة سوداء!

وذات يوم ونحن متجهون إلى المصنع، وعلى الباب الخارجي كانت الإشاعات قد تحققت بالفعل، كان هناك بجانب السور الممتد مئات العاملات ملتصقات بجانب السور الأصفر المدهون.. بنات من مختلف الأعمار.. منهن من لا تتجاوز العاشرة، ومنهن من هي فوق ذلك بقليل، ومن هي فوق الخامسة عشرة والسابعة عشرة، معظمهن من الفلاحات ذوات الوجوه السمر بملابس

شيت ملونة واصلة للأرض مغطيات رؤوسهن بطرح سوداء، وأخريات من اللائي لم تلمح الشمس وجوههن بملابس حتى الركبة ليست جديدة، ولكنها مشغولة، وأخريات بملايات سوداء وأحذية من ذات الكعب وعيونهن خضراء، واقفات يغالبهن الحزن البادي عليهن.

ومن على بُعد وقف العمال في حلقات، وآخرون يروحون ويجيئون بالقرب منهم تأثرين كالنمور يصطدمون بالواقفين.. لقد أعماهم الحقد على من جاء، وآخرون يصفرون.. وفي وسط هذا الجو المشحون بالغضب وقف البعض - وقف على بُعد خطوات منهن - يغمزون بأعينهم تارة وتتعالى بينهم صيحات الفرحة تارة أخرى، ثم يعودون يتزحزون للاقتراب منهن دونما حياء!

وقد عبرت كل تلك الجموع الواقعة عن مختلف تلك الأحاسيس، فمن ضيق وقلق، إلى قلة حياء وعدم مبالاة، أو فرحة أو حزن أو ألم.. وفي غيظ تلفت حولي باحثًا عن عبد العظيم أو مصطفى محمد أو محمد الكافوري أو حتى الشيخ علي دويدار أو أي أحد ممن سبق لي معرفتهم، قائلاً لنفسى: «لم تعد إشاعة.. إنهن واقفات في انتظار فتح الأبواب.. أين عبد العظيم؟ أين هم؟». وبينما كنت أبحث عنهم، كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يزعلان: -
أهم.. أهم.. تعال.

واتجهت، فلم يكن سوى عبد العظيم ومحمد الكافوري واقفين في حلقة طويلة ممتدة، وتبدلت الوجوه وتلونت وشخصت الأعين في الاتجاه نحوهن: -
أهم.. يلاً.. يلاً نضربهم.

وآخرون ترتفع أصواتهم:

- يا سنة سودة! جايين بنات؟! بنات م القرى! بنات م الريف لابسين طرح
سوداء! يا ولاد الكلب! جايين وعينهم مكحلة.. مكحلين عينهم ولاد الكلب!
الواحدة منهم جاية زي اللي رايحة ليلة الدخلة!

وأصوات ارتفعت:

- مستنيين إيه؟ مش قلتوا حنضربهم؟ ما تيلّا ما هم واقفين.. واقفين قدام
عينكم أهم.. بس كلام!

وقال آخر:

- حنضرب ولايا؟ الواحد يهز طوله ويضرب بنت؟!

وصوت آخر:

- حتعمل إيه؟ إذا كان مفيش في وشهم دم.. جايين الشغل وسايين الرجالة
في البيت.. الواحدة منهم جاية وسايبة أخوها زي النطع!

وأخر يقول:

- دول مالهمش أهل تحكهم.

وعندما سمعت البنات أخفت كل منهن وجهها بطرف ملاءتها، وأخريات
بأيديهن، وولين ظهورهن لنا بانفعال، يضربن الأرض بكعوب أحذيتهن..
وانتظرت أن يقول مصطفى شيئاً، ولكنه استمر صامتاً يستمع للكلمات،
وازداد الصياح وزاد الهرج، وصفافير المصنع تعلن بدء العمل.. واندفعت
العمال إلى الداخل تسب وتلعن بكل من جاءوا يزاحمونهم في العمل.. واتجه
كل منا إلى مكنه، واضعين أيدينا على قلوبنا.. كل منا يقول لنفسه: «أين

عباس حليم؟ أين هو الآن؟ لمَ لم يأت؟ مين؟ مين راح يقول له؟ مين حيقول له إن الشركة استبدلت العمال بعاملات؟!».

وبجوار المكن وقف الكل يترقب.. لا ابتسامات ولا ضحكات، ولا صوت ولا حركة سوى ضجيج المكن وزئير السيور.. كل منا في انتظار أن تحل بنت محله.. بعد لحظات ينتهي كل شيء كأننا لم نشغل على المكن، كأننا لم نره.. سنعود كما كنا.. نسير وراء البهائم على مهل وراء المحراث.

أفكار وأفكار، والبنات تدخل من الباب الخارجي يسوقهن الرؤساء كما تساق الغنم، وخفقت القلوب وزاد خفقانها.

- أهم.. أهم جم.. أهم دخلوا.. ماذا نفعل؟

أفكار سريعة عاجلة.

- ماذا نفعل؟ نكسر المكن؟ نخليه بسييسة؟

واقتربت البنات تهرول في السير، البنات الفلاحات يمسكن بأذيال ملابسهن، يمسكنها بأيديهن، ويتدافعن خلف الرئيس بسرعة واضعات أحذيتهن تحت إبطهن، والبنات ذوات الفساتين الكاشفة يجرين هن الأخريات واضعات أيديهن على صدورهن، وتعالن الأيادي.. تعالت ملوحة معلنة العمال بالداخل:-

أهم جم.. تعالوا شوفوا جايين عاملين ازاي؟

شايفينهم؟ أهم.. بص!

وبدأت الرؤوس تطل من الأبواب ناظرة، والبنات تتلفت ذات اليمين وذات اليسار بوجوه شاحبة واجمة، والعمال تعلن بعضها بعضًا:- فاتوا عنبر الغزل..

فاتوا عنبر البرم.. أهم فاتوا عنبر النسيج.. دخلوا ناحية الديزل.. يبقوا راحوا
فين يا ترى؟ آه.. راحوا العنابر الجديدة.

- نسأل؟ نسأل مين؟ نسأل وقت الغداء.. وقت الغداء حنشوفهم.

وازدادت التساؤلات:

- أين ذهبوا؟

وجاءت الأخبار قائلة:

- ودوهم عنبر الفانلات.. عنبر جديد خالص.

وازدادت التساؤلات.. فمنهم من يقول:

- خلاص.. بعدوا عنا!

ومنهم من يقول:

- دورنا جاي!

وآخرون يقولون:

- نضربهم.. نضربهم عشان الشركة ما تعينش!

وازداد العمال غيظاً، واقتنع الكثيرون بالضرب.. ضرب العاملات عند الخروج..
وقال آخرون: - حنضربهم ليه؟ إحنا حنعمل زي أهالي المحلة ما عملوا معانا؟!

سيبوهم ياكلوا عيش زي ما بناكل!

وارتفعت أصوات أخرى:

- نضربهم.. نضربهم!

واقتنعت بالفكرة، واتجهت نحو الولد الغريب، وكان هو قد تحمس، كما تحمس الولد السيد: - نضربهم بأيدينا؟ نضربهم ازاى؟ العنابر تبقى مقفولة، ولو واحدة منهم مسكتنا بأيديها مش راح تسيبنا.. حتمسك فينا زي العلقه وحنودي نفسنا في داهية!

قلت:

- وحنعمل إيه؟

قال الولد الغريب:

- نستناهم وهمّ طالعين آخر النهار ونضربهم.

- نراقبهم الأول وهمّ طالعين.. نشوف حيطلعوا إمتى.. وساكنين فين.. ولما نتأكد إن البر أمان نبقى نضربهم ونزوغ بين الممكن.

وتوالت الأيام، وكل يوم يمر تزداد العاملات عددًا.. لا يخلو المصنع كل يوم من تعيين الكثير من العاملات.. عاملات في العاشرة والحادية عشرة.. خليط من الألوان: فلاحين، ومن البندر.. تدفع بهن الشركة في عنابر مختلفة: في التدوير، والشلل، وفي الفانات.. حددت مواعيد لخروجهن ولعملهن تسع ساعات عمل لجميع العاملات.

وهكذا مرت الأيام، ولم يتمكن أحد من ضرب عاملة، فالشركة حددت لهن مواعيد للخروج في الثانية عشرة إلا ربع، بينما يخرج العمال في الثانية

عشرة، وفي الدخول يدخلن في الواحدة والرابع، بينما يدخل العمال في الواحدة، وفي الصباح يدخلن في السابعة والرابع، بينما ندخل نحن في السابعة.. واكتفت العمال بالبصق على العاملات من أبواب العنابر كلما مررن أمامهم.. وازدادت الضغينة، كما ازدادت الكراهية من العاملات، نفس الضغينة التي كانت بين أهالي المحلة والعمال قبل ذلك.

لم يتمكن أحد من ضربهن للاختلاف في المواعيد.. وذات يوم قلت للولد الغريب: - إيه رأيك؟ همَّ بيمروا علينا في الساعة الخامسة والنصف إيه رأيك نضربهم وهمَّ طالعين؟

- نضربهم ازاي؟

- نضربهم ازاي إيه؟ كل واحد مننا يمسك لوحة مليانة بالمسامير المدببة ومنتظرهم وهمَّ طالعين.. نعمل نفسنا طالعين نملا اللوح ونروح داخلين في وسطهم ومعشقين المسامير في أفخاذهم.. إيه رأيكم في الفكرة دي يا ولاد؟

وفي نفس واحد قالوا:

- فكرة كويسة.. فكرة كويسة.

ورد الولد السيد:

- أهو كده.. بالطريقة دي نقدر نهرب ومفيش حد يعرفنا.

وذات يوم وقف كل منا على مكنه، ولم نشعر بطول الوقت، ولا بالضجيج، ولا بسرعة حذف المكوك في الأدراج، ولا شيء على الإطلاق.. ننظر إلى الساعة في انتظار أن تتحرك وتتوقف على الخامسة والنصف.

كان قلبي يرتجف كلما اقتربت الساعة، وأمسكت باللوحة في يدي أعد في المسامير، قائلاً لنفسي: «كام؟ مية؟ ميت مسمار في اللوحة؟ مديين؟ أيوه مديين.. حامسكها من هنا.. أمسكها م الوسط وأدفع بها في فخد أي واحدة.. أي واحدة تقابلني.. تتعور ما تتعورش مش مهم.. ما دام أهاليهم ولاد الكلب سمحوا لهم بالدخول في العمل.. لما تروح الواحدة منهم وتعيط لأمها ويقولوا إن العمال ضربونا.. يبقى أحسن.. راح يمنعوهم.. وبالطريقة دي يبقى كسبنا.. هوّ فيه بنات بتشتغل؟ أمال الرجالة تعمل إيه؟ البنات للبيت والرجال للشغل.. للشغل في المصانع».

وأنا غارق في التفكير حول ما سأفعل، إذ بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يأتان ويبد كل منهم لوحة من ذات المسامير المدببة، واتجهنا خلف بعض نحو باب عنبر النسيج، في نفس الوقت الذي توقفت فيه العقارب على الخامسة والنصف.

وعلى الباب بدأ كل منا يطل برأسه مترقبًا، وإذا بهن يخرجن من العنابر مهرولات، يمسحن من على وجوههن زغبار القطن الأبيض العالق بشعورهن، متلفعات حولهن كأنهن يسرن في متاهة، دافعات بعضهن بعضًا.. وأخريات يتعصبن بمناديل حمراء وخضراء وصفراء مشغولة بالترتر، محدثات ضجيجًا في سيرهن.. شباشب تطرقع «تك.. تك.. تك»، وأحذية من ذات الكعب العالي تدق الأرض.

وبينما هن منشغلات في دفع الزغبار من على رؤوسهن ووجوههن كنا نحن نستعد قائلين في نفوسنا: «قربوا.. قربوا شوية.. حتستلقوا وعدكم دلوقت!».

كنا نطل.. ثم نعود لنختفي كي لا يريننا.. قائلين في نفوسنا أيضًا: «أهم.. أهم
قربوا.. أهم جم.. جم.. جم يا ولاد.. اهجم.. اهجم.. في أي حته.. اغرز
بالمسامير في أفخادهم.. في بطونهم.. في أي حته في جسمهم».

واقتربن منا، سائرات في تباطؤ، ناظرات للسقف.. للسيور الغليظة
الموضوعة فوق العنابر، متأملات في استغراب، ثم يعدن يتطلعن من أبواب
العنابر على العمال وهم واقفون على الماكينات.

لم تكن واحدة منهن متوقعة أن يحدث ما سيحدث.. لهذا ظلن سائرات في
طمأنينة يحكون الأرض بأحذيتهن.. ومر الجزء الأول أمامنا، وكن بالكثرة بحيث
سددن الطريق.

قلت للولد الغريب:

- اهجم!

- نهجم سوا.

- إوعى واحدة تمسكك من هدومك.

- وانت كمان.

ونظرت لوجهه، فإذا به شاحب مصفر ويدها ترتعشان باللوحة.

ووقفنا في صف ملتصقي الأكتاف، واندفعنا ثلاثتنا كالعميان وسط الصفوف
المتراصة دافعين بالمسامير في الأجساد.. وانطلقت الصرخات عالية: - يا
خرابي! يا خرابي! يا دهوتي!

وبدأت الأصوات تعلو وبعلو السباب.. يعلو من كل جانب:

- إلهي يحرق قلب أمكم عليكم!

- إلهي يهرسكم البابور! إلهي يقطعكم أوتومبيل يا ولاد الكلب!

ونحن نطيح كالمجانين، وهن يجرين من هنا ويجرين من هناك.

وتعلو الأصوات وتعلو:

- يا خرابي! يا دهوتي! آه يا امه! آه يابا! يا ولاد الكلب!

واندفعت إحداهن نحوي بقوة وأمسكت بجلبابي، وأخريات تجرأن وأمسكن بأحذيتهن ورفعنها عاليًا متجهات نحوي، وأخريات وقفن من بعيد رافعات شباشبهن في أيديهن، والصرخات تدوي كأنهن في جنازة يشيعن عزيزًا قد مات.

وشعرت بالمصيبة قائلاً لنفسي: «رحت في داهية ما لم أتخلص منهن! أتخلص ازاي؟».. وأمسكت باللوحة في يدي، واستجمعت قواي قائلاً: - سيونني! سيونني يا ولاد الكلب! سيونني لأفتح بطونكم!

وهن يغرزن أظافرهن بجسدي:

- إلهي يحرق قلب أمك عليك يا ابن الكلب! هو انت إيه؟ عفريت؟

ووجدت نفسي وسطهن تائها، وهن يتكاثرن، وشعرت بنقط دم حمراء تنزل من صدغي.. وصرخت إحداهن: - امسكيه! امسكيه من شعره يا بت!

وأخرى تقول:

- كعبيه! كعبيه يا بت من رجليه!

قلت لنفسي: «ياه.. مفيش فايده.. وقعت واللي كان كان.. أفتح بطن واحدة منهم.. أفتحها واجري.. أجري في العنابر.. مين حيشوفني؟».

واستجمعت شجاعتي، ودفعت باللوحه بكل قوتي.. دفعت بها دون أن أعي.. وإذا بي أسمع صرخات عالية.. فجاءت اللوحه في بطن إحداهن، فارتمت في الأرض صارخة مولولة، فتلهت البنات فيها.. واندفعت بنفسي داخل العنابر.

والتفت البنات كلهن حول البنت.. ومن خلف المكن القريب من الباب وقفت أتطلع ناظرًا للبنات وهن يرفعن جلبابها ويصرخن عاليًا.. ورأيت الدم ينزف من أماكن متعددة في خطوط مستقيمة على فخذها الأبيض فلطخه الدم، وآهات حزينة تنبعث: - آه! آه ياني! آه يا امه تعالي لي! آه يا ابن الكلب!

واقشعر جسدي كلما رأيت الدماء تنزف والدموع تسيل.. دموع من وقفوا بجانبها وهم ينظرون لها تارة وينظرون في اتجاه العنبر مرة أخرى.. ولم أحتمل، وإذا بقلبي هو الآخر يخفق كلما رأيتهن يجفن دموعهن، وإذا بعيني هي الأخرى تتساقط منها الدموع على خدي دون أن أبكي.. حاولت أن أخفي نفسي لكي لا أرى الدم فلم أستطع، فبقيت أختلس النظرات وهن يرفعنها إلى أن قامت شاحبة الوجه دامعة العينين منكوشة الشعر، فازدادت الدموع تساقطًا من عيني كلما رأيت البنات ينظفن جلبابها ويمسحن عينيها ويقمن بتسوية شعرها الذي تهدل.. وسارت تعرج بجانبهن.. وحزنت لهذا قائلاً
لنفسي: «حاروح فين من ربنا؟ كان مالي؟ لو أصابتنني دعوة من الدعوات المقززة التي سمعتها أبقى أعمل إيه؟ أقول إيه لأمي؟ أعمل إيه لما تروح

الواحدة منهم دلوقت لأمها وتوريها الدم؟ حيدعوا عليّ، حيقولوا يحرق قلب أمه عليه.. أنا خالفت كلام أمي.. أمي كانت موصياني أن أكون في حالي.. كثيرًا ما سمعت منها «الخلف» «العرة» يجيب لأهله اللعينة».. وكان مالي؟! ما تنحرق الشركة على أصحابها! هوّ انا حاعدل الكون؟! الأرزاق بيد الله.. وهيّ أختي حُسن مش كانت رُخرى بتشتغل؟ إيه الفرق بين شغل الفاعل والشغل في المصنع؟ كانت بتشتغل ليه مش عشان تربيني؟ ساعدت أمي.. ياما شالت الطين على دماغها.. ياما طلعت السقالة وراء البنابين واشتغلت بعد موت أبويا.. اشتغلت مع الرجالة.. وأمّي كانت عارفة ما حاشتهاش.. وما حشتهاش ليه؟ م الجوع والاحتياج.. مش أحسن ما كانت تمد إيدها لحد؟ ما هو أبويا مات وما سابلناش حاجة ناكل منها! ليه ما يكونوش أبهات دول ماتوا رُخرين وجم الشغل عشان يساعدوا إخوانهم؟! أختي كانت بتجيب لي حاجات وهيّ جاية من طنطا».

أفكار كثيرة راودتني، ولم أشعر بالوقت.. وإذا بالولد الغريب والولد السيد الصفطي يأتيان متهللين، قائلين: - عملنا اللي علينا.. عملناها ونفدنا.

وكل منهما يقول:

- أنا غرزت اللوحة بتاعتي في بطونهم.. وانت عملت إيه؟ قعدت تقول لنا اجرّوا وانت ما عرفتش! شفناهم ماسكين في هدومك وخفنا نيجي لك لاحسن يطبقوا في هدومنا.. إوعى واحدة منهم تكون عرفت شكلك!

قلت:

- شكلي؟ شكلي إيه؟ ده كلهم عرفوه!

- يا سنة سودة! رحنا في داهية! دلوقت يستنونا! حيستنونا في السكة!

وشحب وجهاهما عندما قلت لهما ذلك.

- وحنعمل إيه دلوقت؟ لازم نستخبي!

وأضاف الولد الغريب:

- نستخبي فين؟

- نستخبي في الزحمة.. نقعد مدة ما حدش منهم يشوفنا لما يتوه شكلنا

عنهم.. ما يشوفوش وشنا أبدًا!!

قلت:

- حنطلع الساعة الثامنة مساء ونستخبي وسط الناس، في وسطهم وهمّ

طالعين، ونشتري الغموس معانا الصبح وتتغدى جنب الممكن.

ونحن منهمكون في الحديث إذ بوردية الليل تدخل:

- آه.. لقد سرقنا الوقت!

واندفعنا بلا إبطاء، وكل منا يمسك بجلباب الآخر.. ودفسنا برؤوسنا وسط من

كانوا أطول منا، وانطلقنا كالريح.. وبقينا على هذا مدة، ظننا أنهم قد نسونا.

وفي يوم من الأيام، ونحن جالسون بجوار الحائط، بجوار عنبر النسيج قبل أن

يفتح، إذ بالبنات تأتي من بعيد، فوقفت على حيلي ناظرًا في وجوههن، وكانت

مفاجأة لي عندما وقفن قبالي يتأملن وجهي: - هَوّ.. هَوّ ده.

- مش هَوَّ يا بت ده.

- هَوَّ بعينه.. هَوَّ ابن الكلب.. يا بت يا محاسن... اجري يا بت.. اجري يا بت
اندهي لها!

وكدت أن أجري من وسطهن، لكنني خشيت أن تضحك البنات.. ودفع بي هذا
للقوف قائلاً لنفسي: «ما كنت في حالي! اللهم اخزيك يا شيطان».
وجرت واحدة منهن إلى الداخل، وبقيت الأخريات يشتمن ويلعن: - إلهي تعدم
أمك! إلهي تعدم إخواتك!

وكدت أن أدفع بقدمي في بطونهن عندما سمعت منهن شتيمة أمي، لكنني
عدت وقلت في نفسي: «من الغيظ بيشتمونني.. طوّل بالك يا واد.. الله
بخزيك يا شيطان».

ولكن حدث غير ما توقعت، حدث أن وجدت عددًا من العمال يمسكون
بأيديهم مرايين طويلة من الخشب، تتقدمهم فتاة ذات عيون خضراء، تسرع
الخطى تاركة ملاءتها السوداء تجرر في الأرض، فتاة ذات رموش مدبية
وحاجباها مكسوان بشعر ثقيل أسود، ذات وجه أبيض وخدود حمراء ورقبة
طويلة مثل رقبة الغزلان التي كثيرًا ما رأيتها في الصور.. فهزرت رأسي:
«هيّ دي؟ لازم تكون دي محاسن».. وحملت النظر فيها تاركًا البنات
الواقفات بجانب يولولن ويشتمن.. هالني جمال منظرها، ولم أبال بالشتائم،
مانعًا يدي من أن تمد لأن عيني قد بكت يوم أن ضربتهن.

واقتربت الزفة، وأمعنت النظر في محاسن قائلاً لنفسي: «هيّ.. هيّ دي
البت اللي انا دفعت بالمسامير في جسمها.. هيّ بعينها اللي وقعت على

الأرض متألّمة».

وبدأت أستعد لملاقة الآتين، قائلاً لنفسي: «يا خرابي! دلوقت البنات
حيفرحوا.. حيفرحوا لو ضربوني».

فأخرجت المقص من جيبي، وأطبقت عليه في يدي قائلاً لنفسي: «لو
ضربوني مش حاقدراً أقيم وشي في وشهم.. دول لازم من المحلة!».

واندفع الولد الغريب كما اندفع الولد السيد الصفطي مشمرين عن الأذرة،
وكادوا أن يضربوا البنات الواقفات، لولا أنني غمزت لهم بأن يتعدوا عنهن
قائلاً: - استنوا.. استنوا لما نشوف.

وقد تسمرت عيني على إحدى المرابن الطويلة التي في أيديهم: «حاطفها..
حاطفها من إيده وأدورّ الضرب على طول لو ضربني».. مستعيئاً بكلمات
أخي: «العصاية السابقة سابقة».

واقتربت من الولد الغريب مذكراً إياه بما سمعته من عبد العظيم يوم أن
هجم على أهالي المحلة.. مستذكراً قوله: «اهجم يا واد.. اضرب يا واد..
اضرب يا واد في أي مكان ما تهابش».

قلت لهم هذا في السر، ووقفنا مستندين بأيدينا على الحائط في انتظار ما
سوف يحدث.. وإذا بالبنات تتوقف ناظرة متألّمة، والعمال من خلفها يصيحون:
- فين؟ فين؟ فين هو؟ شاوري لنا عليه! فين ولاد الكلب؟!

وإذا بالبنات تنظر في وجهي:

- أهو.. هو ده بعينه!

وعندما قالت ذلك، إذا بالمرارين ترتفع.. كادت أن تهوي على رؤوسنا لولا أن
أملت رأسي، فهوت على الأرض فانكسرت، فهجم الولد الغريب على إحداها،
كما هجم الولد السيد على أخرى، واختطفت ذراع ماكينة كانت بيد أحدهم
ونزلت بها ضربًا دون أن أحدد الهدف.. وصرخت البنات مولولات، وقد شعرت
أنهم بكثرة بحيث إنهم سيغلبوننا.. قلت: «حاضر بالمقص.. أعور واحد..
أسيح دمه.. لما يشوفوا الدم يبشرشب من واحد الكل يخاف».. وفتحت
المقص، وبدأت أضرب في الواقفين، خبطة هنا وخبطة هناك، إلى أن جاءت
خبطة في كبشة واحد، فارتمت العصا من يده، ولم أتوانَ في اختطافها، وإذا
بصوت يقول: - يا نهار أسود! عيال حتضرب رجاله؟! مفيش حد قادر
يمسكهم؟! امسك يا جدع!

كنا نضرب ونزوغ بعيدًا خوفًا من أن يمسكنا أحد، زاعقين: - اضرب يا ولد في
أي حته.. في دماغتهم.. في رقابهم!

وشجعتنا العمال الواقفة، وقد تعور أكثر من واحد، وتوارى بعضهم هربًا بعد أن
تدخل الكثير من العمال، ولم يبق سوى البنات ملتصقات بالحائط يصرخن..
وقد توجه الولد الغريب نحوهن قائلاً بصوته الغاضب: - جبتوا عجولكم؟ أهم
جربوا!!

وكاد أن يخبط إحداهن بالعصا لولا أن منعه.

وسارت البنات يجرين، ماسكات أطراف جلابيهن بأيديهن، يتطلعن خلفهن
مكسورات خاطر.. وكنا ننظر لهن ونحن ممسكون العصي بأيدينا، وهن
يبتعدن عن العنابر يشتمن من بعيد.

وقفت على المكن، والتف حولنا البعض:

- نهاركم أسود! ليلتكم سوداء! حتموتوا النهارده أكيد! دول من أهالي المحلة!

- زي بعضه.

- حيستنوكوا برّه.

- مش مهم.

وفي الوقت الذي كانت العمال فيه تحدثنا كانوا هم هناك مع بعض يقولون: -
دول لازم مش لوحدهم! فيه عيال تعمل كده؟! دول لازم من العصبات
الموجودة.. يا من عصابة المنوفية، يا من عصابة الجعفرية.. وحنعمل إيه؟
نروح ونصالحهم.. همّ البنات حينفعونا؟!!

وجاء العمال يبحثون عنا خلف الممكن.. وعندما رأيتهم أمسكت العصا بيدي،
وإذ بهم يقولون: - إحنا عمال زي بعض.. ملناش إلا بعض.

وقال واحد منهم:

- هوّ اللي يسمع كلام البنات يكسب؟! تعالوا بُكرة.. تعالوا بعد الضهر نعرفكم
بشغل الفانات.. نفرجكم على الممكن ونوريكم البنات وهي بتشتغل.

وسررنا لهذا.. وفي اليوم الثاني توجهت أنا والولد الغريب والولد السيد
الصفطي إلى عنبر الفانات، وفي انتظارنا كان أحدهم واقفًا أمام العنبر،
وعندما دخلنا وقفت البنات تنظر، ينظرن في ذهول قائلات في نفوسهن:
«الله! دول اتصاحبوا؟! ما هم رجاله.. يا عيني علينا.. يا عيني ع الولايا.. الولايا
دايمًا ولايا ومنكسرين!».

وعيناى تبحث في كافة الماكينات: «أين محاسن؟ أين هي لتراني؟».

وإذ بها تقف بجوار إحدى المكن تنظر هي الأخرى، وتعمدت الذهاب نحوها، وعلى الماكينة توقفت كالقائل لها: «أهو.. مَن أتيت بهم لضربنا آدينا ضربناهم وبقينا النهارده حبايب».

والتقت عيناى بعينيها وتسمرت، وأشاحت بوجهها لتخفي ابتسامتها.

وقد تصورت أن الوقت قد تأخر بعد أن رأيت كل العاملات، فأخذت الولد الغريب والولد السيد الصفطي مشيعين بنظرات العاملات وهن مثلنا على المكن يشتغلن.. الفرق أنهن يشبهن العصافير.. إنهن يعملن مثلنا تمامًا، فمنهن مَن كانت خائفة وهي تقترب من الماكينة مثلما كنت خائفاً عند بداية التعيين، ومنهن مَن كانت تكنس الأرض وتدفع بثوبها إلى ما فوق الركبة مثلما كانت رقية تكنس حوش منزلنا.. وكان بعض المباشرين يجلسون على الكراسي حانين رؤوسهم مختلسين النظرات إلى ما تحت تلك الملابس، هازين أقدامهم.. فخرجت بعد أن رأيت كل ذلك خاشياً على البنات منهم.

وفي الساعة الخامسة اجتاحتني رغبة أن أرى البنات وهن يخرجن لأريهم نفسي.. وفي الموعد المحدد أخذت الولد الغريب معي، وعندما رأتنا البنات توقفن فجأة عن السير ناظرات لنا.. ومن الخوف قلن: - تعالوا يا بنات.. تعالوا ابعدوا عن ولاد الكلب.. دول واقفين!

ومنهن من استمر في الوقوف واستمر في السب واللعن:

- قاطعين علينا الطريق؟! قاطعينه علينا يا ولاد الكلب؟! مالكوش إخوات؟!

ومنهن مَن كانت تزعق:

- اخلعوا الشباشب يا بنات!

ووقفنا من بعيد نضحك، وتقدمتهن محاسن:

- تعالوا يا بنات! تعالوا ما تخافوش!

دافعة ملاءتها على كتفها.

أحبت أن تتجراً، وبدأت في المقدمة، ولكن البنات وقفن خائفات واضعات
أيديهن على صدورهن، شاحبات الوجوه.

ومحاسن تزعق:

- تعالوا.. تعالوا يا بنات.. تعالوا ما تخافوش!

وأردنا تخويفها.. تخويفها فقط، فدورنا الجري نحوهن، وإذ بها تعود إلى الخلف
مسرعة: - يا خرابي! يا خرابي!

وجرت البنات الأخريات، ووقفنا نضحك.. نضحك عاليًا، وهن من بعيد يولولن.

وتظاهرن بأننا دخلنا العنابر، واختفين وراء الأبواب.. وسرن يتحسسن الخطى،
خطوة وراء الأخرى، مطلات برؤوسهن.. وعندما أحسنا باقتراب أقدامهن
اندفعنا خارجين، وإذا بهن يعدن أدراجهن ممسكات بجلاليب بعضهن،
ومحاسن بينهن تضحك.. ووقفنا أيضًا نضحك من بعيد، ملوحين بأيدينا: -
تعالوا.. تعالوا.. تعالوا ما تخافوش.. إيدينا فاضية أهى.

رافعينها إلى أعلى، وأصواتنا تعلو:

- أهى فاضية أهى.. تعالوا.

ولكنهن استمررن في خوفهن.

ومن على الممكن القريب من الباب وقفنا نتطلع، ورأيناهن وهن يندفعن كالريح خالعات شباشبهن.. وخرجن من جديد وهن يتطلعن حولهن ومحاسن في المؤخرة تبتسم.. واجتاحتنى رغبة ملحة في السير خلفها، ولكن الخوف من الغرامات كان حائلًا.. واتجهت نحو ماكينتي قائلاً لنفسى: «لو كانت أختي زينب مثلها لحطيتها بين عيني».

وعدت وقلت: «بنت زي دي تطلع وتتهدل؟ لو كنت من أهلها أديها زي ما هيّ عاوزة! وانا كنت ليه باعمل كده؟ بنت زي دي أضربها؟! عملت من كلام الناس وطلعوها في دماغى.. همّ أهلها ودوها الشغل ليه؟ ما ودوهاش إلا للاحتياج! بنت زي دي تتلف في الورق!».

وتصعبت في نفسى: «أختي ياما شالت طين على دماغها! ياما طلعت وراء البنابين اشتغلت علشان أمي وعلشانى! هيّ كانت أكبر مني وأخويا الكبير إبراهيم سابنا ومشى.. اتجوز وخد مراته ومشى.. يمكن تكون دي أبوها مات وأمها مشغلاها زي أختي ما اشتغلت».

اجتماع مع فرج أفندي

وأنا غارق في التفكير، إذ بأحد الميكانيكية يخبط بمفتاح على أجناب إحدى الماكينات، فتلفت، فإذا به ينظر في وجهي متأملًا: - أنا شفتك الأيام دي بتتلامض.. شايفك بتتنطط أوي.. مش رايح تجيها البر.. مفيش حد راح ينفعك.. خليك في نفسك وملكش دعوة بحد!

قال ذلك وتركني.. ولم أعرف سببًا لهذه الكلمات سوى أنني قد اعتقدت أنه قد عرف ما حدث مني قبل العائلات، فنظرت له في غيظ وهو يتعد قائلاً لنفسه: «إنت مالك؟ مالك انت؟ لك دعوة بي؟ هو انت عامل ريس؟ إنت عبارة عن حته ميكانيكي! يا دوب حته ميكانيكي! ماهيتك كام؟ مش ستة صاغ؟ وإيه يعني ستة صاغ؟! أنا قريب منك مع إني لم أتعلم! ماهية فالصوا! ومع هذا فأنت تعاملنا مثلما تتعامل معنا الرؤساء الكبار، لا فرق بينك وبينهم، مع إن ماهياتهم أكثر منك بكثير.. أضعاف مضاعفة.. إنت قلدتهم.. بتقلدهم في المعاملة؟ مهما فعلت فأنت زفت وقطران.. كنا فاكرين إنكم أحسن.. كنت فاكرا إنك حتعاملنا معاملة أحسن من معاملتهم! عملتم زي المثل اللي بيقول: «طلعت ستي أزرت من سيدي»! تعلمتم في المدارس كيف تحتقرون العامل.. العامل الفقير مثلي! إنكم تعاملوننا على هذا الأساس.. تعتبرون أنفسكم نخبة مختارة مثلما قال وكيل النيابة يومًا! فاكرا إيه؟ فاكرها سايبه؟ ما خلاص عباس حليم راح يبجي.. جاي من مصر، وحيربطكم ويلففكم زي القروء في السكك!».

وتركت المكن شغال، واتجهت نحو عبد العظيم ممتلئًا بالغيظ، وإذا به واقف على المكن كالزهار بيتسم.. عندما رآني قلت سائلًا: - عباس حليم جاي

إمتى؟ اتأخر ليه؟ المباشر بيهددنا! دايماً بيهددنا!

فأسرع قائلاً بعد أن تلفت حوله:

- بتسيب مكنك ليه؟ دايماً بتسيبه! روح على مكنك وما تسيبهوش! أنا مش قلت لك أكثر من مرة خليك في حالك؟! هَوَّ انت مش عارف إن من يوم عباس حليم ما جه بيتلككوا على العامل؟

قلت:

- أنا جاي أسألك: عباس حليم جاي؟ وجاي إمتى؟

فوضع يده على كتفي، وقال بصوت منخفض:

- الأسئلة اللي زي دي تبقى برّه.. إحنا دلوقت في الشغل، والعمل فيه ناس رقباء! لازم تعرف الحكاية دي.. اعرفها من دلوقت.. العمل عمل والنقابة نقابة! النقابة شيء والعمل شيء آخر! في النقابة تتكلم زي ما انت عايز، تقول ما في الخمر، لا حد يبجي ناحيتك ولا يقول لك انت بتقول إيه، بعيداً عن الرقباء.. أما هنا زي ما انت شايف.. الممكن حيتعطل.. حيتعطل واحنا واقفين تتكلم!

ولوح بيده نحو عاملين يتكلمان:

- أهم واقفين والممكن بتاعهم واقف.. متلهيين عن الشغل.. تقدر تقول آخر المدة الواحد منهم يروح بكام مليم؟

وهز رأسه:

- ولا حاجة.. انتبه لشغلك.. القرش اللي في جيئك هوّ اللي ينفعك.. والقرش
مش راح يبجي إلا بالشغل.. الشغل ده!

وخط بيده على الماكينة:

- إنت مش عاجبني في أحوالك الأيام دي! رايح جاي تنتطط! إنت مش لك
أهل؟ هيّ مش أمك محتاجة منك قرش! مش قلت أبوك ميت؟ قلت لي أول
ما اتعينت.. ليه ما تراعيش دلوقت أكل عيشك؟ مرة في مرة تنفصل.. لولا
إنك عامل جدع كان الميكانيكية فصلوك!

لكن جدعتك في الشغل هيّ اللي حامياك.. روح.. روح انت دلوقت ع الممكن
وفي النقابة نبقى نتكلم.. الباب اللي يبجي لك منه الريح سده واستريح.

ودفعني من كتفي:

- في الخارج نبقى نتكلم.. في النقابة هناك.

اتجهت فور خروجي إلى النقابة، عسى أن أجد ما يطمئنني، عسى أن أعرف
عن مجيء عباس حليم، عن قرب مجيء الزعيم المنقذ.. كنت متلهفًا أن
أسمع شيئًا عما يخيف الرؤساء ومن هم على شاكلتهم، متلهفًا على سماع
قرب مجيئه لمنع الشركة من الاستمرار في تعيين العاملات.. كنت متلهفًا أن
أسمع عن قرب اليوم الذي تنتهي فيه عمليات الظلم التي نلقاها.

كنت أدفع بنفسني وسط جموع العمال المتعبة السائرة وهم يجررون في
أقدامهم مطمئنًا نفسي عما سوف يحدث.

كانت السماء تملأها السحب والنجوم تلمع.. وأمام باب البوستة وتحت ضوء
الثلاث لمبات التي في عمود النور كان مصطفى محمد والكافوري وآخرون
وآخرون غيرهم واقفين في حلقات صغيرة متناثرة يتطلعون في الاتجاه إلى
شارع البهلوان، بينما كانت عمال أخرى كثيرة يتجهون إلى منازلهم مطأطئي
الرؤوس من كثرة التعب.. واتجهت نحو الحلقة التي يقف فيها مصطفى، قائلاً
لنفسه: «إيه اللي موقفهم هنا؟ ليه ما رَوَّحوش؟».

وبجواره توقفت، ولكنه لم يكلمني.. كان محتقن الوجه، والاصفرار قد تغلب
على لون وجهه الأسمر، ومحمد الكافوري تصطك أسنانه مع أن الجو كان
دافئاً، فوقفت بجوارهم أنا الآخر، واندفع مصطفى إلى حلقة ملتصقة بالحائط،
هامساً في أذن أحدهم، فتحركوا في اتجاهات عديدة، ثم عاد سريعاً وحملق
في الوجوه: - الله! إنت جيت؟ إنت جيت إمتى؟

- جيت من شوية.

- أمال ما شفتكش ليه؟

- إزاي ما شفتنيش؟ دا انا وشي في وشك م الصبح!

- والله الواحد يظهر عليه راح يتعمي.. والله ما شفتك!

وأضاف:

- فين عبد العظيم؟

قالها في حزن.

- مش عارف.. هوّ ما جاش؟

كان يكلمني وعيناه تتطلع في طول الشارع وعرضه، وإذ بأحد الأفندية
بينطلون أزرق به بقع كثيرة سوداء وقميص أخضر بأكمام طويلة مليء
بالزراير الصفراء، رفيع الجسم طويل القامة أبيض البشرة وعيناه خضراوان
وشعره طويل تدلى على وجهه، يقف بجوار أحد المطاعم المجاورة للبوسنة،
وأسرع مصطفى قائلاً: - أهو.

قالها بشغف.

- أهو.

واتجه نحوه في خطوات مسرعة، واستمر وقوفهما طويلاً.

ووقفت مستغرباً، وكدت أن أسأل محمد الكافوري عما حدث، وإذ بمصطفى
محمد يعود من جديد ومن خلفه الأفندي ذو البنطلون الأزرق.. وأخذ محمد
الكافوري وهمس في أذنه، ثم عاد من جديد وأخذني أنا الآخر وقال: - إنت
ساكن فين؟

- في صندفا.

فهز رأسه وتركني مردداً:

- دي بعيدة!

وأخذ أحد الواقفين وهمس في أذنه هو الآخر، ثم عادوا ووقفوا ساهمين،
وفجأة قال مصطفى: - اتفضل.. اتفضل يا فرج أفندي.. اتفضل نروح عندنا..
عندنا في البيت.

قلت منفعلاً:

- بيت إيه؟ بيت إيه دلوقت؟ أنا جاي أسأل بس راح نعمل إيه؟ الرؤساء
بتهددنا! جاي أسأل: عباس حليم جاي؟ وجاي إمتى؟ الواحد وسطه انكسر!
انكسر من الوقفة على أربع ماكينات! لسه حنروح البيت ونقعد تاني؟!
فأمسك مصطفى بيدي وضغط عليها بقوة ضغطاً لم أعهده.

ومط بوزره في أذني:

- إحنا حنقول لك.

وسار في المقدمة، ومن خلفه كان فرج أفندي.. وتلفت حولي باحثاً عن عبد
العظيم فلم أجده.. آه، لقد تأخر.. وكانت العمال تسير جماعات جماعات..
وعدت ونظرت إلى الشارع.. شارع البهلوان: المكان الذي كان على ناصية
المقر الذي اتخذه عباس حليم مقرّاً للنقابة عسى أن أرى العمال وهم يطلون
في الترسينة على السائرين في الطريق، فلم تقع عيناى على أحد، وأطلت
النظر أكثر ماثراً بعيني على الحجرات، فلم أجد ضوءاً ينبعث، حتى اللمبة
الحمراء الموضوعة على الياقطة، كانت هي الأخرى مطفأة، فأيقنت أن هذا
الاجتماع في بيت مصطفى له علاقة بالموضوع، وأن فرج أفندي ذا البنطلون
الأزرق ما جاء إلا لهذا الغرض، فأسرعت السير بجوارهم.

وفي أطراف حي سوق اللبن توقف مصطفى محمد قائلاً: - اسمعوا يا
جماعة.. مفيش عندي في البيت حاجة.. استنوا لما أجيب عودين قصب،
نتسلى فيهم واحنا قاعدين بنتكلم.

وأمام دكان صغير جدّاً ينبعث من داخله ضوء خافت من لمبة صفيح ذات
شريط من القطن عباً الدكان كله بالدخان الأسود توقف، وعلى الباب كانت

امرأة تجلس على كوم من القش، بيضاء، تضع يدها على خدها، وأمسك
مصطفى بأحد عيدان القصب قائلاً: - بكام يا ست؟

وهمت المرأة مفزوعة كأنما كانت في حلم، وتنهدت وهي تشير برأسها: -
العود اللي في إيدك ده بقرش واللي جنبه بقرشين.

ووقف مصطفى يقلب في العود، وقال:

- ده مليون سوس.. مفيش غيره؟

وكانت المرأة قد سرحت من جديد ولم ترد.. فعاد مصطفى: - مفيش غيره؟
مفيش غير ده؟

انتبهت المرأة:

- فيه.. فيه يا اخويا، عاوز كام؟ يا بنت يا محاسن.. يا محاسن.. هاتي لبشة من
عندك.

ورن الاسم في أذني: «محاسن؟ محاسن مين؟ الاسم ده أنا سمعته من قبل..
هي؟ هي بنت دي؟ ما تكونش اللي انا كنت شفيتها.. هي لازم البنت اللي انا
ضربتها في الشغل! مش معقول تكون هي! إيه اللي جابها؟ دي بنت حلوة، إيه
اللي يخليها تيجي وتبيع قصب في دكان زي ده؟! مش معقول تكون هي!».

وتأهبت للجري، وأمسكت بذيل جلبابي في أسناني وقلت لنفسني: «حتقول
لأمها.. لو هي.. حتقول لها هو ده اللي ضربني».

كدت أن أقول لمصطفى: «ما تسبيه! سيب العود وتعال أحسن الليلة مش
حتفوت».. لكن البنت كانت قد خرجت تحمل لبشة من عيدان القصب طويلة

جَدًّا من بيت مجاور للدكان، وركنت اللبشة للحائط، ووقفت أمامنا تصلح من شعرها الطويل المتهدل من آثار حمل القصب.. وتأملت وجهها: «دي هيَّ.. هيَّ والله!».. وتزحزحت إلى الخلف، وأدرت ظهري، وفكرت في الجري، وجاء صوت مصطفى يناديني: - تعال.. تعال ونقي وبيّايا.

وعملت نفسي مش سامع، فزاد في المناداة، فجعلت نفسي مرة أخرى مش سامع، فشدني من جلبابي: - تعال.. تعال وبيّايا.

فاعتدلت واضعًا رأسي في الأرض لكي لا تراني البنت، وكانت البنت وأمها تنظران ويبد كل منهما عود تقشره.. فتأملت البنت وجهي واستمرت تتأمله، وكأنها تقول في نفسها: «هوَّ ده.. هوَّ ده اللي ضربيني».. وخشيت أن تصرخ في وجهي، وانتابني الخوف عندما اقتربت البنت من وجهي، فحاولت إخفاءه، لكنها وقفت متصلبة.. واحتقن وجهي، وتزحزحت إلى الورااء خطوة.. وإذ بها تقف ساهمة واجمة، وأمسكت بعود القصب الطويل في يدها.. وأحسست بالخوف من أن تدفع العود في وجهي: «يا خرابي! حتضرب! حتضربني بالعود! أنا دلوقت قدام بيتهم، الكلب ما يتشطرش إلا قدام بيته! حتقول لأمها! أهي حتقول».. وانتظرت أن تفعل، لكنها بقيت صامتة، وشجعني هذا الصمت، وأطلت النظر فيها، قائلاً: «خلاص.. هيَّ علقه ولا أكثر؟ قرب يا ولد.. قرب عليها.. قول لها العود ده بكام».

وأمسكت بالعود:

- أحسن ده يا مصطفى.

ولمحت ضوءًا أبيض ينبعث من عينيها، لمحتها من خلال الظلام.

وكانت هناك دموع محبوسة، تأملتها وهي واقفة تقلب في القصب، تأملت ما تلبسه قائلاً لنفسه: «جلباب قديم مقطوع، كثير القطوع من الجوانب وكثير الرقع على الصدر.. هذا ما تلبسه البنت هنا في البيت، وفي المصنع جلباب جديد كاشف للركب، والسائرون في الطريق ينظرون في شغف وهي تسير، وفي شغف ينظر الميكانيكية وهي تتمخطر بين الممكن، مين حيمنعهم من إطالة النظر؟ مين حيمنع إيديهم من أن تمسك بالأذرع العارية؟ مين حيمنع الأيدي من أن تمتد على هذه الصدور؟ إنها لو لم تستجب سوف تطرد، سوف تفصل من العمل!..» واستغرقت في شرودي: «ما الذي يدفع البنت أن تترك البيت وتذهب إلى المصنع وسط هذا الجمع الكبير من المباشرين والرؤساء من ذوي القلوب الغليظة التي لا ترحم؟ مين السبب في إرغامها على الذهاب إلى المصنع تسير وسط هذا الجمع من المباشرين والمساعدين الذين يسرون في الشارع يقولون للأرض انشقي ما عليكي قدي؟ ما من مرة أسير فيها في الشارع إلا وأجد الكثيرين منهم من الأفندية يطاردون النساء الجميلات في الشارع! فما الحال إذا وقعن تحت أيديهم في عمل يستمر ساعات وساعات بنفس الفساتين الكاشفة».

ونظرت في إشفاق إلى البنت وأمها قائلاً في نفسي: «مين؟ مين يا ترى يدفع الأذى عنكم؟ مين؟ مين المسؤول؟ دا احنا لحد دلوقت لم نستطع أن نمنع الأذى عن أنفسنا!».

وعدت ونظرت لوجهها الشاحب المصفر قائلاً لنفسه: «إنها لم تكن تود لي ولأمثالي من العمال أن يروها في الدكان وهي تباع القصب للناس مع أمها! كانت تود ألا نراها إلا بفستانها الجديد وحقائبها اللامع لا بتلك الملابس المهلهلة! هذا بالتأكيد ما دفع بها إلى الغضب».

وكان مصطفى محمد قد دفع ثمن ما اشتراه.. وسرت بجواره تاركًا البنت في نفس المكان جنب لبشة القصب معقودة اللسان لا تتكلم.

وفي منزل في إحدى العطف المعتمة دخل مصطفى في حجرة على الشارع مفروشة بالحصير ولها أربعة شباييك.

جلس فرج أفندي ذو البنطلون الأزرق على الطرف دون أن يخلع الحذاء، كما وقف مصطفى وأمسك بعود القصب وعلى ركبته كسره إلى نصفين، ثم إلى ثلاثة، ثم إلى أربعة إلى أن حوله إلى قطع صغيرة وقذف بها أمامنا وهو يردد: - لو كان عندنا وابور كنا عملنا لكم شاي.

فرد محمد الكافوري:

- القصب أحسن.. بيروق الدم ويجلي الصدر من الغبار.

وعاد قائلاً:

- ما تيلًا يا مصطفى اتجدعن علشان نشوف فرج أفندي حيقول إيه.

فرد فرج أفندي بصوت ليس عاليًا:

- مش حاقول إلا كلمتين.. كلمتين بس سمعتهم النهارده من الرئيس.. رئيس القسم المباشر.

قال مصطفى:

- ما تخلع الجزمة وتخش على الحصيرة.. اقعد مستريح.

فرد فرج أفندي بنفس الصوت الهادئ:

- بتعذبني لما باجي ألبسها!

وأضاف:

- الموضوع ما يستاهلش.. أنا جيت أقول لكم علشان تكونوا على بينة.

قلت متسرعًا:

- إيه الحاجات دي؟

- حاجات خاصة بالنقابة.. النهارده سمعت من الرؤساء الكبار جدًّا إن عباس
حليم مش جاي.. ولما سألت قالوا فيه ناس من مصر تدخلوا.. ناس كبار جدًّا
اتصلوا بيه وقالوا له ما تروحش.. ناس من قرايبه.

قال محمد الكافوري منفعلاً:

- مين اللي راح له؟ مين اللي راح من قرايبه؟

فرد مصطفى في غيظ:

- يبقى مين؟ يبقى الملك.. مفيش غير الملك.. ما هو أصله نبيل.. م العائلة
المالكة.

فرد فرج أفندي في صوت أكثر حدة:

- الوسايط.. مفيش غير الوسايط!

قلت:

- مفيش فايده!

فرد مصطفى بعد أن جز على أسنانه:

- طبغًا مفيش فايده! هوّ انا مش قلت؟ مش قلت قبل كده مش معقول واحد قاعد في مصر وعايش في مصر راح يقدر يعمل حاجة للعمال؟ دول غلابة! لهم رب! مش قلت لكم الكلام ده في القهوة؟ جالك كلامي يا محمد؟ عشان تعرف!

وأطبق الصمت على الحجر، وقاطعه محمد الكافوري: - يعني الهيصة بتاعتنا ما نفعتش؟ الهيصة راحت ع الفاضي؟

يا قوة الله يا رجالة.. يا خسارة التعب اللي تعبناه!

فقاطعه فرج أفندي قائلاً:

- مفيش حاجة راحت في الفاضي.. إحنا كسبنا.

فرد مصطفى بصوت كئيب محزون:

- إيه الكسب اللي كسبته العمال؟

قال فرج أفندي في حدة:

- أقل شيء كسبناه موقف العمال، وتضامنهم يوم ما قابلوه، والكلام اللي سمعوه، والخطب اللي سمعوها.. شعور الرؤساء الكبار بكراهية العمال لهم

هَوَّ ده اللي نقدر نقول كسبته العمال.. لولا خوفهم من العمال ما كانوا
جربوا للبحث عن واسطة.

فهز مصطفى رأسه:

- صحيح كل ده حصل.. وراح يحصل.. ولكن الكلام مش راح يفضل.. مش راح
ينفع.. حبقى زي ما احنا لا زيادة ولا حاجة.. يبقى مفيش حاجة كسبتها
العمال!

قال هذا وسكت.. بينما هز محمد الكافوري رأسه هو الآخر قائلاً: - الغلابة
طول عمرهم يبقوا غلابة.. صدق المثل اللي بيقول «الميه ما تطلعش في
العالى»!

فرد فرج أفندي:

- بتقول إيه؟ كلام إيه اللي انت بتقوله ده؟! مية إيه يا جدع انت وهَوَّ اللي ما
بتطلعش في العالى؟! هَوَّ انتم مش فلاحين ولا إيه؟! هَوَّ الفلاح لما بيدور
الطمبة اللي في الأرض بتطلع الميه ولا ما بتطلعهاش؟ بتطلعها من سابع
أرض.. بيحصل ولا ما بيحصلش؟ اتكلم انت وهَوَّ.. ولا إيه يا سي مصطفى؟ ولا
إيه يا سي محمد؟

قالها متهكماً:

- كلام فاضي اللي عمالين تقولوه!

فابتسم مصطفى ابتسامة صفراء:

- وانت حتزعل ليه؟ الشركة وأصحابها!

فهب فرج أفندي وقال:

- أنا ميكانيكي، وممكن أبقى كويس لو مشيت وباهم، لكنني فضلت السير معكم، وأبلغكم كل ما حدث.. تقوموا انتم بتهدوا من عزيمة الواحد بالكلام الفاضي اللي بتقولوه انت وهوا!

قال هذا وسكت.. ووضع يده اليمنى في جيب بنطلونه الأزرق، واقترب منه مصطفى قائلاً: - قمت ليه؟

فرد في غيظ:

- أنا جاي أقول لكم بس علشان مفيش حد منكم ينصدم.

فرد مصطفى قائلاً:

- قول لنا نعمل إيه؟

فرد فرج أفندي في صوت يشبه الصمت:

- شجعوا العمال.. شجعوهم.. الرؤساء من بكرة حتقول لهم اتسندتوا على حيلة مايلة.. حيهوا من عزيمتهم.

فارتفع صوت محمد الكافوري:

- صحيح اتسندنا على حيلة مايلة.. الرؤساء حيقولوا كده واحنا حنقول إيه؟

فازداد فرج أفندي غيظاً:

- إذا كان عباس حليم استجاب للواسطة إحنا بُكرة نعملها.. وديك الساعة ما حدش منهم حيقدر يبجي ناحيتنا.. عرفنا الطريقة، عرفنا إن مفيش حاجة ممكن ما تتعملش.. كل شيء ممكن عمله.. بُكرة النقابة نعملها احنا ونخلي رئيسها من العمال.

فصمت محمد الكافوري، كما صمت مصطفى، وساد الصمت لحظة قطعه فرج أفندي قائلاً: - قولوا للعمال كده.. وانا رايح أقول للميكانيكية والمباشرين الجدد.. حاخليهم يبقوا مع العمال.

قلت:

- واحنا راح نفضل كده ساكتين؟ إحنا كتبنا شكاوى في الأول.. ما نكتبها من تاني.. نكتبها للحكومة.

فابتسم فرج أفندي وقال:

- دي فكرة.. فكرة ممكن نعملها.

فرد الكافوري:

- ما احنا عملناها! هوّ احنا لسه راح نعملها؟

وتمشى فرج أفندي في الحجرة جيئة وذهابًا وهو يتمتم: - بُكرة نعمل النقابة.. نعملها لما تتجمع العمال.. حييجي يوم، واليوم ده مش راح يبقى بعيد طالما أصبحنا منتبهين.

ومد يده وهو متجه نحو الباب، وضغط على أيدينا قائلاً: - بُكرة في المصنع حنتقابل.

وعلى الباب الخارجي قلت لمصطفى:

- مفيش سكة غير دي؟

- مالها دي؟

- سكة بعيدة عن الدكان.. بعيدة عن الولية ودكانها.

قال مذهولاً:

- ليه؟ مال الولية ومالك؟

قلت:

- أصلك انت ما شفتش.. عارف.. أصل البنت دي هي اللي ضربتها في
المصنع.

فوضع أصابعه بين أسنانه قائلاً:

- آه.. أتاري انا ما خدتش بالي.. ما خدتش بالي وانت واقف بتترجف.. ما
شفتش البنت دي وهي ساندة راسها للحائط وما بتتكلمش.. امش من
الشارع ده وما توريش نفسك.. إوعى توريهم وشك!

وهمس في أذن محمد الكافوري قائلاً:

- الولية دي غلبانة.. فتحت الدكان بعد جوزها ما مات!

قالها وتصعب، وأضاف:

- الدنيا! الدنيا مش على حالة واحدة.. الواحد كل يوم بيتعلم.. لا بتخلي العالي عالي ولا الواطي واطي! تعرف الولية دي يا محمد من سنة ما كانتش تقدر تبص م الشباك، ولية كانت تقول للقمر قوم وانا اقعد مطرحك، جوزها كان بيغير عليها حتى م الهوا.. تشوفها دلوقت تتحسّر!

ولم يرد محمد الكافوري واكتفى بهز رأسه.. قال هذا وافترقنا، وهو يردد:-
دنيا وحشة! لا بتخلي الراكب راكب ولا الماشي ماشي!

وفي الطريق إلى المنزل قلت لنفسي: «من سنة كانت أم محاسن هذه الشباك ما يشوفش وشها، واليوم تجلس بالباب لتبيع القصب لكل من يسير في الطريق.. يشوفوا وشها ويشوفوها كلها».

وأثارت هذه الكلمات ذكريات قاتمة، قلت في نفسي: «أمي كانت كده.. كانت في نفس الجمال.. ولما مات والدي اتبهذلت! حتعمل إيه؟! إذا كانوا ماتوا ولم يتركوا لنا شيئاً نأكل منه، وبنتها راحت المصنع، الحال من بعضه.. كل الناس اللي بتشتغل أبهاتهم ماتوا واتيموا زي ما اتيمت! لقمة العيش بتجبر الواحد والواحدة على الشغل!».

إلى أن تضاء اللمبة من جديد

ودخلت حجرتي قبل أن يطول بي التفكير، فلم أجد لا الولد الغريب ولا الولد السيد الصفطي، مع أن الوقت قد تأخر.. فجلست أفكر فيما سوف أسمعه وما قد سمعته، قائلاً لنفسي: «الرؤساء حيقلونا بشماتة.. حيقلوا جات الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح.. حيكونوا هم أكثر شماتة.. راح يبجي الواحد منهم ويمسك الراجل من قفاه وحيقلوا احنا مش قلنا لكم.. مش قلنا لكم عباس حليم مين وبتاع مين.. ما حدش يقدر يخشها.. حيقلوا.. وحيقلوا.. وانا حاقول إيه؟ حاقول مالكمش دعوة؟ حاسيهم وأقول الكلام ده للعمال؟ العمال ما هماش في حاجة إلى كلام آخر.. حنزعل شوية.. لكن الزعل راح يعمل إيه؟ بُكرة كل واحد راح يعرف.. يعرف الحقيقة من نفسه.. ما عادش ممكن الضحك علينا.. ما عدناش ننسند على حيطه من الطوب الني زي ما حصل.. ما عدناش ننسند إلا على حيطه من الطوب الأحمر».. وبينما كنت أفكر كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يدخلان، وعندما رأيتهما قمت واقفاً: - كنتو فين؟

- كنا فين إيه؟ كنا بندوّر عليك!

قالوها في تلهف.. وعادوا في همس: - إنت مش راح تبطل؟! مش حتبطل تسيينا وتمشي؟! رحنا النقابة ودورنا عليك. لقيناها مقفولة! وعمال بتروح وعمال بتيجي.. الكل يحوم حواليتها.

وكدت أقول لهم ما حدث، ولكن شيئاً ما قد منعني، قائلاً: «بُكرة يعرفوا.. أحسن يعرفوا في المصنع.. حيقعد كل واحد منهم ويقول لي: «مش قلنا لك؟ مش قلنا لك مفيش فايدة؟».. أحسن ما أقولش.. أريح نفسي من كلامهم».

وآثرت الصمت على الكلام.. وكانوا من التعب بحيث لم يأكلوا.

اتجهت للمصنع معتقدًا أن أحدًا من العمال لا يعرف ما حدث، ولن يعرفوا إلا من خلال تطلع الرؤساء لهم.. تطلعاتهم الحادة، لكن حدث غير ما توقعت، فقد كانت العمال قد تعودت إلقاء النظر على البنيان العالي متطلعين لما في داخله من خلال الشبايبك كلما خرجوا من المصنع أو عادوا إليه.. وبالأمس عندما وصلوا إلى الناصية التي تعودوا إطالة النظر فيها، ناصية شارع البهلوان المجاور للبوستة، فلم تقع عيونهم على اليافطة، ولا على الضوء المنبعث من الحجرات، ولا على اللمة الحمراء التي أضاءت اليافطة.. «آه.. لقد عرفوا».

كنت متلهفًا في السير لأبلغ عبد العظيم عما حدث عسى أن أسمع منه ما سمعت بالأمس.. وفي الطريق نفسه كنت أستشعر الخوف مما قد يحدث.. كان القلق السائد على الوجوه ينذر بشيء قد يحدث.. إن ما يحدث الآن سيقود حتمًا إلى ما هو شديد.. التوتر ينذر بصدام وخيم العاقبة.. وكلما تأملت الوجوه كنت أستشعر الغضب.. كان السخط يزداد بصورة محسوسة وكلمات حادة ناقمة، ومناقشات حادة منذرة.. منذرة كل من تحدته نفسه أن يعتدي.

كانت تعليقات مذعورة مبيلة ساخطة على طول الطريق.. كنت أجد كل من يحيط بي يتنفس.. يتنفس في قلق.. كانت أمواج الاضطرابات تتنفس في تباطؤ في القلوب في انتظار أن تنفجر.. لقد أخذت الأفكار الناعسة تستيقظ، والخضوع المألوف الهادئ للعواصف اليومية وللأحداث يفقد ثباته.

استطعت أن أرى ذلك بوضوح.. كان السير في تباطؤ وحك الأرض بالأقدام يثير الرعب في نفس كل من تسول له نفسه أن يعتدي.. ثورة عارمة.

«لغاية إمتى راح نسكت؟ إللي اتكلمنا عليه راح ولا جاش».

الكل يسير في خطى ثابتة، والغفر على الأبواب في ابتسامة صفراء،
والرؤساء تسير في تمايل.. كان شبح الخوف قد زال، شبح عباس حليم الذي
خيم على قلوبهم فترة.

اتجهت فور دخولي إلى الممكن، وقبل أن يأتي أحد من الرؤساء كنت واقفًا
أمام عبد العظيم، وإذا به يقول: - أنا عرفت.. عرفت ما حدث.

وسألت:

- وما العمل؟

فتلفت حوله وقال في همس:

- إللي فيه الخير يقدمه ربنا.. قادر وغيره لا يقدر.

قلت:

- ربنا بيقول اسعى يا عبد وأنا أسعى معاك.

وتدخل أحد العمال المجاورين قائلاً: - عرفتم الخبر الأسود؟

- أيوه عرفنا.

- وما الحل؟

فقلت له:

- نكتب شكاوى.. نكتب بكثرة.. نكتب عن الزيادة وعن الدية وعن فتح الدورة
وتخفيض ساعات العمل الطويلة.. نكتب وبكثرة.

وأصبحت كلمة الشكوى هي السائدة.. صارت على الألسن.. لم يعد أحد من العمال يخشى أن يقولها حتى ولو كان الرئيس واقفًا أمامه.. إلا أن بعض الرؤساء قد تجنب الوقوف في وجه العمال الغاضبة الحانقة قائلين: - غضبة وراح تمر.

وفي مساء نفس اليوم وعلى الباب الخارجي كان مصطفى محمد واقفًا في ركن من الأركان المظلمة بجوار أحد المنازل، وجواره كان محمد الكافوري وفرج أفندي وآخرون وآخرون، وكان عبد العظيم هو الآخر قد حضر، والأصوات وكل الأحاديث حول النقابة وكتابة الشكاوى: - لازم نكتب.. ونكتب بكثرة!

أصوات على طول الطريق.

وفي أحد المنازل القريبة من المصنع اتجه الجميع يتقدمهم بعض الميكانيكية الجدد، وفي المقدمة كان فرج أفندي ذو البنطلون الأزرق، وعلى طول الطريق كانت رياح باردة تداعب زجاج المنازل وتهمس في القش وتخرخش فيه وتقذف بالدخان المنبعث من المداخن العالية.. تقذفه بعيدًا، بعيدًا، وتلفح بالقش الملقى على الأسطح.. وكان كلب يعوي في مكان ما.. ومن حين لآخر كانت النوافذ تفرقع من آثار الرياح الباردة.. وارتعش نور المصباح على أحد أبواب المنازل وكاد أن ينطفئ ليعود ليستعيد الحياة منتعشًا ويستمر في اللهب متلألئًا ثابت الاشتعال.. والعمال تسير في ثقة متطلعين نحو المستقبل.. كانت الوجوه متعبة والأفكار كانت جريئة.. وبينما كان فرج أفندي يتحدث عن العمل الذي سوف ينجز لم يكن يخفي عدم رضاه عن بعض زملائه الذين تنكروا لما تعاهدوا عليه وهو العمل مع العمال.

كنت أسمع هذه الكلمات كما كان يسمع غيري.. كنا ننصت متعطشين
للمعرفة.

وفي حجرة ضيقة ذات جدران بيضاء دخلت العمال.. واحدًا وراء الآخر، كان
الحماس باديًا على الوجوه رغم شدة التعب.

وفي الركن وقف فرج أفندي، وتكلم كلمات قليلة مقتضبة، إذ قال: - إن
الحالة أصبحت من الصعوبة بحيث لا تحتمل.. يجب ألا تتأخر دقيقة واحدة نحو
العمل في كتابة الشكاوى ولا شيء غير ذلك!

واعتدل في وقفته، واسترسل قائلاً: - كنت بالأمس كلما تطلعت إلى ناصية
شارع البهلوان وجدت العمال تدخل وتخرج، كنت أستشعر أن الوقت قد حان
وأن ساعة الخلاص قد اقتربت، ولكن حدث غير ما كان أحد يتوقع.. بالأمس
القريب وعلى ناصية نفس الشارع كانت النقابة تعلوها لمبة حمراء.. النقابة
التي كان يرأسها ما يسمى بالنيل الذي أولته العمال الثقة، وكان موقف
العمال رائعًا، قابلوه أحسن مقابلة وهتافاتهم رجت الجدران.. كان هذا دافعًا
لي ولغيري ممن تخرجوا من المدارس الصناعية أخيرًا، أسرعوا بالانضمام
للعمل مع العمال، لم يكن أمامنا غير العمل جنبًا إلى جنب لأننا نشرب سويًا
من نفس الكأس.

ولوح بيده للواقفين، وأخرج من جيبه علبة سجائر، وأشعل سيجارة وأضاف: -
كنت بالأمس أكرهكم! أكره التطلع إليكم! كنت بالأمس القريب أعتبر نفسي
متعلمًا ولا يجب لي ولا لأمثالي ممن تعلموا الاقتراب منكم ولا السير معكم
في الطريق باعتباركم جهلة! هكذا قد تعلمنا في المدارس! وعندما تقدمنا
بأوراقنا للمصنع، وقبل أن نتسلم العمل قيل لنا هذا أيضًا.. قيل لنا عاملوا

هؤلاء بغلظة، عاملوهم بالعنف، لا تضحكوا في وجوههم، لو فعلتم غير هذا لعجزتم عن إدارة العمل.. واليوم أحب أن أعترف بعد أن عشنا فترة بينكم أنكم عمال طيبون، تحبون ولا تكرهون، كثير منكم قد رأيتهم يتقنون العمل ويشغلون بحماس، عيونكم لا تبتعد أبدًا عن العمل، تلمحون كل ما يعيقه وتصلحون كل ما أفسد.. إني قد رأيت هذا بوضوح!

وتلفت حوله وأضاف:

- وأستطيع أن أقول إن الكثيرين منكم استطاعوا أن يعرفوا خبايا الممكن أكثر ممن تعلموا! أقول هذا الآن بعد أن رأيت بعيني! إن السير معكم أفضل بكثير ممن يعتبرون أنفسهم متعلمين!

قال هذا وصمت.. ثم عاد قائلاً:

- لا علم إلا علم الحياة.

وتمشى في الحجرة وهو يقول:

- إذا كان هناك الكثيرون ممن يتصرفون بعقلية المتعلمين فسوف يعرفون يومًا أنهم بتصرفهم هذا إنما يجلبون لأنفسهم المتاعب، وسوف يعرفون هذا مؤخرًا! إن حياتنا مشتركة، إن شبح الموت يقترب رويدًا رويدًا، وأصبح من الواجب إبعاده!

وختم كلمته قائلاً:

- ولن يبتعد الموت إلا إذا عمل كل منا، وما جئنا اليوم إلا من أجل هذا العمل.

وكادت العمال تصفق، كادت أن تصفق طويلاً، ولكن مصطفى محمد زمجر
فيهم قائلاً: - يجب ألا يعرف أحد ما قاله فرج أفندي، ويجب أيضاً ألا يعرف أحد
في أي مكان نجتمع.

فامتنعوا عن التصفيق بالأيدي، ولكن القلوب كانت تواصل التصفيق.

وقبل أن نخرج تلفت فرج أفندي وقال: - سأكتب الشكوى.. سأكتبها في البيت
على مهل.. كل من يعرف الكتابة فليكتب إلى أن تضاء الللمبة.. تضاء من
جديدا!

دعوة لمصر الفتاة

ومرت الأيام، وابتعدت عن بعضها بعضًا، وازدادت تباعدًا.. وبينما كنت متجهًا إلى المنزل في مساء إحدى الليالي بعد انتهاء نوبة العمل، وبجوارى كان الولد الغريب والولد السيد الصفطي يقولان: - نفسنا نستريح يوم! تعبنا خالص! تعبنا من الشغل!

كان هناك جمع من العمال بجوار أحد المنازل، والجمع يزداد ويتكاثر، ومن بعيد كانت شعلة من النور تطفأ ثم تشتعل.. كان الولد الغريب يقول: - تعالوا لما نشوف.

وفي وسط هذا الجمع كان رجل يجلس القرفصاء واضعًا رأسه بين يديه يواصل القيء من شدة السعال.. سعال متواصل، وتزاحم الجمع، ودخلت وسط الجمع الصامت والهدوء العميق، وجلست أمامه.. حاولت أن أتبين وجهه لكنني لم أتمكن من معرفته.. كانت خصلات شعره السوداء تتدلى على وجهه، وشفثاه مفتوحتان، وعيناه تبرقان من شدة ما انتابه من السعال.. وإذا بصوت يشق الظلام الدامس: - واحد ياخده من إيده!

- واحد ياخده ويمشي! مفيش حد من بلده؟ إنت ساكت ليه على نفسك؟ ساكت ليه لدلوقت؟! امسح يا جدع الطراش ده!

وبينما كان العامل الجالس يتنفس بصعوبة، وإذا بصوت حزين: - فيه دم! وتأوه العامل المريض، قائلاً بصوت لا يكاد يسمع: - واحد ياخدني من إيدي! اسندني يا جدع!

قالها في حزن أحزن الواقفين، وعندما تطلع الجمع إلى وجهه انتابتهم
انتفاضة شديدة، وقال أحدهم: - بتشتغل فين؟

- في الكرد.

وتمتم آخر:

- سل.. سل.. كل الناس اللي في العنابر دي عيانة بالسل!

وانتشرت همهمة بين الواقفين، بينما وقف العامل مستندًا إلى أحد الحوائط،
يمسح العرق المتصبب على جبينه، ويرفع خصلات شعره الجافة إلى الورااء..
واقترب منه أحد الواقفين: - ما تروح المستشفى! سايب نفسك ليه؟

- رحت.. رحت قبل كده.. الحكيم طلّعني.. طلّعني م الزحمة.. مفيش سراير
هناك فاضية.. هوّ قال كده!

ورد آخر:

- هيّ حتلاحق؟!

واقتربت من وجهه متأملًا، بعد أن رن صوته في أذني: «آه.. لقد عرفته!».
وكدت أن أتجمد في مكاني.. وخرجت الكلمات متلعثمة: - دا إبراهيم.. إبراهيم
نوار!

مالك يا إبراهيم؟ مالك؟ إيه اللي جرى لك؟

لكنه لم يرد.. فاقتربت منه وهمست في أذنه: - إبراهيم.. إنت مش عارفني؟

فضغط على يدي لكي أسكت.

آه.. لقد كان العامل الذي اتجهنا إلى حجرته.. ذات يوم اتجه معنا إلى
الخبيزة.. هُوّ.. هُوّ بعينه بتاع محلة البرج!

وبينما كنت أتأمل وجهه متذكراً، انتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة تزكم
الأنوف.. شيء يحترق.. ومن جديد ساد الظلام والسكون الشارع كله كأنهما
يتربصان لسماع كلمات العامل المبحوحة وهو يهمس في أذني: - أنا باشتغل
باسم غير اسمي.. غَيْرته.. غَيْرته لما اشتغلت في عنبر ثاني بعد ما انفصلت
في المرة الأولى.. راح أعمل إيه؟ كان لازم أعمل كده ما دام ما عندناش
شغل في البلد!

قلت:

- ما اشتغلتنش ليه في عنبر ثاني؟

- قسمتي!

واستند على كتفي، وأخذته من يده، وسار يترنج بجانبني، ولم يستمر طويلاً
في السير، فتوقف وهو يطوي ركبتيه.. يطويهما في حذر شديد، كأنه يخاف أن
تنكسر، ثم فرد كلتا يديه يمسح العرق عن جبهته حيث يرمي شعراً جافاً عديم
الحياة إلى الخلف، فاضطرب كل ما يحيط به، وترنج.. والتفت إلى الناس من
جديد، وانطوى على نفسه متوجعاً، وانتابته نوبة عنيفة من السعال.. أفسح
الواقفون له لكي يتقياً من جديد، وإذا بأصوات ترتفع: - شيله.. شيله.. شيله..
إسعاف.. إسعاف يا جدع!

بينما كان يضغط هو على يدي ويقول بصوت حزين بالك: - لا.. لا.. ما تسبينيش!

وعلى تلك الأصوات الحزينة خرجت امرأة شابة من المنزل المجاور، امرأة
سمراء ذات شعر مضر: - شيلوه.. شيلوه يا رجالة.. شيلوه جَوَّه.. آه يا
خرابي! يا قلب أمك يا ابني!

وهي تخط على صدرها:

- ع الغربة وعلى أصحابها! ع الشركة وعلى يوم ما جات! دخلوه جَوَّه يا
جدعان.. جَوَّه الأوضة على السرير.

وبينما كانت المرأة تهزول.. كان هو يضغط على يدي: - إوعى تسييني! ما
تسيينيش!

وانكسر صوته الحاد المرتفع كثيرًا والهادئ في الوقت نفسه، واستدار إلى
الحائط، وراح يعث في شفثيه في عصبية شديدة وهو يراقب الواقفين بعينين
ثابتتين لا ترمشان، وأسرعت المرأة تفتح الحجر، وإذا بأجراس تدق «ترن..
ترن.. ترن».

وكانت عربة الإسعاف، واجتذبه من أيدينا.. حاولت أن أركب معهم، لكن
الرجل بالبنطلون الأصفر ذي الأزرار النحاس اللامعة دفع بي جانبًا دفعة
ألصقتني بالحائط.. بينما كانت يدا إبراهيم نوار قد ماتتا على جلبابي، ورأسه
قد مالت على كتفي: - لا.. لا.. ما تسيينيش! أموت هنا.. أموت هنا لأ.. مفيش
حد من بلدنا!

لكن أيدي الرجال كانت أقوى من يدي المريض المحتضر.. وسارت العربة
دون أن أركب، سارت تشق طريقها وسط الشارع المزدهم الصاخب: «ترن..
ترن.. ترن».

وتجمدت الناس.. كل الناس متطلعين بعيون حادة للعربة وهي تبتعد بعيدًا..
وانعقدت الألسن، وسبحت الأفكار، سبحت لتبحث لها عن طريق، وساد
الصمت.. بينما كانت أصوات الأجراس ترن، كان هناك صوت ينطلق في الجو:

عليل يقول للطبيب

إمتى أطيب وامشي

واسيب بلاد السل يا طبيب

واكل بصل وامشي

وسرت ساكنًا غارقًا في التفكير في العامل الذي قد عرفته، ولم أتمكن من
الذهاب معه.

وفي الصباح اتجهت كالعادة، اتجهت للمصنع شاردا الذهن لما رأيته بالأمس..
وبجوار المكن وقف أحد الميكانيكية الجدد، سالم طلبة، وقد لمحت من عينيه
الواسعتين ووجهه المحتقن الأسمر كأنه يريد أن يقول شيئًا لي، فأدرت
الماكينات، واتجهت نحوه، فإذا به يسألني: - مين كان معاكم امبارح؟

- مفيش حد كان معانا امبارح.

- يبقى أول امبارح.

- ولا أول امبارح.

فحملك في وجهي:

- يبقى من مدة.

وأضاف:

- إنت بتخبي؟

وقد أدركت أنه يريد أن يعرف الاجتماعات، فأردت إخفاء الحقيقة عنه.. إنه يريد أن يعرف مَنْ من الميكانيكية الجدد كان معنا، فأثرت الصمت، فبادرني سائلاً بصوت رن في أذني: - إنت خايف؟

- حاخاف من إيه؟

- أمال مالك؟

- ما مليش!

فابتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه وقال مداعباً: - إنت فاكر إيه؟ إنت شايفني باعمل حاجة؟ باعمل حاجة مع حد؟

- لا.

- أمال ليه خايف؟ خايف من إيه؟

- حاخاف منك ليه؟

فعاد يقول بصوت حاد:

- هُوَّ فرج أفندي قال لكم على حاجة؟

- لا.. لا.. لا والله العظيم ما حد قال حاجة!

ونظر لي متفحصًا، وخبط بالمفتاح على رف الماكينة، واسترسل قائلاً: - وانت
راح تعمل إيه؟ حتعمل إيه بعد النقابة ما اتقفلت؟

- حنكتب شكاوى.. نكتبها للحكومة.

فأغمض إحدى عينيه وقال:

- الحكومة!

قالها متهكمًا:

- حكومة؟ حكومة إيه؟! هيَّ الحكومة عملت حاجة؟! ما هي سايبانا! سايبانا
طول عمرنا في الشقا! لا راح تعمل ولا حتسوي!

قلت:

- أمار راح نعمل إيه؟

فأوماً برأسه وهزها طويلًا، ولم يجب، فأعدت القول: - نكتب.. نكتب.. كل يوم
نكتب.. والظرف اللي ما يصيبش يدوش.. هوَّ فيه حاجة تانية نعملها؟

فارتكن إلى المائدة وضم رجليه وقال: - ما تيجي وبيانا.

- آجي وياك فين؟

- معانا.. حزب مصر الفتاة.

قلت:

- هَوَّ الحزب ده راح يعمل حاجة؟

- حيعمل من أجل الاستقلال.. استقلال البلد م الإنجليز.

- ما فيه حزب الوفد.. فيه سعد والنحاس، إخواني بيحبوه، وبلدنا كلها وباه.

- ما تيجي انت وبيانا.

- أخويا يضريني!

سمع هذا وابتسم وأضاف:

- إنت منين؟

- من طنطا.

- أمال ليه دورت الجري ع النقابة؟ ما خفتش من أخوك ليه أمال؟

- هيَّ النقابة زي الحزب؟ النقابة حاجة تانية.. الناس راحت فيها كلها.. راحت

مع عباس حلیم اللي راح يكتف الرؤساء ويمنع الظلم ويجيب دية اللي
بيموتهم المكن وحيفتح لنا دورة الميه ويقلل ساعات العمل الطويلة. ده اللي

خلاني رحت معاه!

فرد مبتسمًا:

- واهو يا عم ما جاش! وأدي احنا كمان بطلنا نروح!

ثم هز رأسه في بطاء، وقال بصوت ممطوط: - يعني انت مع إخوانك؟

قلت:

- أيوه مع إخوانتي.

فابتسم وتركني ذاهبًا وهو يقول: - تعال.. ما تخافش.

وجاء عبد العظيم يجري.. وفي ذعر قال: - مالك؟ بيقول لك إيه؟

- بيقول لي تعال وبيانا حزب مصر الفتاة.

- بس؟! ما قالكش غير كده؟ ما قالكش حاجة تانية؟

- سألني راح نعمل إيه.. قلت راح نكتب شكاوى للحكومة.

فمد عبد العظيم يده لي وهو مشرق الوجه: - أهو كده.. كده الشغل.. إوعى يوقعك.

أحاديث الحب والزواج

كانت مواسير اللحمية قد انتهت، فوضعت المكوك على الدرج، ورفعت اللوحة على كتفي لتغييرها.. وكانت الساعة الثانية عشرة إلا ربع ظهرًا، وإذا بي أجد نفسي وجهًا لوجه أمام جيش العاملات الخارج.. الخارج للغداء، فالتصقت بالحائط قاذفًا بالألواح على الأرض، وأخفيتها بين قدمي، وشبكت يدي على صدري.. فعلت هذا بسرعة نادرة لكي لا يرينني.. كنت راغبًا ألا أخيفهن مثلما كنت أفعل ذلك من قبل. وازددت التصاقًا بالحائط، وكانت العمال تتطلع من خلال الأبواب، والبنات تسرع الخطى مهرولات في سيرهن، وعيناي لم تكن تبحث إلا عن محاسن، وإذا بها تأتي متأخرة.. بعيدًا عنهن، تخفي وجهها بملاءتها السوداء، فاندفعت دونما إرادة سادًا عليها الطريق، فأشاحت بوجهها جانبًا، وأسرعت بالسير في الجانب الآخر دون أن تنبس بكلمة، وأسرعت خلفها أيضًا إلى الجانب الآخر ماذًا ذراعي محاولًا إعاقتها عن السير.. فحاولت أن تغلت من تحت ذراعيّ المثبتتين بالحائط، وكانت الدموع تملأ عينيها.

قلت في حزن:

- بتعيطي ليه؟

- سييني! ابعدي عني!

- أنا مش عايز منك حاجة.. مش عايز حاجة والله!

- سييني! سييني في حالي! سييني باقول لك!

- بتعيطي ليه؟ حصل حاجة؟ أنا غلطت! غلطت لأنني ضربتك! إنت زي أختي!

- ابعء عني! ابعء عني باقول لك! ابعء عني دلوقت! أنا باعيط ع اللي جرى لي!

- إيه اللي جرى لك؟

- اتخضم لي يومين.. خصمهم المباشر!

وقذفت برأسها من تحت ذراعي، وأسرعت خارجة، دون أن أعرف من هو هذا المباشر ولا حتى هذه الغرامة، وقلت في نفسي، وأنا متجه داخل العنبر: «إنها من مباشر - بلا شك - أراد إخضاعها له.. من المحتمل أنه حاول أن يمسخ بإحدى ذراعيها العاريتين.. إنها بلا شك قد تكون رفضت، وبهذا يكون قد استغل سلطته! ومَن هو هذا المباشر يا ترى؟ هل لي أن أعرفه؟ ولو عرفته.. ماذا أفعل؟ أضربه.. أضربه أنا والولد الغريب والولد السيد الصفطي.. نستناه برّه».. واسترجعت في الحال كلمات عبد العظيم لي: «إحنا راح نتحول لعصابات؟».. «أمال أعمل إيه؟ ما هي بنت».

وكنت قد وصلت إلى مكني، وعاد سالم طلبة ووقف بجواري.

وقلت على الفور:

- إنت لك أصحاب في عنبر الفانلات؟

- أيوه ليّ.

قال هذا وابتسم.. قلت:

- اعمل معروف باطلب منك طلب.

- خير إن شاء الله.

قالها في حماس.

- طلب إيه ده؟

- فيه بنت غلبانة.. غلبانة والله.. خصموا لها يومين.. وبتجري على إخواتها!

- تعرفها؟

- أيوه أعرفها.

- تعال معايا بعد الظهر وانا آخدك معايا هناك.

وفي الساعة الواحدة والنصف أخذني من يدي، وفي عنبر الفانلات تلفتت الأنظار إلينا.. أنظار العاملات ذوات الأذرع العارية وهن يرحن ويجئن كالعصافير المغلوبة التائهة وهي تنتلط من فرع لآخر باحثة عن القوت.. عاملات تعمل في جهد على الممكن، وأخريات تكنس الأرض بنشاط ملوحات بشعورهن إلى الخلف كلما تدلت على جباههن.

وتجمع المباشرون حولنا مادين لنا أيديهم. استمروا يتهامسون فترة وعيونهم لم تفارق العاملات، ملوحين بأيديهم نحو الجميلات منهن، وكانت العاملات أيضًا تختلس النظرات نحونا.. ينظرن خلسة من خلف أجناب الممكن، وقال سالم طلبة بعدها للواقفين: - لي طلب عندكم أرجو إجابته.

قالوا في نفس واحد:

- اطلب واحنا نجيب.

- فيه بنت هنا شغالة خصمتوا لها يومين.. أرجو رفعهم.. رفعهم عنها.

- غالي والطلب رخيص.. أمرك.

وهمس أحد الميكانيكية في أذن إحدى العاملات: - هاتي الدفتر من المكتب.

وخشيت أن يسألوني: من أين تعرفها؟

قلت في نفسي: «ماذا لو سألوني؟ وماذا لو سألوها هي الأخرى؟ حتقول بالتأكيد: «أنا ما اعرفوش»! ماذا يكون وجهي؟ يا رب ما حدش يسأل».

وفرحت جدًّا عندما أمسك أحد المباشرين الدفتر وبدأ يبحث عن الاسم المطلوب، وعيناي متجهة نحو محاسن، وتلاقت الأنظار، وحملت بعيني كالقائل: «لو سألوكي.. قولي أعرفه.. إحنا جايين نشيل عنك الغرامة.. لو سألوني حاقول أيوه أعرفها».

ولم أعرف ما إذا كانت قد فهمتني أو لم تفهمني.. وإذا بالمباشر يقطع تفكيري.

- اسمها إيه؟

- محاسن.

- محاسن إيه؟

- محاسن بس.

لأنني لم أكن أعرف اللقب استمر يفرز الأسماء، وفجأة لوح بيده.. لوحها نحو محاسن، فجاءت على عجل شاحبة الوجه تنتفض كأنها داخله على جهنم.. قال المباشر: - علشان خاطر دول.. علشان خاطرهم بس شلنا الغرامة.

هائزاً رأسه، معلقاً نظراته بصدرها الناهد وخدودها الحمراء وذراعيها العاريتين
البيضاوين وشعرها الأصفر المجدول الملفوف على الرأس.. واستطرد في
قوله ملتفتاً إلى سالم: - وصيها علينا.. وصيها والنبى.

وتهلل وجه البنت فرحاً عندما سمعت: «شلنا الغرامة».

وردت في كلمات سريعة وهي تنظر إلى وجهي:

- ربنا يخليكم! ربنا يستر ولاياكم وما يغلبلكوش ولية!

كانت تقول وهي لا تصدق أن الغرامة قد انشالت.

وأسرعت، ومن خلف المكن وقفت تمسح دموعها، ونظرت لها ملوِّحاً بيدي
وأنا في اتجاهي خارج العنبر.

عدت بعدها على المكن فرحان، وكأني قد قمت بعمل يكفر عما حدث من
قبل.. ولم أشعر بالدقائق ولا بالساعات من كثرة ما انتابني من تفكير، فيما
عسى أن يكون قد حدث، متمنياً أن أراها وتكون دموعها قد جفت.

وفي الساعة الخامسة والنصف اتجهت لرؤيتها.. كانت محمرة الخدين
باسمة.. سارت من أمامي هذه المرة دونما خوف هي وبقية العاملات.. سرن
كأنهن يعرفنني منذ مدة، وكن في سيرهن مطمئنات وشفاهن تتحرك.. لم
تكن عيناى متجهة في البحث إلا فيما في وجهها من دموع، وقد أغراني
صدرها البارز قائلاً لنفسى كلما تأملتها: «طاب وطلب الأكال».

واجتاحتنى رغبة ملحة في أن أسألها: «هل حدث شيء؟».

وتلفت حولي خائفاً من أن يكون أحد من الرؤساء قد رآني، وأسرعت
الخطى، فأبطأت هي في السير، وقد لاحظت العاملات ذلك.. فتوقفن فجأة،
والتفنن حولي داعيات: - ربنا يخليك! شلت عنها الغرامة!

كن بكثرة بحيث اختفيت وسطهن، شعرت بالخجل كلما أحطتني وكن يتكلمن
في نفس واحد.. واللي تقول: «ربنا ينصرك».. واللي تقول: «ربنا يقدرك على
الطيب».. واللي تقول: «تعال حوش عننا الغرامات نازلة على دماغنا زي
الرز».

وبكى بعضهن.. وزعقت أخرى بصوت حزين باكي:

- همّ ولاد الكلب الرؤساء والمباشرين يعملوا كده فيها؟! همّ فاكرين إيه؟
فاكرينا سايبين؟ فاكرين احنا ملناش أهل؟ هيّ اللي تحاول تحافظ على
شرفها تتبهدل؟!

كن يتكلمن منفعلات.. وقالت أخرى:

- لازم نبين لهم العين الحمراء! همّ فاكرين إيه؟ إنتو شفتم البنت الفلاحة لما
جه المباشر يمسكها من دراعها عملت إيه؟ نتشت دراعها من إيديه!

وجزت على شفيتها قائلة:

- لو كل البنات كده.. لو نعمل زيها ما كانش حد منهم اتجرأ!

وانتفضت محاسن في الوسط وهي ترفع ملاءتها:

- أصل فيه بنات مايعه! هيّ الكلبة لما تهز ديلها الكلب يجري وراها! إللي
تفشخ ضبتها، واللي تعوج له رقبتها، واللي تتقصع... ده هوّ اللي بيطمعهم فينا،

خلاهم يخربوا بيوتنا!

وأخرى تقول:

- ربنا يتوب علينا من خلقهم!

وبينما كن يتحدثن كان أحد الرؤساء آتياً من عنبر الفانلات، فتفرقن على الفور خارجات، وتمنيت أن أخرج.. أخرج خلفهن لأسمع منهن ما حدث، لكن الاختلاف في المواعيد كان حائلاً. واتجهت نحو مكني قائلاً لنفسي: «إن ما حدث لهن من غرامات إنما يرجع إلى رفضهن معاكسات الرؤساء».

وفكرت: «هل يقدرن على الاستمرار في المقاومة؟».

هذا هو السؤال. وانتهى اليوم ولم أجد إجابة له، واجتاحتنى رغبة ملحة أن أتجه إلى الدكان.. دكان القصب بحجة الشراء.

وفي الساعة الثانية مساءً اتجهت نحو هناك، وكان معي الولد الغريب.. سار بجانبني دون أن يسأل إلى أين نتجه.

وأمام المحل توقفت.. وكانت محاسن جالسة، وعندما رأتنى لم تتمالك نفسها، فهمت واقفة وهي تردد: - يا امه! يا امه! الجدع ده اللي جه وشال عني الغرامة!

كانت مفاجأة للولد الغريب، ولم يكن يعلم أن محاسن ذات الوجه الأحمر والعيون الخضراء تباع القصب في دكان.. كان يعلم غير ذلك من جمال منظرها، كما لم يكن يعلم أيضًا أنني قد رأيتها هنا من قبل.

وأمسكت بي أمها قائلة:

- اقعد.. اتفضل.

ودون أن تفكر كسرت أمامي أكثر من عود قصب، داعية: - ربنا يخليك يا
اخويا.. دي زي أختك.

وأكثر من الدعوات.

وكانت محاسن قد اختفت فجأة، جاءت بعدها مغيرة ملابسها وكأنها ذاهبة إلى
المصنع، مسرحة الشعر، مكحلة العينين، كدت ألا أعرفها مما بهرني من
جمالها، لكن أظافرها كان عالقا بها سواد من آثار زيت المكن، وجلست
قبالتي، واستمرت تكسر، وتتحدث في حضورنا.

وشعرت بميل نحوها يزداد.. فانتهزت فرصة بعد أمها وسألت.. سألت سريعا:
- بيعملوا إيه المباشرين جوّه؟

قالت:

- بيعملوا إيه؟ بيضربونا!

وتلفتت حولها، واسترسلت:

- بيخلوا الواحدة واقفة جنب المكن ويتحكوا فيها! ويعملوا إنهم بيدوروا المكن
وبمسكوا في صدرها!

وأخفت عينيها في الأرض وقالت:

- ولاد الكلب! إللي تحافظ على شرفها يضربوها! ويسيبوها مكنتها وبخلوها
تكنس الأرض!

قلت:

- مفيش حد هناك تشتكوا له؟

قالت:

- نشتكى لمين؟ كلهم زي بعض!

قلت:

- كل البنات كده؟

قالت:

- بعضهم، والبعض بيستسلم.. حيعملوا إيه؟ إذا كان الرئيس الكبير ساكت! ده فيه بنت اشتكت له، دفعها بإيديه وقال: «طفحوهم الدم».. حنعمل إيه بعدها؟

فعدت وسألت:

- ماهيتك كام؟

فصمتت لحظة.

- ماهيتي قرشين صاغ في اليوم.

قلت:

- جابوا لك الغرامة دي علشان إيه؟

فحملقت بعينيها، واحمرت وجنتاها:

- علشان ما رضيتش.. لقيته جه فبعدت.. كنت عارفة إنه راح يمسكني.

وسمعت صوت أقدام أمها آتية فآثرنا الصمت، وبقينا فترة ينظر كل منا للآخر.. وقبل أن أخرج سألتني أمها: - إنت منين؟

فقلت:

- من طنطا.

قالت:

- بلد السيد البدوي.. اللهم اجعلنا من بركاته.. ابقوا تعالوا.. تعالوا باستمرار.. دي زي أختك.. حافظوا عليها.. دي بنت ناس ما هياش سايبه.. الأيام بس هي اللي وحشة إللي خليتها تروح تشتغل في المصنع.. ربنا يوعدنا بابن الحلال اللي يهنيها.

سمعت هذا وخرجت قائلاً لنفسي: «لو رحت البلد راح أجيب لهم من أمي هدية.. فطير».

ولاح وجه أمي الحنون أمام عيني.. وسألني الولد الغريب: - مش هي دي البنت اللي انت ضربتها؟

فقلت:

- أيوه.. هي.

- وعرفت ازاي الدكان؟

قلت:

- من ساعة ما كنت مع مصطفى محمد.. يوم ما اتأخرت عنكم.

وكانت دهشتي عندما دخلت المنزل، وكنت أظن أن البيت قد نام، وأن لا أحد للآن سهران.. وكانت دهشتي عندما وجدت حجرات المنزل مضاءة، وقلل من الفخار على الشبايبك مغطاة بغطيان من النحاس الأصفر، وكنت وقتها عطشان.. وتوقفت أمام إحدى القلل.

«ولكن كيف السبيل لو مددت يدي.. قد تنده امرأة من الداخل لتقول لي سيب القلة.. ماذا أقول؟».

وفكرت وعيناي للقلل المليئة وهي تشع المياه منها والغطيان فوقها تضوي.. خيل إليّ أنها قد ملئت من بير زمزم الذي كثيرًا ما سمعت عنه ولم أره.. مياه تحيي العليل.. وفكرت: «أشرب؟ أمد إيدي؟ أكشف نفسي؟ مش معقول!».

وصلت مبيًا من العطش، وكان الولد السيد قد تعود أن يتركنا في كثير من الأوقات، وعندما رأني هلل في وجهي: - فيه جواب جالك.. جالك من البلد.. جالك هنا على البيت.. وكانت أم امتثال هنا دلوقت.

توقفت لسماع هذا.. لم يسبق لي أن رأيت ولا أن سمعت عن جوابات، ولهذا تلهفت قائلاً: - فين؟ فين هوّ؟

ولم يمهلني، وقد قزح السلم ولم أعرف إلى أين يتجه، ولم تمر لحظات إلا ودخلت علينا الأم موردة الخدين باسمه، بنفس الفستان الذي جاءت به ذات يوم، جلست على طرف الحصيرة كالعروسة الحلاوة، خيل إليّ أن كل شيء

على جسمها يضوي.. كنت أرى من خلال ضوء اللمبة الخافت، وكدت أسب
وألعن لتأخري في الخارج.. وإذا بها تزعق: - كنتوا فين يا ولاد؟ ما كنتوش كده!

فرد الولد الغريب:

- النقابة.. النقابة بتأخرنا.

فردت الأم قائلة:

- نقابة إيه؟ نقابة إيه اللي واخدة عقلكم؟ هي بنت؟

- هاهاها.. هوّ فيه بنت اسمها نقابة؟ النقابة اللي عملها عباس حليم وانقفلت.

- هاهاها.. هوّ انتم إيه؟ هوّ انتو قرود؟ تعال هنا.. تعال اقعد جنبي.

وجذبتني من جلبابي، وفي شوق أمسكتني من طوقي، وكادت أن تلف يدها
على رقبتني.

- هيّ أمك في البلد وانت هنا راح تدور على حل شعرك؟! بقى لنا أكثر من
شهر ما شفناش وشك!

وقرصتني في خدودي.. والولد السيد الصفطي يقول: - أهو كده.. اقرصيه!

وبعد أن هدأنا من الضحك قالت الأم:

- خد.

وهي تضع يدها في صدرها.

وكان الجواب ينبعث منه رائحة أنعشت جسدي، فأعدته من جديد على أنفي، ومررته من جديد مرات، وفي كل مرة كنت أقول: «الله! الله!».. هازًا رأسي، وكانت الأم تضحك كلما قلت «الله! الله!»، ومن كثرة الضحك سحبت الأم يدي، واستمرت تداعب أصابعي وتضغط عليها ضغطًا مستمرًا، وتراخت يدي ونامت على فخذها، وحاولت في هدوء أن أرفع يدي خوفًا من أن يراها أحد، ولكن يدي الأم قد ماتت عليها ومررتها على وركها في عصبية وهي تزعق: - ما تقرا الجواب.. اقرا وقول لنا فيه إيه.. وطمننا.

وردت امثال:

- أنا اللي استلمته.. استلمته الصبح.

فسحبت يدي وأمسكت بالجواب.. ومن جديد عادت الأم وأمسكتني من يدي، وضغطت عليها، وجذبت كتفي، وأجلستني أمامها، والتصقت بكل صدرها بي، وكلما أحنيت كتفي نحو الأرض خجلًا مالت هي الأخرى بكل ثقلها.

وأحسست بدفع أعقبته رعشة ملكتني كلي.. رفعت كتفي بعدها والتصقت تمامًا بها، وقرأت.. وكان الجواب من أمي.

قالت الأم وهي تدفعني إليها:

- قول.. زعق.

ولكن الجواب مكتوب بخط منعكش لم أستطع قراءته، فهيمت واقفًا محاولًا قراءته على ضوء لمبة الغاز بالحائط، ولكن الأم جذبتني إليها جذبًا وهي تقول: - قومي يا امثال.. قومي هاتي اللمة.

وعلى هذا الضوء استطعت أن أتبين كلمات قليلة مقتضبة موقعًا عليها اسم
أمي: ابني الحبيب..

إلى من أحبه وأهواه، وفي الحب دائمًا لن أنساه.

ابني..

منذ فترة ونحن في قلق.. لم يصلنا أخبار مطمئنة، بل وصلنا أخبار أنك تدور
على حل شعرك، وكل يوم يمر ولا نراك وكأنه سنة كاملة، وخاصة عندما
أسمع أصوات من كانوا يلعبون معك في الشارع.. إنني كلما سمعت هذا -
وكنت وقتها باكل - انسدت نفسي عن الأكل.

صورتك لم تبحر خيالي كلما ذهبت إلى الغيط أو نمت.

الأخبار اللي سمعتها أقلقنتني وأقلقنت إخواتك ولا مجال للكتابة عنها هنا.

إخواتك بخير والحمد لله. معزة أختك خسكية ولدت أربعة. أما من جهتي فأنا
كل يوم جمعة باطلع م الفجر على التراب كما كنت أفعل دائمًا لزيارة
المرحوم والدك، وأقعد من الفجر لحد الصبح على التربة علشان أوريه
نفسي، وأقرأ الفاتحة نيابة عنك، وباكسر العيش وبافرده على التربة، وبأدي
للعيال الصغيرين قراقيش.. رحمة ونور على روحه. وأنا يا ابني العزيز في
انتظارك على شوق.. إنني أخشى أن أموت وأتركك تتهدل.. كل إخواتك
اتجوزوا وما بقاش إلا انت.. إنني لا أستريح إلا إذا تزوجت. احضر حالًا لتريح
عن قلبي المخاوف والأحزان.

أمك

وأغلقت الخطاب، وجلست شارداً الذهن، قائلاً في نفسي: «ومين حيقول لها غير الولد الغريب، والولد السيد الصفطي؟ أنا عارف إنهم متغاضين مني! كثيرًا ما سمعت منهم أنهم سيبلغون أمي كلما رأوني أتكلم مع امتثال أو أمها».

وقد لاحظت الأم شحوب وجهي، وطببت على كتفي قائلة: - مالك؟

- مفيش!

- تفتكر مين قال لهم؟

- مش عارف!

- طب معلهش.. تعال وبايا وما تزعلش!

وأخذتني من إيدي، وخرجت معها على فوق.. وفي المطبخ أجلسني وقالت في همس، وهي تضع أطراف أصابعها على رأسي: - إنت حترّوح وحتقول لهم إيه؟

قلت:

- هوّ انا عارف؟ عارف إيه اللي سمعوه؟

- مين اللي قال لهم؟

- لازم الولد الغريب والولد السيد، هما دايماً كانوا بيقولوا راح نقول لأمك!

- تفتكر قالوا لها إيه؟

- مش عارف! لازم قالوا لها على النقابة، أو عن سهري في الخارج!

- تفتكر؟

قلت:

- أمال راح يقولوا لها إيه؟

قالت:

- همّ شافوك بتتكلم مع امثال؟

- طبعا شافوني.

- إنت بتحبها؟

فسكت خجلاً.. لم أستطع الإجابة.. فكررت السؤال، فلم أجب أيضاً.. فجلست بجواري وألصقت كتفها بي: - إنت بتحبها؟ إذا كنت... أجوزها لك.

قلت في خجل:

- هوّ انا أد المقام؟ أنا عامل وانتِ...

قلتها وسكت، فضمتني إليها:

- وإيه يعني؟ هوّ انت راح تفضل كده؟

قلت:

- دي عاوزه مهر كبير وانا ما اقدرش!

- أحوشهولك أو أدفع لك من معايا.

فانفرجت أساريري، وكانت امتثال قد دخلت علينا ولمحتني أبتسم، وقد لاحظت أمها تكلمني، فوقفت ساهمة بجوار الباب، وزعقت أمها: - اخرجي يا بت اعلمي قهوة!

واستمرت الأم تحدثني:

- أمك راح ترضى؟

- أقول لها.

قالت:

- هيَّ راح تقعد معاك هنا.

قلت:

- أمي راح تاخدها معاها في البلد.. إخواني البنات اتجوزوا وأمي عاوزاها، عاوزاها تساعد في البيت!

قلت هذا وسكت، وكانت امتثال قد دخلت ومعها القهوة، واستمرت واقفة، وهميت بعد أن شربت بالوقوف، وهمست الأم في أذني قائلة: - خليك صاحي.. لا تنام.. لا تنام إلا لما آجي لك.

ولم تمر لحظات إلا وقد حضرت، حضرت وكأنها قد عرفت سبب تجهمي لأن ميعاد القبض لم يكن بعد قد حان، وعليَّ أن أسافر، ولأنها أيضًا كانت على علم بما بيني وبين أمي من حب ولن أؤخر لها طلبًا.. فأسرعت بمد يدها

وأعطتني ما يوازي ما كنت أقبضه، وقالت بصوت ناعم: - روح علشان تبقى
مطمئن.

وتلفتت وكأنها تقول للولد الغريب والولد السيد الصفطي: «يا ملاعين! إنتو
السبب!«.

واستدارت الأم لي، ولمحت في عينيها بريقًا يلتهب وكأنها تريد أن تقول لي
شيئًا، ثم انطلقت مسرعة كأنها خشيت أن تعود إلى الكلام.

وفي الصباح أرسلت بورقة مع الولد الغريب طالبًا فيها إجازة ثلاثة أيام، وقبل
أن أخرج للسفر جاءت امتثال، ووقفت أمامي مستندة بذراعها على الباب،
وكنت وقتها ألبس جلبابي الحريري، وبعد أن خرجت من الباب توجهت إلى
ووقفت قبالي، وقد أطاحت بشعرها إلى الخلف وأسبلت إحدى عينيها،
وقالت في صوت رقيق ناعم: - إنت حتسافر؟

قلت:

- أيوه.

- راح تقعد هناك كام يوم؟

قلت:

- يومين أو ثلاثة.

- بحالهم؟

- أيوه.. أمال عاوزاني أقعد هناك كام يوم؟

ففرت الدمعة من عينيها وهي تعد على أصابعها: - الخميس.. الجمعة..
السبت.. أف!

وعادت وعدت من جديد على أصابعها ثلاثة.

- ثلاثة بحالهم؟

وأطرقت برأسها في الأرض وأطبقت رموش عينيها وهي تردد: - ولا يوم! ولا
يوم!

وكان البيت كله في هدوء بعد أن خرج كل سكانه، فأخذت كل ما كان معي
من أشياء وخرجت، وإذا بصوت هامس يهرول خلفي: - فكري.. فكري.

فعدت أدراجي حيث كانت امثال تمسح دموع عينيها، فاقتربت منها واضعًا ما
كان معي من أشياء على الأرض، ونظرت حولي في بلاهة: - إيه؟

- إنت حتسافر؟

ومطت بوجهها نحوي كأنها تقول...

فاقتربت منها مآدًا يدي وأنا أردد:

- يومين.. يومين أو ثلاثة.

وفكرت فيما يمكن أن أفعله لكي أدخل في نفسها البهجة.. وكان الهواء
الخفيف المنبعث من أعلى أسطح المنازل يداعب شعرها المنكوش، ورفعت
رأسها في بطاء، وانهمرت من عينيها دموع كثيرة حتى نزلت على صدرها،
وقالت في لهجة توسل: - توعدني إنك لن تتأخر!

وكان جو البيت هادئًا، وتقدمت منها، ولمست يدي كتفها العاري، وملست على شعرها بيدي، وقبّلتها مرات، ولم تبعد يدي كما كانت تفعل من قبل.. ولم أتركها إلا بعد أن سمعت أصوات أقدام آتية، فابتعدت عنها خطوات، وعدت وتقدمت منها مادًا يدي، فطبّطبت عليها وهي تقول: - ما تنساش تيجي بسرعة! إوعى تتأخر!

واتجهت إلى الباب، ولكن صوت امثال رن في أذني: - لا تنس تسلم لي على إخوانك.

عدت أدراجي، ونظرت إليها في ضيق، وكان وجهها في غاية الاحمرار، وانتهزت فرصة عدم وجود الولد الغريب والولد السيد الصفطي، فخطر في بالي ألا أسافر، وأحسست أن هذه فرصتي: «لَمْ لا أبقى».

ولكن حبي الشديد لأمي غلب على كل شيء ودفعتني للسفر، فأسرعت بالهروب.

وكانت الشمس مشرقة خلف المنازل البيضاء، وهبت نسيمات رقيقة ملأت خياشيمي برائحة الخبز الساخن الخارج لتوه من المخبز، وكان الناس مسرعين بادية على وجوههم آلام التعب.

آه لو عرفوا ما حدث

وفي القطار جلست في مقعد إلى جوار امرأة سميحة تخرج بين الحين والحين قطعة من الحلوى من شنطة بجوارها وتمصص فيها، وفي المكان المقابل كان يجلس رجل يلبس جلبابًا من الكشمير، وعيونه تنظر دائمًا من الشباك متطلعًا إلى الأرض الخضراء التي يطويها القطار طيًّا.. وأحسست بالوحدة، وانتابنتي الهواجس: «يا ترى مالها؟ عيانه؟ لم تتعود أن ترسل لي مثل هذه الخطابات! هل يمكن أن يكون مكروه قد ألم بها أو بأحد من إخواني وحاولت إخفاءه؟ لم تذكره في هذا الخطاب؟ أم يا ترى سمعت شيئًا عني؟ لا أظن أن يكون هذا هو السبب».

وهزرت رأسي لكي أطرد هذه الهواجس وأخذت أردد لنفسني: «يا خبر بفلوس بعد ساعة ببلاش».

وكانت عجلات القطار تطوي الأرض، وعندما توقفت أسرع بالانزول، وكان عليّ أن أقطع المسافة من طنطا إلى قريتي على قدمي بعد أن بحثت في الأماكن التي كان من الممكن أن يكون بها أحد من إخواني أو أقاربي يبيع بيضًا أو جبنة أو سمنة أو يشتري بعض ما يحتاجونه.

وكان الجو شديد الحرارة، حتى إن كل ملابسني ابتلت بالعرق، ودهشت حينما وجدت باب منزلنا مغلقًا بالمفتاح، وفكرت أنه ربما تكون أمي في الغيط.. وفي أي غيط هي الآن؟

وبينما كنت غارقًا في التفكير فإذا بالبنت هنا بنت الحاج محمود الصيرفي تخرج من المنزل المجاور، وعندما رأته صرخت عائدة إلى الداخل: - يا امه..

يا امه زينب.. فكري.. فكري جه.

ووقفت على الباب أمسح العرق المتصبب على وجهي، بينما كانت أمها تخرج وتفرك يديها من بقايا العجين.. وعندما رأته مدت يدها الملفوفة في شاشتها، مرددة: - حمد الله ع السلامة.. أمك في الغيط.. ملكش حق تقف ع الباب.. لا تقف كده لوحدهك.. هو انت غريب؟ ليه ما جيتش؟

وفي نفس الوقت شدتني من يدي طالبة مني أن أدخل إلى البيت، ولكني رفضت، وأخرجت منديلاً حريراً من جيبتي، وكانت تفوح منه الرائحة التي سكبتها امتثال عندما كانت في الحجر، فنفدت إلى خياشيم أم البنت هنا، فوقفتم تشم وهي تقول: - الله! الله! إيه الريحه الحلوة دي؟ حط لي شوية!

روايح المحلة الكبيرة جات.. هات.. حط شوية!

كل ذلك تقوله بينما تجذبني من يدي محاولة إدخالني إلى المنزل بينما تنادي ابنتها قائلة: - افرشي يا بت الحصيرة ع المصطبة.

وفي تلك اللحظة كانت أختي خسكية تدخل من أول الحارة، فجرت إليّ وهي تردد: - آه يا اخويا! آه يا اخويا! فين أمي؟ هي ما جاتش؟

فأخذت أتلفت حولي.. وكانت نسوة عديدات قد التفتت حولنا، يحاولن جذبني إلى منازلهن حتى تأتي أمي، وإذا بأختي خسكية، تنط من أحد البيوت المجاورة لبيتنا، وفشت الضبة من الداخل، وفرشت الحصيرة في حوش البيت.

وجلست أستريح من الحر، ولم تمض فترة طويلة إلا وكانت أمي قد جاءت، وشقت طريقها وسط الناس مطوقة إياي بذرعايها، وقبلتني مرات عديدة،

واستمرت دقائق وهي تردد: - آه يا ابني! هات إيدك يا وله.. هات إيدك حطها على قلب أمك.. شوف بيعمل إيه؟ بيرفرف ازاي؟ ليه بس يا ابني ملودنا؟! هيَّ أمك ناقصة؟!

وعادت تضميني إلى حضنها من جديد وهي تقول:

- إنت أكلت؟ قومي يا بت هاتي لأخوكي.. هاتي له لبن يطري ريقه من الحر.. إنت جاي في الحر دلوقت ليه بس؟!

فردت أختي قائلة:

- الجواب بتاعك جابه على وشه.. أنا مش قلت لك يا ولية لا ترسلي.

فردت أمي:

- هوّ انا أعمل إيه؟ شورة أخوكي السوداء! ما قلت له بلاش! قال لي ابعتي له! أهو جه يا عيني في عز الحر! هوّي يا بت.. هوي على وشه.. هوي له بالطرحة.

وبينما كانت أختي تهوي لي كانت أمي تحملق في وجهي قائلة في صوت هامس: - كنت فارق شعرك ودخلت براسك عريانة كده؟

وهمهمت:

- هوّ احنا ناقصين بلاوي؟! هاتي لبدة أخوكي يلبسها يا بت!

وأضافت:

- هُوَ احنا ناقصين حد يتكلم علينا يقول ابن السيدة البناية راح المحلة الكبيرة
رجع فارق لنا شعره.

ولكن أختي خسكية ردت في صوت ناعم:

- ما تسيبيه يا ولية.. خليه.. إوعى تنعكشه يا وله.. خليك كده حلو.

وكان أخي محمد قد حضر هو الآخر:

- حمد الله على السلامة.. حمد الله على السلامة.

ولم تمر دقائق إلا وكانت رقية قد حضرت بجلابها الشيت المنقوش، وثديها
بارزان من خلال جلابها الواسع، وخلعت شاشها الأسود وكومته في يدها،
ومسحت قطرات العرق الجارية على وجهها، وقالت في لهفة: - افسحوا لي..
افسحوا لي أقعد جنبه!

قالتها بصوت ممطوط ناعم.

- إنت حضرت إمتى؟ أنا لسه جاية من الغيط دلوقت وسمعت في السكة..
كنت رايحة بالأكل لإخواتي.. النهارده إيه يا امه السيدة؟

فقال أمي:

- النهارده الأربع.

فردت رقية:

- النهارده الأربع.. ده جاي في غير ميعاده! إنت جيت بدري ليه؟

فقال أمي:

- إحنا بعتنا له.

فأمسكت رقية الطرحة، ولوحت بها أمام وجهي قائلة:

- النهارده حر موت.. مفيش ولا نسمة هوا.. الغربان هربانة من الحر.. هاتي يا بت يا خسكية شوية ميه ورشيمهم في الحوش وقدام الباب.. خلي الطراوة تيجي.

وأضافت:

- تقوم معايا على البيت.

فقال أمي:

- سيبه يا بت قاعد.. يقطع الحر وأصحابه.

وما إن أحضرت خسكية اللبن والعيش حتى قامت رقية من جوارى وكذلك باقي النسوة، وقلن: - لما تبقى تاكل نبقي نيجي.

وكانت الفرحة تطل من عينيها وأنا آكل.. وسألتها عن سبب إرسال الجواب.. فقال محمد: - كمان شوية حتعرف.

قالها بصوت حازم هادئ.

وفي المساء تجمع كل إخواني، ولاحظت أن نظراتهم تفضح تساؤلهم عما أحضرت لهم من هدايا من المحلة الكبيرة، فأسرعت بالقول: - أنا جايب

منديل لكل واحدة منكم.. وأختي خسكية جبت لها صابونة ممسكة.

فأسرعت خسكية إلى الداخل، فدخلت رقية في التو، فقلت بصوت مسموع:
- رقية لها منديل وباكم.

وعندما سمعت رقية ذلك كادت أن تحتضني لولا وجود إخواتي.. فكررت قولي
لها: - اختاري اللي يعجبك.. أحسن واحد فيهم.

وأسرعت أُمي قائلة لخسكية:

- إديها يا بت من الحاجات اللي أخوكي جايها.. مش خسارة.

فرفضت أن تأكل ما أعطتها أختي من أكل.. فلافل وطحينة، وقالت: - أنا
آخذهم لأُمي تاكلهم معايا.

وقالت لي:

- ابقى تعال عندنا.. أُمي مستنياك.

وأسرعت إلى الخارج.. وخلا البيت بعد أن خرجت رقية مع باقي النسوة.. كنت
متلهفًا لمعرفة سر الجواب، وخاصة بعد أن رأيت بعيني أن كل إخواتي بخير،
ولم أرَ ما يبزر مثل هذا الخطاب، وسألت متلهفًا، فقالت أُمي بعد أن أغلقت
الباب وهي تفرك يدها: - حاقول لك حاجة تفرحك.

وابتسم أخي، واقتربت خسكية مني، وأخذت أُمي توشوش:

- أنا بعث لك علشان أفرح بيك.. عاوزة واحدة تساعدني بعد ما إخواتك
اتجوزوا.. وأختك خسكية حتدخل في الشهرين الجايين.. وأنا عاوزاك تتجوز

معاها.. حاجوزك واحدة كويسة.. بنت على أد حالنا.

وجزت على شفيتها.. فسألت من جديد:

- إنتِ ليه عايزة تجوزيني دلوقت؟ أنا لسه صغير!

فقال محمد:

- علشان كده بعتنا لك.. من زمان الفرخ ما دخلش لنا بيت.. ما عندناش في الحجر غيرك.

وعادت أُمي تقول:

- واحدة تنفعك.. تعيش مع الزمن وياك.

وانتظرت، وانتظرت بفارغ الصبر أن تنطق باسمها.

وتجسدت أمام عيني صور عديدة: رقية.. محاسن.. امثال.

وقلت لنفسِي: «مين من دول يا ترى حتختار؟ دول تلاتة والتلاتة أحسن من بعض».

وترددت بينهن: «محاسن.. فقيرة ومن أصل، ورقية.. من عيلة الواحد يتسند عليهم وقت الضيق».

وعادت صورة امثال تظهر أمام عيني وهي تقول: «يا خاين! أنا باحبك! قول لأمك أنا باحبك! قول لها عني».

ولكن صوت أُمي كان مخيبًا لكل آمالي.. قالت بصوت حاكم المحكمة وهو
يزعق على المتهمين: - زينب إبراهيم غرابة.

وكان ذلك أغرب من الخيال بالنسبة لي.. وأضافت أُمي:

- قوم يا واد يا محمد.. قوم أما نخطبها له.. ما حدش عارف الزمن حيجيب له
إيه!

وأذهلتني المفاجأة، ودارت بي الدنيا وأنا لا أحس بأُمي وهي تتكلم، ولم أدري
ماذا أقول: «أواجهها بالرفض؟ إيه؟ أقول أنا صغير؟ أقول لها أنا عايز واحدة
من الثلاثة؟ إنها لم تتعود مني المناقشة! وزينب دي تبقى مين؟ صحيح دي
تبقى بنت خالي.. إنني لم أرها منذ متى؟ منذ أن دخلت المصنع.. ماذا أقول
لامثال التي في انتظاري؟ ماذا أقول لها بعد أن سمعت من أمها: إياك تكون
من نصيبك».

وتجسد لي وجهها المشرق وهي تقول لي: «مع السلامة».. تجسدت لي وهي
ترفع خصلات شعرها بينما تفسح لي مكانًا.

فقلت لأُمي وأنا مرتجف:

- مش حاجوز إلا اللي انا عارفها! اخطبوا لي واحدة من الثلاثة: محاسن أو
امثال أو رقية.. إنت عارفاهم.

لم أكن قد حددت مَنْ منهم سأختار.. وفوجئت بأُمي وقد شحب وجهها،
ونظرت إليَّ مبهوتة.. فأعدت لها ما قلت.. وإذا بصفعة تنزل على وجهي: -
بتقول إيه؟ وكمان بترد؟ هوّ علشان ما رححت المحلة بتعمل كده؟ معقول يا

فكري؟ فكري.. فكري.. تعمل كده؟! بتحب إيه حبك برص! فاكر انك حتدور
على حل شعرك؟!

وأحسست بالمهانة، وخشيت من صفة أخرى، فاندفعت هاربًا من البيت،
وأخذت أجري وأتعثر في الظلام الدامس، وهواء لافح يصفعني، لا صوت ولا
حركة، والنجوم تملأ السماء وكلب يعوي من بعيد.. وكنت أشعر كأنني أسير
في المقابر.. كانت القرية كلها قد نامت مع أن الساعة كانت قبل العشاء..
وتمنيت أن أقابل رقية لتسمع ما قلته لأمي! أين امثال لتسمع ما قلته؟ لكي
يعرفوا أنني قد تجرأت، وأني لم أخنهن في غيابهن.

وعلى نفس الكوم العالي المجاور للجامع جلست، نفس المكان الذي جلست
فيه مع رقية ذات يوم، وتذكرت ما كان بيننا، وتمنيتها: «آه لو تعرف.. إنها الآن
مع أمها في انتظاري».

وأخذت فكرة السفر فورًا تلح عليّ، وأسافر ولا أرجع ثانية: «مش معقول! إنها
لم تسمع من إخواني مثلما قلت! لم تعجلت؟ ولم لم أحدثها بعيدًا عن
إخواني؟ لم لم أسألها في هدوء عن سبب رفضها رقية؟ وبلا مفاجأة.. هل
كان لي أن أرح كرامتها؟ إنها لم تسمع شيئًا مماثلًا من إخواني أو حتى من
محمد!».

وهاجمتني الهواجس: «هل أهرب؟ هل أغضبت أُمي؟ هي التي ربتني! حاروح
دلوقت وأبوس على إيديها! أكلمها لوحدها! إنها هي التي خطبت لأخويا، ولم
يعارضها أحد سواء البنات أو الولد، وكلامها دائمًا نافذ! لم لم أفهم هذا؟ من
الصعب أن تقبل هذا الكلام، وخاصة أمام إخواني، وإنها إذا فعلت سيتمرد
عليها أخي! إنها كانت على حق فيما قالت، وكان عليّ أن أفهم ذلك، وخاصة

أن كل إخواني كانوا قريبين منها! كان عليّ أن أطيعها حتى على حساب من أحب طالما أن الوقت لم يحن».

واتجهت نحو البيت.. ومن بعيد كانت أمي ما زالت مطرقة برأسها في الأرض، ويدها على خدها.. ونظرت خسكية باستياء، وأخذت تقترب حتى أصبحت ملاصقة لي وهي تنظر إلى أمي في خوف، وقالت هامسة: - خبر إيه يا ولد؟ كده تزعل أمك؟ قوم بوس على أيديها!

وتطلعت إلى أمي خلسة، ولمحت من خلال نظراتها أنها تشفق عليّ.. وكبرت في مخي من جديد ألا أبوس على أيديها، ولاحت لي صورة الثلاثة كأنهن يتوعدنني وفي عيونهن دموع غزيرة.. لاحت لي امثال وكأنها تلبس فستان حداد أسمر والدموع تغمر عينيها، ورقية تبكي وهي بطرحتها السوداء.. فأغرقت في التفكير، وأفقت على صوت أختي من جديد.. أختي خسكية: - واد يا فكري! هو انت فاكر إن البنت دي زي ما كنت بتشوفها؟ دا خرّاط البنات خرطها! دي بنت طول المارد وعليها كل حته بز واخوه.. زي الرمان! وابتسمت أمي، وحاولت أن تخفيها بيديها ولكنها فشلت، فقذفت أختي بعود حطب كان بيدها وهي تردد: - ع الخلف واللي خلفوه! هو انتو إيه؟ خلفه شياطين؟

وهمت واقفة.. وضحك أخي ضحكة عالية:

- هو انت يا ولية حتعملي عقلك بعقل الولد؟ بقه هو جه يومين تزعليه؟ تعالي هنا.. مش انت بكيتي شوية؟ آدي انت نزلتي الدموع الفسدانة!

وأمسكها من جلابها، وأفلتت نفسها منه وهي تقول:

- عليّ الطلاق من دراعي ما انا قاعدة!

وأخويا يقول:

- عيب! عيب يا ولية! ده كلام من ورا ضهرك! هُو انتِ حتستغني عن فكري؟ دا فكري اللي يفتح قلبك يلاقيه قاعد جوّه مترع!

وأمسكتني من رقبتني، وجزت على أسنانها، وضحكت عيونها مدمعة، وضحكت أنا الآخر، وقالت أختي: - خلاص يا وله.. اقبل عشان نفرح بيك.

فلم أرد.. فعادت تقول:

- إيه اللي عاجبك فيهم؟ امتثال لا هي من طينتنا ولا احنا من طينتهم.. على أد لحافك مد رجلك.. هُو عاجبك اللي بيضحك في وشك؟ دي لو حصل لك حاجة تسيبك وتدوّر تجري على غيرك!

وكان محمد يتحدث في نفس الوقت مع خسكية حديثًا آخر:

- ما تسيبيه يتجوز على مزاجه! هيّ اللي حتتجوز ولا هو؟! هُو فيه واحد حياكل لقمة غصب عنه؟! مش كفاية احنا مجوزانا عِنْد؟! طول النهار مغروزين في الطين! هُو ده ماله ومال الكلام ده؟!

فردت أختي قائلة:

- عاوزة تجوزه قريبتها.. لو لعبت بديلها تلاقي حد يردها!

فقال أمي:

- إنت فاكرا انك قاعا فف المألة على طول؟ أنا آاطبة لك واحة األعا من
الباب اأرا لك من الأطا! أبوها مفا وأمها آبا وأبوها بفاا
واأوراا.. عاوز واحة زبها!

وأمز لف أأا طالبًا مفا المواقفة.. ولكنف لم أرا آائفًا أن أصفع على وأهف
من أااا.. فاناأرا انفرادف بأمف ااا إأواا.

وفف الصباآ طلعا مع أأوا على السأوا، وألسنا اأاأا فف نفا
المواأوا إلى أن اسأطا أن ففنا أن أراض لإرااة أمف.. وما كاا أمف
اأسمع الأبر آا أألأا زأرااة من قلبها المأراون أعقباا أأراا من
آالاف وآالاف.

واألما نسااة من الأراا اأساا:

- آفرا؟ آفرا؟ فأرف آفاأرا؟

- آنفرآ ببه.

- على مفا فا ولاف؟

- على زفب باا آاله.

وزأراا أأراا.. وأأراا فآاملنا.. وقالا واحة مفا فف همس: - ماش
لكل من أرف فا ولاف.. اأفا فف بقك واأسم لفرك!

وقالا أأرا:

- كل شف قسااة ونصفب!

وقالت ثالثة:

- بقه رقية اللي رايحة جاية.. ده مفيش واحدة في البلد مش عارفة إن فكري
حيتجوزها! يا عيني يا بنتي!

وهزت رأسها:

- الحمار الداير يقع في أظطرط «...».. بقه ولد زي السكرة يقع في بنت
سمرة زي دي وبسبب اللي وشها زي الورد؟!

وردت أخرى:

- ما بلاش كلام فارغ يا ولية انت وهي! إنتم عايزين تحرضوا الولد على أمه؟!
مش كله سخماط.. سخماط واحد؟

وكدت أن أتراجع متذكراً ما قلته لأخي عندما قال «راجل؟».. قلت له: «أيوه
راجل».

وخشيت أمني أن أتراجع، فأسرعت إلى شراء ما يلزم من سكر وشربات
لأكتب عليها كتابي.

وكاد الحكيم أن يرفض لصغر سني، ولم يقبل إلا بعد أن لهف قرشين.. وكانت
العادة في القرية ألا يرى العريس عروسه إلا ليلة الدخلة، ومع ذلك طلبت من
أمني أن أراها، وألححت في طلبي، ولكنها قالت: - يوم الدخلة أحسن لك..
تشوفها على شوق!

ولم أحاول معارضة أمني، لأنني كنت أعرف نتيجة ذلك مقدماً.

وأسرعت في السفر حتى لا ترى رقية وجهي.. وكل ما كان يشغل تفكيري هو: «كيف أخفي الحقيقة عن امثال هي الأخرى؟».. واستطعت أن أخفي الأمر بعد أن أقنعت الغريب بعدم الكلام في هذا الموضوع.

ولم يمر ثلاثة شهور إلا وقد جاء أخي، وكانت امثال معي في الحجرة تجلس بجانبني تضحك.. جاء بزوادة أكل في غير موعدها، وكانت أول كلمة قالها: - خلاص.. خلاص يا عم.. مبروك.. جهزنا لك اللي انت عايزه.

حاولت أن أغمزه لكي لا يتكلم، ولكنه استرسل:

- جنبنا لك سرير ودولاب وفرش مرتبتين وكل حاجة انت عايزها، ومفيش إلا أن تجهز نفسك علشان ليلة الدخلة.

سمعت امثال هذه الكلمات وتساءلت، فرد أخي:

- جوزناه.. جوزناه واحدة على أده.

قالها وكأنه يخاطبها.. وجاءت أمها على الصوت، ومدت له يدها.. واسترسل أخي في الكلام: - أمك عجلت بالفرح علشان عاوزه واحدة تساعدها في البيت.

سمعت الأم وابنتها هذا الكلام، ووقع عليهما كالصاعقة، ولم يستطيعا الرد على الكلام أو الاستمرار في الوقوف.. ونظرت الأم لي كما نظرت امثال نظرة فيها التقزز والاشمئزاز وكأنهما تقولان: «طفل مدلل، لم يكن يقدر على الوقوف أمام أمه!».. وانصرفا دون أن يغلقا الباب.. فقلت في نفسي: «آه لو عرفوا ما حدث».

يا فلاح يا فلاح.. دم البنت الحلوة ساح

مر أسبوعان وكأنهما عامان إن لم يكن أكثر من كثرة التفكير.. وسألت خلالها العديد من زملائي ممن سبق لهم الزواج كيف أتصرف مع زوجتي، فمنهم من قال: - لازم توربها العين الحمراء أول ما تخش.. الواحدة من دول لو ركبت ما تنزلش.. اتصلب على أي حاجة.. قولها عايز أشرب، إذا أبطأت خد أي حاجة جنبك وناولها بيها في أي حته من جسمها ولا يهملك.. وبعد كده حتمشي زي الألف.. ساعة ما تشوفك جاي من الشغل تقف زي الفرس.. أنا عملت كده مع مراتي.. بتبقى تتمنى الساعة اللي ما اكونش فيها في البيت من الخوف.. وتبقى انت بعد كده تغمض عينيك ولا تقفلهم.. لازم تعمل كده وإلا تضحك عليك!

واستطرد في حديثه عندما سألته:

- آخذ وشها ازاي؟

- حتلاقي الداية قاعدة بسلامتها جنب الست العروسة وجنبها المحرمة.. شاش خفيف جدًّا.. والداية ساعة ما تشوفك مانتش عارف حتروح هيّ مادة صابعا وواخداه ودي تبقى في وشك طول العمر.. كل الناس تقول عليك ده ما عرفش ياخذ وش العروسة.. وتسقط من نظرها!

وأضاف:

- الدّي في الودان يقلب الأفران.. رايحة تبص لجوزها على إنه ما طلعتش شهم.. وكله من ودودة النسوان مع بعض.. زي ما احنا كده بنحكي.. فأول ما

تخش صل ركعتين لله، وتزحزح الداية بعيد عنك، وتلف الشاش على صابعك،
وتروح فاقعه جواها... إلا والدم ملغمطه.

قلت:

- وهيَّ تخليني؟

فرد:

- ما انت حتلاقي ثلاث أربع نسوان قاعدين جوّه.. نسوان متنقيين.. أول ما تبدأ
العملية حيروحوا مكتفينها ورافعين رجليها فوق للسقف، وتبقى كل حاجة
قدامك واضحة.. إوعى الداية تاخده.. أحسن يبقى فيه بنات زي ما انت عارف
يكون حصل لهم حاجة فيبقوا متفقين مع الداية علشان تتستر عليهم، وباسم
التستر على الولايا تلبسها للعريس على إنها بنت!

قلت:

- وازاي رايحة تطلع دم إذا...؟

قال:

- وهيَّ حتغلب؟! دول ما بيغلبوش! بتجيب موس وياها وهيَّ داخلة، وتروح
مستغفلة العريس وخابطة الموس في أي حته فينزل الدم.. وهيَّ طبعا عارفة
تضربه فين!

وهز رأسه لي وقال:

- هيَّ دي كل الحكاية.. جمد قلبك وما تخافش!

وأزعجتني كلماته الأخيرة، فبدأت أسأل: - هل البنات كلهم كده؟

فطمأنني قائلاً:

- قليلين.. قليلين خالص.. يكون واحد ابن كلب قليل الأصل وعددها بالجواز
وتخلى عنها!

فأعدت الأسئلة على واحد من الميكانيكية الجدد سبق لي معرفته، فلم
يختلف عما قاله الآخر إلا في أخذ وش العروسة، إذ قال: - خدها على حجرك..
خدها على مهل.. حتقعد يوم.. يومين.. ثلاثة.. إنت جاي مستعجل على إيه؟

قلت:

- أهلي وأهلها يبقوا مستعجلين.. ولازم ياخدوه على طول علشان يلفوا بيه
في البلد.. ده شرف بنتهم!

فرد:

- ده شرف.. شرف مين غير شرفك انت؟! ما دام انت مطمئن يبقى خلاص!
العروسة للعريس والجري للمتاعيس!

وأغمض إحدى عينيه وقال:

- إنت عارف إيه معنى تاخذ وشها بصبا عك؟ يعني تدفعه كله جواها! ده زي
فقع العين!

واشمأز:

- يا لطيف! الله يكون في عونهم! هُوَ يعمل العملة دي إلا الجهلة! روح يا جدع
خد وشها بحجرِك! ده ممكن ينقطع بيت الولد يخليها ما تخلفش طول عمرها!
هيّ المصايب بتيجي إلا من كده! أعوذ بالله! إللي قال لك كده مين؟! ده
جاهل! تططبب عليها.. تحسس عليها.. لما تقول لك حاسب أو تحس إنها
اتألمت فانت تحاسب لغاية ما كل شيء يمشي بسهولة.. إوعى تعمل الحكاية
دي! إوعى أحسن لك!

مر الأسبوعان، وفي يوم الدخلة اختليت بأمي وسألتها، فقالت بعد أن حدثتها
عن كل ما سمعته: - إوعى تعملها! أبوك الله يرحمه عمره ما حط إيده عليّ!
هُوَ يضرب مراته إلا الراجل الوحش! إن ضربت القطة تخربشك! قول لها
بالراحة على اللي انت عاوزه.. البنت في بيت أبوها غير في بيت جوزها..
علمها على طبعك.. بس ما تخليهاش عاوزة حاجة.. إن قالت لك عاوزة قرش
إديها اتنين.. وما دام كل حاجة عندها حتحك ما دام متهنية.. حتروح بيت أبوها
ليه؟ لا تغضب ولا تهرب! وأحسن لك تديها الفلوس كلها في جيبها تجيب اللي
عايزاه وتحطه في دولابها، ولا تبص للي في إيد غيرك.. حتحك وحتتمسك
بيك.. شوف انا ما كنتش عاوزة حاجة، لما كان أبوك الله يرحمه عايش كان
مهينني.. وكل ما وربتها إيه اللي معاك لا حتقول لك عاوزة الشيء ده ولا ده..
إوعى تضربها أحسن تفتح عينها! ولو شفتها ماشية مع حد ولّا بتتكلم مع حد
إوعى تقول لها إنت ماشية معاه ليه ولّا بتكلميه ليه.. لاحسن الطريقة دي
تفتح عينها على شيء لا تعرفه! إنت عارف الواحدة لو حبت تخون جوزها
تخونه حتى ولو كان نايم في حضانها.. الواحدة زي الزرع.. دايماً عاوزة الميه..
وما دام تسقيها حتشرب ليه من حد ثاني! أنا باقول لك الكلام علشان تاخذ
بالك.. إوعى تخونها! فاهم؟ إياك تعمل كده أو تخونها!

وكان صوت خالتي عفا الله يناديها، وتركتني دون أن تكمل كلامها، وإذا بأخي يدخل حاملاً بين ذراعيه ملابس الفرح.. وعندما رأته النسوة في طريقه إلى المنذرة انطلقت منهن زغاريد قوبلت بأخرى عديدة، ولم تمر لحظات إلا وتزاحمت الناس، وأطفال صغيرة اندفعت وسط النسوة.. واللي يدفع في الحوش البراني للبيت بطشت الحموم والمياه الساخنة لاستحمامي، وقد لمحت رقية وقتها وقد غطت وشها بالشاش وتندفع إلى الداخل بملابس سوداء.

وأسندت ظهرها إلى الحائط، وألقت نظرة على الحوش، وتطلعت إلى السقف وكأنها تلقي نظرة أخيرة على البيت الذي كانت تمنى نفسها به، وعادت وتطلعت إليّ من خلال النسوة الواقفات وقد غطت الدموع عينيها، ولم تحتمل أكثر من ذلك فأسرعت خارجة.

وكان أخي يزعق منادياً، ولما أمسك بيدي ردد هامساً: - شد حيلك.. إوعى تكسفنا.. إوعى يقولوا ابن محمد الخولي ما عرفش.. أمك حتكون جوّه ويّاك.

وعندما لبست جلبابي الكشمير والتف الناس حولي شعرت بالبهجة تملأ قلبي، وكان الملح يتساقط فوقني، وكانت أمي هي التي تلقي به، وكان صوتها يعلو بأغنية ترددها: عين الحسود فيها عود يا لالالي

وعم علي المصري يقول:

- يلا.. وسعي يا بنت انت وهي.. ابعدى الشمع من جنبه.. وسع يا جدع انت وهو.

واصطف الرجال على الصفيين، وطه مشعل يصفق، والرجالة تنشد أناشيد
عالية متصلة: وفرش منديله ع الرمله

والحلوه تجيله ع الرمله

واستمرت الزفة أكثر من ساعتين تسير حول القرية، مع إنها كانت في العادة
لا تسير أكثر من دقائق.

وكان الولد الغريب والولد السيد الصفطي قد أحاطا بي والأنظار تتطلع إلى
ملابسهما الزاهية.

وعلى ناصية الحارة همس أخي في أذني منتهراً فرصة انشغال الناس حول
حلقة الرقص، ودفع بي قائلاً: - اسمع.. أنا راح أداري عليك وانت تجري.. تجري
على آخر الشوط، وإوعى حد يشوفك.. فعلى بال ما نحصلك تكون خلعت
هدومك واستعديت.

دخلت المندرة مدفوعاً، وعندما رأيتي النسوة أسرع بعضهن للخارج.. وتوقفت
لحظة محاولاً أخذ نفسي، ناظراً أمامي، وكان السرير ذو الأربعة عمدان
والكوشة اللامعة فوقه تضوي، والملاية البيضاء الواصلة للأرض، والمساند
ذات اللون السماوي الملتصقة بالحائط، والدولاب ذو الضلفتين، وصينية القل
المليانة، والقياس المفروش ذو الخطوط الملونة، وكل ذلك جعل من الحجرة
شيئاً مختلفاً عما سبق أن رأيته في بيتنا منذ أن ولدتني أمي.. فأخي تزوج،
وكذلك إخواني، ولم تأت لهم أمي بمثل ما أتتني به.. حانام في العالي!
ارتفعت عن الأرض!

وكانت العروسة ذات الوجه الأسمر بين النسوة، كلُّ تهمس للأخرى دون أن أسمع شيئًا من همسهن.. كان فستانها الحريري الأخضر الفاتح قد أبرز مفاتن صدرها العريض الممتلئ، يزينها شعرها الأسود اللامع، وضمائرها مجدولة تصل إلى قرب فخذها، وعيناها السوداوان الواسعتان قد أضفتا عليها كثيرًا من الصفاء.. وقلت في نفسي: «بعد لحظات لن يبقى أحد سوانا».

واتجهت فخلعت جلبابي ودفعت به فوق السرير، وكانت أمي تتمشى في المندرة، وألقت عليّ نظرة، وكأنها قد عرفت سبب ارتباكي، فأطلقت زغرودة أنستني الصلاة، وكانت الزفة قد وصلت بضجيجها.. ودفعت بي أمي قائلة: - قرب! إنت ليه واقف؟! الناس جم!

وفي حركة سريعة التفت النسوة وأحاطوها، وقد رأيت ما سبق أن سمعت.. وأسرعت في لف الشاشة على صباغي، وتذكرت ما قاله لي الميكانيكي الشاب، لكن كرابجًا لسوع ظهري، فقد سمعت صوت أمي وهي تقول: - قرب! قرب يا ولد متلبّش كده ليه؟!

فأربكني صوتها، ولم أستطع أن أفعل إلا كما أمرتني.

وانطلقت صرخة مدوبة كتمت في الحال:

- اخرسي يا مقصوفة الرقبة! اخرسي!

وارتفعت أصوات غنائية كأنهم يريدون أن يغطوا على صوتها.

ثم أعقبتها أصوات أغاني في الخارج:

سبع البراري اصطاد غزالة الليلة

يا فرحة أمه يا هناها الليلة

وأعقتها أغاني أخرى عديدة، وكان الدم يلمخ أصابعي.

وانطلقت أمي في نفس اللحظة تعلن سلامة الفتاة لكل من في الخارج،
وعادت وأخرجت في عجلة أول قميص به عشرون بقعة دم.. وانطلقت
الأغاني: يا بلحة ومقمعة شرفتي عمامك الأربعة

يا فلاح.. يا فلاح دم البنت الحلوة ساح

وصوت آخر:

قولوا لأبوها يقوم بقى يتعشى

قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى

وكان القميص الثاني قد خرج كذلك.. على أثر ذلك أخذت النسوة تتسرب
واحدة بعد أخرى.

- مبروك.. مبروك يا ولاد!

وهم يمطرونها بقبلاتهم.

وخرجت أمي كذلك وأغلقت علينا الباب.

وبقينا ننظر إلى بعض وأصوات الأغاني تتعد.

وقد لمحت دموعًا كثيرة بللت خدها.. وأسندت رأسها إلى الحائط وكأنها
تبكي.. وإذ بي أسمع: - عطشانة! عاوزة أشرب!

فأسرعت إلى القلة، وهي تقول:

- روعي.. روعي حتطلع!

فدفعت القلة إلى فمها، فقالت فجأة، وكأنها استيقظت: - لا.. لا.. وديها
مطرحها.. يا كسوفي!

وأنا أقول:

- اشربي.. بلي ريفك!

فخفضت ناظرها إلى الأرض.. وكانت أمي تسمع أصواتنا، فخشيت أن أكون
قد اتبعت معها غير ما أشارت به في أسلوب معاملتها، فأسرعت بفتح الباب،
فإذا بها تجدني أمسك بالقلة لأسقيها، فابتسمت لي وهي تأخذ القلة من يدي:
- يا دي الدلال! أيوه كده ادلعوا على بعض.. هات يا وله عنك.

ودفعت بها إلى فمها، فشربت بعين كسيرة، وكأنها تدعو لي.

وكانت أختي وبقية إخواتي قد دخلوا.. وابتسم أخي لما رآه: - إيش.. إيش.. إيه
ده كله.. دي نومة ولا نومة العمدة.. مفيش في الدست غيرك.. قومي يا ولية..
قومي هاتي لهم يتعشوا ويانا.

وفي الحوش جلست بجانب أختي، وإذا بأمي تدفعني لكي أجلس بجوار
مراتي، وتقول: - تعالي يا بنت.. تعالي هنا جنبه.

ودفعت بها إلى جواربي.. ثم تقول:

- أكَّلهٓ يا ولد.. دي بقالها ثلاث أيام ما أكلتش!

فرد أخي:

- دي فرخة مستنياك جَوّه! هَوّ يفسخ وهَيّ تفسخ وكل واحد يأكل الثاني! دي ليلة واحدة في العمر!

وأضاف:

- خدها في حضنك يا وله! إنت قاعد لخمّة ليه؟

كل ذلك مع ضحكات عالية من إخواني عندما طوقتها بذراعي، وكانت تحاول تخليص نفسها مني قائلة: - هَوّ إيه؟!

وقال أخي في حماس:

- يَلَّا قوم خد عروستك وخش على جَوّه.

قالها وهو يغمض عينيه.

وكانت لمبة الجاز نمرة عشرة عالية تنير المندرة، والهواء يداعب الملاية الموضوععة فوق السرير.. وذهبت في بطء إلى الدولاب، ودفعت فيه جلبابي الكشمير، ثم ألقيت بنفسي على المرتبة وأحسست بنعومتها لأول مرة، وكذلك كل ما كان موجودًا.

وكانت زوجتي تسرح شعرها أمام الدولاب بالمشط وهي لا تريد أن تترك المراية، وكانت تضع صدغها عليها ثم تعود وتنظر إلى صدرها، وقد لاحظت أنا ذلك فناديت في صوت هامس: - ما تيلّا.

فخلعت فستانها وتحركت في المندرة وكأنها تتأمل كل ما بها.

وفي بطاء التصقت بالسرير وهي تتطلع إلى الباب خوفًا من وجود أحد،
ووجدت ثقبًا في الباب فأسرعت بسده، ثم عادت وهي متهيبة من الخوف،
واستمرت في الالتفاف حول نفسها، ثم عادت واتكأت على طرف المرتبة
وهي تقترب، وقالت: - اتاخر شوية جوّه جنب الحيط.. جنب المساند.. خش
انت.

وأسبلت عينيها، وكان ضوء اللمبة قد كشف عن جسدها، ولمست نهودها
وهي تخطو من فوقي، فأمسكت بذراعيها وأطبقت جامدًا، كنت أخشى أن
تدفع بي بعيدًا مثلما كانت تفعل امتثال، لكنها لم تفعل، ونامت في مواجهتي
بعد أن شدت اللحاف فوقها، فدفعته بعيدًا بيدي، فعادت لتجذبه.. وهكذا دون
أن تتكلم، ونظراتنا للباب، ثم همست: - قوم ااطفي اللمبة.. أحسن حد
يشوفنا.

قالتها في صوت ناعم، وأطبقت رموش عينيها.. ذكرتني برقية وامتثال وهي
تقول: «اقفل.. اقفل الباب.. الباب مفتوح.. يا خرابي!».

وامتثال على السلم تهمس: «إوعى تعملها.. إوعى تعملها».

وعندما تذكرت ذلك تخيلتهن وتلاشت صورة زوجتي، وشعرت بكياني كله
يتحرك، وإذا بصوتها الحالم: - حد يشوفنا!

طوقتها بذراعي بينما كانت تغمض إحدى عينيها.. وتطلعت لي وكأنها عرفت
السبب.

وعادت أُمي إلى البلد مطمئنة

مر الأسبوع كالبرق، مع أنني لم أبرح البيت لحظة إلا في أوقات قليلة لزيارة بعض أقاربي، وعندما حان ميعاد السفر أرادت زوجتي أن توصلني، لكن أخي وأُمي رفضا، لا لسبب إلا لأن ملابس الخروج لم تكن قد أتت من عند الخياطة.. فبكت طويلاً.

وعلى المحطة قالت أُمي:

- إنت دلوقت ما بقيتش على حل شعرك.. بقيت مربوط من رقبتك.. القرش اللي تصرفه في الهلس اصرفه على مراتك.

وقال أخي:

- دي حتبقى في عنيا على ما تيجي.. بس يا عم تشد حيلك ويانا في البيت.. إنت عارف.. ربنا يفتحها في وشك.

وقالت أُمي:

- يرزقه برزقها.

وزعق القطار، وتحرك، وأنا أنظر من الشباك.. وكان أخي وأُمي يمسكان ببعضها ويلوحان لي وسط الزحام.

لم أشعر بحقيقة ما حدث إلا عندما وصلت حجرتي في المحلة.

كانت الدنيا من حولي ساكنة، والغرفة خالية مقبضة، وعلى ضوء اللمبة الخافت رأيت الحجرة ملآنة بالتراب، فارغة، ليس بها إلا الحصيرة في أحد الأركان، وأسراب البق تمرح؛ فانقبض قلبي ولم أطق البقاء.. فخرجت أنتظر الولد الغريب على باب المصنع، ولم تكن الوردية قد خرجت بعد.. فوقفت أنتظر على الرصيف، ورأيت عبد العظيم خارجًا، وكأنه يزحف، وفكرت: «أنادي عليه؟ لا.. سوف يراني.. أمال الولد الغريب مش معاه ليه؟ أنه عليه؟ أعزمه على الفطير والكحك؟».

ومر أمامي دون أن يرفع يده، وانتابني شعور بالمرارة: «أيتجاهلني؟ لم لا يسلم عليّ؟ ألسنا أصدقاء؟ هل هو زعلان لأنني تزوجت دون أن أوجه له الدعوة؟ لم يحضر أحد من أصدقائي! ده لو الفرح كان يوم غير يوم الإجازة لما حضر الولد الغريب ولا السيد الصفطي! وما قيمة الدعوة إذا كنت عارف إنه مش حيقدر يحضر؟! هوّ بس كلام؟ لا.. لازم ما شافنيش».

وبينما أنا غارق في التفكير، إذا بالولد الغريب يمسك بي: - إنت جيت؟ جيت؟ أنا قلبي كان حاسس والله العظيم، كان حاسس إنك جاي.. الله.. واد يا سيد.. راح فين الواد السيد الصفطي؟ ده كان جاي وبايا.. هات إيدك.. إنت مش قايل انك حتحضر امبارح؟ لم تحضر ليه؟! دا احنا قاعدين زي الغلابة من غيرك.. جبت لنا إيه وياك؟ يا واد يا سيد يا صفطي.. هوّ راح فين؟ ده كان معايا دلوقت أهه! لازم تاه.

وتطلعت إلينا الأنظار.

- تعال.. إنشالله ما جه.

وسرنا وسط الزحام، وإذا بصوت يناديني:

- يا فكري يا خولي.

وتلفت.. كان عبد العظيم في مواجهتي، وما كدت أمد يدي حتى أحاطني
بذراعيه في شوق بالغ: - مبروك.. مبروك.. تعال.. أنا مش سألتك النهارده
عليه يا واد يا غريب.. حمد الله على سلامتک.. وعقبال البكاري.

تعال نشرب قهوة.

ونادى على مجموعة من العمال كانت بالقرب منا: - تعالوا بقه لما نصليها
غياي.

فقال أحدهم:

- بس...

فقاطعه عبد العظيم:

- بس إيه؟ تتحمل علشان خاطره ثلاث أيام ذنب.. نبقى نلم فيهم جزم
المصلية ونناولها لأصحابها زي بعضه.

وعلى القهوة قال أحدهم لي:

- هَوَّ الأخ ما...

فلحقه عبد العظيم من جديد:

- ما بيصليش.. ما بيصليش.. ما تتعبش دماغك.. أنا غلبت.

فرد عليه آخر:

- جرى إيه يا عبد العظيم؟! الدعوة عايزة صبر.. والصبر بييجي منين إلا بالإيمان بالله.

وأضاف:

- الأخ متجوز؟

فابتسم الولد الغريب وصاح:

- ما شفتوش الحنة في إيديه ازاي.. ده لسه جاي.

فرد عليه آخر:

- عال.. الواحد دينه لا يكمل إلا لما يتجوز.. يعني بقيت كامل؟

ولّا إيه يا عبد العظيم؟ اقرأ الفاتحة وتعال معانا.. خد عهد على الشيخ.. ما احنا كنا أشقيا زيك واحنا صغيرين.

فرد عامل آخر:

- علشان تكسروا نفسه يا جدعان.. حرام عليكم يا رجاله.. إنتم عايزين

تكسروا نفسنا أكثر ما هي مكسورة؟

فرد عبد العظيم:

- واحنا كسرنا نفسكم في إيه؟

فقال العامل:

- هُوَ فيه أكثر من كده كسر نفس! فيه حد يشيل جزم الناس في هدومه؟! دي
جمعية إيه؟! الدنيا اتملت جمعيات.. كل واحد واخذ له شوية تحت باطه.. إشي
جمعية أنصار السنة المحمدية.. وإشي الصوفية.. والبيومية.. والتوكلية..
والرفاعية.. والشاذلية.. جمعيات زي النحل.

وأضاف:

- أنا رحى كل دول ولقيت.. ما سمعتش منهم غير الصبر.. إلهي بيص لعيشة
الناس تحرم عليه عيشته.. هُوَ مفيش في الدين غير الصبر؟! كل جمعية تدم
في الثانية.. لما كفرت منهم كلهم.

القرآن ضد الظلم يا ناس.. اقرأوا القرآن أحسن لكم.. سييك يا عبد العظيم..
ارجع لأصلك تاني.. من يوم ما رحى المدعوقه دي وانت سارح وتايه.. الصبر..
الصبر!

وقمنا، ونحن في الطريق همس في أذني:

- سييك منهم.. دول اتدروشوا.

فرد عليه الغريب:

- دا سابهم من زمان.

كانت الحجرة كما هي.. فسألت:

- هيَّ...!

فقاطعني الولد الغريب:

- هي مين؟ دي خاصمتنا! خاصموننا زي ما نكون احنا اللي جوزناك.. لا البنت
ولا أمها.. ما عادش حد منهم بيهوب ناحية الأوضة.

وكان الولد السيد الصفطي قد دخل، فطوقني بذراعيه: - أيوه كده.. كنا زي
الغلابة.. اللمة حلوة.. شيل يا واد يا غريب الحصيرة.. نفضها.. يا نهار أسود!
استنى يا واد.. ده البق نازل منها زي المطر.. يلا نقتله.. أتارينا ما بنامش.. دا
احنا بنقول الواحد بيهرش من إيه!

إف!

ولما اقتربت منه صاح الولد الغريب:

- ابعده انت.. ابعده أحسن هدومك الجديدة تتوسخ.

وجلست على الحصيرة بجانبهما دون أن يغمض لي جفن: «هل هي تنام
مثلي؟ هل تفكر فيي؟ كنت بالأمس نائمًا معها على المرتبة.. لم يكن هناك بق
ولا براغيث.. السرير بتاعي.. ما فائدة تركه هناك وأنا وحدي بهذا الشكل؟ لم
لا آتي به هنا لأنام؟ أجيب السرير وأسيبها هي هناك تساعد أمي، ولما أروح
تبقى ليلة ننامها سوا على الأرض زي بعضه.. لقد أتت به أمي علشانني».

أفكار عديدة راودتني.

وراحت في الأسبوع التالي قبل أن أقضي المدة، ولما رأته زوجتي أخلع
هدومي، صاحت بأمي: - يا عمة.. تعالي شوفي صهر ابنك.

جاءت أمي تجري من الزريبة قائلة:

- يا ضنايا يا ابني! من إيه؟

- من البراغيث والبق اتلموا عليَّ!

- ما بتنصفوش الأوضة؟

- تنصف ازاي؟ إذا كنت باطلع من الصبح وأرجع بعد العشاء!

- سخني له ميه يا بنت.. قطيعة على الغربية وعلى أصحابها!

نضفي له ضهره بالليفة.

وخرجت وهي تدعو على الغربية وعلى أصحابها.

وقالت امرأتي وهي تحميني:

- ما تاخذ السرير.. ما تاخده معاك.

قلت:

- يا سلام! فيكي الخير.. دا انت عمرك أطول من عمري.

طيب.. وأمي؟

فقلت:

- اتمسكن لما تتمكن.

قلت:

- وانتِ حتعملي إيه؟

فقلت:

- أستحمل.. إحنا بنكنس وبنرش.. أما انت يا عيني...

صمت لحظة.. ثم سألتها:

- ما تيجي معايا.. تقدري تيجي مدة هنا ومدة هناك.

فاحمرت وجناتها، وابتسمت وقالت:

- إنت عاوز أمك تفضحني! دي مش مجوزاك إلا علشان أشتغل معاها في

الغيط.. عاوزها تقول انتِ خسرتيه!

اعمل معروف.. إوعى تجيب السيرة دي قدامها!

فقلت:

- إنتِ مستعدة؟

فصمت ولم تجب.. وعادت تقول:

- اعمل معروف.. إوعى تجيب لها سيرة.. إنت عارف لما مشيت حصل إيه؟

رحت معاها الغيط.. رحت غصب عنها.. ما طقتش أسببها تشتغل لوحدها،

وهي تقول: «يا بنت الحنة على رجلكي».

ولما حملت الجمل، وجبته علشان أطلع الحطب فوق السطح واحنا ماشيين
في السكة انقطعت السلبة، فوقع الحمل في البحر، رحت قاعة الهدوم وطبه

وراه، والموج يجرفني وانا أعوم وأزقه على الشط لحد ما طلعت الحطب كله.

ولما طلعت لقيت الرجالة واقفين يخبطوا إيد على إيد.. وكان القميص بتاعي لازق على جسمي.. وانكسفت أطلع والبلد كلها واقفة على الشط.. ما انكسفوش ومشيووا.. فضلوا واقفين يحلقوا لي.. وشخطت فيهم مَرّة: «امشي يا راجل انت وهُوّ خلوا البنت تطلع من الميه! إنتم واقفين كده ليه؟».. وأخذوا يتساءلون: «مين دي؟».

«دي مرات فكري ابن أمكم السيدة البناية».

«أما نقت لابنها صحيح».

«بنت.. قلبها زي الحديد.. تنزل البحر مليون.. ده لو كان راجل كان سابه ومشني».

فسألته:

- بتعرفي تعومي؟

- أيوه.. سيدي الله يرحمه علمني العوم.. كان يربط القرعة في وسطي ويرميني في البحر.. إنت فاكرني إيه؟ ده انا كنت باطلع أجدع نخلة.. وأطلع الجميزة أجيب الجميز من طرفها.

فضحكت طويلاً، وسألته:

- وأمي عملت إيه؟

- طابرة بيّ طيران!

قلت:

- يعني العَملة دي ما جاتش إلا على دماغى!

فأسرعت بالقول:

- أنا مليس دعوة.. إنتم حُرين مع بعض.. ما تحشرنيش!

وكنت وقتها قد جلست على السرير، أنظر للشيء الذي أصبح لا غناء لي عنه.

وفي الصباح كانت أمي أول من دخلت لتصحيني، وفي شوق قبلتني من

فمي.. فانتهزت فرصة هذا الرضا وقلت في نفسي: «هذه فرصتي.. هيَّ

دلوقت مبسوطه».

فأمسكت بيدها وأجلستها بجواري، وقلت في توسل: - أهون عليكى؟ شايفة؟

شايفة يا امه جنبى عامل ازاي؟

قالت وهي تدفع بأطراف أصابعها على رأسي: - كان على عيني.. أعمل إيه

بس يا ابني؟ إيه في إيدي أعمله؟

قلت:

- في إيديك.. في إيديك يا امه تعملي كل حاجة.

أهون عليكى؟ هوّ أنا مش ابنك؟

قالت:

- قول لي بس!

ونظرت لي نظرة حانية لأم تخاف على ابنها.. وقد لاحظت زوجتي فأسرعت بالخروج وأغلقت الباب علينا.

قلت بتوسل:

- اسمعي يا وليه.. إنتِ شارية السرير ده لمين؟

قالت:

- شارباه لك.. هوّ فيه أعز منك؟!

قلت:

- خلاص.. إديهولي آخده معايا.

فنظرت لي في ذهول:

- تاخده معاك؟ اتهوست ولأ إيه؟ ده مزين المندره! كل حد ما يبجي بيفتحها في وشه ونفرجه على السرير.. هوّ انا أبني وانت تهد؟! عاوز تزين بيوت الناس بيه؟ ولما واحد يسرقه؟ ده مكتوب علينا في قائمة أد الدنيا! يطلع ازاي؟!

- يعني إيه؟ مش عايزة تديهولي؟ خلاص سيبيني أموت.

وإذا بالباب يفتح.. وكانت أختي حُسن تتعصب بمنديل أحمر غامق مشغول، وزعقت عليها أمي: - تعالي يا بت.. تعالي شوفي الولد البايظ ده.. عايز ياخذ

السريبر قال! قاعد عمال يقطع في قلبي م الصبح!

واستدارت بوجهها لي:

- مش بقالك سبع سنين.. سبعة هناك يا ابني.. هَوَّ القمل والبق والبراغيت ما زحفتش إلا دلوقت؟!

فقالت أختي حُسن:

- هَوَّ اللي يبجي له نعمة يسيبها؟ ده يمسك ويتبت عليها بأسنانه.

وأضافت:

- هَوَّ ما دام داق نوم العلامي حيسييه؟ ما تتعيش نفسك! النهارده واخده..
بُكرة واخده!

فزعت أمي:

- كمان شوية حيقول أنا عاوز مراتي.

فابتسمت أختي حُسن وقالت:

- آدي دقني أهّي.. إن ما كانش يقول لك أنا عاوزها.

وتلفتت نحو الباب، وعادت ورددت:

- يا بنت الكلب يا امه.. حد يتجوز ويسيب مراته.. ما عزوية إلا بعد جواز!

فدفعتها أمي بيديها.

- قومي يا بنت يَلَّا.. هُوَ انتِ معايا وَلَا معاها؟!

فتحتوا عينيه جاتكوا شوطة.

وأسرعت خارجة.

دخلت زوجتي بعدها مكتئبة الوجه مذعورة: - عملت إيه؟ إنت قلت لها؟

حتسود عليَّ عيشتي.. يوم وحتسيني.. ياما أسمع!

فردت حُسن:

- حتسمعي إيه يا بنت؟! اقعدي جاك كسر رقبتك.. يا أختي عليها!

خشي يا بت خشي.. ياما تحت الساهي دواهي! بقى انتِ مش عاوزاه؟

وهزت ذراعيها:

- مش عاوزاه؟

وأغمضت عينيها:

- ما تقولي يا بنت الحق.. قولي قدامها.. مش أحسن ما تقولي من وراها؟!

فوضعت زوجتي يديها على عينيها:

- هُوَ إيه ده؟ إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟

وعادت أُمي في التو وكأنها قد سمعت.

وقعدت أتحايل وأخي يتحايل، وفين وفين لما حن قلب أمي وقالت: - أديك
المرتبة.

وغمزنتي أختي قائلة:

- اسكت!

وإذا بزوجتي تقول:

- المرتبة لوحدها تبوظ.. ما تدي له السرير بالمرّة.

ونظرت لها أمي بعينين ملتهبتين من كثرة ما بكت، وقالت: - إنت راضية؟ لو
راح ملناش دعوة!

فردت زوجتي:

- أمال أعمل إيه؟ فداه.. هو العدو لما يجرى له حاجة حبيجي السرير ينفعنا؟
إللي يعيش ياما يجيب!

وجلست بجانب أمي بعدما شعرت أنها قد هدأت: - خلي مراتي تيجي معايا..
خليها تيجي تنصبه معايا.. مرّة.. مرّة بس.. شايفة هدومي؟ هدومي عاملة
ازاي؟ وسخة! تجهز لي لقمة أعرف أشتغل! ده لو استنيت على كده راح
أموت!

وطبطبت على كتفها، واندفعت وأمسكت بيديها: - هاتي إيدك.. إيدك أبوسها..
هاتي رجلك!

وفين وفين لما قبلت أن تذهب زوجتي معي، ولكنها لم تحتمل رؤية السرير
وأختي تفكه.

سافرت معي على الرغم من أمني.. لم تكن تود أن تفارقها، وقد أحسست بما
في قلب أمني من حزن، فأرسلت لها بمجرد أن وصلت.

واستقرت في إحدى الحجر، وعندما جاءت أمني، ورأت الحجر قد زينها
السرير، والصور المعلقة بجواره: صور عنتر بن شداد، والزناتي خليفة، وأبو
زيد الهلالي.. عادت بعدها إلى البلد مطمئنة.

ولم يمر وقت إلا وكان الولد الغريب هو الآخر قد تزوج من البلد.. ولم يبق
سوى الولد السيد الصفطي. كانت الحجر قريبة من بعضها البعض.. في
الصباح نخرج للعمل، بينما هن يتجمعن ويذهبن سوياً لشراء ما يحتاجه من
أكل، و ينتظرن في حجرة أم الولد السيد حيث هي أكبرهم، إلى أن نعود
لناخذهن في المساء.

و ذات يوم من أيام الأحد، وبينما كنا نتحدث، وإذا بالولد الغريب يقول: - ما تيلَّا
كل واحد ياخذ مراته.. ناخذهم نفسحهم. إيه رأيك؟

فانتعشت زوجتي، واحمرت وجناتها، بينما أسرعت زوجة الولد الغريب
وأخرجت من صندوق أحمر بجوار السرير جلاباً من الشيت به نقط سوداء
وحمراء وبيضاء، وآخر أسمر خفيف زي رمش العين بحيث يكشف عن الجسد
لو لبس لوحده، ولهذا أخرجت الجلاب الشيت بالنقط السوداء، وصرخت
زوجتي وهي تجري كالقطة في الحجر: - ما تيلَّا.. روجي البسي هدومك
لاحسن يرجعوا في كلامهم!

وانتفض الولد الغريب هو الآخر يلبس جلبابه، بينما أخذت زوجتي وخرجت متجهاً إلى البيت، وبعد أن لبس كل منا جلبابه كان الولد الغريب قد أتى مع زوجته.

وسرنا مع بعض في الشارع حيث الناس.. كانت زوجتي تسير تائهة حيث الشوارع مزدحمة.. العربات الكارو بصهيل الخيل فيها وهي تندفع.. ونساء ريفيات كثيرة مع عمال متشابكي الأيدي في اتجاهات مختلفة.. همست زوجتي في أذني كالخائفة من أن يسمعها أحد: - بص.. شوف.

ملوحة بيدها حيث كان أحد العمال يسير مع إحدى الشابات.

- شايف الحنة لسه على إيديهم.. دول عرسان.

وهزنتني من كتفي:

- أمال أمك كانت مالها؟

وتوقفت فجأة، وأغمضت إحدى عينيها، وحملقت بالأخرى إلى فوق حيث كانت امرأة تمسك بكلب بإحدى العمارات العالية وتداعبه، ثم تعود وترتكز على ركبتيها وترفع بقدم الكلب الأمامية وتقبله، وقفت زوجتي مذهولة وكأنها تريد أن تسأل، فلحقتها: - إيه؟ كلب!

قالت:

- وتمرر بوزه على شفايفها؟!

وأضافت:

- هو ما...

فقلت لها:

- الناس اللي في العلامي كده.. ما بيحبوش إلا كده.. في كل بيت كلب.

فقرصت على يدي.

وفي شارع البهلوان بيوته العالية كانت الناس تندفع من كافة الاتجاهات
وصوت يرتفع عاليًا: - الله أكبر.. الله أكبر والمجد لمصر.

وصوت أقدام تدق الأرض.. كان جمع من الناس الشبان بقمصان خضراء،
وينطلونات قصيرة قد توقفوا في الشارع، وعلى بعد خطوة وقف شاب
طويل القامة وقد لف على رقبته منديلًا أحمر غامقًا، وهتف ثلاث مرات: - الله
أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر والمجد لمصر.. مصر حرة.

وتقدم شاب قائلاً:

- يمين شمال.. على اليمين در.

وحملت بعيني أبحث بينهم عن عمال، فلم أجد سوى سالم طلبة الميكانيكي.

آه.. هم دول بتوع مصر الفتاة؟ حزب مصر الفتاة اللي دعاني له في يوم من
الأيام.

وقالت زوجتي:

- يا صلاة النبي!

وعيناها مثبتتان عليهم وهم يسرون وسط الشارع يدكون الأرض.

ولمحني سالم طلبة، فأسرع إليّ يحييني.

وقلت لزوجتي:

- زميلي في الشغل.

فنظرت إلى وجهه بعينين متسعيتين قائلة:

- ابقى اتفضل عندنا.

قالتها وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد، وقبل أن ينصرف همس في أذني: - فيه أخبار حتعجبك.. سمعت إن الشكاوى كلها تحولت للشركة.. الشكاوى اللي بعتناها وصلت الشركة وفيه ناس جاين من مصر.. جاية تحقق في الكلام اللي احنا بعناه.. وفيه ناس تانية جات من مصر ويتسأل في البلد.. بتمر على البيوت ويتسأل عن كل كام في الحجرة.. يظهر الشكاوى اللي بعناها نفعت.

وانبسطلت زوجتي عند سماعها هذا، وقالت:

- إياك يا رب عشان خاطري يكون قدمي كويس.. ابقى هاته البيت.. هات الجدع ده معاك.. هاته يسلينا ما احنا زي الغلابة في الأوضة!

والتصقت بي.. فنبهتها زوجة الولد الغريب قائلة: - ملزوقة فيه ليه كده؟

فلكزتها في كتفها:

- وانت مالك؟! ما تروحي تمشي جنب جوزك!

بينما شخط فيها زوجها:

- هَوَّ انتِ إيه؟ لسانك زي البربنت؟! ما تمشي ساكتة!

فردت قائلة:

- ما هي بتقول له اتفضل.. بتقولها بالفم المليان.

فردت زوجتي وقد علت حواجبها:

- ما يبجي.. هَوَّ انا باقولها كده وكده.. ده الضيف برزقه.

قالتها في حماس، وقد رفعت وجهها في وجهي.. فردت زوجة الولد الغريب:-

طب وإيه يعني؟

فردت زوجتي:

- هَوَّ بيتنا فاضي؟ بيتنا مليون.. فكري الله يخليه مش مخلينا محتاجين حاجة.

وبينما كنا نشق طريقنا وسط تلك الحشود قالت زوجتي:- إيه الناس دول؟

قالتها وهي تكاد تختنق.. فرد الولد الغريب:- هَمَّ دول حاجة.. أمال لو شفتي

الناس اللي في الشركة حتعملي إيه؟ ده جزء.. جزء منهم.

فردت زوجتي:

- يا صلاة النبي.. ده ولا مولد السيد البدوي!

- أمال فين الحمص؟ هَوَّ فيه مولد بلا حمص؟!

فرد الولد الغريب:

- مفيش هنا غير الفول السوداني والترمس.. هَوَّ انتِ فاكرة الناس دول جاين
يقروا الفاتحة؟ جاين يستباركوا؟

تعالوا جنب الحيط عبال فكري ما يشتري لنا.

فردت زوجتي:

- مش حاسيبك.. مش حاسيبك.. خدني وياك.. آه لو كل مرة تجيني.. هاتني
أُفْرَج!

وعلى إحدى العربات وقفت، وفردت زوجتي منديلاً أبيض مشغولاً بالترتر
بالخطوط الحمراء القاتمة اللون استعداداً لوضع ما سوف نشتره.. وإذا
بصوت نسائي يزعم منادياً، ولما تطلعت، كانت محاسن ومعها عاملات
أخرى، ولم أتمالك بعدها نفسي، فاندفعت منادياً: - محاسن.. محاسن.

ولم أنتبه إلا على صوت إحداهن وهي تقول: - مين دي؟ مين اللي معاك؟

وأغمضت إحدى عينيها غامرة.. وكانت زوجتي قد تسمرت حيث تركتها..
فأسرعت ثانية: - تعالي.. تعالي.. دول عاملات معايا في الشغل.

فسارت متعثرة بخطى بطيئة، وأسنانها قد التصقت ببعضها بينما هن يضحكن
مادات أيديهن.. وابتسمت محاسن ابتسامة كشفت عن أسنانها البيضاء،
وقالت وهي تعدل ملاءتها وترفع إحدى خصلات شعرها بيدها الأخرى: - كنت
فين؟ ما عادش حد يبشوفك! ما عدناش بنشوفك ع الباب واقف!

بينما همست أخرى سائلة:

- مين دي؟

قلت:

- دي مراتي.

قلتها في صوت عالٍ رن في الأذن.

- دي مراتي.. تعالوا معايا لما أعرفكم ببعض.

فشحبت وجوه بعضهن، وكان وجه محاسن أكثرهن شحوبًا، وأرادت أن تخفي هذا الضيق بابتسامة باهتة، وقالت: - إنت اتجوزت؟ اتجوزت من إمتى؟

قلت:

- من مدة.

قالت وهي تخفي عينيها:

- أتاري ما عادش حد بيشوفك!

وأضافت:

- ساكنين فين؟

- في صندفا.. تعالوا لما أوريكوا.

فأدارت محاسن وجهها وبكت، فاجتاحت عيني سحابة سوداء، ولم أنتبه إلا وزوجتي تدفني قائلة: - تعال.. يلاً واقف ليه؟ دول مشيوا.

حقوق حقا يا حاكم

عدت إلى الممكن وقد توقفت بجواره، وأحسست بضيق لم أكن أعرف مصدره، كان الممكن أمام عيني كأنه لا يوجد، ونبضات قلبي تزداد في الارتفاع دائماً، وخوف ينتابني.. وتوقفت إحدى الماكينات فجأة بسبب عطل في الترنك، وبقيت فترة من الزمن متوقفة بسبب عدم قدرتي على التصليح، لأنه كان يحتاج إلى فك وربط، وهذا لم يكن في مقدوري لقلّة المفاتيح.

فأسرعت إلى سالم طالبة الميكانيكي لما بيني وبينه من مودة.. ولما رأي رمش بإحدى عينيه: - لازم من الورشة.

وتلفت حواليه، ونظر لي وابتسم ابتسامة سمحة، وأضاف: - حنتعطل.. حنتعطل شوية.. استحمل.

ومسح يديه بقطعة قطن من العادم، وقذف بها على الأرض، واتجه حيث أحضر اثنين من البرادين، وأخذوا يناضلون لرفعه حتى احمرت وجوههم، احمرت من الإجهاد، وهم يقاومون لرفعه ويتبادلون الصياح، حتى حسبت أنهم سيتشاجرون، وصاح أحدهم وهم يضعونه في الطريقة، ويصقون فوقه: - ممكن ابن كلب! إنجليزي وسخ!

فرد الآخر:

- من سنة ألف وتمنمية.. مكتوب عليه من سنة ألف وتمنمية.. مر عليه كام سنة وآخرتها.. جابوه بعدما استهلك زي الكراكة.. زيها في الشغل.

وزعق:

- هَيَّ العمال بتموت من شوية؟! شيل.. شيل قبالي ع الورشة.

وابتسم سالم طلبة، وهز رأسه وهو يرفع معهم، وتمتم وهو يقترب مني: -
تصور.. مية سبعة وتلاتين سنة شغال وآخرتها جابوه.

قلت:

- مفيش مكن غير ده؟

فارتفع صوته عن ذي قبل:

- فيه مكن ياما عندهم.. مكن زي التراب.

قلت:

- وليه ما بيحبوش؟

فأوما برأسه وأضاف:

- هَوَّ احنا اتحصلنا على ده إلا بالعافية.. احتلوا مصر لحد دلوقت تلاتة وخمسين

سنة.. تلاتة وخمسين سنة من الاحتلال من سنة ١٨٨٢ وآخرتها إيه.. شوية

مكن خردة!

وقرش على أسنانه عندما قال:

- الاحتلال يعني التحكم.. التحكم في البيع والشرا.

قالها وتنهد.. وصمت لحظة، وعاد بعد أن مرر لسانه على شفثيه: - يبيعوا لنا

ازاي المكن الجديد؟! هَمَّ عايزينا نتقدم؟! دول بياخدوا القطن وبيبعوا لنا

القماش غالي، عاوزين بس همّ اللي يشتغلوا!

وتلفت حوالية:

- أمال الحاجات اللي بتحصل في البلد دي بتحصل ليه؟ ما سمعتش عن المظاهرات؟ ما سمعتش عن الجامعة؟ المدارس كلها مقلوبة والمظاهرات مالية الدنيا.. راح صدقي الكلب وجه عبد الفتاح يحيى باشا.. وانشال عبد الفتاح يحيى وجاءت وزارة نسيم.. وما عمله صدقي بالشعب بيكمله نسيم.. تقثيل وتذبيح للشعب! الدم.. الدم جري في الشارع عشان مصر تتحرر.. تتحرر في شرا المكن من أي حته.. من أي دولة هيّ عايزاها.. من روسيا.. من ألمانيا.. من فرنسا.. ونبيع القطن بالسعر اللي احنا عاوزينه.

وثنى أصابع يديه، وأطبقها تمامًا، وفي عصبية لوح بها في وجهي قائلاً: - لا دي واقفة لنا زي اللقمة في الزور.. خانقانا في البيع وفي الشرا.. مش ممكن نشتري إلا عن طريقها.

واحمرت وجنتاه، وزعق كالأسد الحبيس:

- عاوزين بلدنا تفضل كده؟ ولإمتي راح تفضل؟

ودفع الأرض بقدميه وأضاف:

- هوّ احنا اتحصلنا على المكن الخردة ده إلا بالعافية بعد ثورة الشعب سنة ١٩١٩، وحتى ما جاش ولا اتركبّ إلا في سنة ١٩٢٨ وفي المصنع ده بعدما اعترفوا بالاستقلال الاسمي.. استقلال إيه ولاد الكلب!

وقذف بالمكوك في الدرج، واعتدل في وقفته، واسترسل قائلاً: - استقلال إيه
ولاد الكلب!

قالها وتنهد وأضاف:

- لولا الخيانة لأخذنا الاستقلال.. استقلال البلد كامل.

قلت:

- مين همّ ولاد الكلب دول اللي انت تقصدهم؟

فأسبل إحدى عينيه:

- عدلي.. عدلي يكن.. خرج على الشعب وقت أن كانت الثورة مشتعلة!

واهتز بدنه عندما قال:

- وصدقي من بعده.. وآخرون.. وآخرون من بعدهم.

وكان قد حضر الميكانيكية من أصحابه وقتما قال هذه الكلمات، فوقفوا
يسمعون، واسترسل سالم طلبة في حديثه بعد أن ضم إحدى قدميه، وارتكز
بكوعه على أحد أجناب الماكينات، وحك ظهره: - ما حصل النهارده في مصر
من قتل هو احتجاج صارخ على ما قام به صدقي ونسيم لإلغاء دستور ١٩٢٣
وما قامت هذه المظاهرات إلا لتخلص من أذئاب الاستعمار!

وقرض على أسنانه عندما قال:

- البلد دي هيّ اللي لسه.

قلت وأنا أحاول أن أضحك.. وأن أبكي في الوقت نفسه: - أتاريكم أول امبارح
كنتم بتهتفوا.. لكن ليه يا سالم ما هتفتوش ضد الإنجليز؟ ما سمعتش منكم
غير: «الله أكبر والمجد لمصر»؟!

- الهتافات بتاعتنا تعني كل حاجة: الله أكبر تعني على الظالم، والعزة لمصر
تعني الاستقلال.

فهز الميكانيكي المجاور رأسه، وأغمض إحدى عينيه، وهو يقول: - مصدق
الكلام اللي انت بتقوله؟ مصدقه يا سالم؟

قالها في هدوء، مضيئًا:

- إيه يعني مصر الفتاة دي؟ مصر الفتاة دي إيه اللي انتو عاملينها! البلد في
حاجة يا سالم إلى وحدة.. وحدة ولا فرقة.. إنتو بتمزقوا وحدة الشعب،
وخرجتوا على ما قاله سعد.. الأمة مصدر السلطات.. إللي أصر عليه سعد انتو
بتخونوه.. أصر سعد على إن الدستور هو إن الشعب مصدر السلطات.. الملك
كما سمعت، أو كما تعرف اعترض.. وكانت المعركة بينه وبين سعد، معركة
انتصر فيها.. ولم يتخل عن شعاره.. الملك يملك ولا يحكم، والشعب هو
السلطة.. إيه اللي حصل؟ إيه حصل منكم؟

خنتوا الأمانة.. أول شيء عملتوه جبنتوا الملك في الأول.. أول شعار قلتوه:
«الله.. الملك».. يعني خليتوا الشعب الآخر.. مش ده شعاركم؟ فين الشعب؟
أين هو؟ ألم يكن هذا تخليًا عما قاله سعد؟! تخليتوا عن الشعب! سيبك يا
سالم وبلاش ولولة في الشارع.. بلاش تضليل.. من أسوأ الأعمال اللي
بتعملوه اليوم.. إنتو مع مين؟ مع عدلي يكن وصدقي وعبد الفتاح باشا يحيى
ومع نسيم وأيضا مع الملك! ضد من؟ الدستور.. هم عاشوا إلا بالحراب.. مع

مين انتم؟ مش بتقول انت دلوقت مش بتعترف إنهم من أعداء الشعب؟ فكر يا سالم فيما تقوله.. فكر فيما قاله سعد واعمله.. من وقف ضد الدستور هم من أعداء الشعب.. مع مَنْ أنتم إذن؟ انضموا لموكب الشعب وسيروا مع ما أرادته سعد للشعب.. قولوا «الملك يملك ولا يحكم».. المظاهرات مالية الدنيا ضد نسيم.. مطلب الشعب: عودة الدستور.. عودة الدستور تعني خروج الإنجليز وإتاحة الفرصة للشعب في الحركة.. فكر يا سالم إن أي خروج على الوفد خيانة لثورة ١٩١٩.

وكان أحد العمال قد جاء طالبًا إياه لتصلح ماكيناته، فاتجه مسرعًا دون أن يكمل الكلمات.. نظر سالم طلبة بشيء من التفكير، خيل إليّ أنه يكاد يذهب لإلقاء كلمة أخيرة للميكانيكي الذاهب إلى التصليح.

كان كلامه تشجيعًا لأن أسأل سالم طلبة:

- كنتم شوية امبارح! وما كانش معاكم عامل واحد!

قال:

- بنعمل على قدر ما نستطيع.. بنذكي الروح الوطنية في البلد دي.

واتكى على كلمة «البلد دي» وأضاف:

- هيّ العمال حتيجي ازاي؟ همّ عندهم وقت ولا فرصة للتفكير.. بيشتغلوا اتناشر ساعة.. مدفونين.. كلنا مدفونين من اللي بيحصل في البلد.. من طلعة الشمس لغاية العشا لا من شاف ولا من نظر.. تصور.. بلد زي دي فيها أكثر من ستة وعشرين ألف غير عمال المخابز والمحالج والنسيج اليدوي.. مجموعهم أكثر من ستة وخمسين ألف.. تصور!

وعاد وقبض على يده:

- بلد واحدة زي دي فيها كل هذا العدد! تصوروا لو خرجوا في مظاهرة! وقتها
نقدر نقول مصر حتتحرر مع عمال مصر جميعًا.

وشد على يده بعد أن لمح أحد الرؤساء الكبار من بعيد، وأضاف قبل أن
يمشي: - إنت عارف.. العمال اللي بتشتغل اتناشر ساعة ما يقدروش يجوا..
تعال انت وبانا.

ولم أرد مكتفيًا بهز رأسي.. فابتسم لي قائلاً: - أنا عارف.. عارف إن أخوك
وفدي.. أخوك اللي في القرية وانت حتخاف منه.

فابتسمت دون أن أجيب.. وكانت الساعة قد توقفت على الثانية عشرة
ظهرًا.. وكان موعد الغداء.

وبجوار الحائط افتقرشت الأرض، جوار أعداد غفيرة من العمال، وفي حماس
عرضت ما سمعته، وما سمعته بالكامل.

وكان صوت ينبعث من رجل يناهز الخامسة والأربعين من عمره، وعيناه
سمرأوان، وشعره خط فيه الشيب: - نسيوا يقولوا لك إن عمال الإسكندرية
اشتركوا في الثورة.. ثورة الشعب سنة ١٩١٩.. وكان لهم اتحاد عام، وعمال
السكك الحديدية أيضًا.. نسيوا يقولوا لك عن العمال ودورهم.

وهز رأسه وقال:

- سعد.. سعد الله يرحمه. ما يجوزش عليه غير الرحمة.. حل اتحادهم وسجن
الأعضاء!

ولما سأله أحد العمال عن السبب.. أحد العمال الجالسين، أجاب وكأنه كان معهم: - لما أتألفت حكومة برئاسة سعد، فرحت العمال، واعتبروها نصرًا، فتقدموا بمطالب.. منها تخفيض ساعات العمل، وزيادة في الأجر، ورفضت الحكومة وأضرب العمال، واحتلوا المصانع، ورفعوا العلم.. احتلوا المصانع ثلاثة أيام، وأداروا الممكن هم من الداخل.. أداروه في مهارة كالخبراء. ولكن سعد، الله يرحمه...

قالها وصمت لحظة، وأضاف بعد أن تنهد:

- ما يجوزش عليه إلا الرحمة.. ضربهم بالرصاص، وأدخلهم السجن.. طلعه من المصنع.. طلعهم بالعافية ومش بس حل الحزب الاشتراكي، وأعضاؤه الآخرون سجنوا، ومات في السجن محامي كان مشهور، أنطوان مارون، الله يرحمه، مات، الله يرحمه لأنه دافع عن العمال.. وصدقي راخر موت عمال العنابر.. دي حاجات معروفة لكل الناس.. لكل من عاش.. ده حال العمال.. كل الدنيا على العمال.

واعتدل في جلسته، وثنى إحدى قدميه ووضعها على الأخرى وأضاف: - إنتو زعلتوا؟ زعلتوا لما عباس حليم مجاش ليكو؟ مجاش ليه؟ لنفس السبب، لنفس السبب منعه.. همّ عارفين إن شركة زي دي ضخمة كبيرة فيها العدد ده.. الدنيا تتقلب لو عملت العمال حاجة.. الحكومة عارفة كويس.. واخدة بالها من اللي فات وعلشان كده خافت من مجيئه.. حتجيب وجع دماغ ليه لنفسها؟

وأخرج سيجارة من جيبه وقتما كان يهم بالوقوف.. كنا نسمع ونصمت، ولم نسأل فيما لا معرفة لنا به. وزعقت الصفارة مدوية.. منادية على العمال.

ومرت الأيام، وذات يوم وقتما كنا واقفين بجوار عبد العظيم وإذا به يرى مصطفى محمد من بعيد آتياً يرفع أحد أكمامه ويجري كالمجنون بين الممكن متطلعاً ذات اليمين وذات اليسار، فدفق بي قائلاً: - شايف.. جاي ليه كده يجري؟

ولما توقف بادرنا القول:

- ما دريتوش؟! الملك.. الملك مات!

قال هذا وسكت متلفئاً حوالبه كالباحث عن شيء، وأسرع في الاتجاه نحو سالم طلبة، وقد لمحت من وجهه أنه قد أصيب في الصميم، بعد أن رأيت شحوب وجهه الأسمر، وانتشر الخبر كالرعد في العنبر.. وامتعضت وجوه، وشحبت أخرى، وابتسم آخرون وآخرون.. وفي بطاء تحرك سالم طلبة، وأسند ظهره إلى الحائط، وحملت عيناه في السقف، وعلى غير العادة دخل مدير النسيج على المكتب، وفي يده برواز خشب به صورة، وارتفعت الهامات لترى، وإذا به يرفع صورة ويضع أخرى، وعاد بنفس السرعة إلى الخارج.

- آه.. لقد تأكد الخبر!

هكذا قال عبد العظيم.

وفي ظهر هذا اليوم نفسه، ونحن متجهون لشراء ما يلزم من غداء، كانت أعلام خضراء منكسة.. نكست على أبواب المصنع الخارجي يلعب بها الهواء، وبينما كانت العمال تسأل، كانت أصوات آتية من الخارج.. أصوات تصم الأذن:

- مات الملك! عاش الملك!

فأسرعت إلى الخارج، فكان مصطفى والكافوري وغيرهم وغيرهم، في حلقات، بينما وقف الآخرون وسط زحام الباعة المتجولين يشترون ما يلزم لهم من غداء، غير مباينين بما يحدث حولهم، وفي شماتة قال أحد الواقفين:-
إللي يبجي ع العمال ما يكسبش!

ورفع آخر يديه إلى السماء قائلاً:

- استجبت.. استجبت يا إله العرش.. لا بتغفل ولا بتنام!

وحملق بعينه في الواقفين:

- أنا مش قلت.. مش قلت يمهل ولا يهمل.. أهى جات له ع الماشي.

فرد مصطفى محمد قائلاً:

- ما تفرحش في اللي مات.. لما نشوف اللي راح يبجي.

وكانت صيحات الباعة عالية، والهتافات تبتعد وتبتعد.. ودخل العمال مشتبكين في أحاديث عدة.. إللي يقول:- كان ملك من غير زور.. الحكما ركبوا له زور كلب.

فرد آخر:

- أتاريه ههب.

واللي يقول:

- مات وابنه في بلاد بَرّه.. دول استنوا ما أعلنوش الخبر إلا لما جابوه لاحسن
الإنجليز ياخدوا الحكم.. ياخدوه من ثاني!

وقال صوت آخر:

- راح في داهية.. هوّ خلاهم غيره.. موت أكثر من اللي همّ موتوه!

واللي يقول:

- ابنه كان أحسن منه.. ربنا يجعل قدمه كويس!

أحاديث عدة مختلفة.

وفي المساء، كانت المظاهرات لم يخل منها شارع.. كلها تهتف للنحاس،
والعمال يسدون الطريق غير منتبهين لما يقال من هتافات في هذا الوقت
المتأخر قدر ما كان اهتمامهم بالتعب وكثرة ساعات العمل، وازداد الحماس
واشتد، واندفع العمال شيئاً فشيئاً.. الصوت يجتذب كالمغناطيس، وحمل
البعض على الأعناق، وإذا بي أجد نفسي أنا الآخر أجري بدافع الرغبة في
المعرفة جازاً الولد الغريب معي رغم تعصلجه وهو يقول: - تعال.. ملكش
دعوة.

وانا أقول:

- تعال نشوف.

واندمجت في الوسط، وجدبني الحماس فهتفت عاليًا ناسيًا نفسي من شدة
ما سمعت.

في هذا الوقت ظهر مصطفى محمد والكافوري وفرج أفندي ذو البنطلون الأزرق على ناصية أحد الشوارع القريبة من المركز ينظرون للمتظاهرين.. وزاد العدد.. وتكاثر أكثر فأكثر.. واندفعوا هم.. اندفعوا للآخرين.. وفجأة دفع بي أحد السائرين.. دفع بي فوق أكتافه قائلاً: - اهتف!

وكانت المفاجأة.. قلت:

- اهتف إيه؟

- اهتف واحنا نرد.

- اهتف إيه؟ نزلني!

- صوتك عالي.

والتف حولي كل من يعرفونني.. التفوا كالنحل عندما يتجه للعسل، ومد لي فرج أفندي يده بورقة مكتوبة، اتضح من خطها أنها كتبت على عجل، قائلاً: - اهتف.. اهتف.. اهتف المكتوب.. اهتف وبسرعة.. اهتف.. اهتف بمطالب.

وما كاد صوتي يرتفع، حتى التف حولي آخرون وآخرون: مطالبنا عادلة..

وقضيتنا أعدل

عادلة أرسلناها يا حاكم

دية دية يا حاكم

دية دية للي يموت

حقق حقق يا حاكم

حقق حقق في اللي يموت

السل اتفشى في العمال

خفض خفض يا حاكم

خفض خفض ساعات العمل يا حاكم

وارتفعت الأصوات، وتزاحمت الناس بجواري، ولم يعد هناك من هتافات سوى
ما أردده، كأنما كانوا على اتفاق.. وبينما كنت أهتف والأصوات ترن في
الفضاء، كان ثلاثة رجال من ذوي الجلايب والبلاطي البيضاء، والطواقبي
الصوف تعلقوا فوق رؤوسهم يهجمون في شراسة، واختطفوا الورقة من يدي،
وآخرون غيرهم انتزعوني من كتف الرجل زاعقين: - إنتو في إيه واحنا في
إيه؟ هوّ الميت مات والجنّازة حارة؟! إيه اللي جاب الحابل بالنابل؟! كلام إيه
اللي بتقولوه يا ولاد الكلب! تعال.. تعال معنا اتجر.. اتجرع المركز.. تعال يا
ابن الكلب!

تجمهرت العمال، وانتزعوني من بين أيديهم، وارتفع الصوت كالرعد: اشكوا
الظلم يا عمال

اشكوا الظلم للحكام

وصاح صوت جنوني آخر:

- امسك.. امسك دول.. امسك اللي عندك.. امسك ولاد الكلب!

وزمجرت الجموع المحتشدة وزعق صوت أحد الواقفين: - اضرب.. اضرب يا
جدع.. اضرب ولاد الكلب!

واندفس في الوسط، واختفى من فوره، ورأى الناس وهم يهرولون نحوه،
وعلت أصوات الاحتجاج المروعة من كافة الجوانب تطالب بضرب الثلاثة،
وكانوا من المخبرين.

وكانت الساعة تدق الحادية عشرة والنصف، وقتها كنت متجهًا إلى المنزل،
وإذا بصوت هادر يعدو من بعيد: - حالتنا ساءت! ساءت إلى الحد اللي يصعب
على أي إنسان أن يشوفها!

وقال آخر:

- إحنا مش عارفين ليه لحد دلوقت الحكومة ساكتة! مش سائلين ليه فينا؟ ولا
في اللي كتبناه؟

رد صوت آخر أكثر علوًا:

- لما تصحى!

وأنصت بأذني.. وفجأة خفتت الأصوات عندما سمعوا أصوات أقدام آتية
بالقرب منهم، وتدق الأرض في الظلام.. وبعد فترة صمت عاد صوت يقول: -
فعلنا ما في وسعنا.. ما في قدرتنا أن نفعله، ولم يبق إلا أن نراقب الأحداث.

وهمس صوت آخر:

- صبرنا صبر الكرام، والأيام والسنوات الغالية انقضت من عمرنا وما زلنا
نعيش عيشة مطينة!

ثم عادوا يتهامسون بأصوات هامسة خافتة، وأخذ الظلام يطبق تمامًا في الشارع والعطف التي يسكن فيها العديد من العمال.

وتمددت في الحجرة دون أن أقفل حتى الباب.. لم يكن من حديث سوى ما حدث.. الكل يتكلم: - سمعتم.. سمعتم المظاهرات حول موت الملك.. اتحولت إلى مظاهرات تهتف بمطالب.. عيال عفاريت!

وآخر يقول:

- عيال جدعان.. إحنا مالنا ومال اللي يموت واللي يعيش؟! ما اللي يموت يروح في داهية.. ما كل يوم ناس بتموت.. حد سأل.. سأل في اللي بيموت منا كل يوم بالممكن.. أحسن كده اللي طلعت أصواتنا في الشارع.

وآخر يقول:

- أحسن.. إللي الناس سابت هتاف الملك وهتفت ويانا.

وآخر يقول:

- همَّ الناس دول إيه؟ ما هم عمال.. كلهم عمال.. لما شافوا واحد بيهتف بمطالبهم كان لازم يبقوا كلهم وياه.. أمال العساكر ليه اتدخلوا؟ ما كانوا ساكتين من الأول.. ما تدخلوش إلا لما أصوات العمال عليت!

واستمرت الأحاديث تتردد أيامًا وشهورًا.

إنها شعلة قد أضيئت وأبدًا أبدًا لن تنطفئ

كان الصباح هادئًا، ساكن الريح، وجماعات عديدة تتحرك في طول الشارع وعرضه، وسحب من دخان المصانع تعلو وترتفع حتى حجبت الشمس، وأصوات بائعي الصحف من الصبيان تعلن أخبارًا تهز النفوس، وخرجت.. وكان عمال تقف جماعات أمام مبنى الري، وفي أيدي بعضهم جورنال.. وجماعات كثيرة هاماتهم عالية يتطلعون.. وتزاحمت أنا الآخر، وإذا بعيني تقع على أول جورنال، كان بالخط العريض مكتوب فيه: «قانون إصابات العمل».. وتزاحم آخرون وآخرون، وكانوا من الطول بحيث حجبا عني ما كنت أقرأه، وحاولت أن أشب على أظافري، ولكن دون جدوى.. وزعق صوت من بعيد: - سمعونا يا جدعان!

وتزحزحت إلى الخلف لأستطلع ما في وجه الرجل الذي يقرأ، وعلى الرصيف المجاور شبييت، وكان القارئ يتسمم، والمجاورون له هم الآخرون يتسمون، وصاح واحد منهم: - بشرى! بشرى للعمال! أصدرت الحكومة قانون إصابات العمل.

صيحات هائلة.. مهللين:

- هيه.. هيه.

وارتفعت الأصوات.. بعضها يغطي على البعض.

- كام الدية؟

وأصوات أخرى مهدئة:

- صبرنا ونلنا.. صبرنا يا رجاله.. عشنا وشفنا اللي يموت ياخذ دية.

وأصوات أخرى:

- يحيا الوفد.. يحيا الوفد.

وأصوات أخرى تردد:

- يحيا الوفد.. ما يموتش حق وراه مطالب.

وبدأ صوت آخر يعلو:

- هدوء! هدوء! اسمع يا جدع انت وهوّ لما نشوف.. كام يا جدع؟ كام حيدونا؟

ألف يوم؟ ألف يوم بالكامل للي يموت؟

وارتفع صوت آخر:

- وإيه تاني؟ مية وتمانين جنيه حد أقصى في حالة العجز الكامل.

وتمتم الواقفون:

- يا سلام.. حد كان طاييل.. ناخذ دول ونطالب.

- مبروك يا علي.. يا علي مبروك.. علي.. أخذنا الدية.. أخذنا الدية.. من أنيابهم.

وهتف صوت آخر:

- نصر.. نصر.. أول نصر للعمال.. اهتف يا محمود.. عاش الوفد.. وارتفع صوت

غطى على الضجيج: - عرفنا اللي يموت من الممكن.. عرفنا آخرة ده.. واللي

يموت من السل يعمل إيه؟ من الزغبار اللي بيعشش على الصدور يعمل إيه؟
مفيش حاجة؟ بص يا جدع في الجورنال يمكن...

وزعق آخر:

- مفيش حاجة عن ساعات العمل؟

وأصوات أخرى تقول:

- لا.. مفيش.. مفيش حاجة.. مفيش حاجة زي دي.

وقال آخر:

- يمكن في الجورنال الثاني.

وما سمعناه في الجورنال الثاني سمعناه في الأول.. مفيش حاجة.. مفيش
حاجة عن السل.. مفيش حاجة عن ساعات العمل.. مفيش حاجة عن الدورة..
مفيش.. مفيش.. بُكرة حنطالب.. نطالب زي ما طالبنا.

وأمام باب المصنع، حيث تجمع العمال، وكان فرج أفندي يتحدث وقد سبقني
غيري في السؤال، وكانت إجابته صريحة وواضحة: - إحنا في البداية ولسنا
في النهاية.. إذا كان القانون صدر ناقص، إلا إننا في أول الطريق.

وكانت الأبواب قد فتحت، وأسرعت بالدخول، وعلى الوجوه ابتسامة الأمل،
وعلى المكن وقفت العمال في ثقة متطلعين فيما حولهم في انتباه ظاهر،
تدفع أيديها الفرامل والموايك وكأنهم لا يدرون من الفرحة.. ومن على بُعد
كان عبد العظيم يتأرجح بين المكن، ويتطلع في كل تلك الوجوه المرحية،

فاتجهت نحوه محاولاً إخراجَه عن الصمت، فقلت مداعباً: - ما تحلق دقنك دي.. احلقها يا عم.. باب السما اتفتح.

فنظر لي وابتسم:

- يظهر عليك مبسوط.

- مبسوط طبعاً.. ما اتبسطش ليه؟ هَوَّ انت ما دريتش بالقانون؟

عرفت يا عم.. من طالب بالحق ينول.. آدي احنا دوشناهم بالشكاوى.

فنظر لي بعينين سمراوين، وفي نظراته الحنين، وهمس:

- اسمع.. حاقول لك كلمتين.. اسمعهم من هنا وخرجهم من هنا.. إنت حر.. حر

دلوقت.. انصح صاحبك من الصبح للضهر وبعد كده هَوَّ حر.. النهارده أحسن

من امبارح.. فرق السما من الأرض.. اشتغلنا ببلاش أول المدعوقه ودلوقت

ربنا أخذ بيدنا وأجرنا لله الحمد قد زاد.. واللي بيموت بياخد دية.. أهله حتلاقي

قرشين ولَّا إيه رأيك؟

قلت:

- كلام فرج أفندي إن احنا في أول الطريق وما احناش في النهاية.. ما

سمعتش ولَّا إيه؟ إحنا لسه خدنا حاجة؟ ساعات العمل لسه، والدورة لسه ما

اتفتحتش، والمصيبة اللي على دماغنا الشغل على أربع ماكينات.

فتلفت حواليه وقال:

- افكر كويس إنك قلت لي زمان إنك صاحب عيلة والدنيا ما بتتبنيش في يوم.. اتبنت في ست أيام.. بلاش دوشة.. سيب كل شيء ماشي لما ربنا يأمر راح ناخد.. ربنا بيرزق الإنسان من غير ما يدري.

قلت:

- حيجيب ازاي؟ هو مش قال: اسعى يا عبد وانا أسعى معاك؟ هو القانون جه إلا من كتابة الشكاوى؟

- أف! أف! إنت أصلك ما بتصليش.. لو جيت الجامع معايا وسمعت ما كانش لسانك الزفر ده قال... تعال واسمع القناعة.. سيبك من المشي ده وانتبه لشغلك ولأكل عيشك ولأمك وإخواتك.. ما حدش حينفعك.. اسمع كلامي! اسمع اللي باقولهولك! أنا برأت ذمتي وانت حر!

فاكتأبت، وأدرت ظهري محاولاً أن أضحك مثلما يضحك الآخرون مفكراً فيما سمعته ناظرًا لعبد العظيم: «سبحان مغير الأحوال! بقه هو ده عبد العظيم الشهم؟! لقد تعلمت منك يا عبد العظيم الشهامة والإقدام على العمل! لقد علمتني كيف لا أهاب الممكن ولا الرؤساء مسلماً لي عن حياتي المهيبة! مطمئناً إياي كيف ننظر إلى اليوم الذي يقول فيه أحد.. إنتو ما بتفهموش».

وسألت نفسي: «أصحيح؟ صحيح أنه سيبقى؟».

وقلت: «أبدًا.. لا أصدق هذا.. أبدًا أبدًا إن المظالم التي نحيها ستجبره كما أجبرته فيما مضى على السير في نفس الطريق وألا يتخلى عنه».

وكانت ضجة الممكن عالية، والسرور بالقانون لا حدود له بين عمال كثيرًا ما طالبت به.. في هذا الوقت أيضًا كان الميكانيكية الجدد كل منهم يسلم على

الآخر مهنتاً بعضهم بعضاً، وانتهى اليوم على تهاليل العمال وفرحتهم، لا بانتهاء ساعات العمل الطويلة، ولكن لظهور أشياء جديدة في الآفاق.. في نفس الوقت ظهر مصطفى محمد بجواري وهمس: - الليلة.. الليلة على الباب تستنى.

واتجه نحو عبد العظيم ووقفت أترقب وجهيهما، واستطعت أن ألمح ما في وجه عبد العظيم من حزن مثلما كنت ألمحه عندما يمتلكه الغضب.. واستمررا يتهامسان فترة أيقنت بعدها أنه لن يأتي الآن معنا.

في المكان المحدد لم يكن أحد سوى مصطفى واقفاً وحده يتفرس في الوجوه بعين لا ترمش، ولما لم يجد أحداً أسرع في القول: - يلاً بينا.. يظهر الفرحة أنستهم.

وفي الطريق كانت الشوارع مكتظة، ومعاكسات الرجال لبعض النسوة تزداد، مما دفع بالولد الغريب هو الآخر أن يكفي طاقيته على جبهته، ووضع إحدى يديه خلف ظهره واقترب من النسوة: - سلام يا قمر.. نفسي أشوف.. أشرب سجاير.. الجوزة والقهوة.. وأشوف زي الناس ما بتشوف.. الليلة يا قمر.

عندما رآه مصطفى يفعل هذا صفق بإحدى يديه، وابتعد وقال وهو يضع يده على فمه: - خلق! خلق! عفاريت!

ودعاه وهو لا يكاد يصدق:

- تعال.. تعال. ما تكسفنناش!

وابتعدت النسوة، وسارت على الرصيف وهن يتبادلن الغمزات.

وعلى ناصية شارع البهلوان توقف قليلاً، ومالت عيناه فجأة على ناصية نفس الشارع، واهتزت رأسه مرات، وفي صوت صامت: - شايف؟! فين لما كان الشارع كله تهتز جدرانه عندما كانت أصوات العمال تعلو بالهتافات فيه. وتلفت حوالبه وهو يكاد لا يصدق أن هذا ما حدث، ومد يده لي واتجه قائلاً: - مع السلامة.. إلى أن نلتقي وفي هذا المكان.

مرت شهور أربعة، وفي الشهر الخامس من عام ١٩٣٧ وبينما كنت واقفاً مع مصطفى بجوار البوستة إذا بفرج أفندي يقف بجوارنا قائلاً: - إنتو فين؟ فين ما حدش شافكم؟

- إحنا؟ إحنا فين؟! قول لنا انت.. إنت اللي ما عادش حد بيشفك! إنت بتقول لنا قابلوهم بالصوت ليغلبوكم؟ فين انت طول هذه المدة؟

وبينما كنا نتحدث إذ بأحد الأفندية من المقاهي المجاورة يلوح بكلتا يديه زاعقاً: - يا فرج أفندي.. يا فرج أفندي.

ولما رآه أسرع نحوه.. وعاد بعدها متهلل الوجه باسمًا:

- بشرى.. بشرى عظيمة.. إشاعة سمعتها دلوقت عن شغل العمال ٨ ساعات.

فصفق مصطفى... صفق طويلًا:

- مين اللي قال؟ مين اللي قال لك الكلام ده يا فرج أفندي؟

- الافندي كاتب في الإدارة.. شافه بعينه.

- روح اسأل.. روح اتأكد.. اتأكد من جديد.

- اتأكدت م الكاتب.. شافه بعنيه.. فيه بيقول: «بناء على ما وصلنا من شكايات عديدة، لا من داخل المصنع فحسب بل أيضًا من الأهالي، وتقارير أخرى واردة من إدارة المستشفى عن انتشار مرض السل الناتج عن الزغبار.. نرجو عمل اللازم وإفادتنا».

هذا ما رآه.. وقد أسرعت قائلاً بعدما استذكرت ما سبق أن سمعته يوم أن كنت بالمستشفى: - صحيح الجواب ده.. أنا سمعت من الحكما يوم أن كنت هناك.. سمعتهم وهم يتكلمون مع بعض: «كتبنا للحكومة.. كتبنا وسوف نكتب».. سمعت منهم هذا يا فرج أفندي!

فانتفض الولد الغريب في وقفته:

- يعني حنشوف السما؟ حنشوف الشمس وهي طالعة؟ هيه هيه!

واهتزت فرائص مصطفى وهو يردد:

- حد عرف غيرنا؟

فرد فرج أفندي:

- إللي بتحبل في مصر بيعرفوا عنها في إسكندرية! يا خير بفلوس بُكرة يبقى بيلاش!

وكانت الساعة قد دقت العاشرة والنصف مساء.

كان كلب من على أعلى أسطح المنازل يحملق للقمر الساطع يواصل نباحه يريد إخافته.. ولم تكن على طول الطريق سوى أصوات متفرقة وضحكات

بعض النسوة من حين لآخر تخرج عالية من بيوت لا يعرف الحزن طريقًا
لأبوابها.

كانت شمس الصباح هادئة، ومياه النيل الحمراء تعلو وترتفع، والعمال تعدو
من كافة الاتجاهات، وأحاديث لا تنقطع في اتجاه واحد حول جواب الصحة
الذي وصل للمصنع يقول بتشغيل العمال ثماني ساعات: - النهارده أول
الأسبوع.

- آدي احنا داخلين جوّه وراح نعرف.

- يا سلام.. حنتمشى ونشوف الشمس؟! طاقة القدر انفتحت! هيّ الرؤساء
راح ترضى؟

- همّ أكبر من الحكومة؟ قول يا رب!

كانت أحاديث عديدة.. وأنا في وسطهم أسمع.. كان الكلام في ثقة بأن
الجواب قد وصل، وأن الشركة ستنفذ، وتطلعت بعيني وإذا بالرؤساء
يتهامسون بجوار مكتب مدير النسيج ثم يعودون ويتحركون بين الممكن، ثم
يعودون ويتحدثون من جديد.. والمباشرون والميكانيكية الجدد في أماكن
أخرى من العالم.. وسالم طلبة يتحرك بينهم في همة ونشاط، ثم يعودون
يتحدثون أحاديث مقتضبة، وبان من ملامح وجوههم أن شيئًا ما سوف يحدث..
قلت لنفسى: «إن ما سمعته اليوم في الطريق لا بد أن يكون له علاقة
بحديثهم.. حديثهم الآن».

وكان صوت يزعق، يزعق في بداية دخوله العنبر:

- هوه.. هوه.. هوه!

وكان الولد الغريب يلوح بيديه:

- تعال.. تعال.. تعال بص.

فقد كانت أعداد غفيرة من عمال النسيج والسحب والكرد والتنظيف.

- هيه.. هيه.. هيه.

مغطيين على الضجيج وهم يخرجون جماعات من عنابرهم، وقد غطى الزغبار رؤوسهم، وأذرع تلوح، والعمال تسأل والجواب: - شغلونا ٣ دوريات.. ٣ دوريات، اشتغلنا ٨ ساعات.. هيه.. هيه.. هيه.. ٨ ساعات.. حنشوف الشمس.. حنروح الجنائن.. شارع محب حنشوفه بالنهار.. حنتفسح في الجنائن.

- حيجوا لكم.. سلامو عليكم.. عقبالكم يا جماعة.

وكلمة «هوه» ترح الأرض.. وبأياد تقبض على الفرامل، وبأخرى تحدف المكوك: «بنشتغل بالإنتاج.. حنتجدعن.. يوم العمل حيقبل.. ما كنت أنتجه في الاثنتي عشرة ساعة حانتجه في الثمان ساعات.. لازم أجيبه».

وانطلقت على الممكن أعمل بكل قوتي، ولم أشعر بالوقت من كثرة الإجهاد، وتوقفت الساعة على الثانية عشرة ظهرًا كالمعتاد.

دهشت وانزعجت: «حصل إيه؟ مش قالوا لنا حنشتغل ٨ ساعات؟ عمال الغزل والتنظيف اشتغلوا.. أمال مالنا؟! مالنا احنا؟ ليه ما جولناش؟ يمكن عامل الكهرباء نسي.. لما نشوف.. خمس دقائق أهم فاتوا.. كمان خمسة وأهم فاتوا!».

- تعالوا لما نشوف.

- يوه.. ده راح يتغدى.

- إحنا مش قلنا؟

- عاوز تقول إيه؟

- عاوز أقول إنه ما يقدرش.. ما يقدرش يوقف أكثر من دقيقة ما يقدرش إلا لو كان عارف وإلا انفصل في الحال.

ثورة في النفوس:

- إحنا ملناش دعوة.. كل واحد يستنى على مكته.. إوعى حد يتعتع.. مش حناكل، الساعة ٣ حنروح.. الرؤساء راحت تتغدى.

- إزاي؟ همّ مش ويانا؟

ودارت المواتير.

- الله.. الساعة بقت واحدة!

حديث حول الممكن:

- الحكومة مش قالت؟ الشركة حتنفذ؟

كلام لا ينقطع، وعقارب الساعة تتحرك، وعيون زائغة تنظر في لهفة.. وكانت الأصوات هادرة.. عمال السحب والبرم والغزل والتنظيف في التقاء في الطرقة، عمال الوردية الثانية، الساعة الآن ثلاثة.

دلوقت حتقف، ثلاثة وخمسة، ما وقفنش.

دلوقت حتقف.. الساعة بقت ثلاثة وررع.. ثلاثة ونص.. وتراخت الأيدي وهبطت
العزائم.. وسار البعض في تكاسل: - إشمعنى!

- مش معقول! حنستنى كده لإمتى؟ ولإمتى؟ نوقف المكن نستنى ليه في
الشغل؟

اجتماعات في كل مكان، ومكنة تتوقف وأخرى تدور، وأيدي كسولة تتحرك
على الفرامل، ووجوه شاحبة تنظر، تنظر للسقف ويتمتمون: - عمال الغزل
دلوقت نايمين وآخرون في الشارع، واحنا هنا في الشغل؟! وعمال تعدو نحو
الباب لإلقاء نظرة في الطرقة، وموايك تقع في الأرض دون أن يهتم أحد
برفعها.

- مش معقول نشغل ١٣ ساعة وغيرنا تمانية.

والرؤساء والمباشرون والميكانيكية ينظرون من بعيد دون أن يتحرك واحد
منهم في اتجاه المتجمعين، وعلى الباب الخارجي لم يكن هناك صوت لبائعة
فجل ولا كرات، حتى الطعمية اختفت من السوق، وأصوات متعبة متهالكة: -
حناكل إيه؟

- إللي سبق أكل النبق.

- هوّ في حاجة حنستنى؟

- اتفضل.. شايف آدي العمال جاينين.. جاينين م البوظة.

- رايجين فين؟

- رايجين ع الشون نمص قصب.

- هاها.. إنتم لسه؟ ياه! الله يكون في عونكم! إحنا الوقت عرفنا أد إيه التعب،
أد إيه بتتعبوا! ده احنا شبعنا نوم واتمشنا لما موتنا وانتم لسه؟ الله يكون في
عونكم!

- طبعا.. الله يكون في عوننا.. كلتوها ع الجاهز.. شميتوا الهوا ع البحر.. جات
لكم ع الطبطاب.

- اشتروا لنا غموس!

- حد كان قال؟

- إحنا حناكل إيه؟

- أي حاجة.. أي حاجة تاكلوها.

- ودلوقت رايعين فين؟

- لسه حنتمشى.. حنستعجل ليه؟ دول ٨ ساعات.. فركة كعب نشغلهم وتنتنا
طالعين.

- اشتكوا.

- شبعنا شكواى وآخرتها آدي انتم خدتوها ع الجاهز.

- كان الولد الغريب غاضبًا غاية في الغضب.. إذ قال وهو يلوح بيده في وجهي: -
تقدر تقول عمال الغزل عملت إيه؟

فرد الولد السيد:

- وده مالہ؟

- مالہ ازاي؟

- هُوَ في إيديه حاجة يعملها؟

- فين الأفندية؟ فين فرج أفندي؟ فين يا سي فكري؟ قلبتم الدنيا كلام! فين؟

راحوا فين؟ راح فين مصطفى؟ فين الكافوري؟

- ما تستعجلش! بُكرة حتشوفهم.. الدنيا ما اتبنتش في يوم.

- هُوَ ده يوم؟ دول تسع سنين! تسعة بالكامل واحنا في القطران!

وفي اليوم الثاني كانت سحب دخان المصنع السوداء تتكاثف من مداخل المصنع ذات المباني العالية، وأخرى من بواجير الحلاجة بيضاء تحاول كل منها التغلب على الأخرى وتضفي عليها لونها، وأصوات منذرة: - مش ممكن حنستنى! مش ممكن يكون الأمر ده لعمال الغزل!

الحكومة قالت يبقى خلاص.. ثمان ساعات عمل للجميع.. وحتى لو ما قالتش احنا حننفذ.. مش ممكن نسكت.. الشركة بتفرق.

حاولت البحث في الزحام عن فرج أفندي أو مصطفى فلم تقع عيناى إلا على الوجوه الشاحبة، وبجوار المكن توقفت في تراخ، وبدأت أدير ماكينة وأوقف ماكينة أخرى.. وجوه تتطلع لبعضها البعض، وعمال النظافة مستندون بظهورهم على أجناب المكن.. وفي غيظ اتجهت نحو عبد العظيم: - ما حدش شافك ليه إمبارح ولا النهارده؟! إيه الحكاية؟ هُوَ اللي جرى ده مش على

بالك؟

وقبل أن يجيب تلفت حوله وقال:

- تانك ماشي على مكنك دلوقت!

- هَوَّ كل ما أقول لك حاجة ما لاقيش عندك غير الكلمتين دول؟!!

- إللي يجرى علينا يجرى عليهم.. روح ع المكن دلوقت.. الدنيا مقلوبة وما حدش عارف إيه النهارده راح يحصل.

وشاور بإصبعه:

- شايف الرؤساء داخله طالعة ازاي؟ ابعد عني دلوقت! الرؤساء بتبص وتشوف العمال بتعمل إيه!

ودفع بي قائلاً:

- روح!

وجز على شفتيه:

- روح لما نشوف إيه النهارده راح يحصل!

كانت الساعة قد توقفت على الثانية عشرة ظهرًا.

لا فائدة.. سيبقى الشغل كما هو ١٢ ساعة وكأن الحكومة لم تأمر!

ولم يتوانَ أحد.. فاتجه كل منهم للخارج، ونظرات صارمة لعنابر الغزل.

وعلى غير العادة عاد الكل وفي أيدي كل منهم منديل الأكل لم يفتح.. وفي
كآبة وقف الكل في الطرقة، طرقة عنبر النسيج ورن صوت حاد عاليًا: -
مفيش رجالة! العيال أحسن منكم! الرجالة حتشوف حاجات زي دي وتسكت؟
شايفين.. بصوا للعنابر.

وتطلعت العمال لبعضها البعض، وفي غيظ قال آخر:

- نكتب للحكومة.

وهممت أصوات أخرى عديدة:

- كفاية.. كفاية.. حنكتب لإمتي؟

واقترب الولد الغريب مني:

- تعال دور على أصحابك.. شوف يمكن عندهم حل.

ومن على بُعد كان مصطفى محمد واقفًا، وفي غضب قال الولد الغريب: -
أهم.. أهم واقفين.

واقف كده ليه يا عبد العظيم؟! واقف وكأن الدنيا مش على بالك!

ملوحًا بذراعه في وجهه:

- ما تشوف عايزين إيه؟ ما تشوف حنعمل إيه؟ مش معقول نتعب نفسنا
والناس تاخدها ع الجاهز! مش ممكن حتتحسن! ياما سمعت منك! وانت يا
مصطفى وانت يا عبد العظيم وانت يا سي فكري؟ رايح فين؟ رايح النقابة..

جاي منين؟ جاي من النقابة.. كنت فين؟ عند مصطفى.. رايح فين؟ عند الكافوري.. مليتوا دماغنا كلام! فين انتو دلوقت؟!

وفي شفقة نظر مصطفى للولد الغريب وقلع طاقيته ونفضها من الزغبار العالق بها وضحك ضحكة هادئة وربت على كتفه: - ما تستعجلش.. كل تأخيرة وفيها خيرة.

قلت:

- تقصد إيه يا مصطفى؟

قال وعلى وجهه ابتسامة جادة:

- اصبر.

- غير كده؟

- العجلة فيها الندامة.. اصبر وما صبرك إلا بالله.

- نصبر إيه؟ الحكومة مش قالت؟ يبقى عايزين إيه؟ نقعد؟ مش ممكن!

وارتفع صوت الولد الغريب من ثاني:

- مش معقول! هوّ احنا مش عمال؟ إنت خايف يا مصطفى؟ إنت لازم خايف

يا عبد العظيم.. والله العظيم انتو الاتنين خايفين!

وتطلع حوله، وجذبني من يدي وهو يحلف بالأيمان أنهم خائفون.

- تعال دول خايفين.

- إيه رأيك يا عبد العظيم؟ ما تتكلم! ما نوقف المكن زي ما وقفناه في المرة الأولى!

فارتعش جسده وقال في غضب:

- نوقف إيه؟

ملوحًا بيده في وجه الولد الغريب.

- نوقفه زي ما وقفناه! حيحصل إيه؟ حنخاف لإمتي؟

وقد سمع بعض العمال المجاورين لنا، فردوا في نفس واحد:

- هوّ ده.. مفيش غير ده.. الحل ده مفيش غيره.

وارتفعت أصواتهم:

- يا عمال الحل جه.. حنوقف المكن.. نوقف المكن كله!

مشوحين بأذرتهم:

- نوقف لما نخش.

وتعالت الهتافات مدوية:

- عاشت العمال!

ومن بعيد كان الميكانيكية الجدد، وسالم طلبة في وسطهم يضحك، وثنى أصابع يده ووقف يشجعنا خلسة، بينما جذبني عبد العظيم من يدي قائلاً في

صوت هادئ ومرتجف في الوقت نفسه: - الواحد يبقى له في كل خطوة
سلامة، وانت لك في كل خطوة عفريت! ما كنا واقفين في أمان الله!

وزعق مصطفى:

- حنوقف الممكن كله؟ حنوقفه ازاي؟

فارتفعت الأصوات بحماس:

- حنوقفه واللي ما يوقفش حنضربه!

واحتقن وجه عبد العظيم، ومالت رأسه على الحائط واضعًا أصابعه في فمه،
وفي نفس الوقت فتحت الأبواب.. واندفعت العمال هاتفة: - حنوقف الممكن.

وعبد العظيم يراقب الضوضاء غير العادية التي سيطرت على العنبر.

والعمال في هياج، يجتمعون ثم ينفضون.. وأحسست بالخوف من الجو
المشحون بالغضب، والحماسة تتجلى شيئًا فشيئًا، وعبارات التشجيع تتداول
من حين لآخر: - شد حيلك.

- شدوا حيلكم.. أهى دي الرجولية ولّا بلاش.

وهتف صوت مناديًا:

- يا عبد العظيم، يا مصطفى، إللي ما يوقفش حنموته!

وتحركت المواير في بطئها المعهود، وأدار البعض ماكيناته، وأسرعت العمال
في أصوات مذعورة: - وقف الممكن يا ابن الكلب! وقف يا ابن الملعونة وإلا

قتلناك!

وفي حماس أسرع البعض وأخرس المكنة وأخرس صوتها.. ولم يعد صوت
لما كينة يرتفع سوى أصوات العمال الهاتفة: - تحيا وحدة العمال.

وفي صوت هامس في أذن مصطفى محمد:

- عاوزين نزعق على العمال بيجوا هنا في الصالة.

ملوِّحًا بيديه:

- شايف العنبر؟ شايف أد إيه؟ ما نقدرش نمسك العمال لو جه حد من
الرؤساء الكبار.. أحسن حد يخاف ويدور ما كينته.. لو ما كينة دارت رحنا في
داهية!

- حنعمل إيه؟ إذا كان كل شيء تم فجأة! حد كان عارف إن ده راح يحصل؟

- إنت كنت عارف يا مصطفى؟

- أبدًا.

- ولا انا.. أمال إيه؟

- حاجة بمحض الصدفة.

- هَوّ ده يبقى كلام.. حاجة زي دي لازم نعملها واحنا عارفين.. لازم كان يتعمل
لها ألف حساب.. هَوّ نزول البحر زي طلوعه.

لو جه حد وقال واقفين ليه، مين حيتقدم؟ هَوَّ ده بس مطلبنا؟ لنا مطالب كان لازم العمال تعرفها.. قانون إصابات العمل اللي ما اتنفذش، وفتح الدورة، وساعات العمل، مين حيدافع عن كل ده؟

فشخصت عين مصطفى للأرض، وهز رأسه:

- صحيح.. مين حيتقدم؟ لا نقابة ولا حاجة! أهى انقفلت وخلص، وآدي احنا واقفين واللي كان أهو كان.

- انده.. انده بقى.. انده عليهم.

- إزاي؟

- اقف على ماكينة وصفر بلسانك.. انده.

- تعالوا هنا.. كلكم تيجوا.

وبقي عبد العظيم وحده هناك يداعب شعيرات طويلة من ذقنه، فأسرعت نحوه: - واقف ليه؟

- ركبنا الهم؟

قالها وتنهد وأضاف:

- إيه راح يحصل؟ حنعمل إيه؟ ما كنا واقفين! ليه بس قلتها؟! آدي احنا واقفين! حد فكر حنرجع ازاي ولإمتى حنستنى؟

وجز على أسنانه واسترسل قائلاً:

- إلهي واقف على البر عوام.. آدي انت قلتها وسكت وتلقفها غيرك.

- كان باب السما مفتوح.. المهم المكن واقف.. تعال نقف مع العمال وبلاش
وقفة كده لوحدك.

ودفعت يدي في يده، وبينما كنا متجهين، إذ بصوت يقول:

- كل واحد يقعد على ماكينة.. وبلاش وقفة في الطرقة.

وآخر يلوح:

- تعالوا يا عمال.. تعالوا نطلع برّه.

فاغتاظ عبد العظيم وقال:

- نسمع كلام مين منهم؟ بقه ده إضراب؟! إزاي ده؟ إزاي ده راح ينفع؟ إلهي
يمشي ورا العيال ما يخلص!

- اتقدم انت واتكلم.. حنعمل إيه؟ إلهي عنده كلمة حيقولها.

وبينما كانت العمال تتجه نحو الجلوس على المكن، كان أحد المديرين
المتخصصين في تصميم الأقمشة يدخل ومن خلفه أحد المترجمين، ولمحت
العمال وجهه الأحمر، وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل جانب: - ما حدش
يشتغل.. إوعى حد يخاف.. ما حدش يشتغل إلا إلهي قالت عليه الحكومة
يتنفذ.

وهتف صوت مدويًا:

- كفى ظلماً يا رؤساء؟!

ارتفعت أصوات أخرى هاتفة:

- مطالبنا عادلة.

وأصوات أخرى رجت الجدران:

- افتحوا الدورة للعمال.. افتحوها يا ظلمة.. ٨ ساعات عمل للجميع.

وتوجهت الجموع الهاتفة على المكتب يتدافعون بالأكتاف نحو المدير الفرنسي الواقف على الكرسي في الصالة، وأياد تلوح من كافة الاتجاهات، وأصوات تدوي: - افتحوا الدورة يا ظلمة.. هاتوا لنا زيادة يا ظلمة.. كفاكم ظلم تسع سنوات.

والمترجم يسجل ما يقال، ويعود ويهمس في أذن المدير الفرنسي ما يقال من هتافات، وإذا ببياض وجهه واحمراره يشحب وينقلب إلى صفرة قاتمة، وبحركة هستيرية رطن بكلمات سريعة لم يفهمها أحد، فأسرع المترجم بصوت غليظ: - الباب مفتوح يساع الجمل.. إللي مش عاجبه يورينا عرض كتافه.

ولم يكمل الكلمات إلا وأحد العمال قد صوب لوحة من لحمة غزل القطن وقذف بها نحوه، وتوالت كالمطر من بعيد مواشير اللحم.

- ماجبتلناش حاجة يا ابن الكلب!

واهتاجت العمال وهتف البعض:

- يسقط المدير الظالم.. يسقط المدير الفرنساوي.

وارتجفت أعضاؤه، وإذا برزمة من المواسير صوبت بنشان دقيق فهوت على رأسه، وسال الدم، وأسرع خارجًا يهرول كالمخبول خارج العنبر، وتوقفت المواتير بعد دقائق، مع أن الساعة لم تكن قد توقفت على الثالثة، وتهللت الوجوه.. وكان عبد العظيم أول من ضحك وهو يردد: - بداية طيبة.

وأضاف:

- ناقص لزق المنشور على الجدران.

وتزاحمت العمال نحو الباب، واندفع مصطفى ليحوش:

- رايعين فين؟

- المواتير وقفت.

- استنوا.. الساعة لسه اتنين.. انتظروا.. انتظروا.

- عايزين نطلع.. عايزين نروح قبل الغزل.

وإذا بباب العنبر يفتح بعنف، وطلت رؤوس شاحبة على الباب، وعصي مخابأة خلف الظهور، آمرة بتوعد: - اخرجوا.

وفي ثبات تقدمت العمال كتلة مرددين في صوت مزعج:

- المعاد لسه ما جاش.. في المعاد راح نطلع.. الساعة ٣ بالظبط!

واجتاح العمال موجة الفرحة وهم يعجلون بالمرواح:

- نستنى ليه؟ يلاً نروح!

وارتفعت أصوات أخرى:

- تعالوا يا جدعان.. تعالوا نتكلم.

أصوات يغطي بعضها على بعض:

- عايزين نعرف احنا رايعين فين؟ لازم نعرف سكة نمشي فيها.. عمال الليل

لسه ما عرفوش ما دام المنشور لسه ما نزلش.

واختلطت الأصوات:

- نقول لهم.. كل جماعة ساكنين مع بعض يقولوا لبعض.

- ده عمل همايوني.. لازم زملاؤنا يعرفوا.

ثورة عارمة في النفوس.

- كل ناس ساكنين مع ناس يقولوا لهم.

فارتفع صوت مصطفى محمد عاليًا:

- ده ما ينفعش! لازم نكلف ناس تمر على الأحياء.. ناس مخصوص.

- ونجيهم ازاي؟

- نختارهم.. نختارهم من وسطنا.. عاوزين عشرين أو ثلاثين.

كل واحد جدع يقدم نفسه.. جدع بصحيح.

وارتفعت الأصوات:

- أنا.. أنا.

وتبارى الكل، كل يريد أن يتقدم، إلى أن تجمع الثلاثون، وكنت ممن تقدموا بحماس.. وتعالَت أصوات: - ومصطفى والكافوري وعبد العظيم.

واندفعت العمال خارجة، وفي ذهن كل منهم تبليغ عمال الليل بما حدث.. وارتكن عبد العظيم ثانية على أحد الحوائط البعيدة وشفثاه بين أسنانه ولون وجهه الأسمر قد اختطف، فأسرعت في الاتجاه نحوه: - يَلَّا بينا.. العمال كلها مشيت.. يَلَّا علشان نقدر نمرع العمال.

وفي الطريق كانت تمتمات تخرج بصعوبة من بين الشفاه المطبقة: - إيه ده؟ نعمل العملة ونروح نحملها لغيرنا.. المرة اللي فاتت عملناها ما كانش حد منهم عارف.. والمرة دي برضه عملناها بس على أسوأ.. هيَّ الشركة حتسيينا؟ مش معقول! المدير ساح دمه.. عمل همايوني!

فرد الولد الغريب:

- يعني إيه عمل همايوني؟ إنت كده متأخر وحتأخرنا معاك.. هات إيدك.. همَّ عملوا كده من شوبة؟ من اللي شافوه.. وآخرتها جه مدير ابن كلب يقول اللي عاجبه واللي مش عاجبه.. قرب.. ما يجيبها إلا رجالها.

ومررنا على الناس في أحياء عديدة، وفي مكان ما بشارع سوق اللبن اجتمع البعض، وكان فرج أفندي أحدهم، وكان أول من تكلم فقال: - والآن وقد تعدلت الأحوال، وبعد أن كانوا هم المهاجمين لنا دائماً، أصبحنا الآن مهاجمين.. ولكي نستمر لا بد من نظام.. وما قمتم به اليوم هو أحسن دليل على بداية

المعرفة الصحيحة.. لقد اخترتم أناسًا منكم.. عمال وليسوا من غير العمال،
وهذه بداية طيبة لمعرفة الحقيقة.. إنها بداية وليست نهاية.. ولم يعلق
المنشور فقد كنت آخر من خرج ولم أره.. وهناك اجتماعات في المصنع في
أماكن ما خلف المكاتب لا يحضرها إلا الكبار، ولا يعرف أحد ما يخبئه الغد..
فلتكونوا على يقظة.. لقد بدأ المصنع بعنبرين والآن به أكثر من عشرين من
البنيات الضخمة.. العنابر تتكاثر والعمال تموت وهي تشيدها.. تسع سنوات
منذ بدأ العمل.. عنابر تقام وعمارات تشيد لراحة الخواجات ومن في حكمهم
من الأسياد.. والعمال هم.. أنتم.. أصل هذا التشييد.. لا تجدون مكانًا للراحة..
إنها شعلة قد أضيئت.. أشعلتموها اليوم وأبدًا أبدًا لن تنطفئ.

معركة الـ ٨ ساعات

توجه عمال الليل إلى المصنع.. إلى مصير لا يعرف مداه.. لقد توقف العمل ولم نكن نحن أول من بدأ.. ولم يسبق لنا أن واجهنا الرؤساء في موقف عنيف حاسم.. هل نستطيع أن نواجههم.. نتوقف من أجل أن نرى الشمس وهي تغمر البيوت والشوارع.. من أجل ثماني ساعات عمل.. المهم ماذا نفعل.. عمال الوردية الأولى ينتظرون ما سنفعله، ماذا يقال عنا لو لم نتوقف مثلهم.. لو استغنت الشركة عن كل من يتوقف عن العمل سنلاقي مصيرًا أسود، هل هناك ضمان؟ فلنبذل الجهد، حتى لا يقال عنا إننا لا نستحق أن نرى الشمس، فلنبذل الجهد من أجل مصلحتنا أيضًا، مصلحة من تطحنهم ساعات العمل الطويلة.

وشقت صفارة المصنع سكون الليل الهادئ، وفي رهبة اندفع العمال إلى الداخل، وأيدينا نحن عمال النهار على قلوبنا تنفطر.. الطريق كله صفوف طويلة من الخفراء من ذوي البدل الصفراء يحملون في أيديهم العصي ملوحين بها ليتوجه العمال إلى حوش عربض لسماع كلمة قبل العمل. وتوجه العمال إلى هناك، وأحيطوا من كافة الجوانب بالخفراء، وفجأة سرت همهمة: - المدير!

وأفسح المتجمهرون الطريق لرجل طويل القامة، حليق الشعر، يشع من عينيه بريق كاللهب.

- أفسحوا لي...

قال ذلك وهو يدفع العمال من طريقه بإشارة من يده، ويتفحص الوجوه بنظرات ثابتة.. أفسحت العمال له الطريق، وزادت همهمتهم وهم يرون نظراته الحادة القاسية، وخيم الصمت، وصاح المدير بصوت غاضب بعد أن اعتلى كومة من الحديد: - عرفتم ما حدث؟ طبعًا عرفتم! قالوا لكم الأوباش.. لن نسمح أبدًا بالأشياء التي حصلت تتكرر مرة أخرى، وقد اتخذنا لكل شيء عدته.. وسيجازى المجرمون على فعلتهم الشنيعة، ولن تشتغلوا إلا اثنتي عشرة ساعة، ومن لا يعجبه فالباب يساع الجمل، أنا جيت أقول لكم الكلام ده قبل ما تدخلوا.

وأطبق الصمت، وعلت الوجوه كآبة، وسرت همهمة، واعتقد هو أنه قد انتصر، وتطلعت الوجوه لبعضها، وارتفع من بينها صوت حاد قوي.

- مش حنشتغل!

وعاد صوت المدير من جديد:

- ستجازون.. لن نرحم.. الأبواب مفتوحة لكل من لا يوافق أن يعمل ورأسه في الأرض، لكل من يقول كلمة واحدة لأي واحد من رؤسائه!

وملاً الاستياء صدور العمال.. وسكت المدير، وارتفع صوت من الخلف: - ادخل اشتغل انت.. لترى بنفسك ما نعانيه من قسوة.. الحكومة أمرت بثمانى ساعات عمل.

ورد المدير بجفاء وبلهجة أمرة:

- إذا لم تعودوا وتدخلوا إلى العمل في ظرف خمس عشرة دقيقة سوف

تكونون مثل من توقفوا! هذا هو أمرنا!

وعلت الأصوات هادرة:

- لن نقبل إلا ما أمرت به الحكومة، لا تفرقة في المعاملة!

وارتفع صوت قوي آخر:

- كلنا على بَرّه، الباب يساعنا، ويساعنا كلنا، واشتغل انت أيها المدير! دور

الممكن انت!

وهاصت العمال واندفعوا إلى الخارج:

- العمل للجميع.

كان هذا هو صوت الهتاف الهادر، وبأصوات تشق الليل:

عاشت وحدة العمال

لا تفرقة في المعاملة

ثمانى ساعات عمل للجميع

هتاف على طول الطريق، ونظرات الإعجاب ممن ليس لهم علاقة بالمصنع، وزغاريد النساء، والباعة يصيحون: «يحيى عمال النسيج».. وعمال الخراطة والحدادة والنجارة يتهامسون قائلين لبعضهم: «لن نسكت».. العمال البسطاء وقفوا الممكن، وضربوا المدير في وضح النهار.. دول جدعان.. أحسن مائة مرة من المتعلمين.. لازم احنا كمان نوقف الورش.

غليان على طول الطريق، واجتماعات طول الليل، وكلمات جريئة لم يسبق
أن سمعناها: - أيها العمال، نحن أبناء عمل واحد.. مصنع واحد، يجمعنا النضال
والدفاع عن حقوقنا.. سنقاوم القوى الجشعة التي تعيش من جهودنا ومن
عملنا.. لقد دقت الساعة وآن لنا أن ندافع عن أنفسنا.. شعارنا المجموع
للفرد، والفرد للمجموع!

صاح أحد الحاضرين:

- إنه يقول الحق!

وصوت آخر ارتفع:

- فليقل لنا ما سوف نفعله!

ويرد:

- غدًا ترون.

وعاد واسترسل في حديثه القوي:

- فلنستمر ولنستكمل ما تم، ولن تكونوا وحدكم، فهناك عمال آخرون يقفون
بجانبيكم وغدًا ستعرفون.. نحن عمال الورش.

في الصباح، العمال مشحونة وملتهبة وممتلئة بالانفعال، والإحساس بأن أمرًا
شديد الخطورة سيحدث.. كانت المداخن تلفظ دخانًا أسود قاتمًا، وصاح
العمال من أماكن متعددة: - هدوء.. هدوء لغاية ما نخش.

فتحت الأبواب على مصراعيها.. لم يكن أحد على الطريق.. الغفر ملتصقة
بالأبواب.. دخلت العمال المصنع، سرعان ما تجمعت من كل جانب، يحرصون
بعضهم بكلمات حادة.. الاستياء الشديد هو المسيطر والغضب يخلق ويملاً
الصدور.. وبرزت العيون السوداء من الوجوه التي يملأها الضيق والتعب..
وصاح أحد العمال: - كل واحد يقف على مكنته!

خفت القلوب أكثر، وتطلعت العيون نحو الأبواب، والدقائق تمر ولم يحضر
أحد من الرؤساء.. وتوجسنا شراً، وزعق صوت محذراً: - النهارده القبض،
ميعاد القبض النهارده.. لو حد طلب مننا الخروج نرفض.. مطلبنا هو الأجر.. لن
نخرج إلا ومعنا ما نستحق!

وعلى هدير السيور ارتفع صوت بالغناء:

يا ليل يا عين

منين أجيب ناس تفهم معنى الكلام وتلوه

واندفعت الأصوات مهللة للصوت، جالسين على الممكن، مطوحين أرجلهم،
وأصوات أخرى كثيرة: - حاسب على الممكن! حاسب على القماش! إوعى
الفتل تتقطع! شيل رجلك من على القماش!

واهتزت السيور هراً عنيقاً على غير العادة، ونفضت من على كاهلها ما كان
عالقاً بها من سنين، وانتشر في العنبر زغبار قاتم السواد، على أثر هذه
الانتفاضة، وارتفع الصوت من جديد: والله إن عشت يا حكومة

لألبيسك بدل الطرايبش طرح وشاشات

وبينما العمال يغنون، كان أحد رؤساء الغفر مشهور بقسوته وغلظته يتمختر في الطريقة، كان هذا هو سعيد بلبول ذو الشوارب الضخمة، كان يسير معتزاً بنفسه وبضخامته ويعرض أكتافه، كان عاوج الطربوش على ناحية.

واتجهت الأنظار نحوه، واقترب رويداً من الجمع الجالس، وفي صوت بطيء هادئ قال: - اتفضلوا.

- على فين؟!!

- على برّه.

- مش طالعين.

واحمرت عيناه الواسعتان، وقضم على أسنانه، وعندما رأى العمال تتجمع حوله، تقهقر إلى الخلف قائلاً في صوت ممطوط: - انصح صاحبك من الصبح لحد الظهر...!

ولم تمكنه العمال من أن يكمل كلامه:

- مش عاوزين نصيحتك.. ومش حنقلها.

لم يواصل حديثه، بل ظهر عليه الارتباك الشديد، وعيناه زائغتان تنظران نحو الباب.. وبينما كان يخرج، قال عامل من عمال الغزل يسير في الطريقة، بصوت رن في العنبر: - عمال الورش أضربوا، وعمال النجارة والحدادة كلهم أضربوا، وضربوا رئيسهم وشالوه مرابطة ورموه برّه!

ووقف بجواره عامل آخر من عنبر البرم دفع بنفسه وسط الجموع المحتشدة.. وقال: - خلوا بالكم، حوش المصنع البراني امتلاً عساكر لابسين

برانيط على دماغتهم!

ارتفعت وسطنا أصوات عالية:

تحيا وحدة العمال

وتعالت الهتافات التي شحذت الهمم، وارتفعت الأذرع متوعدة في الهواء،
وقال أحد العمال: - اقفلوا الأبواب!

وساد الهرج:

- فين اللجنة؟ فين اللجنة اللي انتخبناها؟ اجمعوا حرس على الباب.. فين
فكري؟ فين الناس؟ فين همم؟ العساكر برّه والغفرا بتتجمع.. لازم فيه حاجة..
يلاً نستعد.. اجمع يا جدع.. اجمع.. كل عشرين أو خمسة وعشرين ييجوا..
ييجوا هنا على الباب.. والباقي يدخل هناك جوّه!

وأصدرت اللجنة عددًا من الأوامر واستجابت لها العمال في الحال: - اللي
واقفين على الباب ما يطلعوش حد.. اجمع الحديد.. كل الحديد ييجي، وكل
الثقلات بتاعة الممكن تتربس بها الأبواب!

ونشط الغريب في حماس شديد في جمع ما كان يقابله من حديد، وكلمة
«هوه» رجت العنابر، وجلس كثير من العمال على الممكن ثائرين مهديين،
وصاح من بينهم: - أخذونا على خوانة، أخذونا على خوانة ولاد الكلب!

ومن باب عنبر التوسيعات رأينا الغفر والعساكر خمسمائة.. نعمل إيه؟

- إوعوا حد يفتح الأبواب!

- كل واحد واقف على باب يمنع أي حد من الخروج!

واصطف الخفراء، وترددت الأصوات قاسية بالأوامر، ودقت الأرض بالأحذية: -
غفرا.. استعد.. اهجم!

وانهالت العصي على الرؤوس:

- اخرج.. اخرج يا ابن الكلب!

هز عبد العظيم رأسه، وتدافعت العمال إلى الخلف، وبدا لعبد العظيم الخطر
الرهيب الذي سنواجهه، وبدا له أيضًا العودة مرة أخرى للبلد، للعمدة، لكرباج
الخولي في جمع القطن، وشيل السبخ، والشغل في الوسية.. الصبر؟ وماذا
سيفعل الصبر؟ وارض بما قسم الله لك؟! ماذا أفعل إزاء هذه الوحشية؟
وصاح بأعلى صوته: - أيها العمال، فلنهمج.. فلندافع عن أنفسنا بأي حاجة في
أيدينا!

وكانت رؤوس ينفجر منها الدم، وعمال بتجري وتتكفي على الأرض داخل
العنبر، وشمر عن أذرعه وتحول إلى إنسان مجنون غاضب يبحث عن أي
شيء يمسك به في يده وبضرب به، والصرخات تعلو في العنبر: - آه.. آه يابا!

والبكاء من قسوة الضرب والأنين، وعمال يختبئون تحت الممكن:

- آه يا ضهري.. آه يا رجلي.. يا دراعي.. يا ولاد الكلب! أخذونا على خوانة!

حنروح فين؟ الأبواب مغلقة، نحن محاصرون!

والعمال والحرس اللي على الباب رفضوا أن يخرج أي إنسان، واتحشرت
الآلاف داخل العنبر، والدم يسيل من على الوجوه، وكان صوت عبد العظيم

القوي أبرز الأصوات: - اضرب.. اضرب بالحديد.. بأي حاجة.. اخلع أي ماكينة
واضرب بها يا وله.. الدفاع عن أكل العيش واجب!

وارتفع من ناحية أخرى صوت آخر يساند عبد العظيم:

- اضرب، اضربوا يا عمال!

صوت آخر:

- الماهية حتروح يا وله.. النهارده القبض.. اضرب..

وتشجعت العمال، وعلى أكوام من الحديد اندفعت، وبأيد لا تعرف الخوف
قذفوا بقطع الحديد في كل الاتجاهات، وتساقطت على رؤوس الغفر، وعبد
العظيم يوجه المعركة: - ابعدوا عن الممكن، احذفوا الحديد في وجوههم!

اندفعت العمال كالموج، والغفر تتشبث في المكان، والعمال تهتف.. وانتهى
كوم الحديد، وكادت الغفر تنتصر، وبدأت الأنظار تبحث عن شيء تدافع به،
وتذكرت العمال مضخات الحريق المعلقة على الجدران.. اندفعت وانتزعت
أنا والعمال مضخات الحريق ودفعت بها في اتجاه الغفر.. واندفعت منها
المياه كالسهم، وأمسكت أخرى وركنتها على صدري وصوبتها في اتجاه
الغفر، وتبعنا آخرون، وكانت المياه من القوة بحيث أزاحت الغفر بعيدًا بعيدًا..
وبدأوا يتقهقرون إلى الخلف ونحن نتقدم.. اندفعت العمال تخلع السماسم بعد
أن نزعوا منها الخيوط ودفعوها في وجه الغفر، وقذفنا بالجرادل والموايك
والأسيخ، والغفر يتقهقرون ونحن نتقدم، وازداد صوت العمال وارتفع من
أجل ثماني ساعات عمل: - كسروا ما يهكموش! عمال الورش أضربوا
وواقفين معنا!

واتجهت حشود العمال الضخمة تحاصر الغفر محاولين الإمساك بهم،
ورئيسهم يصدر أوامره بعد أن فر الكثير منهم: - أسرعوا.. أسرعوا إلى
الخلف.. العمال طبقوا علينا من كافة الاتجاهات.. حنق في أيديهم.. اجري..
اجري بسرعة!

سمعت العمال كلام رئيس الغفر، وأسرعوا خلفهم يطاردونهم.. وخرجوا من
الباب يجرون وراءهم حتى أوصلوهم إلى قرب الإدارة، وهناك كانت العساكر
تقف في طوابير محكمة، والمديرون والضباط في ذعر وهم يستعدون لهجوم
آخر علينا.. رأت العمال هذه القوة الجديدة فأسرعوا بالعودة إلى العنبر، وإذا
عبد العظيم يأمر بصوت كالرعد: - أيها العمال، عودوا إلى العنبر ولا تتركوه!

عادت العمال بسرعة، وأغلقوا الأبواب.. التف العمال حول عبد العظيم وهو
يصدر أوامره بصوت حازم صارم: - فتح عينك انت وهوّ.. فتحتها كويس.. إوعى
حد يخش!

وكانت فرق من العمال تجمع الحديد مرة ثانية من جوانب العنبر استعدادًا لما
قد يحدث.

وبينما كان هذا يحدث كان بعض الميكانيكية الجدد في مقدمتهم سالم طلبة
شاحب الوجه يشد على يد عبد العظيم بحرارة، وعلت الهتافات: عاشت
الرؤساء مع العمال

وصوت آخر يصيح:

- الميكانيكية بس.. الرؤساء الكبار أعداؤنا!

ووقف أحد الميكانيكية على إحدى الماكينات وخطب في العمال، وقال كلامًا
مثيرًا هاجم فيه الذين يقولون القناعة والصبر، وفي آخر الكلام قال: - الآن، أنا
معكم لأنكم أعدتم الثقة إليّ.. لا خضوع.. لا خضوع للظالم.. لا تذهبوا لمن
يخدعونكم بكلمات الصبر!

وارتفعت الهتافات:

عاشت الميكانيكية مع العمال

قال عامل من الذين يقفون بقرب الباب:

- الغفر.. الغفر جات ثاني.. اقفلوا الأبواب.. إوعى حد يخش!

وانطلقت هتافات مدوية:

تسقط الشركة

يسقط الرؤساء

عاوزين يموتونا

مش حنموت

وتكررت المحاولات.. وارتفع صوت آخر:

- كسروا الممكن.. هُوّ السبب.. هُوّ اللي بيموت العمال.. حنحرق قلب الشركة

عليه.. ننتقم.. مش حنطلع إلا جث!

وتحول العنبر إلى ضجيج كبير.. مكن يكسر، وأصوات ترتفع، وأصوات عمال آخرين: - وقف يا جدع.. ابعد عن المكن.. المكن ملوش دعوة!

وصرخات باكية حزينة:

- آخ يا مكنتي.. مكنتي انكسرت.. آه يا ولاد الكلب.. حاشتغل على إيه.. وديتونا في داهية.. آه يا خرابي!

وأصوات أخرى:

- هوّ انتم معانا ولاّ معاهم؟! المكن هوّ اللي بياكلنا عيش!

- إحنا مع المكن وضد الرؤساء! سيب المكن انت وهوّ!

وتدافعوا نحو المكن، واحتضنوه ليحموه من الحمقى والمتهورين.

وفجأة ارتفعت النداءات من العمال الواقفين بجوار الشبايبك:

- العسكر.. العسكر جات.. حيحاصرونا.. اتحاصرنا خلاص!

قفزنا على الجرادل والماكينات القريبة من الشبايبك لننظر من خلالها.. رأينا

العساكر تقف في صفوف منتظمة وفي يد كل منهم عصا، وبعضهم كان

يحمل بنادق.. وترددت الأسئلة والإجابات في أنحاء العنبر: - إيه دول؟! دي

الحكومة!

- حكومة إيه؟ هيّ معانا ولاّ معاهم؟!

- أنا مش قلت لكم.. مش قلت لكم الحكومة مش ويانا.. جاية ليه؟

- جاية تحامي عنهم.

- مش هيّ اللي قالت على التمن ساعات.. خلاص ملناش حد!

- كسر المكن يا جدع!

- لا.. وقف إيدك انت وهوّ.. يمكن الحكومة تبقى معنا!

وصرخ من ينظرون من الشبابيك:

- العسكر يا جدعان.. العسكر هجمت!

وارتفعت الأصوات الحادة الآمرة:

- اهجم يا عسكري.. اهجم!

وانطلقت الصفافير من كل ناحية حول العنبر.. وأصوات أحذية العساكر تخبط الأرض بشدة وهم يجرون بكل قوة في اتجاه العنبر من كل ناحية.

نفرت عروقي من الغضب، وشعرت أن الدم يقفز في عيني.. قفز أحد العمال على ماكينة وصرخ بكل قوة: - الهمة يا رجالة.. لو طردونا من العنبر راحت القبضية وراح الشغل! دافع عن حقك يا وله! يا إما نحمي نفسنا.. يا إما حيلبسونا طرح!

واقتحم العسكر أبواب العنبر وهجموا وعصيهم تنزل على الرؤوس كالمطر، وتراجع العمال في زعر، وتداخلت صرخات العسكر مع أصوات العمال: «اضرب.. اضرب يا عسكري.. آه يا نافوخي.. اضرب.. آه يا كتفي.. اجري يا وله.. اضرب».

وفجأة ارتفع صوت عبد العظيم وغطى على كل هذه الصرخات:

- اضرب يا وله.. اهجم يا وله.. التمن ساعات يا وله.. القبضية يا وله..
حاصروهم.. اطردوهم من العنبر زي ما طردتم الغفرا!

وترددت عشرات الهتافات من العمال، وبعضها من عمال كنت أعتقد أنهم مترددون أو جنباء: السيد الصفطي، الولد الغريب، جرجس مينا، مصطفى الدمهوري، وأصوات أخرى لم أميز أصحابها.

- يحيا العمال.. التمن ساعات.. حاصروا العسكر.. أكل عيشك يا وله.. خش عليهم يا وله.. عمال النسيج رجالة!

وبدأ العمال يستجمعون شجاعتهم.. وامتلت عروقنا بالغضب والحماس، وسقطت الثقالات الحديدية والجرادل على العسكر مثل المطر.. قذفناهم بكل ما وصل إلى أيدينا، ونجح بعض العمال في انتزاع عصي من العساكر. قفز سالم على إحدى الماكينات كأنه أسد هايج وأخذ ينادي على العسكر: - إنتم مننا يا عسكر! إنتم غلابة زينا! لكم إخوات في وسطنا!

حرام تضربوا إخواتكم ونضربكم عشان الرؤساء والبهوات! حرام تحاربونا في رزقنا!

- اهجم.. اضرب يا عسكري.. اضرب يا كلب!

وأصبحت صرخات الألم: «يا دماغى.. آه يا كتفي».. تتردد من العمال والعسكر.. وبدأنا نضغط عليهم ونحاصرهم.. وبدأوا يتراجعون تحت ضغط

الحديد الذي يسقط عليهم كالمطر، وضربات العصي وقضبان الحديد في يد
العمال.

وفجأة سمعنا أصواتًا تأتي من عند العسكر:

- إحنا مالنا ومالهم؟! حنقى احنا والزمن عليهم؟! حنضيّع نفسنا علشان مين؟!
اجري يا دفعة!

- اهجم يا عسكري.. اضرب يا ابن الكلب.. اضرب يا ابن «الشر...»!

ولكن العمال كانت قد أصبحت كالسيل الكاسح.. وتراجع العساكر أمامنا
خطوة خطوة.. ثم فجأة أعطونا ظهورهم وجروا خارج العنبر.

حاول بعض العمال أن يتبعوهم، ولكن عبد العظيم صرخ فيهم:

- ارجعوا يا عمال.. لو خرجتم من العنبر حيحاصروكم!

وأسرعنا نغلق الأبواب، ونجمع الثقالات والأشياء الثقيلة ونضعها وراء الأبواب،
وأصبحت العمال كالمجانين من الفرح والحماس، ودوت الهتافات: ثماني
ساعات عمل للجميع

يحيا العمال

يسقط المديرون

ووقف سالم طلبة على إحدى الماكينات وخطب فينا:

- كنا بالأمس ضدكم.. أوهمونا إننا متعلمين وأحسن منكم.. واتضح أنكم أشجع منا وانتم اللي طلبتم ٨ ساعات.. من اليوم الميكانيكية معكم!

وانطلقت الهتافات:

يحيا العمال مع الميكانيكية

تحيا وحدة المظلومين

وسمعنا صوتًا بجوار الشباك:

- انتبهوا، فيه ضباط جاين علينا!

وقفز سالم وعبد العظيم وآخرون إلى الشبايبك.

ونادى سالم بصوت قوي:

- إللي حيعتدي علينا تاني، حندافع عن أنفسنا ولن نخرج إلا أشلاء.. إحنا مظلومين يا عالم.. عاوزين حقنا.

سمعنا صوت أحد الضباط:

- إنتو عاوزين إيه؟ ندعوكم للخروج بسلام.. رَوِّحوا لأهاليكم أحسن.. نوعدكم لو خرجتم في سلام حنسيبكم ترَوِّحوا في سلام.. ماذا وإلا احنا عندنا أمر نضرب بالرصاص!

أجاب العمال كلهم في نفس واحد:

- تمن ساعات.. والقبض.

فأجاب الضابط بصوت رقيق:

- التمن ساعات حترسهم الإدارة.. والقبض.. اخرجوا وانتم تقبضوا.

وهلل العمال، واتجه الكثير منهم إلى الأبواب، ولكني شعرت بالمؤامرة،
فقفزت على إحدى الماكينات وأنا أصرخ: - وقف انت وهو.. دي مكيدة! لو
خرجنا حنضرب ومش حنقبض!

وسمعنا الضابط ينادي بصوت قاسي ورهيب:

- أمامكم مهلة خمس دقائق وبعديها حنضرب بالرصاص.. في المليون.. إذا ما
خرجتوش واحد ورا واحد!

حنعمل إيه؟ إيه العمل يا ولاد؟ دبرونا يا إخوانا! وفجأة جاءني الإلهام.. ناديت
على الزملاء: - نخرج عشرين ورا عشرين.. إللي يقبض يرجع لنا.. لما نلاقيهم
سالمين ومعاهم القبض يخرج بعدهم عشرين غيرهم يوصلوهم إلى باب
الشركة ويرجعوا ويقبضوا ويبجوا يطمنوننا.. ويستمر الحال كده لغاية ما نخرج
كلنا.

نادى سالم على الضباط وأخبرهم بهذا القرار، وسمعنا صوت كبيرهم يقول: -
موافقين.

واتفقنا فيما بيننا أن تخرج القيادات متوزعة على الدفعات.

وقد كان.. واستمر القبض بهذه الطريقة حتى الساعة السادسة مساءً.

اجتاحني شعور قاتم، فلم أعد أشعر بنفسي أين كنت ولا إلى أين أتجه.. وكان
سيل أسود من الناس يتحركون في بطء، الشوارع ضيقة، وفي كل مكان

وجوه مصفرة تتحرك وتتحرك، والنظارة تملأ النوافذ، والأسطح ممتلئة بالنسوة ينظرن للوجوه الشاحبة وهي تخطو في كل مكان، ونسوة أخريات تقف على الأرصفة تبحث في لهفة عن أبنائهن، وعربات كثيرة ممتلئة بالجنود تندفع في اتجاه المصنع، وعساكر أخرى قد ملأت الميادين، وأصوات أطفال صغيرة تزعق على جوانب الطريق وهم ممسكون بتلابيب أمهاتهم: - يا اخويا يا محمد.. يا اخويا يا سيد.

وأصوات أخرى:

- يا حسن.. يا إبراهيم.

صراخ في كل مكان، وارتفع صوت نسوي:

- يا فكري يا خولي!

ولم أنتبه لصاحبه لما انتابني من غم.. وإذا بالصوت يعود من جديد: - يا فكري يا خولي! يا فكري يا خولي!

وإذا بي أجد نفسي قد توقفت: «مين يا ترى؟ الصوت ده أنا سمعته وأعرفه».. وتراجعت.. آه.. دي مراتي.. واندفعت تحتضني مرددة بصوت حزين باكي: - أهوه.. أهوه.. تعال.

وجلست بي على الأرض وعيناها محمرتان من العياط:

- آه.. آه يا فكري.. الحمد لله.. الحمد لله اللي لقيتك.

والنسوة والأطفال والرجال يتساءلون عما حدث، والباعة أصحاب الدكاكين يرددون بأصوات عالية: - حتملوا إيه؟ هو رينا مش أنصفكم؟!

- لسه.

- حالنا واقف.. إلهي ربنا يوقف حالهم!

دعوات ودعوات.. وأسئلة حائرة:

- إنتو قبضتم؟

وأصوات أخرى ترتفع:

- بتسألوا على إيه؟ هوّ مفيش صبر!

- مال الناس حيروح.

- إللي له حاجة بُكرة ياخذها.. هيّ الكلبة قتلت عيالها؟!

وآخرون:

- دكاكينا مفتوحة.. مفتوحة علشانكم، إللي له حاجة عند حد يبجي واحنا نديها

له.. قلوبنا معاكم يا رجاله.. هيّ الناس إيه؟

مش دايم غير المعروف.. هوّ ده معقول يا ناس؟! حد يطالب حد دلوقت؟! دا

احنا نفاديكم!

ودعوات النسوة ترتفع:

- ربنا يخليكم!

وشبان آخرون:

- الناس ما بتتعرفش إلا في الزنقة.. ياما كسبتكم.. الدنيا على دي ودي يا
رجالة!

وأخريات تسأل عن أبنائهن، وزوجتي قد همت واقفة تنفض التراب العالق
بالجلباب: - قوم.. قوم بقه ملكش دعوة.

وأصوات النسوة ارتفعت:

- ما تسيبيه نسأله!

- تسألوه على إيه؟

- على أولادنا.

- قول لنا يا اخويا.. حد مات؟

- أبدًا كلهم صاحيين.

- فين أمال؟

- جايين.. جايين دلوقت.

- أمال الناس خادوهم ليه؟

- مش عارف.

ودفعتني زوجتي من يدي:

- تعال بقه كفاية.

- متلهفة عليه كده ليه؟

- زي ما انتم متلهفين على أولادكم!

وفي وسط هذا الصراخ اندفع شاب نحوي، وهمس بكلام في أذني، وكان الجند يتجمعون، فاتجهت فور سماعي هذا الكلام تاركًا صراخ الأطفال والنسوة على جوانب الطريق تزعق: - يا سيد.. يا محمد.. يا سيد.

ودارت الأرملة.. دارت تلاحقني:

- وبعدين حتعملوا إيه؟

خرجت دون أن أسمع.. لا أحد يقول ما يجب عمله، حتى اللجنة التي اختيرت وقت الأحداث.. لم أنتبه ولم ينتبه أحد لذلك، وكأن القبض كان هو المطلوب.. صحيح كان هو المطلوب العاجل.. صحيح إن التوقيت جاء في نفس مواعده، والخوف من ضياعه قد تقدم غيره من مطالب.. ولكن ماذا نفعل الآن ونحن لم نتفق: هل سنعود باكرًا؟ وهل يسمحون؟ إنهم ما صدقوا أن أخرجونا، وماكينات كثيرة قد انكسرت، ومياه الأكسجين قد ملأت العنبر دفاعًا عن النفس ضد الجنود والغفر! هل يسمحون بالعودة بعد أن حدث هذا؟ لا أظن! أسئلة محيرة.

وصلت إلى الحجرة دون أن أهتدي إلى شيء، ولم أنتبه إلى منظر زوجتي إلا بعد أن جلست وهدأت أعصابي.. كانت حافية الأقدام وشعرها قد تنعكش وكأنها قائمة لتوها من النوم، ووجهها الأسمر المشيع بالاحمرار قد تحول وكأنه قطعة من الليمون الأصفر.. وسألتها، فأجابت في هدوء وهي لم تكن قد أخذت أنفاسها: - أنا كنت نائمة.. قمت بعدما خرجت، وصحيت على أصوات

في الشوارع فاكرة إن فيه حريقة في البيت، فقامت زي ما انا بلبسي، فلقيت الناس كلها بتجري وبتقول: «موتوا العمال.. موتوهم في الشركة»، فدورت الجري معاهم وسبت الأوضة مفتوحة، وما افتكرتش إلا في وسط السكة، فرجعت وأنا باجري على آخر الشوط، ولبست هدومي التحتانية - كنت ناسياها - دورت الجري من ثاني.

وفي ضيق قلت:

- عملت ليه كده؟

قالت وهي تضع يدها على خدها الأيمن وكأنها ترسم صورتني:

- اتلهوجت.. ومن اللهوجة.. هوّ انا ليّ إلا انت!

ومسحت عينيها.. وإذا بالولد الغريب يدخل مهرولاً دافعاً باب الحجره بذراعه: -
إنت قاعد؟

قالها في لهوجة:

- قوم.. قاعد ليه؟ قبضوا على ناس جنبنا في البيت!

- تعرف حد منهم؟

- أبدًا.

فهممت واقفًا ألبس جلبابي بينما وقفت زوجتي مذعورة:

- رايح فين؟! -

وألصقت نفسها في الباب وهي تبكي وتصرخ في الوقت نفسه:

- إنت جاي زي هم الموت كده ليه؟ يا قاعدين يكفيكم شر الجايين! ما صدقت
إني لقيته.. ما كنا قاعدين في أمانة الله! إلهي يشحطط قلبك يا غريب يا ابن
آمنة!

وأدارت وجهها لي:

- فكري، ما تسمعش كلامه.. علشان خاطري.. احمد ربنا اللي نفدت.. ابعده
عن الشر.. آه يا بختي الأسود يانا! أمك حتقول إيه؟ حتقول قدمك أسود علينا!
ما طول عمره كان شغال.. هات إيدك لما أبوسها!

وفي عصبية جذبت الولد الغريب من جلبابه، فدفعت بها وخرجت لأرى بعيني
ما يحدث خارج البيت، وهي تولول من خلفي: - فكري.. فكري.. إخص عليك يا
فكري.. حتسييني وحدي.. حتسييني في الغربية!

- خليكى.. خليكى لما آجى.

وفي شارع السكة الجديدة كان الظلام قد خيم، والقهوة مزدحمة، فجلست
بالقرب من الناصية وعيني على الطريق، ولم أكد أصفق طالبًا شيئًا حتى
وقفت عربة كبيرة محملة بالجنود واندفعوا من فوقها واحدًا تلو الآخر
مصدرين الأوامر بألا يتحرك أحد من مكانه.. وتقدم شاب في مستهل العمر
لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، طويل القامة، ذو وجه مستطيل
أبيض، يلبس جلبابًا من صوف الغنم الأحمر وطاقية صوف بيضاء.. فتطلعت
الوجه مذعورة: - إيه؟ حصل إيه يا ولاد؟!

حملت بعيني.. آه «سيد البغل».. يا ابن الكلب!

كان يكفي أن يرفع يده ملوِّحًا في وجه أحد الجالسين حتى تنقض عليه الجنود.. وآخرون يدفعون به من الخلف.

بينما وقف آخرون مرددين في همس:

- أحمد الطور يا ولاد.. الولد اللي فضل طول عمره يتزلف للرؤساء.

وتدافعت الناس تهرب.. وآخرون يزعمون:

- ملناش دعوة! إحنا غلابة! واخذينا ليه؟ أمي ملهاش غيري! ما باشتغلش في الشركة!

ووسط هذا الصراخ.. أعمل إيه؟ إيه اللي كان جابني؟ دول بياخدوا كل من هب.. وشعرت بانتفاضة ودقات قلبي قد ازدادت.. أعمل إيه دلوقت؟ مراتي لوحدها! سايبها من غير ولا مليم! حتعمل إيه؟ حتروح فين؟ يادي الشحططة! ما كنت متواري! هيَّ شطارة أروح للقضا بنفسي؟ وأمي حتعمل إيه؟ حتلطم صداغها! إيه الكلام ده؟ ربك يستر.. أعمل إيه؟ أمي كانت بتقول إن وقعت في زنقة قول: «يا بركة دعا الوالدين».. أدور الجري.. أوقع الكراسي ورايا أعطلهم.. وتقدمت خطوة بعد أخرى متظاهرًا في الاتجاه نحوهم، بينما «سيد البغل» في مواجهة أحد الجالسين ملوِّحًا بيده، فزعم الرجل: - ما باشتغلش في الشركة.. ما باشتغلش في المدعوقة.. حتروح فين من ربنا؟ حتروح فين يا ابن الداخة!

وراح مناوله بالقلم على صدغه.. واندفعت كالريح منتهرًا الفرصة، ولم أكن أشعر بنفسي.. خيل إليَّ أن كل من بالشارع يجرون خلفي.. ولم أسمع سوى أصوات ترتفع: - بيجري ليه؟ هوَّ حرامي؟

وصوت آخر:

- دا يظهر عليه شركاوي.. آه.. ما هي الشركة واقفة.. الحكومة قالبة الدنيا..
وقف يا جدع.. يا جدع ما تخافش.

وكانت إحدى العطف المسدودة.. وبجوار أحد المنازل في العطفة المسدودة
ألصقت ظهري وفكرت: أروح فين؟ أشوف مصطفى.. لم أجده.. واتجهت نحو
عبد العظيم لرؤياه فلم أجده هو الآخر.. فين همّ دلوقت؟ هربوا؟ وإيش بعد؟
وفي متاهة تلفت حولي قائلاً لنفسي: «إللي فيه الخير يقدمه ربنا».. قلت هذا
لنفسى.. وكانت الشوارع قد خلت تمامًا من الناس ما عدا العربات المحملة
بالجنود تبحث.. فاتجهت متجنبًا الطريق العام إلى المنزل وقت أن كان القمر
يعلو فوق المدينة حتى أظلمت الدنيا.

بزغت الشمس بنفسجية اللون تحمل معها ربحًا خفيفًا باردًا، وقتما كنت
خارجًا كالعادة.. لم يكن في ذهني سوى نفس الأسئلة.. أسئلة الأمس.. هل
سندخل؟ هل يسمحوا؟ وكانت أصوات بائعي الصحف تتردد عاليًا وهم
يصيحون في الشوارع: «إضرابات خطيرة في مصانع المحلة الكبرى».. هكذا
كانت العناوين تملأ الصفحات: «عمال المحلة يضربون عن العمل».. «العمال
يضربون مرؤوسيهم».. «عمال السباكة والحدادة يضربون».. «المهندس عبد
الرحمن كرشة أصيب بجروح خطيرة».. «عمال النسيج يعتصمون في
العنابر».. «مقاومة عنيفة يخرج بعدها العمال».. «مئات الماكينات تتكسر»..
«القبض على المحرضين».. «الجنود تطوف الشوارع».. «التحقيق المبدئي
يكشف عن المأساة».

وتجمعت العمال جماعات وفي أعينهم بريق ملتهب.. لم يعلق أحد على شيء.. الرؤوس تهتز، وتمتمات كثيرة تنبعث من الشفاه: - إنا كسرنا؟ كدابة الجرايد! فين كانوا؟ فين كانوا من زمان؟ معلش الحق بُكرة بيان! وارتفعت الهامات، وأغمض البعض عينيه، وفنجلت أخرى كأنهم ينظرون لشيء بعيد.

وبالقرب من المصنع كانت الجنود مصطفة، ولمعان السيوف البيضاء تبرق في أيديهم وهم يلوحون بها لمنع العمال من التقدم.. وتوقف الجمع مرددين بأصوات غاضبة: - حنتعطل! هي دي حكومة؟!

وارتفع صوت شاب مصفف الشعر وهو يشب على أظافره:

- حكومة مين؟ إللي تقوله النهارده تسحبه بُكرة! قول يا رب.

وازداد الجمع.. وتعالَت الأصوات مرددة:

- وعمال الغزل ليه حاشينهم؟

وزمجر آخرون:

- بلاش تفرقة.

وانطلقت صرخة عالية اقشعر لها البدن من إحدى العاملات المحتشدات، وتعالى الصراخ، وتطلعت الأنظار، وشحبت الوجوه من المنظر.. منظر الجنود وهم يخطون في ثبات وفوهات البنادق على أكتافهم تلمع، يتقدمهم جنود آخرون من راكبي الخيل، وفي الوسط صف طويل ممتد شدت أيديهم في جنازير سوداء قاتمة، يسيرون متمايلين من الإعياء، وارتفعت الرقاب النحيلة

إلى أعلى، وشب آخرون على الأظافر، وارتفعت الأصوات عالية: - هوه..
هوه.. العمال.. العمال اللي خدوهم إمبراح.. سالم.. سالم.. طالب.. ومحمد طالب
القطان.. وسع يا جدع.

وهاجت الناس، ودعوات كالمطر تنزل:

- إلهي يخرب بيوتكم!

وازداد الصراخ، واختلط الحابل بالنابل، وتدافعت العاملات في الوسط.. وسط
الجموع المحتشدة، وصاح رجل طويل القامة رفيع الجسم، مرددًا بصوت
جهوري: - ابعدي يا جدع.. إيدك في إيدي يا جدع.

وكانت أصوات أخرى تزمجر، وترتفع في الفضاء:

- علشان يخوفونا.. مش حنخاف!

وارتفعت الأيدي ملوحة، وامتدت الأذرع:

- شدوا حيلكم.. إحنا معاكم.

وبينما كان رجال البوليس يشقون طريقهم، ارتفع صوت جندي من بينهم: -
ابعدي انت وهو.. الأوامر النهارده شديدة.

وارتفع صوت جندي آخر:

- يَلَّا يا رجالة.. أنا لي فيكم أخ.

وزاغت عيني باحثة عن شيء.. فلم أجد أحدًا من اللجنة المختارة، واندفعت في الوسط قائلاً لنفسي: «مفيش حد؟ فين فرج؟ فين عبد العظيم دلوقت؟ فين مصطفى؟».. بينما كان شاب يدفع بنفسه دونما خوف.. مسلماً على سالم: - قالوا لكم إيه؟

- يقولوا حرّضنا.

- حرضتوا إيه ولاد الكلب!

واختلطت الأصوات:

- رايعين فين؟

- النيابة.

- هوّ انتو قتلتموا!

واندفعت الجنود تعدو وهم يطلقون صفايرهم، وخلعت العمال طواقيها ملوحين بها، كأن أسراباً من الغربان السود قد حلقت فوق الرؤوس، بينما اندفع في الوسط ضابط طويل القامة أصفر الوجه، يتبعه جنود آخرون، يدفعون الناس في غلظة، وصاح الضابط بصوت عالٍ، ولكنه مرتعش: - اسمعوا الأوامر.. اصغوا بأذانكم.. الكرنيه الأحمر ما يدخلش، ما يهوبش ناحية الشركة!

ولم يكن الضابط يعلم من المقصود، وأحسست بفرحة عند سماعي هذا، ولم أكن أعرف سبباً لهذه الفرحة.. وكانت أصوات أخرى تتردد: - بركة يا جامع.. بركة اللي جات منك ما جات منا!

وتدافعت عمال الغزل وآخرون في أيديهم كارنيهاتهم الصفراء متجهين
للمصنع.

ارتقى شاب قمحي اللون على الأكتاف، وهو يصيح بأعلى صوته:

- أيها العمال.. أيها العمال.. إن استنوا اليوم، مش حيستنوا الثاني، الممكن من
غيرنا حيصدي!

تبعه صوت آخر:

- مش حيلاقوا فلوس يدوها للعمال.. نستحمل.. نشتغل في الفاعل وما
نرؤحش!

بينما زعق آخر:

- شفتوا زملاءكم مقيدين بالسلاسل! جابوهم علشان يخوفونا! شفتم ازاي؟
علشان يخوفونا! يلاً وراهم على النيابة.. كل واحد يدفع قرش نجيب لهم
ياكلوا.

واندفعت الأيدي في الجيوب، وذهب آخر للشراء، واندفعت مُتجَهًا نحو سالم
وقت أن كان يحيي الناس بإيماءة من رأسه، وأغمض إحدى عينيه حين رآني،
ورفع صوته الهادئ: - ابعد.. خليك انت للعوزة!

وكانت عيني تحمق في الحديد، وهو يواصل كلامه في هدوء وجدية: - روح
لفرج.. قول له بيعت لحزبنا في مصر.. بيعت محامين تطلعنا!

وكان الآخرون يقضمون الأكل، وينظرون في ثقة لموقف العمال.

اعتبرت ما قاله سالم لي أقل ما يجب أن أفعله.. وفي الطريق استذكرت آخر ما تفوه به من كلمات.. وحينه للمكن.. وبينما كنت أواصل السير سمعت أصواتًا نسائية تتردد: - هَوَّ! هَوَّ! والنبي! يا جدع يا اللي ماشي.

ورأيت العاملات تندفع مهرولة.. اندفعن نحوي وهن يرفعن بملاءتهن إلى أعلى، بينما أخريات خلعنها، ومحاسن من بينهن شاحبة الوجه، تنظر لي وإصبعها الخنصر في فمها.

وتجمعت العاملات يسألن، وأنا أجيب إجابات مقتضبة، لما كنت فيه من عجلة، بينما دفعت إحداهن بمحاسن في اتجاهي: - قربي.. يمكن يقول لك حاجة.

صحت بأعلى صوتي:

- عاوزة إيه؟ عاوزة إيه يا محاسن؟ إنت عارفة البيت؟

فاتسعت عيناها وكأنها تستحلفني أن أبقى، فسحبت يدي بالرغم منها، واندفعت إلى طريقي.. بينما وقفت تنظر إليّ وأنا أبتعد.. كان الهواء الخفيف البارد يرفع خصلات شعرها المتدلي على عينيها، فاندفعت في طريقي.. بينما وقفت تنظر لي.

لم يكن في ذهني سوى شيء واحد أفعله.. أن أجد فرج أفندي.. أين ألاقه؟ كنت أفكر وعياني زائغة في الوجوه تبحث عنه، وفجأة أحسست بيد تسقط على كتفي.. هتفت من الفرحة.. مصطفى.. يخرب بيتك! كنت فين قلبت الدنيا عليكم؟! شفت اللي حصل؟ يا ريتك كنت موجود.. أنا مش قلت اللي تخاف منه مفيش أحسن منه.. جالك كلامي؟

فطبطب على كتفي وعيناه مركزتان في عيني.. وقال بعد فترة صمت: - إيه
اللي خلاك تطلع؟

- أعمل إيه.. هَوّاحنا اتفقنا على حاجة؟

- مانتش خايف؟

- ربك يستر.. فين فرج؟

وبدأ الناس يلتفون حولنا، فأمسك بيدي واتجه بي إلى حيث كان فرج أفندي
في أحد البيوت بجوار سوق الجراية.. سمعت صوته وأنا ما زلت على العتبة..
ولم يقطع حديثه عندما دخلنا.. كانت الحجرة ممتلئة بالعديد من العمال
ينصتون إليه بشغف، وعيونهم مركزة على الكلمات التي تخرج من شفثيه
متدفقة ورتبية في نفس الوقت.. رأيتَه راکعًا على إحدى قدميه وحبّات العرق
تتساقط من جبهته: - لم يكن من المستطاع منع ما حدث.. إلی جری ده زي
القشة اللي قصمت ظهر البعير.. إنه نذير بحوادث أخرى.. وعلى الجميع أن
ينتبهوا.

يقول بعضكم إن عمال النسيج وحدها هي التي أضربت.. وأنا أقول وعمال
الورش.. مطلب واحد جمع بينهم، ألا وهو الثماني ساعات.. هذا ما حدث..
حدث دونما ترتيب.. المصلحة جمعت بينهم.

ويقول آخرون وحنعمل إيه ونصف المصنع بيشتغل؟ ويسأل البعض وإلى متى
سنستمر؟ وأنا أقول من كان ينظر للوجوه المصفرة، والغليان الذي يكمن في
الصدور، كان يستطيع أن يتنبأ، وكانت الشركة على علم، ولهذا فرقت..
أستطيع أن أقول وأنا مغمض العينين أن هناك مطالب جماعية سوف تحدث

في القريب، وأن ما جمع عمال الورش سوف يجمع كل العاملين في
المصنع.. فإلى متى سنستمر؟ أقول إلى أن تعترف الشركة بأن للعمال مطلبًا
ألا وهو الثماني ساعات لمن لم يأخذه بعد.

واسترسل في القول مطمئنًا:

- إن العمود الرئيسي في المصنع هو الذي قد توقف.. هم الذين ينتجون ما
يباع.. ولن تستمر الشركة طويلاً في الاستغناء عنهم.

وازداد صوته صرامة وثقة وتأكيديًا:

- بقي أن نحتمل ويقوي بعضنا الآخر.. إنها أول تجربة، ومنها سوف نتعلم كيف
تتم وحدة تشمل كل العاملين على الأرض.. وعليكم أنتم يتوقف المصير!

وختم كلامه قائلاً:

- فلنتجه.. يتجه كل منا إلى الآخر.. مع الآخر.. لنجعل من كل حي.. كل حارة..
مكائنًا للاجتماع.. لنطارده روح الهزيمة التي قد تعترض البعض.. إنها محنة، وفي
المحن تبان الرجال!

وارتفع صوته حادًا حاسمًا، وبرزت عيناه، وهو يقول:

- تمت هذه الأحداث دون أن يكون للعمال قائد، وهذه هي الآن مهمتنا.. تمت
الأحداث قبل أن تكون فيه لجنة تتفاوض باسمكم.. فلنواصل الاجتماعات إلى
أن نتمكن من خلق هذه القيادة.. إلى أن تعترف الشركة بأن للعمال حقًا.. لن
يتم هذا إلا إذا أوجدنا هذه اللجنة. أسرعوا.. إن العدو الشرس لا يقبل أن تقام
للعامل رأس ليقف في مواجهته ليقول أنا!

وتلفت حوله وهو يأخذ نفسًا عميقًا في الهواء، وأضاف في صوت أكثر رزانة: -
لا يجب أن نقلق فلكل معركة ضحاياها!

وتصلبت عيناه عندما رأي جالسًا بالقرب من العتبة، فتوقف عن الكلام بينما
كانت الأنظار متجهة إليه، والرؤوس ممدودة في انتظار الكلمات التي ترتوي
بها القلوب.

ولم ينتبه أحد إلا بعد أن تمشى في الحجرة جيئة وذهابًا، فأسرعت بتعريفه ما
حدث، فأغمض عينيه، ومالت رأسه إلى الحائط وهو يردد: - خدوه.. خدوا
سالم.. أف.. ومحمد طلبة!

ونظر للجالسين وهو يردد:

- من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته، قوموا، قوم انت وهؤ وخليكوا رجالة،
وازرعوا الطمانينة في القلوب.

وتلفت حوالبه وهو ينفذ بنطلونه الأزرق، مرددًا:

- عن إذنكم.. أما أروح أبعث الجواب ده.

النبي قبل الهدية

ولم أكد أدخل الحجرة بعد يوم طويل مجهد حتى رأيت زوجتي تبكي: - كنت
فين؟ كده تسييني؟! تسييني أهاتي؟! الولد الغريب جه.. والولد السيد
الصفطي.. ما جيتش ليه وياهم؟

- آجي ازاي؟ لو كل واحد عمل كده يبقى مفيش فايده! هوّانت تكرهي
الراحة؟

- ارض بنصيبك!

- اقعدي ساكتة، بلاش كلام فاضي! إيش عرفك بالكلام ده؟! إنت تاكلي
ويس.. لا تتدخلي! إن كان عاجبك كده عاجبك، مش عاجبك اتفضلي رّوحي!
هوّ كل ما اطلع تنوحي ورايا؟!

ولم أنته من الكلام حتى سمعنا الطرق على الباب.. فتوجهت وهي تمسح
عينها، وارتفع صوت من الخارج: - فكري هنا؟

- دي محاسن.. اتفضلوا.

وأسرعت زوجتي لعمل الشاي، ولم تكن محاسن وحدها، بل كانت أمها معها،
واشتبكت في الحديث مع زوجتي، وتزحزحت محاسن بالقرب مني وقالت
في صوت هامس: - عملت إيه؟

- ده اللي عاوز أسمعه منك.. قولي.

- أقول إيه وأعيد إيه.. دا انا ركبي سايبة من اللي شفته الصبح!

قلت في صوت مرتفع:

- وبعدين؟

قالت:

- من يوم ما انتم أضربتوا وهمّ مانعينا من طرقة نسيج واحد، وبنروح للشغل من طرقة نمرّة اتنين.

وتوقفت عن الكلمات وكأنها تتذكر، وثنت إحدى قدميها تحتها: - إنت عارف إن عمال الورش قدامنا على طول ويا دوب كل بنت وقفت على الماكينة، وبتقول لسه يا هادي، وسمعنا تهليل عالية، ودورنا الجري على الشباك، كان واحد واقف على الماكينة والعمال ملتفة حواليه، وفضل يهتف وهمّ يرددوا: «عاشت العمال.. عمال الورش.. عاش عمال النسيج».. وأقول لك الحق، كنت أرد في سري وياهم وانا مش عارفة همّ عاوزين إيه.

وبعد شوية الرئيس الكبير جه.. شخطة حته دين شخطة.. أرعبتني.. وفي نفس واحد كأنهم تافين في حنك بعض: «ثمان ساعات عمل.. لا تفرقة».

واستمريت تحكي في انفعال، وكان لصوتها الرنان المشحون بالحماس أثر في تنبيه زوجتي، فأنصت للحديث.

- وسمعت الرئيس الكبير ببشخط بصوت مرعب: «إللي عاجبه على كده عاجبه.. واللي مش عاجبه يدينا عرض كتافه».. وهوّ قال كده وما خلصش.. راحوا هاتفين وهمّ ببشوحوا بإيديهم المسودة في وشه: «يسقط الظالم، يسقط الظالم».

فتقدم منهم، وراح مناول واحد بالقلم على صدغه.. وهُوَّ عمل كده، والدنيا انقلبت.. ده يجري من هنا.. وده يجري من هنا.. وراحوا خاطفين أسياخ مولعة، ورفعوها في إيديهم: «مش حنطلع! مش حنطلع!».. وهُوَّ يشتم فيهم: «يا ولاد الكلب! حاقطع عيشكم!».

راح واحد حادفه بحديدة في دماغه، سقط بعدها على الأرض.. واحد مش عارفة شكله.. صرخنا في الشبايك والرؤساء جم وكرشونا.. من ساعتها ما شفتش حاجة.

وسحبت ملاءتها وكورتها وكأنها تستعد.. ونظرت إلِّي وهي تمسح جبهتها، وأضافت وهي تخطط بأصابعها على الحصيرة: - الكلام ده من يومين.. والنهارده، آدي انت شفت.. ودخلنا وكل واحد مش قادر يبص في وش الثاني.. كلهم بيقولوا: «لولاهم ما كنا احنا، لولا عمال النسيج».. سمعت الرؤساء بيقولوا: «لو اشتغلنا يوم، حنوقف الثاني! هُوَّ الغزل له سوق؟ وهُوَّ فيه غير النسيج اللي بيشتغل؟ بنستنفع من وراه! لا المصبغة ولا المبيضة ولا التجهيز! كل دول متوقفين على النسيج! حيدفعوا لنا فلوس مينين؟ إن شاء الله الشركة راح يتخرب بيتها!».. فردوا كلهم في نفس واحد: «إياك على الله ينقل بابها».. ورد واحد ثاني: «واحنا كمان حيتخرب بيتنا!».

سمعت هذا النهارده.

وتوقفت عن الكلمات لحظة وأسرعت قائلة:

- صحيح الكلام ده؟ صحيح راح يتخرب بيتنا؟

وكررت السؤال أكثر من مرة، فلم أرد لأنني لم أكن أعرف هذا، ولم أكن أعرف أن توقف عمال النسيج يعني توقف المصنع كله، ولكنني خرجت من هذا بشيء واحد بعد أن فكرت فيما سمعته، هو أنه لا غنى عنا، وتذكرت ما سمعت من فرج وآخرين، ولكنني خشيت أن أفصح عن هذا لمحاسن، خائفاً أن يكون هذا غير صحيح، ولكنني قلت لنفسني: «طمئنهم».. بعد أن رأيت ما بوجهها من شحوب: - احيني النهارده وموتني بكرة.. ما دام بتشتغلي يبقى خلاص، رزق يوم بيوم والنصيب على الله.

فانفرت شفتها عن ابتسامة عريضة.

وإذا بأمها تقول:

- ربنا يخليكم ويسترها على ولاياكم.. يلاً يا بنتي.. يلاً يا محاسن ربنا يوصل عيشك وما ينقطعش.

وبينما كانت تخطو على العتبة، توقفت محاسن وبدها اليمنى تندفع في يدي، مرددة في صوت هامس: - النبي قبل الهدية.

فتلفت حولي خائفاً من أن تكون أمها قد رأت وأجبتها بنفس الهمس: - وأنا قبلت.

وكانت ست برايز مربوطة في منديل حرير أبيض.

غمرتني الفرحة عندما وجدت في يدي ما كنت سأقبضه.. ياله من شعور طيب تجاهي، ولاد الحلال ياما.. هي من بلد وانا من أخرى، ولكن الأيام جمعت بيننا، وبالصدفة تعارفنا.. يالها من إنسانة تحفظ الجميل! «من قدّم السبت يلاقي الحد قدامه».. لعل هذا ما قالته لنفسها قبل أن تحضر.. «كما وقفت بجانبني،

فأنا أقف بجانبك أساعدك وأنت تدافع عن الحق.. عن الثماني ساعات عمل
للجميع.. أقف معك والدنيا كلها ضدك».

قلت لنفسى:«يالها من بنت!».. وفكرت:«ماذا أفعل؟ إنه دين لا بد من أن
أسدده.. إنها تعلم أن العامل لا يبقى معه مليم واحد بعد انتهاء القبضية»..
وفي غمرة التفكير زعقت زوجتي بصوت رخيم: - الأكل جاهز.

فدفعت ما كان معي من نقود في حجرها، فبان في وجهها البشر، وثلث إحدى
يديها وشفتاها تتحرك كأنها تحسب كم ستكفي من الأيام.

ومرت الأيام.. وبعد ما يقرب من الخمسة وأربعين يومًا باعت فيها زوجتي
أكثر من قطعة نحاس دون أن تشعرنى.. وكلما سألتها تقول وهي تبتسم: - هُوَ
اللي جانبنا وَلَا احنا اللي جنبناه؟!

قلت:

- وأهلك لما يعرفوا؟

قالت، وكأنها ضربت في الصميم:

- العفش ده بتاعي.. بتاعي أنا!

قلت:

- والقائمة؟

- سأقطعها.. حاجيبها منهم.. حكمهم عليّ لما كنت وياهم! أنا عارفة بعد ربنا ما
يعدلها لك حتجيب بدل الحلة اتنين.. وهُوَ حد يقول يا رب انحسني!

واغرورقت عيناها، وأضافت قائلة:

- ما تفكرش!

وبينما كانت تواصل الحديث سمعت صفارة من بين الشفاه، تبعث من الشارع، وتعلو وترتفع كلما اقتربت من الشباك.. نظرت فإذا جموع من العمال متشابكي الأيدي وعيونهم إلى أعلى، ورأيت مصطفى رافع اليد ملوِّحًا:
- انزل.. انزل بسرعة.

أمسكت زوجتي في هدومي:

- رايح فين؟ هوّ مفيش يوم ترتاح؟ ارتاح لك ساعة.. يا ماني خايفة!

- اسكتي.

- الحجر الداير لا بد من لظه! إنت مش حتجيبها البر؟!

لم أحتمل نبرة الخوف والتضرع في صوتها، فأزحتها عن طريقي برفق وخرجت.

أسرع مصطفى نحوي بخطى مسرعة، متهلل الوجه: - عرفت اللي حصل؟

قسموا العنبر.. قسموه أربع عنابر بدل من واحد.. والبناية على ودنه شغالة ليل ونهار.. الشغل راح يبدأ!

قلت وأنا أتطلع في الوجوه:

- فين عبد العظيم؟

- يظهر عليه رُوحٌ.. ناس كثير هاجرت!

- إنت شفته؟

- من يومها ما شفتوش.

- وانت عملت إيه؟

- أصحاب البيت منعوني.. لولاهم كنت رُوحٌ.. رفضوا يخلوني أشيل حاجاتي..

ما بياكلوش لقمة من غيري.

قلت في نفسي: «ياما فيه ناس كثير طيبين وأمرأ».. ولاحت في خاطري

صورة محاسن.

ودفعت يدي في يده والفرحة تملؤني:

- اتفضل.. اتفضلوا يا رجاله.. تعالوا نشرب شاي.

- على إيه مش مستاهلة.. إللي تصرفه علينا اصرفه على نفسك، القرش

الأبيض ينفع في اليوم الأسود.

وبينما كان يقول هذا، قاطعه أحد الواقفين: - قول لنا يا مصطفى.. طمنا..

فرج قال في كلامه لازم نعمل لجنة تتفاوض، لازم، لازم.. ولغاية النهارده ما

شفناش حاجة.. كل ما نروح ما نلاقيش غير «شدوا حيلكوا، اتجدعنوا، إوعوا

حد يروح ناحية الشركة».. مفيش كلمة لا عن لجنة تتفاوض، ولا عن حاجة! إيه

الحكاية؟!

ونظرت إلى مصطفى الذي كان واقفًا شارداً التفكير وكأنه يبحث عن الكلمات.. وبعد فترة من الصمت أجاب وكأنه كان يعرف ما في ذهن فرج: - لجنة إيه دلوقت؟! هيّ الشركة معترفة بحد؟ ده مفيش كلمة لا على لسان رئيس أو مدير إلا وقال «العمال دول زي النسوان».. بيعتبرونا زي نسوانهم.. كلهم بيقلوا «هوّ الواحد ياكل لقمة غصب عنه؟ الواحد لما يتزوج واحدة مش عاجباه مش بيطلقها؟ أهو انتم زي النسوان، نشغل اللي نشغله، ونفصل اللي نفصله! هيّ الجزمة لما تتعب صاحبها مش بيقلعها؟ أهو انتم زي الجزم!».. ما سمعتوش الكلام ده؟ كلنا سمعناه.. بيقلوا عاوزين إيه؟ إحنا دلوقت في عركة.. الأول نتصر وبعدين نبقى نشوف إيه حكاية اللجنة.. كلام فرج مش لجنة، فرج يقصد النقابة.. زي ما انا عارف، ودي جاية، مش ممكن نعملها دلوقت.. بعدين.. نعملها واحنا جوّه.. واحنا بنشتغل لو انتصرنا.. أي كلام الآن عن لجنة أو نقابة تضيع للوقت.. كل همنا الآن أن نقول للعمال «إوعى حد يروح ناحية الشركة».. مفيش كلمة لا عن لجنة تتفاوض، ولا عن أي حاجة أبداً.

كان يتكلم في سرعة وفي وضوح دون أن يستريح لأخذ أنفاسه وأضاف: - إذا كان حد عرف حاجة من كلام فرج غير كده يبقى غلطان.. فرج عاوز لجنة زي اللي احنا عملناها في الإضراب، تحرس الممكن، تلم الحديد، تتكلم مع العمال، تسمع أخبار تقولها.. ده اللي احنا عاوزينه.. وعلى فكرة عاوز أقول لكم حاجة قبل ما أنسى، القضية بُكرة، وفيه محامين جاية من مصر.

وتطلع إلى فوق فرأى زوجتي، فزقق قائلاً: - طمنها.

وارتسمت على وجهه علامات الجد:

- هَيَّ مَنِين؟

قلت:

- من بلدنا، وقربيتي.

فأطرق بوجهه إلى الأرض وهو يردد:

- الضفر ما يطلعش من اللحم.. الواحدة إن ما كانتش تخاف على جوزها،

تخاف على مين؟ يا ريت الناس كلهم زيك!

وتأبط ذراعي، وسار على مهل، ثم أضاف:

- تعرف، الواحد شاف حاجات اليومين دول لو عاش عشرين سنة ما كانش

شافها.. الله لا يوريك!

وظهرت على وجهه علامة يأس قاتلة، وهو يردد: - فيه نسوان سابت الرجاله..

سابوهم في الإضراب.. رفضوا يروّحوا معاهم بلدهم.. اتطلقوا.. تصور..

ماقدروش يستحملوا!

قلت:

- ليه يا مصطفى؟

قال وهو يشد على يدي:

- مفيش حب يربطهم.

قلت وأنا أبتسم:

- ما انا مراتي ما كنتش باحبها، وباعت حاجتها من غير ما تقوللي.. وصابرة
معايا.. وكل ما أقول لها رَوّحي ترفض وتقول حافظل هنا معاك.

قال وهو يفرك على يديه:

- أهو ده الحب.. هيّ دي اللي تتحب.. إللي تقف مع الواحد في محتته دي
مرات زمن، مش تاكلك لحم وتسيبك عضم؟!!

وجز على شفتيه:

- نسوان ولاد كلب عاملينها تجارة!

فرد أحد الواقفين زاعقًا:

- إيه الكلام ده يا مصطفى؟! إذا كنت شفت نسوان كده، إحنا شفنا نسوان
من البلد دي شالت المشنة وباعت الفجل على رجالتها.. غلط الكلام ده يا
مصطفى تقوله!

فأجاب مصطفى في غيظ:

- دول قلة، قلة اللي عملوا كده!

فرد آخر:

- لا يا مصطفى.. لو دورت على الحقيقة تلاقي الذنب مش ذنبهم.. ذنب
الإدارة.. هوّ فيه واحدة بتقول يا رب انحسني!

فرد مصطفى قائلاً:

- كلهم زفت! فيه نسوان كتير رافقت.. رافقت على جوزها! أنا شفت بعيني!

فرد الواقفون:

- حرام عليك! ما عندكش ولايا؟! هَوَّ في واحدة بتفرط في عرضها إلا من
الجوع!

توقف مصطفى حائرًا، وكأنه قد وقع في حيص بيص: - وانا كنت باقول كده
ليه؟ سيبونا من الكلام ده!

وتلفت حوالية وقال وهو يشد على يدي:

- إوعى تنسى تيجي المحكمة بكرة!

الحكم جاهز

صحت مبكرًا تاركًا زوجتي تسبح في النعاس متفاديًا شجارها معي، أو
مشاكسة تؤدي إلى منعي من الخروج، وكان الشوق إلى رؤية سالم ومن معه
يحرك أقدامي.. كنت أعرف أنهم سيأتون بالقطار من سجنهم البعيد في
طنطا، وعلى المحطة كنت أول من حضر، ومن ثانياً إلى أخرى كانت
جماعات متفرقة من العمال في ملابسهم الزرقاء والبيضاء تقف في زوايا
مختلفة يتهامسون، وعند الساعة التاسعة والنصف كان الميدان قد ازدحم
وشحبت الوجوه، وظهر التحفز والترقب عليها في انتظار صوت القطار..
واقترب الوقت، وازداد الناس، وسدت كل الطرق المؤدية إلى المحطة،
سدت بالناس، وبعضها توقف على جوانب الطريق، متأهبة ومتحفزة.. وزادت
الأسئلة: - إيه دول؟ همّ ورانا ورانا؟ حكومة إيه دي؟ هيّ ما تتشطرش إلا على
الغلاية؟

وارتفع صوت حملته الريح إلينا:

- الحق راح فين لما الزور بقاله سوق؟

وسمعت صوتًا يتردد في الفضاء لم أنتبه لصاحبه:

- المحامين جايين في القطار.

ورن الصوت في أذني، فتذكرت ما كنت أسمعه من أمي، عن حكايات قالها
أبي عن مصر.. تصورت أنهم ناس عراض الأكتاف، وشوارب يقف عليها
الصقر، قوم لا يتكلمون مثلنا.. لو تكلموا يسكت الآخرون، بلغوا من العلم ما

لم يبلغه الآخرون، وإلا لما سموها مصر، مصر أم الدنيا.. لا يسكنها إلا قوم قد تعلموا، ومن مدارسها تنشب المظاهرات.. وفيها يسكن الملك.

واقترب صوت القطار مدويًا «توت.. توت.. توت».. واهتجت الناس: -
المدافعون عنا قد وصلوا!

وتدافعوا من كل ناحية يقذفون بعضهم فوق بعض، وصوت القطار يدوي في الفضاء.

عاشت المحامين

عاش منقذو العمال

دخل المحامون إلى المحكمة والعمال من خلفهم.. رغم زمجرة الجنود وصياحهم.. ومن الزحام حولي لم أستطع أن أرى المحامين، كنت أكاد أطير من الفرحة التي غمرتني.. أحسست أن العمال لم ولن يكونوا وحدهم.. ناس أتت للدفاع عنهم.. ناس من مصر.. وإذا برجل يدفع بي، وكانت الدفعة من القوة بحيث أجلسنتني في الصفوف الخلفية، وتدخلت الجنود، وفي غلظة بدأوا يخرجون العمال من القاعة.. أخرجوا كل الواقفين.

أطبق الصمت وساد الهدوء، وزعق الحاجب:

- محكمة!

وقام الجالسون وقوفًا في خشوع في الوقت الذي كان فيه ثلاثة يدخلون واحدًا تلو الآخر، يتقدمهم رجل من باب جانبي، رجل أشيب نحيف الجسم، له وجه مستطيل أبيض وعيناه ضيقتان كعيني الفأر، جلس في الوسط وعلى

يمينه رجل ضخم الجثة قمحي اللون، عيناه سمراوان ينبعث منهما بريق كاللهب، أخذ يتطلع بهما في القاعة، فأشاع الفزع، وعلى اليسار جلس رجل يميل وجهه إلى الاحمرار، حليق اللحية، له عينان خضراوان متسعان كأنها لا ترمش.

خلع الرجل الأثيب طربوشه، وعاد فوضعه في مؤخرة رأسه.. وبدأت الهمسات تتردد في القاعة: - أين المتهمون؟

وبدأنا نسمع خارج القاعة أصواتًا عالية لجنود شاكين السلاح، يتدافعون من العربات، وآخرون يدفعون الناس في غلظة، ورنين السلاسل وهي تفك من الأيدي يحدث أنيًّا شاكيًّا.. وصراخ النسوة تدمع له الأعين فتسقط الدموع غزيرة على الخدود.

بدأت الوجوه الشاحبة تدخل في هيئة مهيبة، والجنود متأبطة أذرعها.. كان سالم في المقدمة يحيي الناس بإيماءة من رأسه، وانفرجت من شفثيه الغليظتين ابتسامة هنا، وابتسامة هناك.. كان بملابس السجن الوسخة، وحزنت لرؤيته، وفر الدمع من عيني وأنا أتذكر بدلته الأنيقة وشعره اللامع، وهو يسير أيام العطلة، وكأن الأرض تهتز تحت أقدامه.. هكذا السجن، فيه الرجال تنهان! وانتبهت على صوت هامس بجواري: - دول كام؟ خمسة وخمسين؟ خمسة وخمسين متهم؟ يا نهار مش فايت!

وتكوم المساجين داخل قفص من القضبان الحديدية، واهتزت رؤوسهم المرفوعة كأنهم يلوحون بها للناس، وارتفع صوت الحاجب مناديًّا، وهمهم المساجين كلما سمع واحد منهم اسمه.. مطأطئين كل يهمس في أذن الآخر، والحاجب يواصل المنادة، وتقدم المحامون أمام المنصة الخضراء، وفي

المقدمة كان شاب أبيض طويل القامة ذو عينين خضراوين، وفي يده دوسيه كبير الحجم.

وارتفعت الهامات، وازداد الهمس:

- إيه دول؟ كل دول محامين؟

- أمال.. هيّ العمال دي شوية؟!!

واتجهت الأنظار نحو المحامي الأبيض، بينما وقف رجل على أكتافه وشاح أحمر مزين بالهلال، يقلب في الأوراق بسرعة البرق، وتململت الناس في القاعة، وأقدامهم تدق الأرض.

- النيابة.

وترددت الأصوات:

- النيابة.. النيابة.

تذكرت الماضي القريب.. قلت لنفسني: «النيابة ضدنا».. وكانت ضجة الأصوات عالية، أسكتت بدقة قلم على المنصة الخضراء معلنة بدء الجلسة.

ساد الهدوء.. كان أول من سئل هو سالم:

- أنت متهم بتدبير إضرابات وتكسير الممكن.

أطبقت يده على القضبان الحديدية، وتركزت عيناه على قاضي الوسط: - إن ادعاءهم كاذب تعوزه الأدلة.

قال القاضي:

- رد على السؤال.. حرّضت وَّلاَ لَأ؟ كسرت الممكن وَّلاَ لَأ؟

قال سالم:

- ما حصلش!

قاطعته القاضي:

- اجلس.. غيره.. إللي بعده.

وكما قال سالم قال الآخرون.. أجابوا نفس الإجابة.. إجابات كدت أن أصفق لها لولا أن أدركني الصوت الغليظ القاسي.. صوت النيابة: - حضرات القضاة.. اليوم نقدم لكم قضية من أخطر قضايا العصر.. سبق أن قدمنا قضية عامل أعمت الأحقاد قلبه فقتل رئيسه!

شعرت بجسدي كله يهتز وأنا جالس في مكاني.. وعمني الغضب والانفعال بينما ارتفع صوت بالقرب مني: - اخرس! إنت كدّاب!

بينما وقف سالم يبتسم.

- يوجهون التهم زورًا!

وازداد الهمس:

- قول وخلصنا.. إحنا جايين نسمع المحامين!

وارتفع صوت النيابة:

- اليوم نقدم لكم هذه القضية التي تفوق الأخرى في البشاعة.. قضية مجموعة مجرمة أبت أن تدور العجلة بسرعة، فأوقفوها عن عمد.. استغلوا عملهم في خديعة الغوغاء، فدفعوها إلى الهياج لإسكات صوت الممكن.. «إن من السهل أن يقتل الإنسان، ولكن من الصعب أن تدمر الآلات».. هذه القلة المنحرفة من المجرمين، استغلوا عملهم في إثارة البعض، مستغلين جهالة من أرادت الشركة إيواءهم!

وامتدت يده نحو القفص:

- هؤلاء هم المرشدون المضللون للجهلة، لولاهم ما هاجوا.. القدر وحده الذي تدخل لإنقاذ الشركة، لو تركوا لحظة واحدة لما تبقى اسم شركة مصر، ودمر كل ما شيدت به مصر المستقلة السائرة في طريق التصنيع، والازدهار.. ولكن القدر وحده.. القدر الرحيم يا حضرات القضاة، هو الذي تدخل لإنقاذ الشركة، بعد أن بدأوا في تكسير الآلات.. آلات مصر يا حضرات القضاة!

وختم كلامه قائلاً:

- أنا لن أطيل عليكم، فالأوراق بين أيديكم تشهد بجرائمهم البشعة، والأدلة ثابتة من واقع أوراق القضية!

ثم صمت برهة وقد اكتسى وجهه بملامح خطيرة صارمة، وارتفع صوته حاداً وهو يشير إلى سالم وزملائه: - يا حضرات القضاة، إن هؤلاء المجرمين يستحقون الشنق!

وشعرت بجسدي كله يرتعش من الغضب والذعر.. وترددت الهمسات في القاعة: - شنق؟ شنق يا ولاد الكلب؟! هوانتم ما اكتفتوش قتل؟! إلهي يخرب

بيوتكم!

وتطلعت عيني إلى سالم خلف القضبان الحديدية، رافعًا رأسه في كبرياء، وعينه متجهة نحو وكيل النيابة ينظر إليه بغضب، وعلى شفثيه ابتسامة مملوءة بالقرف والاشمئزاز.. قلت لنفسي: «مظلوم، وأيمانات المسلمين والنصارى واليهود وكل ملة، مظلوم يا سالم.. لا كسرت ولا خربت.. دلوقت أستطيع أن أقول ياما في السجن مظالم».. التفت مرة أخرى إلى سالم وكان يتحدث مع الباقيين وهو مشرق الوجه مطمئن.. فطمأنني موقفه.. ورن صوت في أذني من رجل يلبس بدلة ويجلس في المقعد المقابل لي: - رخصت.. والله رخصت يا إنسان.. بقيت أرخص من المكنة!

وانحنى إلى الأمام، وثنى أحد أصابعه وكأنه يستحلف للرجل ذي الوشاح الأحمر.. وعاد الصمت إلى المكان، والناس في القاعة تنتظر على مضض ما سوف يقوله المحامون.. وشخصت العيون عندما خطا المحامي الشاب ذو العيون الخضراء متمشيًا أمام المنصة الخضراء، ناظرًا إلى ما فوق الرؤوس، إلى الآية المكتوبة بمياه الذهب: «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ».. كأنه يقول لمن سوف يحكمون «هل قرأتم؟».. وارتفعت هامتي عندما سمعت أصواتًا قائلة: - أحمد.. هو.. أحمد حسين.

فوقفت أشب على أظافري، ولكن رجلًا من الخلف شد جلبابي قائلاً: - اقعد.. اقعد.

وتردد صوت المحامي في المكان:

- حضرات القضاة، هالني ما سمعت.. ما سمعته الآن يعتبر جريمة إن صح التعبير! كيف يُقال هنا وفي هذه الساحة.. وعلى الملأ.. وفي ساحة العدالة؟

كيف تقول النيابة إن من السهل أن يقتل إنسان على أن تدمر الآلة.. أي كلام عن مصر المتحضرة؟! إنه تحريض سافر ضد من يصنعون الحياة!

ولوح بيده نحو المتهمين في القفص الحديدي:

- أهذا قول عن مصر المتحضرة كما تزعمون؟! هل مفهومكم عن الحضارة أن تصبح أرواح الناس أرخص من الآلة؟!

احتقن وجه القاضي الذي يجلس في الوسط، وتململ في مكانه وقال:-
خليك في الموضوع، وإلا أوقفتك!

وهاج الناس في القاعة، وتحركت الأجساد في عصبية، وتعالى الهمسات الغاضبة.. واسترسل المحامي وهو يدفع طربوشه إلى الوراء:- أردت أن أسجل هذا، ما سمعتموه من كلمات مثيرة قد يجعلكم تتعجلون الحكم.. ولو أنني أستطيع القول إنكم بالفعل قد حكمتم! إن حكم الإدانة يطل الآن من الأدراج! إن رائحته تفوح! وإن ما يحدث الآن إنما هو من سبيل الأخذ بالعدالة لكي لا يُقال إنكم بالفعل قد حكمتم قبل أن تسمعوا كلمة الحق!

وخط بيده خبطة قوية على المنصة الخضراء، وكأنه يستصرخ الضمائر:- إن المجرم الحقيقي ليس هؤلاء! إنهم لم يكسروا الآلات! أقولها عالية لتسمع الدنيا، ولكي لا يختلط بالذهن ما تردد صداه، وما أشيع في الجرائد! إن من الصعب أن يصدق عاقل أن عاملاً يكسر أو يشترك في تخريب ما تغرَّب من أجله طويلاً.. الآلة التي يعمل عليها ويعول منها أسرته وأولاده! إن ما حدث من قبيل الدفاع عن النفس ضد الهمجية.. همجية الغفر.. همجية من دفعوا بالغفر للاعتداء بوحشية على العمال المطالبين بحقهم في الثماني ساعات.. فإذا كان لا بد من محاكمة حاكموا الإدارة.. حاكموا المشرفين، حاكموا الذين

يظنون أنهم يعيشون في عصر عبودية الإنسان! إن العمال بدأوا مسالمين.. كل ما فعلوه أنهم طالبوا بحقهم في الثماني ساعات.. لا يوم واحد، بل يومين، لم يحدث منهم ما يشين موقفهم، وكان من الممكن أن ينتهي اليوم في سلام لو كان الذي يحكم هو العقل! ولكن المصالح الأنايية أعمت عيون المديرين، وكأنهم لا ينظرون إلى المطالب العادلة لحق هؤلاء العمال في الراحة والعلاج!

ثم صمت فترة، وأخذ ينظر إلى الرجل ذي الوشاح الأحمر، ثم استأنف كلامه موجهاً الحديث للنيابة: - إنني أتساءل: كيف أتيتم هؤلاء؟ كيف اخترتموهم؟ هل هم وحدهم عمال النسيج أم هناك آلاف وآلاف غيرهم؟ هل تقصت النيابة الحقيقة، وإلا لما بقي هؤلاء لحظة.. لو تقصيتم الحقيقة لما كانت هذه القضية!

والتفت نحو قاضي اليسار وصرخ:

- لو أن العدل هو السائد لما بقي هؤلاء يعانون مرارة السجن! لو أن العدل هو السائد لحل أصحاب المصالح الأنايية محلهم في هذا القفص! إنهم أبرياء! غالبيتهم العظمى قبض عليهم في عرض الطريق! أقول هذا من واقع الأوراق.. وأمامي أسماء أخرى ليس لهم اسم في المصنع.. وهذا دليل قاطع على بطلان التحقيق، وسوء حظ الآخرين أنهم ليس لهم اسم في المصنع.. إن الشاهد الوحيد المدعو «سيد البغل» لم يحدد نوع ما فعله كل منهم.. لم يشر لاسم كل هؤلاء.. لم يقل سوى ما أمني عليه إرضاء لساداته! إنه رعديد، والرعديد هو الذي ينجو بنفسه حتى على أشلاء غيره من الناس! ولو أن النيابة بذلت الجهد وتحرت الحقيقة لاتضح لها أنه ضمن الخصوم، أنه كثيرًا ما حرّض أهل بلده على العمال، كثيرًا ما شارك في الاعتداء عليهم ليضطروهم إلى ترك العمل في الشركة، ولمّا فشل في ذلك استمر في إثارة الرؤساء

على زملائه بالدس والكذب والوقيعه، ظنًا منه أنه بهذا يثني العمال عن العمل! هذا ما أردت أن أقوله توضيحًا للعدالة.. وليس لي مطلب سوى الإفراج عنهم!

اختتم مرافعته، وتزحزح إلى الوراء وهو ينظر إلى كل من كانوا بالقفص، طاويًا الدوسيه الكبير الحجم، وعاد إلى مقعده وعيوننا جميعًا شاخصة إليه في انبهار.. فجأة ضجت القاعة بالهتافات التي بدأت داخل القفص، ثم من قاعة المحكمة: - ينصر دينك.. يحيا العدل.. ربنا على الظالم.. يسقط الظلمة.. أنصفوا العمال.

ومال قاضي الوسط إلى الأمام ووجهه قد احمر من الغضب، وأخذ يدق على المنصة الخضراء، وارتفع صوته حادًا قويًا: - هدوء، مش عاوز أي شغب في القاعة! إللي حيعمل أي ضجة حاطعه برّه! احرص انت وهؤا! أي واحد حيعمل ضجة حاطه في القفص!

وعاد الهدوء للقاعة! وسمعت بعض الهمسات:

- محامي تاني حيتكلم.. ربنا معاه!

لم يكتف المحامون بالكلمة الأولى، بل تقدم آخر وكأنهم كانوا متفقين، إذ قال المحامي الآخر في صوت حاد النبرات: - أيها السادة أعضاء المحكمة.. إنني سأبدأ من حيث انتهى زميلي.. وإذا لزمتم الدقة فإنني أقول لمن اتهموا هؤلاء الأبرياء وتسببوا في سجنهم، وادعوا كذبًا وافتراءً أنهم كسروا الممكن، أو حرصوا على هذا العمل كما يزعمون.. أقول والحق يقال إن هؤلاء العمال بسواعدهم وعلى أكتافهم أقيم هذا الصرح الشامخ، ولأنهم يعتبرونه مصدر رزقهم فلم يضمنوا بالعرق والجهد.. عشر سنوات من الصبر والمعاناة.. وكل

أملهم أن يعيشوا كأدميين.. لو حصرنا كم من التضحيات لتهنا في العدد.. عدد ضحايا السل، وتهنا أيضًا في عدد ما شوه من الأجساد، وما بتر من الأعضاء، والعجز الكامل عن العمل، وعدد القتلى أثناء العمل.. كل ذلك بسبب الظروف الصحية البشعة التي أجبروا على العمل فيها، وبسبب عدم الاهتمام بتحسين أو صيانة الآلات، والإهمال المفضوح المتعمد من جانب ذوي المصلحة.. كل همهم أن يعصروا هؤلاء المساكين ويحولوا عرقهم إلى نقود ومكاسب.

صمت قليلًا وخطا خطوتين في اتجاه النياية، ثم ارتفع صوته حتى أصبحت القاعة تدوي به وهو يقول: - إن الصرح الشامخ الذي تتكلم عنه النياية، والذي يعلو ويعلو كل يوم، والثراء الفاحش الذي امتلأت به الجيوب، قد بُني على أجساد وأرواح وسواعد هؤلاء العمال.. أين النياية؟ أين النياية من كل تلك الجرائم؟ أين كانت النياية وقت أن كانت الناس تُدفن تحت الأنقاض؟ أين كانت النياية والماكينات تبقر البطون وتقطع الأذرع وتهشم الرؤوس؟

وخطا خطوة أخرى في اتجاه النياية.. وفجأة رفع يده وأشار بها إلى الرجل ذي الوشاح الأحمر: - إنكم تحققون مع المظلومين، وتحبسون الضحايا! ولكنكم تتجاهلون المتسببين الحقيقيين! أين كنتم والشكاوى تملأ الأدرج في الوزارة، حتى مكاتبكم قد ملئت بشكاوى واستغاثات هؤلاء العمال؟ ليتكم تحركتم منذ البداية! لو كنتم فعلتم لما كان هذا قد حدث الآن! ويا للأسف تتحركون لا لتحاسبوا من أساءوا بل لإدانة من ارتفعت أصواتهم تطالب بالحق!

وتمشى أمام المنصة، وتوقف أمام قاضي الوسط ملوحًا بيده قائلاً: - النياية تطالب بتوقيع أقصى عقوبة على هؤلاء المظلومين، وتحرض على شنقهم..

تتكلم عن الحضارة.. أي حضارة لقوم يقيمون صناعتهم على الأشلاء.. أشلاء العمال؟ هل التحضر يعني السجن لمن يصرخ من الظلم؟ التحضر أيها السادة يعني فك القيود، وإصدار التشريعات العادلة لمن يصنعون الحياة!

صاح بأعلى صوته:

- أين التشريعات التي صدرت لتنظيم حقوق العمال وحمايتهم؟ أين يا من تتكلمون عن مصر المتحضرة؟! إن العالم يسير ومصر لا تسايره! كلنا يعرف السبب.. الاستعمار.. ولكن لسوء حظ مصر أنه يوجد بيننا من يدافعون عنهم.. سلطوا السيوف ضد المصريين.. سايروا الاستعمار في بطشه! إن ما يحدث الآن لهو خير دليل! إن دستور سنة ٢٣ لم يفرح به الشعب لحظة - دائم الإلغاء - أيها السادة! إن العمال كانوا وما زالوا أبناء لهذا الوطن.. إننا جميعًا مدينون لهم.. إن ما قاموا به في ثورة ١٩ يجعلنا نفخر بهم.. إن الاستعمار ومن يساندونه يعرفون من هم العمال.. لهذا ليس غريبًا ألا تصدر أي تشريعات لحمايتهم.. لهذا نجد السيوف ترفع والسجون تفتح، والنيابة تطلب لهم السجن والشنق! إنهم يعتقدون أنهم قادرون على وقف الزمن، وهم مخطئون.. إنكم تعلمون ما حدث في أمريكا، وكانت للعمال مطالب عادلة تجاهلها الحكام.. خرجوا في مظاهرة سلمية.. تأمرت عليهم قوى الغدر، وألقيت قنبلة ليحاكم العمال زورًا.. وكانت المحاكمة المشهورة.. وحكم بالشنق على عدد منهم لإرهاب الباقين.. أيها القضاة.. إنكم تعلمون ما حدث.. ثارت الدنيا واهتزت المشاعر وتحركت المظاهرات في كل أنحاء الأرض.. واستيقظ الضمير العالمي.. حتى ضمير من دبر الجريمة.. كان أحد الضباط الذين اشتركوا في التواطؤ مع السلطة وأصحاب المصانع اعترف في آخر أيام حياته أنه هو الذي

ألقى القنبلة.. وأعيدت المحاكمة وبرئ من شتى ظلماً وزوراً.. هذا هو عيد
أول مايو.. عيد العمال!

حضرات القضاة.. يا روح العدل.. يا ضمير مصر.. إن ما حدث هناك يحدث
هنا.. نفس المؤامرة.. نفس الظلم وتجاهل الحقوق.. نفس تلفيق التهم
لتشويه صورة العمال.. إنهم صانعو الحياة.. صانعو الخبز.. ناسجو الملابس
التي تلبسونها.. بهم وبفضلهم ارتفعت المداخن.. بنيت العمارات.. رصفت
الطرق.. كيف نتظر من العمال الذين يبنون الحضارة أن يقبلوا الحرمان من
أبسط الحقوق الإنسانية؟!

توقف عن الحديث فجأة.. فساد القاعة هدوء رهيب.. ولكن صوته رجع
مجلجلاً: - حضرات القضاة.. إن البعض يعتقد أنه بهذه المحاكمات يستطيع
إيقاف عجلة الزمن.. أقولها عالية.. إن ما حدث اليوم هو الشرارة الأولى.. إنه
نذير لقوم يتجاهلون حقوق الإنسان، وإذا كانت بعض الماكينات قد تكسرت
كما يدعون.. ففي الغد قد يحدث ما هو أشد، ولعلكم سمعتم ما حدث
للقصر!

أفرجوا عن هؤلاء وابعثوا عن الأسباب.. إن العبد وحده هو الذي يعمل تحت
القهر، أما الحر فمن حقه أن يتوقف عن العمل إذا لم يحصل على الأجر
العادل مقابل عمله.

يا حضرات القضاة.. قولوها معنا، إن المشاكل لا تعالج بالسجن.. بل بإصدار
القوانين العادلة.. قولوها معنا قبل أن ينفذ السهم ويقضي على من أراد
العبودية للإنسان، كما حدث في بلاد في طريقها الآن إلى تشييد الحضارة
الحقيقية بسواعد من عاشوا في الظلام ذات يوم.

واتجه ناحية المسجونين داخل القفص الحديدي.. وأشار إليهم قائلاً: - إن القط يولد أعمى ولكن الضوء دائماً يكون في داخله.

ودار حول نفسه في مواجهة المنصة ويده متجهة إلى باب القاعة: - حضرات القضاة.. افتحوا الأبواب.. اتركوا الضوء يخرج.. اتركوا النور يخرج من خلال الظلام.

شعرت بجسمي كله ينتفض بالحماس والغضب، وانتشرت الهمسات في القاعة، والأجساد تتحرك في عصبية.. ولاحظ المحامون أن كلماتهم لم تسجل في الأوراق فثاروا ثورة عنيفة، أدت إلى أن ترفع الجلسة.

خرجت من المحكمة وجسمي كله ينتفض ويرتعش من الحماس.. لسنا وحدنا.. إن الأفندية الذين جاءوا من مصر معنا.. المتعلمون يشهدون بعدالة قضيتنا.. العمال في أمريكا انتصروا.. نستطيع أن نتصر مثلهم.. المحامون يطلبون قوانين لتحمينا.. عمال مثلنا انتصروا على القيصر وبينون الحضارة.. من هو القيصر؟ لا بد أنه أحد المديرين الظلمة!

التف حولنا العمال خارج المحكمة، وسألونا عما حدث في المحكمة.. انتشرت التجمعات في الشوارع والحواري تسأل وتسمع الإجابات وترتفع الهتافات.. وازداد الإصرار على الاستمرار في الإضراب حتى نأخذ حقوقنا.

بعد أسبوع صدرت الأحكام.. حكم على سالم بسنة، وعلى الآخرين بأشهر.. وكان هذا بمثابة الشرارة الأولى كما قال المحامون.

ما سمعناه من المحامين، ونجاحنا في تنظيم الإضراب، فتح عيوننا على أشياء كثيرة لم نكن نفهمها.. شعرت أن غطاء أسود كان يغطي عيني قد بدأ ينزاح،

وأصبحنا أكثر فهمًا وأكثر ثقة في أنفسنا.. تشكلت لجان كثيرة فيما بيننا لتقوية العمال وتشجيعهم على الاستمرار في الإضراب، ولجان لمساعدة الأكثر احتياجًا.. من معه يساعد من ليس معه.. وعلى رأي المثل «المليان يكب على الفاضي»، و«يد الله مع الجماعة».

وتعاطف معنا أهل البلد والجيران، وساعدونا وشاركونا طعامهم، والتجار باعوا لنا على الحساب، والعمال في الورش والمصانع الصغيرة قدموا لنا أقصى ما يقدرون عليه.

نهاية خائن

استمر «سيد البغل» في وقاحته.. كان يعترض العمال ويهددهم أنه يخبص عليهم، وأن الحكومة صاحبة ومش نايمه.. وفكر بعض العمال في أن ينتظروه على أول الحارة ليلاً ويضربوه بالشومة على رأسه إلى أن يقضوا عليه.. ولكننا قررنا أن العمال ليسوا قتلة.

وقررنا أن يقاطعه كل العمال.. لا أحد يكلمه أو يرد له السلام.. الكل يغادر القهوة التي يجلس فيها البغل، ولكن البعض لم يلتزم بالقرار، وكانوا يشتمونه كلما رأوه:

- يا بغل يا ابن البغل! يا خاين العيش والملح! يا خسيس! يا كلب السلطة!

وبدأ يجري في اليوم أكثر من مرة إلى القسم ليشتكو العمال، وتكررت شكاواه حتى ضاق الحكام.. وأخيراً طرده الضابط من القسم قائلاً:

- إنت كل يوم حتجيب لنا مشاكل؟ غور من هنا وإوعى أشوف وشك تاني!

وفي يوم دخل القهوة ونحن فيها.. جلس وهو ينظر إلينا متحدياً ومتحرساً، وطلب شايًا.. بدأنا نتحرك لمغادرة القهوة، وإذا بصاحب القهوة يصرخ في وجهه:

- ما عندناش شاي! ما عندناش بن! ما عندناش كراسي تقعد عليها! غور بقه وَّقَفْتِ حالنا وحال البلد! إلهي يوقف حالك يا ابن الخسيس!

وفي أثناء عودتي للمنزل سمعت صراخًا وصوات بعض النسوان.. كانت سيدة تببع الجبنة القريش.. رأيتها واقفة وقد لفت ملاءتها حول وسطها، وهي تصفق

بيديها وتصرخ بأعلى صوت وتشير إلى امرأة أمامها:

- ما عنديش جينة يا روعي! بطلنا نبيع يا ضنايا! جوزك خبص على إخوانه
وقطع عيشهم! وقّف حال السوق! لا أوضة بنقبض إيجارها.. ولا بيع ولا شرا!
غوري من وشي يا مَرّة! شوفي واحدة تانية تبيع لك السم اللي تتسمميه انت
وجوزك!

وسمع البغل، وجاء لنجدة زوجته التي وقفت وسط حريم السوق تبيكي.. ولا
أدري من أين ظهرت محاسن ومعها عاملتان من صديقاتها.. وصرخت
محاسن:

- قولوا ورايا يا عيال.. قولوا ورايا.

وفي مجموعات تجمع الأطفال من كل ناحية وأخذوا يرددون وراء محاسن:

يا خاين يا ابن المفضوحة

بُكرة حتبقى في إيدنا دبيحة

خنت العيش والملح يا بغل.. ارحل عنا!

واندفعت إحدى العاملات تهتف، وتكرر الهتاف والأطفال يرددون:

سالم واللي معاه رجالة

وانت يا بغل كناسة وزبالة

وانهال الطوب على الخائن وزوجته، اللذين جريا أمام الأطفال.. وسط ضحكات أهل البلد وزغاريد النسوان.

من ألف هذه الأغاني؟ لست أدري، ولكن الأطفال حفظوها، ورددوها في كل حارة في البلد، حتى أصبح البغل وزوجته لا يجرؤون على الخروج إلى الشارع.. واستيقظنا ذات يوم فإذا بالبغل قد هرب من البلد ليلاً وسافر حيث لا ندري.. وقد رفضت زوجته أن تسافر معه، وعلى حد قولها: «هَوَّ اللي جابه لنفسه».

وأخيراً تراجعت الشركة.. وصحونا ذات يوم على إعلانات كثيرة ألصقتها الشركة في الشوارع تطلب من العمال العودة للعمل.. وتعلن تخفيض ساعات العمل إلى عشر ساعات بدلاً من اثنتي عشرة، وأن العمل سيكون على ماكينتين بدلاً من أربع.. مع زيادة في الأجور.

واتفقنا أن ننهي الإضراب بهذه المكاسب، على أن نستمر في السعي لباقي مطالبنا بالطرق التي نتفق عليها.. وعلى رأي فرج والمحامين: «إنها الشرارة الأولى.. وستستمر».

وفي هذه الأيام كان شبخ الحرب يخيم على العالم.. الحرب التي ستحمل إلينا الكثير من المعاناة.. الكثير من المطالب والكثير من الواجبات.. والنضال.. على طريق الرحلة.

العودة بعد الإضراب

وبدأ شيخ الحرب يخيم على العالم، وجموع عمال النسيج تتجه إلى العمل بعد إضراب هو أخطر الإضرابات على الإطلاق.

عادت ولم تكن تعلم ما الذي حل بعنبر النسيج الواسع.. لقد تحول عنبر النسيج إلى عنابر، كل عنبر قائم بذاته.. وتجمع العمال في الطرقات الممتدة على طول تلك العنابر وجلسوا القرفصاء كل وراء الآخر، ولما كانت الأعداد هائلة، فقد أجلسوهم في الطرقات المجاورة.. والخبراء بزيمهم الرسمي يملأون المكان، مسلحين بالعصي التي تستخدم في الشغب، وتمتعات هنا وهناك، وتتهيدات مكبوتة لا تستطيع الإفصاح عما في الصدور: «ماذا حدث؟ ما حدث قد نسيناه أو كدنا ننساه، لماذا تذكرونا بالماضي؟ ألم يكفكم ما حدث؟ لقد كان مروعًا تقشعر منه الأبدان! ومن المسؤول؟

كنا نجلس على الممكن في أمان، ولم يخطر في بال أي منا إطلاقًا أن ما حدث سوف يحدث.. لم نكن نطلب المستحيل.. ثماني ساعات عمل شأننا شأن الآخرين من عمال الغزل وعمال التحضيرات، ألسنا مثلهم؟ أليس مرض السل منتشرًا بيننا مثلما هو منتشر بينهم! فلماذا التفرقة؟ نحن لم نطلب سوى ما سمحتم به، وجلسنا على الممكن هادئين.. كنا في انتظار أحد يقول لنا كلمة تهدئ من روعنا، لكنكم جئتم بالشوم والكرابيج لدفعنا بالقوة خارج عنبر النسيج! لم يكن أحد منا يصدق أنكم بهذه الوحشية إلى أن رأينا الدماء وهي تسيل وآهات هنا وهناك.

أكان من الممكن أن نفعل سوى ما فعلناه؟

كنا ندافع عن نفس وجدت نفسها مقهورة ومحشورة بين الممكن، فوق بعضها البعض، والعصي تنهال فوق الرؤوس.. وزعق صوت وقتها «أرحمونا» فلم تسمعوه! لم يكن لنا مطلب غير الثماني ساعات مثل زملائنا.. أعطونا الثماني ساعات، فأغلقتم الآذان، ووجدنا أنفسنا في موقف دفاع، كل منا يدافع عن نفسه خوفًا من الضياع.. ما حدث كان خرابًا بعنبر النسيج الواسع اللامع الممكنات.. لو كان لهذا الممكن صاحب لأتى وسمع شكوانا، ولو جاء صاحب هذا المصنع وطلب منا العمل عشر ساعات بدلًا من الاثنتي عشرة ساعة ربما اعتبرناها خطوة على الطريق!

وها أنتم أيها السادة اعترفتم بظلم العمل اثنتي عشرة ساعة، فقبلتم تخفيضها إلى عشر ساعات.. وهذا ما قرأناه في المنشور المعلق، لو حدث هذا منذ الساعات الأولى من الإضراب لما سالت دماء، ولما ذهب أحد إلى السجن، ولبقي عنبر النسيج الواحد الواسع اللامع!».

وارتفعت الهامات في غضب وبأصوات وكأنها كانت على موعد:

- جئتم بنا إلى العمل والآن تركتمونا جالسين!

جاءت هذه الأصوات العالية فجأة.. كانت وكأنها تعلن رفضها لما يرونها حولهم، وكانت عنابر النسيج قد فتحت إيذانًا بالدخول، ودخل العمال وتسلم كل عامل ماكينتين بدلًا من الأربعة بالأمس، والكل يسأل نفسه عن باقي الممكن، وكان الرد واضحًا:

- لقد تكسر الممكن!

ومرت أيام وليال وهذا يجيء وهذا يروح، ورياح باردة، ورياح متربة، والأحوال ليست مستقرة، وناس لابسة الأبيض وناس لابسة السواد وناس نايمة وناس صاحية وناس فرحانة وناس زعلانة.. الفرحان فرحان بالعودة إلى العمل بعد غياب طويل، والآخر زعلان على صديق له أخذوه إلى السجن.. وبدت الدنيا وكأنها ظلام دامس بحيث لم يعد الأخ يعرف أخاه.. وبدأت التساؤلات والكل يسأل حتى نفسه: «أين من كانوا معنا بالأمس؟».. والإجابة واضحة.. لقد استفادت الشركة مما حدث فقسمت العنبر الواسع إلى عنابر، وغيرت المواعيد، فبدلاً من أن كنا نتقابل وقت تسليم الورادي، غيرت المواعيد وجعلت الفرق بين كل وردية ووردية ساعة لكي لا يتقابل العمال ويضعف ترابطهم.. فوردية النهار تبدأ من السابعة إلى السادسة مساءً، إذ إن لقاء العمال قد يؤدي إلى أشياء لا تريدها الشركة.. وتساؤلات أخرى عديدة:

- لماذا كان موقف الحكومة مع الشركة، فدفعت بالألوف من الجنود واحتلت كل موقع فيها والطرق المؤدية إلى الشركة، بل هي التي ضربت العمال وقيدتهم بالسلاسل وسارت بهم في الشوارع لإرهاب الآخرين؟! ولماذا لم تسألنا الحكومة لتعرف منا الحقيقة؟ ولماذا لم تقف معنا ضد الظلم؟

واحد يتساءل وآخر يجيب:

- حكومة مين وبتاع مين! الحكومة هي الحكومة! هو حد ينسى إن صدقي باشا رئيس الحكومة في يوم من الأيام قال: أنا حاخلي كل اثنين يتخانقوا على مليم؟! حكومة صدقي زي حكومة محمد محمود وزى حكومة زيور.. كله زي بعضه.. هم اللي ألغوا الدستور وزوروا الانتخابات.. حد ناسي؟ مين منا ناسي؟ دا احنا كلنا من الريف.. لما كان الواحد يخش عشان ينتخب لو انتخب حد من الوفد كانوا يعلمون على ظهره بالطباشير.. وبا ويل وبله لما يخرج.. ما يعرف

الضرب جايله منين وَّلاَّ منين.. من الغفر، ومن العمد، ومن العساكر، ومن الناس اللي واخدين فلوس منهم.. هَيَّ الحاجات دي مش كلنا عارفينها؟ يعني الحكومة مع الشركة والشركة مع الحكومة! هَوَّ حد في البلد دي غلبان غيرنا؟!
نقول يا رب! ربنا يقص عمرهم!

فيقول صوت آخر:

- ما بقى لنا عشر سنين بنقول يا رب ولا مجيب! الدنيا اتشقلت والدنيا اتبرجلت واللي فوق جه تحت واللي تحت جه فوق! حكومة ونيابة وعساكر ومحكمة ومحامين ومتهمين وهيصة وآخرتها، إللي احنا فيه فضلنا فيه!

وآخر يقول:

- لا، دا احنا كسينا.. كسينا ساعتين منهم.. مش قالوا في الأمثال «اجتهد يا عبد وربنا وباك».. هَمَّ في الأول مش قالوا باب الشركة يساع جمل، ولما قمنا كلنا ومشينا وقلنا الباب يساعينا كلنا وأوقفنا كلنا الممكن وأضربنا، أجبرناهم على أخذ ساعتين؟ يعني أجبرنا الحكومة وأجبرنا الشركة!

فيقول آخر:

- وهَمَّ الساعتين يساواوا ما حصل؟

فيرد آخر:

- ما هو كل شيء بحسابه.. ولسه ياما نشوف.. وياما نسمع!

وكان صوت كلب يعوي من بعيد.

ومرت ليال وأحاديث لم تنته على كل طريق وفي المقاهي والشوارع والبيوت حول ما حدث.. ولا أحد قادر على النسيان.. فما حدث كان فظيعةً! أيادي عمال سلسلة في الحديد، وعساكر بالبنادق ماشية جنبها طوابير.. يا لسواد الليالي! هكذا كانت تقول في وقت كان الخبر في الراديو.. وعصبة الأمم في آخر اجتماع والحرب على الأبواب.. وناس تهول هنا وهناك ويعلن الراديو بين الحين والحين أن أخبارًا هامة ستذاع.. وأخذت الولد الغريب والولد السيد الصفطي لنبحث عن أقرب مكان فيه راديو، والناس تزداد وشيخ الخوف على الوجوه.. وفي وسط البلد كان شارع البهلوان مليون من الناحيتين في انتظار نشرة الأخبار.. وناس في المقاهي وناس في الخمارات.. والكل في انتظار نشرة الأخبار.. وكان صوت المذيع حزان كالذي انخطف له ولد ومارجعش.. وبدأنا نسمع التحذير من الحرب وأخطارها.. وقدم مندوب السوفييت تحذيرات من هول الحرب والتدمير الذي لن ينجو منه أحد.. ثم قال ويعلم الله وحده ما سوف يصيب البشرية لو قدر لهذه الحرب أن تقوم.. وبدأت أحاديث الناس في كل مكان حول الحرب ومن الذي سيبدأ.. ومن الناس من يقول:

- ألمانيا هي التي ستبدأ لأنها تريد استعادة ما فقدته في الحرب الأولى.

وآخر يقول:

- بل بريطانيا العظمى هي التي ستبدأ لأنها تريد مزيدًا من المستعمرات.. ما هي بلدنا مصر مستعمرة بريطانية ولها مستعمرات غيرها كثيرة، ولا تغيب عنها الشمس، والإنجليز هم كل شيء من كثرة المستعمرات!

وآخر يقول:

- واحنا إيه حناخده من الحرب سوى المزيد من التحكم أكثر ما هم متحكمين؟! همّ اللي بيشكلوا الوزارة ويشيلوها إذا لم تعجبهم.. وعلى كلّ إذا ما قامت الحرب سواء من ألمانيا أو بريطانيا، ما حدش خسران فيها غيرنا! كل حاجة رايعين ياخدوها، همّ مخليين حيلتنا حاجة؟

وفي صباح اليوم التالي كانت الأخبار في كل الجرائد: «ألمانيا تعلن الحرب على بريطانيا».

ومرت الأيام، واختفت الأشياء الضرورية لحياتنا مثل السكر والزيت والصابون، ولم تصبح في متناول الأيدي، وأصبحت بالبطاقات، وطواوير العيش تتزاحم على الأفران، والأشياء التي لا تستطيع أخذها من المحلات تجدها مع آخرين لكن بأسعار مضاعفة، والأجور لم تعد كافية، والشكوى أصبحت على كل لسان.. وغارات الألمان لا تنقطع لا ليلاً ولا نهاراً، واسم هتلر أصبح على كل لسان على أنه هو الذي سيحرر مصر من الاستعمار البريطاني.. وناس كثير سميت هتلر بمحمد هتلر المخلص للبحار من براتن الاستعمار الإنجليزي.. وكل شيء راح يبقى على ما يرام ما دامت البحار تحتلص من سيطرة بريطانيا العظمى.

وتمر الأيام، وتتوالى الأحداث، وتتصدر العناوين الصحف بالبنت العريض الواسع: «فرنسا تستسلم أمام قوات هتلر الوحشية».. «هتلر يعلن الحرب على روسيا».. وتعالّت الأصوات هنا وهناك، والناس تتعجب لما جرى:

- هتلر جرى له إيه يا ناس؟! هوّ ضد بريطانيا ولا فرنسا ولا إيه ولا إيه؟! وإيه اللي خلاه يحارب روسيا كمان؟ هوّ ناوي يحكم العالم كله ولا إيه؟ دا حيبقى سواد.. الدنيا حيبقى سواد! هوّ أد روسيا؟! ده روسيا بحر ملوش نهاية اللي

يدخل فيها ميطلعش! دا الناس اللي فيها تسد عين الشمس! أهو فتح على نفسه فتحة مهواش طالع منها! والله العظيم ما هو طالع! هو رايح على فين؟ دا رايح على جهنم! مين يقبل في روسيا إن ألمانيا تحكمه أو هتلر يحكمه؟ دي بلد مفيهاش عمد ولا مشايخ.. كل العمد فيها ماتوا ولا فيها بيه ولا باشا ولا صاحب مصنع ولا وسية ولا تفتيش.. كل حاجة فيها ملك للحكومة.. دولة اشتراكية.. أهى روسيا كده.. العمال والفلاحين فيها همّ كل حاجة.. ناس اتخلصوا من الظلم! حيقبلوا حد يحكمهم؟! بلد ما فيهاش حد جعان ولا حد عريان.. مفيهاش كمان ناس مع الإنجليز.. هتلر إيه اللي خلاه يروح روسيا؟ دول وحوش حياكلوه أكل، ومفيش حد منهم حيتعاون معاه.. هناك مفيش ملك ولا صاحب عزبة، وما حدش دلنا غير دول؟ إللي همّ العمد وأصحاب العزب! وهوّ حد جاب لنا الإنجليز هنا غير دول!

ورنت هذه الكلمات في أذني.. كنت ولأول مرة أسمع عن هذه البلد اللي اسمها روسيا.. رنت هذه الكلمات الجريئة، وشعرت بأن شيئًا جديدًا يولد في قلبي.

وتناثرت الإشاعات هنا وهناك.. كل واحد يقول للآخر:

- حاقول لك حاجة لكن ما تقولش.. بيقولوا إن طيارة بها ناس من الضباط، ناس كبار في الجيش وقعتها الإنجليز.. بيقولوا كانت رايحة ألمانيا.. يعني همّ بقه مع الألمان؟! طبعاّ حيدوهم أخبار ضد الإنجليز.. يا نهار مش فايت هيّ الإنجليز رايحة تسكت!

ولم يمض وقت حتى أصبحت هذه الإشاعات حقيقة بالإعلان عنها في الجرائد.. وفي كل موقع عمل يقال إن الإنجليز اكتشفوا إن الملك فاروق مع

الألمان، مع هتلر ومع موسوليني.. وتتناقل الإشاعات هنا وهناك إن علي ماهر هو الآخر مع الألمان.. ومظاهرات في القاهرة تملأ الشوارع.. وأحمد حسين رئيس مصر الفتاة على رأس مظاهرات تهتف وتهتف ضد الإنجليز وتقول: «تقدم يا روميل.. تقدم من العلمين.. تقدم كل البلد هنا عاوزاك ضد الإنجليز.. لم يعد أحد مع الإنجليز.. كل الكبار وكل الحكام كلهم مع الألمان حتى الملك هو الآخر مع الألمان».. وأحاديث أخرى تقال:

- أحمد فؤاد أبو الملك، الإنجليز همّ اللي خلوه ملك على مصر.. عيلة كلها خاينة.. هي اللي استعانت بالإنجليز ضد ثورة عرابي.. عرابي اللي أصله كان فلاح.. وهو اللي أعلن الثورة على الخديو.. الخديو اللي غرق مصر بالديون.. عيلة كلها من أولها لحد آخرها كلهم خاينين.. وفاروق ابن أحمد فؤاد واللي عينته الإنجليز ملك على مصر.. الإنجليز اللي نفوا سعد زغلول وأحمد فؤاد الملك موجود لأنه كان بيطالب بالاستقلال.. همّ عايزين إيه؟ عايزين يروحوا للسيد الجديد هتلر علشان يحميهم زي الإنجليز ما كانت حامياهم من الشعب؟! وهمّ شايفين السيد الجديد غول عمال يكتسح بلاد وبلاد.

أفكار وأفكار.. وأحاديث تقال كنت أحس أنها تضيء لي ليلاً كان غاية في الظلام!

النقابة من جديد

ولم تمر أيام كانت البلاد تصطبغ بالمظاهرات.. والأحاديث لا تنقطع عن اقتحام الإنجليز للقصر الملكي بدباباتهم.. والأخبار تقول إن الملك استدعى مصطفى النحاس للقصر.. والمظاهرات كأن هتافات الرعد.. وكأنها أمواج من البشر تهتف للنحاس.. زعيم الأمة.. وعمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها أفراح بعودة الوفد وعودة النحاس لحكم البلاد.

والتفت خلفي فجأة على يد توضع على كتفي.. وكانت المفاجأة.. وانفجرت أشواق إنسان لإنسان فرقت بينهما الأيام.. أيام ما بعد الإضراب.. وتعانقنا.. كان هو مصطفى محمد.. بالوجه المربع المليان.. وتبادلنا السؤال عما صنعت بنا الأيام: - لكنك يا مصطفى كما كنت لم تنل منك الأيام.. بل يبدو أنك ازددت قوة!

وأجاب مصطفى:

- نعم، أنا أقوى لأنني مررت بامتحان مرير.. كان امتحانًا لنا جميعًا.. بداية نحن لم نسمع واحد منا من قبل عن إضراب أو عن عمال قبلنا عملوا إضرابًا.. ولو كان أحد قبلنا سبقنا كنا بدأنا من حيث انتهوا واستفدنا من التجربة.. لكن ما حدث كان لنا بداية من الصفر.. وكانت البداية يا فكري يا خولي صغيرة ولكنها كانت أكثر من طيبة.. كان كل منا واقفًا على مكنه محافظًا عليه وكأنه يملكه.. ولكن الشركة سامحها الله كانت تعتبرنا أغنامًا ومواشي نساق! كان هذا ظنهم، فأرسلت الخفر مسلحين بالعصي والكرابيج، ولكننا كما تعرف أثبتنا لها أننا بشر.. وفرضنا عليهم ذلك بشجاعتنا.. أنت الذي نطقت بكلمة الإضراب.. وقت أن كنا واقفين أمام عنبر النسيج.. كان ذلك.. وهو شيء لا ولن ينسى..

الساعة الواحدة بعد الظهر والعمال محتشدة أمام عنبر النسيج وبدأ الباب يفتح.. قلت وقتها: «إذا كنا رجالة يجب أن نكون مثل عمال الغزل الذين أصبحوا يعملون ثماني ساعات في اليوم.. ولسنا أقل منهم».. وتلقت العمال كلمة الإضراب هذه ونفذوها على الفور.. كان هذا في الماضي.. أما الآن فتعال معي نعرف ماذا نريد أن نفعله.. لقد ذهبت حكومات صدقي ومحمد محمود وعلي ماهر.. ونرجو الله ألا تعود، وجاءت حكومة الوفد التي يسمونها حكومة الشعب!

نحن نريد أن يستفيد العمال من هذه الحكومة.. ونفكر في عمل نقابة للعمال.. وأنا واثق أنك من أشد المتحمسين لهذا العمل.. فتعال معي لأعرفك بالناس المتحمسين لهذا العمل!

وصمت.. وكأنه ينتظر مني جوابًا.. قلت: - ما هو سبق لنا عمل هذه النقابة بقيادة عباس حليم.. وكان العمال جميعًا متحمسين لها.. وما حدث أنت تعرفه.. كان فظيغًا.. لم يحقق شيئًا لا من قريب ولا من بعيد.. أعتقد أننا لو عملناها من جديد ستلاقي هذا الحماس الكبير؟ وهل سيتركونا؟ على كل حال فأنا معك.. ولأثبت لك أنني أكثر حماسًا.. تعال نلتقي بالآخرين المتحمسين!

وشعرت بقبضته القوية وهو يقول:

- كنت واثقًا منك.. ومن أنك سيكون لك دور كبير.

وسار بي إلى أن وصلنا إلى المكان وكأنه كان على موعد.. المكان كان على الشون في أول المحلة الكبيرة في حجرة في الدور الثاني يبدو أنها سكن لواحد من العمال لأنها كانت خالية.. لم يكن بها شيء سوى حصيرة مفروشة

وصندوق خشبي في أحد أركانها، ويبدو أن بداخله كل ما يملكه صاحب المكان.. واستقبلنا بحماس شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين، قمحي اللون أسمر العينين يشع منهما ضوء الإصرار والتحدي.. وبدا لي أنه ليس من عمال النسيج دلت على ذلك ملابسه المعلقة فوق مسامير على الحائط.. وبدأ هذا الشاب يتحدث مع مصطفى محمد عن أسماء لم يسبق لي سماعها، وفي سياق الحديث سمعته يقول له إن عمال الورش لهم دور كبير.. شأنهم شأن عمال النسيج.. وأثناء حديثهما كان ثمة أصوات وأقدام تدق الأرض تقترب.. وهم الشاب واقفاً وهو يقول: - أهم وصلوا.

وانفتح الباب على مصراعيه، وكان فرج أفندي في المقدمة ومن خلفه محمد الكافوري.. وما إن لمحاني حتى كانت أصواتهما أعلى من صوتي بطريقة لا شعورية: - هي هي هي.. وكمان هي.. الورد كان شوك من عرق النبي فتح.. والله رجعنا تاني.. تاني يا قمر.

وأمسك كل منا بتلابيب الآخر، وانهاالت القبلات، كل يقبل الآخر.. وفي شوق أمسك فرج أفندي بيدي وأجلسني بجانبه وكأنه يقول للحاضرين إنني شيء مهم.. وبعد أن هدأت ضجة اللقاء واعتدل كل في مكانه قال فرج أفندي موجهاً حديثه للحاضرين: - أريد أحد أن يقول شيئاً؟

وسكت الجميع، فوقف فرج أفندي وأسند ظهره للحائط ويداها خلف ظهره، وارتفع صوته موجهاً حديثه للحاضرين: - أيها الإخوة الأعزاء، نحن اليوم أكثر عددًا عما كنا بالأمس، وكل يوم حنزيد لأننا ندعو لقضية عادلة وهي تكوين نقابات لكل أهل البلد، أهل المحلة الكبرى.. يعني عمال المحلة الكبرى وعلى رأسهم الشركة.. والدعوة لهذه النقابة ليست جديدة.. لقد سبق أن أقمنا هذه

النقابة وأعطينا ثقتنا لمن يسمى بالزعيم عباس حليم، ويبدو أن شيئًا ما قد حدث وأمكن إبعاده عن هذه النقابة!

ولوح بيده وكأنه يسأل حتى نفسه:

- لماذا تهمل نقابة المحلة بالذات بينما النقابات ما زالت موجودة في مصر في القاهرة وعباس حليم هناك وموجود على رأس هذه النقابات؟ وعلى العموم يجب ألا نضيع الوقت أكثر مما ضاع ونبدأ على الفور.. وأنا أعرف أن بيننا الآن من يريد أن يعرف الأسباب التي أدت إلى عدم حضوره مرة ثانية، وأنا من جانبي أحب أن أوضح أنني سوف أوافق على أي تفسير يقال، المهم ألا نعمل زي العجائز الذين يندبون على الميت، وهم يعلمون أنهم مهما ندبوا وصرخوا وولولوا فلن يعود.. وآخر خبر أحب أن أقوله للحاضرين أننا قد اتصلنا بأحد المحامين الكبار في ظننا.. اسمه عبد الحميد لطفي ليكون مستشار هذه النقابة.. وبدلاً من اجتماعاتنا في الأماكن التي ينام فيها العمال وتتسبب في عدم الراحة لهم فقد أخذنا مقرّاً وسوف يعلن وتعلق على بابة يافطة يكتب عليها هنا مقر النقابة.. وعلى الحاضر أن يُعلم الغائب ليعرف الجميع.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وانتشر الخبر كالبرق بين كل الناس بين مؤيد ومعارض.. وكان عدد كبير من المؤيدين يزداد ويزداد لفوائدها الكثيرة.. إلا أن المعارضين يعارضون لمجرد المعارضة.. فمنهم من قال:- نحن لا نعترض على تكوين النقابة إنما نعترض على السرعة التي يتحرك بها الداعون لها، كان يجب على الداعين لمثل هذه النقابة أن يتدارسوا الأسباب الحقيقية التي أدت إلى بُعد عباس حليم عن الاستمرار.. هذه الشركة تعتبر من أكبر الشركات في مصر وفيها عمال تعد بالآلاف المؤلفة.. وعلى الباب الخارجي للشركة يافطة مكتوب عليها بالخط

العريض الواضح «بنك مصر».. ولم نعرف أحد من أصحاب هذه الشركة سوى طلعت باشا حرب.. ولم نعرف عن طلعت حرب هذا إلا من خلال التمثال النصفي الموجود في مدخل الشركة.. وبتبين لنا بوضوح أن هذه الشركة لمجموعة من أصحاب النفوذ مسيطرة على الحكام.. كل الحكام.. والأمثلة على ذلك كثيرة.. ترك الحكام الشركة تفعل بالعمال ما تشاء.. عشرات العمال تموت يوميًا بين الممكن ولا من مجيب.. قانون إصابة العمل الذي أقرته حكومة الوفد سنة ١٩٣٦ لم ينفذ حتى هذه اللحظة.. مرض السل منتشر بسبب قلة التغذية.. وأخيرًا تدخلت الحكومة في الإضراب الذي قام به عمال النسيج للمطالبة بثمانى ساعات عمل.. فقبضت على العشرات من العمال وأودعتهم السجون.. لكل ذلك نرى أن الحكومة أي حكومة وراء منع عباس حليم من أن يكون على رأس أي نقابة تنشأ هنا في المحلة الكبرى.. وسوف تكون مانعة لإنشاء أي نقابة ينشئها العمال.. هل تدارس القائمون على تأسيس هذه النقابة هذه الثغرات؟ وما هو العمل لو تدخلت الحكومة لمنع هذه النقابة من أن تقام؟ ونحن نعرف أن القائمين بهذه النقابة يقولون إن عباس حليم ما زال موجودًا على رأس النقابات في مصر.. فنحن نقول لهم إذا كان عباس حليم ما زال موجودًا على رأس هذه النقابات.. فكلها نقابات صغيرة لا تمثل خطرًا على الحكومة مثلما تمثل نقابة عمال هذه الشركة التي بداخلها عشرات الآلاف المؤلفة.. فهل أعددنا العدة لكي نقاوم الحكومة إذا ما وقفت مع الشركة لمنع هذه النقابة من أن تقام؟ وعلى كل حال نحن قلنا رأينا لكي نكون سويًا على بينة فيما سوف تخبئه لنا الأيام.. وإذا كانت الأغلبية تريد ذلك.. وبعد هذا الوضوح.. فنحن لن نقف عقبه في مواجهة هذا التيار الجارف الذي يعمل من أجل أن تقام مثل هذه النقابة.

هذه الأفكار أخذت في الحسبان، وبدأ الكل يعمل بإخلاص داخل العنابر وفي كل قسم من الأقسام وفي خارج الشركة بين عمال النسيج اليدوي وعمال الورش من حدادة ونجارة وحتى بين عمال المخابز.. عمل ليل نهار، ودعاية واسعة النطاق.. وجاءت الأخبار عن المقر الجديد للنقابة في شارع سوق الطباخين المتفرع من شارع البهلوان.. وانتشر خبر المقر في كل مكان، وتدفقت العمال وملأت الشوارع والكل متجه نحو المقر هناك.. وأيدي تلوح وأيدي ترتفع إلى السماء فرحة مستبشرة باليوم المنتظر.. والمقر كان ملآن على آخره، وهتافات تعلو إلى السماء: تحيا نقابة العمال

وفي الحوش الداخلي للنقابة كان فرج أفندي واقفاً على كرسي بحيث يراه كل الناس وهو يصيح، نحن كنا على ثقة بأن الجميع سوف يستجيب للنداء.. ومصطفى محمد ومحمد الكافوري واقفان يحييان كل الناس.. وفي نشوة الأفراح إذا برجل متوسط الحجم طويل القامة له بشرة سمراء قاتمة اللون وعلى رأسه طربوش أحمر فاتح، يشق طريقه بصعوبة من بين الجموع المحتشدة، وعندما لمح مصطفى محمد ارتفع صوته حتى خيل إليّ أنه وصل إلى عنان السماء: يحيا عبد الحميد لطفي المحامي

يحيا مستشار النقابة

وردت الجموع بأصوات عالية:

تحيا وحدة العمال

العمال قوة لا تقهر

يسقط الظلم في كل مكان

لم يتكلم عبد الحميد لطفي في شيء سوى أنه وقف وقفة الإنسان الشامخ المليون الشبعان.. في الوقت نفسه وقف ليقدم للعمال نفسه في صوت هادئ رزين قوي النبرات: - أنا عبد الحميد لطفي المحامي، جئت لكم بدعوة من زملاء لكم، وبكم ومعكم سنسير معًا على الطريق.. وسيقتصر دوري على شيء واحد وهو أن تعرفوا ما لكم وما عليكم.. ما لكم أنكم جزء من الأمة، والأمة مصدر السلطات، وبما أنكم جزء من هذه الأمة.. فلکم أن تعيشوا عيشة الرجال لا عيشة الحيوان.. وبما أنكم تعطون فلکم أن تأخذوا مقابل ما أعطيتموه.. ولا تثقوا كثيرًا في الوعود، فكم من وعود كثيرة قدمت على امتداد دورات مجالس النواب منذ أن عرفناه، وعلى لسان كل رئيس للحكومة يأتي بعد كل انتخاب، ولكنها تنتهي بعد خروجه من باب البرلمان.. لقد حطم الاستعمار الإنجليزي الصناعة التي بدأها محمد علي، ولم يبق منها إلا صناعة بعض الحرف التي تصنع يدويًا، والتي نشأت منها النقابات الموجودة.. والنقابات دخلت على منعطف جديد بعد بداية النهضة الصناعية ودخول الممكن في عملية الإنتاج.

وبعد ثورة ١٩١٩ التي أخذت من عمر مصر سنين سمحوا لنا بإنشاء بعض الصناعات ومنها مصانع النسيج.. وكان من المفروض على الحكومة أن تسن القوانين اللازمة لحماية العمال من أمراض المهن وإصابات العمل، ولتحديد ساعات العمل عند بدء إنشاء هذه الصناعات.. وبدلاً من أن تفعل الحكومة ذلك تركت الباب على مصراعيه مفتوحًا لأصحاب تلك المصانع لينهشوا في الأجساد كما يحلو لهم!

وارتفعت يده إلى أعلى وهو يقول:

- وعليه، فعليكم أنتم مسؤولية الدفاع عن أنفسكم بتنظيم أنفسكم داخل نقابة ترعى شؤونكم وتطالب الحكام بالإسراع في سن القوانين التي تجعل منكم مواطنين لا رعايا!

قال ذلك وجلس، وطالب فرج أفندي بإنهاء الاجتماع، ولم تمر لحظات حتى كان المقر من كافة الطرق محاصرًا بالقوات من ضباط وعساكر تقتحم المقر وتحاول أن تقبض على العمال.. وتصدى لهم المحامي المستشار قائلاً لهم:- بأي حق تقتحمون هذا المكان؟ هذا المكان له قدسيته ولا يقتحم إلا بأمر من النيابة!

وما إن سمعت العمال ذلك من المستشار حتى انفجرت الأصوات عالية:
يسقط الظلم

عاشت نقابة العمال

هتافات من كل مكان:

حزينة يا مصر على عمالك

وتوالت الهتافات:

حزينة يا مصر على عمالك

ولم يعد من هتاف آخر سوى هذا الهتاف، وكأنه صرخة من قلب مليون بالمرارة: حزينة يا مصر على عمالك

لن نخرج إلا على الأشلاء

ووقف أحد الضباط ليهدئ من هذا الهول قائلاً: - نحن لم نأت لنقبض على أحد.. جئنا لنحافظ على الأمن، ولنعرف لماذا هذا الاجتماع.. وها نحن قد عرفنا من مستشار نقابتكم أنه بغرض إنشاء نقابة.. وقد طلبنا منه أن يتفضل في أي وقت يشاء عند السيد المأمور ليتبين ما إذا كان لكم الحق أم لا! واخرجوا في أمان ولن يتعرض لكم أحد!

وصاحت العمال من جديد وهي تتجه نحو الباب الخارجي: مواطنون لا رعايا

مواطنون لا رعايا

وتوالت الأحداث وتباعدت، وفي ذات يوم إذا بي أجد نفسي في أحد شوارع المحلة وجهًا لوجه مع عبد العظيم شيحة الذي أشرف على تعليمي مهنة النسيج وهو يسير مع مجموعة من العمال.. ولم يكن يبدو عليه الاهتمام بما يجري من حوله.. هكذا تقول الابتسامة العريضة على وجهه.

ولم نكن التقينا منذ انتهاء الإضراب، فبادرني قائلاً: - في أي قسم من أقسام النسيج الآن؟

وأجبتة:

- نسيج واحد.. صالة اتنين.

فأضاف:

- أما أنا فقد ذهبوا بي إلى نسيج واحد.. صالة خمسة.. والظاهر إنهم كانوا على علم بدورنا في الإضراب.. ولولا ستر الله لكنت أنا وأنت الآن مشرفين في السجن.. أعماهم ربنا عنا!

ويعود ويسألني:

- وانت عامل إيه دلوقت يا أسطى فكري؟ طبعا انت دلوقت أسطى من
النساجين المهرة.. أصبحت الآن بتعلم.

وأجبتة قائلاً:

- الفضل كل الفضل راجع إليك يا معلم عبد العظيم.

وسألته:

- وانت فين دلوقت يا عبد العظيم من الأحداث التي تجري الآن؟

فأجاب:

- أي أحداث تقصد؟ النقابة مثلاً؟

قلت:

- نعم هي النقابة.. مش كانت أحد الآمال التي كنا نحلم بها، وها هي الآن
توشك أن تتحقق، فأين أنت منهم؟

فاحتقن وجهه وتلفت لي بعينين تخفيان وراءهما أشياء لم يفصح عنها، إلا أنه
قال:- كل وقت وله أدا.. ما حدث في الماضي شيء وما يحدث الآن شيء
آخر.. في الماضي لم نكن نعرف الكثير، لم نكن نعرف للمكن صاحبًا، والآن
وبعد الإضراب عرفنا الكثير.. عرفنا أن له أنيابًا أدخلت أصدقاء لنا السجن..
اتضح أن له أصحابًا تتكلم في الحكومة اللي قبضت على الناس ولم تسأل
عن الأسباب التي أدت إلى الإضراب! أليس في ذلك ما يدعو إلى التفكير؟

واتسعت عيناه وهو يحملق في وجهي ويقول: - وعلى العموم أنا فكرت في كل ما جرى وحمدت الله أنني لم أكن من الذين سيقوا إلى السجن.. في السجن مظالم.. فكرت يا أسطى فكري ألا يكون لي دعوة بما سوف يجري، فما قمت به ضد أهل المحلة عندما أرادوا طردنا من هذه البلدة، وما قمت به أثناء الإضراب، كان يمكن أن يقضيا عليّ بالموت أو بالسجن.. وأعتقد لحد كده كفاية وعلى غيري أن يكمل.. فالطريق يبدو عليه طويل وطويل وليس له نهاية.. البداية كما رأينا هنا فظيعة فظيعة! ويعلم الله وحده ماذا تكون النهاية.. وعلى العموم يجب أن تعلم أنني لا أدعو أن تأخذوا بموقفي، فلكل إنسان طاقته.. أنا لي أم لا تملك شيئاً على الإطلاق سوى عملي وأنا العائل الوحيد.. لولاها كنت قد فعلت الكثير والكثير جدًّا ولكن هذا قدري.. أفهمت؟ أفهمت السبب؟ وعلى العموم فلن أكون بعيدًا كل البعد.. إنني سأدفع الاشتراك للنقابة إذا ما قدر لها أن تقوم بشأني شأن كل الناس.. ولأيه رأيك يا أسطى فكري؟

قلت له:

- أنت تخاطبني بالأسطى فكري! إيه الحكاية؟

قال:

- حكاية إيه؟ كلمة الأسطى لا تقال إلا للعامل الماهر، وأنت أصبحت من العمال المهرة.

قلت له:

- أمال انت تبقى إيه وأنت الذي أشرفت على تعليمي؟ تبقى على كده
«معلم» وأنا لا أناديك أنا الآخر إلا بالمعلم عبد العظيم؟

قال:

- دعك من كل هذا.. وأريد سماع رأيك لأنني بالفعل أحترمك.

قلت له:

- يا معلم عبد العظيم.. أنا أختلف معك، وأنا الذي كنت دائماً أهتدي بأفكارك..
كنت لي قدوة، ولا أنسى أنك الذي أزحت عني الخوف من الممكن وقت أن
كنت أهابه في بداية تعليمي.. أنت الذي قلت إنه عبارة عن حديد نسيطر عليه
قبل أن يسيطر علينا.. أتذكر ذلك يا معلم عبد العظيم؟ وأنا لم أتخيل ولا كنت
أتخيل أن الذي أزاح عنا الخوف يخاف هو اليوم.. ولولا وجود أمك لفعلت
الكثير والكثير جداً.. من العمال الموجودة هنا يا معلم عبد العظيم يملك
شيئاً؟ الناس على الله وكل منا وراه أسرة.. أنا مثلاً تزوجت ومعني الآن ولد
وبنت علاوة على أمي ولا نملك شيئاً على الإطلاق! لو كل واحد قال اللي
بتقوله يا معلم عبد العظيم يبقى نقول على الدنيا السلام! وهذا باختصار ردي!
وما سمعته منك الآن شيء يخيف! ألم تر أن ما تقوله الآن دعوة للسكوت،
والسكوت معناه الرضاء بالأمر الواقع، يعني نرضى بما نحن فيه واللي احنا
فيه ما يرضاش به كافر!

قلت ذلك بانفعال شديد، وأطبقت على يده بقوة، ودفعتة نحوي والدموع
تترجج في عيني، ولم أعرف كيف حدث ذلك.. نظر إليّ نظرة، وانفتحت
عيناه واتسعت حتى الآخر، وغاب في الصمت وكأنه عاش مع كل الماضي..
وفي الصمت أسبلت عيناه وعاد وفتحهما وهو ينظر إليّ نظرة توسمت فيها

الأمل، إذ قال وهو باسم: - إذا عشت مع مهزوم ومشيت معه تنهزم.. لازم تنهزم! وإذا عشت مع مَنْ يحمل أملاً تزداد أملاً!

وسلم عليّ وهو يقول:

- شكراً لمن أعاد إليّ الأمل.

وكان رد الفعل لاقتحام العساكر والضباط لمقر النقابة له صداه بين كل الناس.. والأحاديث لا تنقطع.. كلُّ يقول للآخر: - مال الحكومة ومال العمال؟! عمال بتعمل نقابة إيه دخل الحكومة في الموضوع؟! الحكومة لكل الشعب! فيه نقابات موجودة إشمعنى يعني لما بدأنا احنا نعمل نقابة؟! هؤا احنا لقمة في زورها ومش قادرة تبلعها؟! حكومة إيه وزفت إيه؟! كنا بنقول الحكومة وبانا جات علينا!

وآخر يقول:

- إنتو عارفين الحكومة وقفت ضد إنشاء النقابة هنا ليه؟ علشان كل وقت وله أدان.. الحكومات زمان لما سمحت للعمال بإنشاء نقابات لأنهم ما كانوا عمال بالمعنى اللي احنا فاهمينه.. زمان ما كانوا فيه صناعات كثيرة زي دلوقت.. كانت ورش صغيرة.. ورشة بتشتغل صفيح وورشة بتشتغل حديد وورشة لحام وورشة نحاس، وبين كل ورشة وورشة ساعة زمان ما كانوا يهملوا الحكومة، وعلشان كده قالوا لهم اعملوا نقابات.. لأن دول ما كانوا يقدرُوا يعملوا حاجة.. لكن دلوقت الحكومة تخاف وتترعب لأن الشركة فيها آلاف مؤلفة من العمال لو أضفنا إليهم عمال أهل البلد، لو قدر الله لهذه النقابة أن تقوم واعُتدي على أحد من عمال الشركة أو أحد من عمال المهن ماذا يكون موقف النقابة؟ طبعًا الدفاع عنهم بكل الوسائل، وإن لم يستجب

صاحب المهنة لما تقوله النقابة فالحل الأخير طبعًا هو الإضراب العام.. والإضراب العام معناه شل حركة البلد، يعني لا مخبز يطلع عيش ولا مكنة نسيج تطلع متر قماش.. هذا هو بالضبط ما تخشاه الحكومة الآن من قيام مثل هذه النقابة.. فهتمم موقف الحكومة، ولماذا تقف لنا بالمرصاد؟ الموضوع ليس كما يتصوره البعض، وعلى كلِّ دي معركة لازم نخوضها!

وبينما الأحاديث تتداول كانت أخبار أخرى تتداول تشابه ما نحن فيه.. أخبار تقول إن عمال شبرا الخيمة الموجودين في مصر قد أقاموا نقابة مثل التي أقمناها.. إلا أن الحكومة قامت وأغلقتها.. لكن عددًا من العمال عسكر أمام النقابة، وافترشوا الأرض وأعلنوا الإضراب عن الطعام واستمر أيامًا.. ولما لم تستجب الحكومة تجمهرت كل عمال المصانع وحملوا المضربين عن الطعام على الأكتاف، وساروا بهم في شوارع القاهرة، وساروا يهتفون مثلما كنا نهتف «حزينة يا مصر على عمالك».. وكان لهذا الهتاف الحزين صدى عند أفراد الشعب فانضموا مع العمال المضربين والمتظاهرين في الوقت نفسه، وهم يهتفون: «حزينة يا مصر على عمالك».. وانضم إليهم آخرون وآخرون حتى أصبحت أعدادًا هائلة بحيث أصبحت الأجساد متلاصقة بعضها ببعض والهتاف بنفس الشعار يشق عنان السماء: «حزينة يا مصر على عمالك»، ولم تستطع عساكر الحكومة رغم كثرة عددها وقف هذا الزحف الهائل.. سيل لا يحصى ولا يعد من البشر كان غير قادر على التعبير.. الكل يهتف بالعمال وبحياة المضربين عن الطعام: «افتحوا النقابة للعمال».. واستمرت المظاهرات على طول امتداد الشوارع المتجهة حتى وصلت إلى المقر الرئيسي لمصطفى النحاس، ولم تتفرق المظاهرات إلا على وعد من مصطفى النحاس رئيس الحكومة بوضع تشريع رسمي يحقق للعمال إنشاء النقابات للدفاع عن مصالحهم.. إشاعات هنا وهناك، وأفكار تقول إن النحاس

لا ينكت بوعد أعلن أمام كل الناس.. وتمر الأيام ويتحقق ما سمعناه.. وتنشر كل الجرائد في الصفحات الأولى والمانشيتات العريضة أن عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية يتقدم نيابة عن حكومة الوفد إلى السادة أعضاء مجلس النواب بمشروع قانون يبيح للعمال إنشاء نقابات للدفاع عن حقوقهم، ويحق وفقًا لهذا القانون لكل خمسين عاملاً في مهنة واحدة أن ينشئوا فيما بينهم نقابة ترعى مصالحهم.. ولم تمر أيام إلا وكانت كل الجرائد بالمانشيتات العريضة الواسعة تقول: «مجلس الشيوخ يعترض على القانون».. ويتولى المعارضة صدقي باشا قائلاً: «لن نسمح لهذا القانون أن يمر إلا إذا سمحت الحكومة لأصحاب الصناعات أن يقيموا لهم اتحادًا يرعى مصالحهم».. وحكومة الوفد تقبل هذا الاعتراض وتوافق على إنشاء اتحاد لأصحاب المصانع يسمى اتحاد الصناعات.

وما إن سمع العمال وتأكدوا من صحة هذه الأخبار المنشورة في الجرائد المسموعة أيضًا في الراديو حتى توجهوا إلى مقر النقابة ليزدادوا يقينًا.. ولم يكن أحد ليصدق نفسه.. عمال من كل المهن جاءوا ولم ينفصوا عن كواهلهم غبار العمل الذي يعملون فيه.. وكأن كل منهم أراد أن يجعل مما عليه من غبار علامة مميزة عن الآخرين لكي لا يتوه، وأن تتعارف عمال كل مهنة على زملائهم من عمال المهن الأخرى وسط أمواج من البشر: عمال المخابز ترى ملابسهم ووجوههم ورموش أعينهم وعليها دقيق مما كانوا يخبزونه، وعمال الحدادة ترى وجوههم وملابسهم كلها سواد في سواد، وعمال الغزل والبرم والتنظيف والكرد ترى رموش أعينهم وشعورهم عالقًا بها زغبار القطن، وعمال بقاقيب، وعمال لابسين أحذية، وعمال لابسين مراكيب، وآخرون حفاة، وآخرون يلبسون براطيش، وعمال تعبانة، وعمال فرحانة، وآخرون في حيرة.. والمقر لا يهدأ.. ناس تدفع ناسًا.. وأعداد مهولة في كل لحظة تزيد

وتزید.. وكان صوت مصطفى محمد مصطفى عاليًا أعلى من صوت
الحاضرين وهو يعلن أن مستشار النقابة سيوضح لكم كل جديد.

وصدر قانون النقابات

وخرج مستشار النقابة على الحاضرين قائلاً:

- جميعكم جئتم تسألون ما العمل؟ في البداية كنا نعتزم إنشاء نقابة لكل صناع الحياة هنا في المحلة.. ولكن الظروف قد تغيرت بعد أن أعلنت الحكومة عن مشروعها الجديد المقدم لمجلس النواب وأقره مجلس الشيوخ.. القانون الجديد يبيح لكل عمال مهنة يزيد عددهم عن خمسين عاملاً أن ينشئوا فيما بينهم نقابة ترعى مصالحهم.. وعليه، فعلى عمال المخابز أن يعملوا فيما بينهم نقابة مستقلة، وكذا عمال النسيج اليدوي.. وكذا عمال حلاجة القطن.. وهكذا.. ولعمال الشركة وجميع عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى أن يعملوا فيما بينهم نقابة تجمع شملهم.. لا تضيعوا الوقت والقانون أصبح نافذ المفعول.

وما إن سمع العمال هذا الحديث حتى بدا الوجوم على كل الوجوه، وكل ينظر إلى وجه الآخر دون كلام.. كان الكل يريد نقابة واحدة.. نقابة عمال عامة لكل الناس.. القوي يحمي الضعيف، والعمال الكثيرة تحمي العمال القليلة العدد.. ما حدث في البداية جعل ألفة بين الجميع، الماضي كان أفضل من الحاضر.. كنا نعتقد أن الحاضر سوف يكون أفضل من الماضي، وبدا أن المستقبل سيكون أكثر لعنة من الماضي والحاضر! يا للعجب! كيف يسمح لأصحاب كل المصانع والشركات والورش بعمل اتحاد يضمهم ويشملهم جميعاً، والعمال يبقون مفتتين؟ كل نقابة تعمل منفردة! إلا أن صوت المستشار علا وارتفع من جديد ليقول:

- ونحن مستعدون للإسهام معكم في التحضير لإقامة هذه النقابات.. وقد دعا فرج أفندي عمال الشركة إلى عقد الجمعية العمومية لانتخاب مجلس إدارة النقابة، ويجب أن تكون الدعوة شاملة لكافة أقسام الشركة، وعلى كل مَنْ يرى في نفسه الكفاءة أن يتقدم بنفسه للترشيح لعضوية المجلس.

وكان يومًا ولا كل الأيام.. ناس رايحة وناس جاية، وناس بتأيد ناس وناس بتوزع لست بالأسماء، وناس واقفة مع ناس وناس بتهتف بأسماء ناس، وناس على المكاتب بتسجل في الورق أسماء ناس، وناس بتحمل ناس وبتهتف بأسماء ناس.. وفرج أفندي محمد ومحمد الكافوري ومصطفى محمد مصطفى على أكتاف ناس.. وعساكر وضباط واقفة لكن بتقرش على الأنياب.. وعمال في صفوف بعضها وراء بعض لنتتخب ما تراه من ناس، وناس بتغني بأسماء ناس، وينتهي الاجتماع في سلام، ويخرج المحامي مستشار النقابة ليعلن على الملأ ما استقر عليه الناس بالإجماع وكان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد مصطفى ممن أجمعت عليهم كل الناس.

وقيل لكل الناس على لسان المستشار للنقابة بأن الأوراق الخاصة بما أسفر عنه هذا الاجتماع من أسماء الذين سجلت أسماؤهم بالحضور للجمعية العمومية، ومن وافقت عليهم العمال ليكونوا أعضاء لمجلس إدارة النقابة.. كل هذه الأوراق سوف تكون غدًا في مقر إدارة النقابات في مصر، وحسب القانون الذي يقول بأن النقابة التي تودع أوراقها في إدارة النقابات إذا لم يصلها اعتراض في فترة شهر من تاريخ إيداع أوراقها تصبح في حكم القانون مسجلة ولها أن تباشر أعمالها.

وما إن سمع العمال المختارون ما قاله المستشار حتى علت هتافاتهم مدوية بحياة العمال والنقابة والمستشار وكل من ساهم وساعد في وضع حجر الأساس لهذه النقابة والنقابات الأخرى.

ومرت الأيام، وكل يوم كان يمر وكأنه دهر من الزمان.. ليس أصعب على الإنسان من أن ينتظر وخاصة إذا كان هذا الانتظار يتوقف عليه المستقبل، ومر الشهر بطول الشهور بل السنين، وأخيرًا جاءت الأخبار من مصر بأنه تم تسجيل نقابات، منها نقابة عمال المخازن، ونقابة المحالج، ونقابة النسيج اليدوي.. وعلى مجالس هذه النقابات الثلاثة أن تباشر أعمالها كما تريد.. وتساؤلات تردت لِمَ لم يأتنا خبر بالموافقة.. فإن أوراقنا ذهبت مع الأوراق.. وتساؤلات ولا أحد قادر على أن يجيب ويريح الناس.. وناس بتقول يا ليل وناس بتقول يا نهار، وجاء الخبر مفاجئًا لكل الناس.. الخبر يقول عن خطاب مختوم بعلم الوصول بتوقف نشاط نقابتكم إلى أجل غير مسمى إلى أن ننتهي من إعداد اللائحة المنفذة للقانون.. والتوقيع: إدارة النقابات.. سيف أبو سيف راضي.. المدير العام.

وما إن شاع خبر الشؤم حتى أخذ الكل يتجه نحو النقابة، وكان السؤال الحاسم: ما العمل؟ لائحة إيه اللي يقولوا عليها، والنقابات التي أودعت أوراقها معنا تسجلت؟

وجاء فرج أفندي وعيناه تذر فان الدموع وهو لا يصدق ما حدث.. يبكي وليس ينفع البكاء.. أليس هو الذي قال ذلك ذات يوم؟ ماذا يقول الناس وهو واحد ممن شاركوا في إحياء فكرة النقابة؟ ماذا يقول وهو الذي أحيا الأمل في الناس؟ أيقول ضعنا وعلينا السلام؟ ولماذا هذه النقابة؟ ولمن تتجه؟ والقانون صريح ويقول إن اعتراض إدارة النقابات ليس نهائيًا وعلى النقابة المعترض

عليها أن ترفع الأمر إلى القضاء ويكون حكم القضاء نهائيًا.. لمَ يا فرج لم تعلن ذلك؟ ورفع فرج أفندي يده اليمنى بعد أن مسح بها عينيه الدامعتين قائلاً:

- لا للدموع.. سنرفع الأمر للقضاء! وبصفة عاجلة لكي لا يقال عنا إننا رفعنا
راية الاستسلام!

ولم يمر يوم واحد على ما سمعناه حتى كانت المفاجأة في ساعة الغداء،
منشور معلق على جدران الشركة من داخل الأبواب يقول:

إن الشركة حرصًا منها على مصالح العمال وحقوقهم قد قررت إنشاء نقابة
من داخل الشركة، وعلى من يرى في نفسه الكفاءة أن يرشح نفسه لعضوية
مجلس النقابة.. وسوف يشرف على الانتخابات كل مفتشي ورؤساء إدارة
النقابات بالقاهرة.

وتلاحقت الأخبار، وكأنهم أرادوا أن يشلوا عقول الناس عن التفكير.. خبر
يقول: بناء على رغبة إدارة الشركة بإنشاء نقابة ترعى مصالح العمال
استجابت الإدارة العامة لمكاتب العمل بإرسال موظفيها إلى الشركة
للإشراف على عملية الانتخابات.. والتوقيع: المدير العام سيف أبو سيف
راضي.

وما إن قرأ العمال هذه الإعلانات المتعاقبة حتى وقفوا في ذهول والصمت قد
خيم على وجوه المحتشدين في المكان.. وعلا صوت في تهكم واضح من
المحتشدين:

- هاء هاء هاء هاء!

وأعقبته أصوات أخرى من المحتشدين متهكمة وبسخرية:

- هاء هاء هاء!

وكانها أغنية لكنها بنغم حزين، وتساءل البعض عما حدث للناس التي تردد
«هاء هاء هاء»:

- الناس اتجننت؟

ورد آخر:

- لهم حق يتجننوا؟ إلهي حصل يجنن! الشركة تعمل نقابة ليه؟ وإدارة النقابات
تقر ذلك ومديرها العام يقر ذلك! أمال النقابة اللي احنا عملناها راحت فين؟
إيه وجه الاعتراض؟ قالوا إن اللائحة التنفيذية لم تصدر وإذا كان كلامهم
صحيح أمال إيه حكاية النقابة اللي الشركة حتعملها؟ فين اللايحة؟ اللايحة بس
للنقابة اللي عملتها العمال؟ المؤامرة على العمال واضحة!

ورد آخر:

- يبدو أن التاريخ يعيد نفسه، ومن حكومة الوفد التي سبق لها أن فعلت ذلك
من سنين بعد أن تولت الحكم بعد ثورة ١٩١٩.. عندما رأت في العمال قوة
منظمة في الاتحاد العام، أقدمت على حله والقبض على زعمائه.. الخوف من
العمال واضح! ومن يدري؟ الشركة تعمل نقابة ومن داخل الشركة والحكومة
طبعًا توافق واحنا لسه في البداية! أمال قدام حيعملوا في العمال إيه؟ إذا
كانت البداية مهيبة، على كده ممكن القبض على أعضاء النقابة الخارجية إذا
ما بدا منهم أي مقاومة لنقابة الشركة!

وآخر يقول:

- هُوَ العدل راح فين؟

وآخر يقول:

- عدل إيه وبتاع إيه؟ وهُوَّ بعد اللي احنا شايفينه راح يبقى فيه عدل؟ نقابة
حتعملها الشركة، والحكومة هي اللي رايحة تشرف على الانتخابات.. سيكون
إيه؟ انتخابات أي كلام زي الانتخابات اللي كان بيعملها صدقي، إلهي مهوش
موافق على اللي عايزاه الحكومة يعلموا على ظهره بالطباشير، ويا ويل وبله
على الضرب اللي راح ياخده! وفي النهاية رغم اعتراض كل الناس حتكون
النتيجة نجاح مية في المية! مش ده اللي احنا شفناه في الماضي، وبالتأكيد
راح نشوفه في هذه النقابة ما دامت الحكومة معهم؟!

وآخر يقول:

- مفيش حق يموت ووراه مطالب! إحنا أصحاب حق وكلنا أمام القانون سواء
والقضاء هو الفيصل بيننا وبينهم، لما نشوف النقابة حتعمل إيه!
وبينما الكل يتحدثون فيما يجب عمله كانت أخبار أخرى تنشر في الجرائد:
«مكرم عبيد باشا يخرج على الوفد ويشكل حزبًا سماه حزب الكتلة
الوفدية».. «مكرم عبيد يخرج الكتاب الأسود عن سرقات حزب الوفد»..
أخبار كلها لا تنبئ إلا عن سواد!

وأخبار أخرى تتلاحق: «النحاس باشا مصاب بوعكة مفاجئة والأطباء يمنعونه
من الذهاب إلى الوزارة».. ومانشيتات الجرائد تخرج عن بُكرة أبيها تدعو له
بالشفاء العاجل.. المظاهرات تمتد لكل مدن مصر ولكنها تهتف للنحاس..
وناس بتكلم ناس:

- النحاس باشا من أمكر خلق الله، قال عيان! عملها ونفعت! وخلقى الشعب
هوّ اللي رد على الملك ومكرم!

وبينما الكل ينشغل بما تعانيه مصر من نكبات وانقسامات، كانت انتخابات
النقابة التي فرضتها الشركة قد انتهت هي الأخرى، وأصبح أعضاء المجلس
كلهم من الرؤساء.. لا من العمال.

وفي اليوم الثاني كانت الأخبار في كل الجرائد: «أعضاء مجلس إدارة النقابة
المنتخب لشركة مصر بالمحلة الكبرى يلتقون بعبد الحميد عبد الحق وزير
الشؤون الاجتماعية ليهنئهم بفوزهم».. وصورة الوزير تتوسط صورة الواحد
وعشرين.. وبائعو الجرائد المنتشرون في الشوارع المؤدية إلى الشركة
ينادون بأصوات عالية:

- وزير الشؤون مع الفائزين أعضاء نقابة الشركة!

كانوا ينادون وكأنهم يقولون للعمال: «موتوا بغيطكم.. الميه ما تطلعش في
العالي».. وكان رد الفعل عنيقًا وسط كل الناس، واجتماعات هنا وهناك في
كل قسم من أقسام العمل، وفي كل ورديات الليل والنهار، وكلام كثير يقال:

- لا يمكن أن نسمح بنقابة مفروضة على العمال.. ويجب أن نرد على هذه
المهازل بالأعمال.. ويجب أن نعرف الحكومة والشركة بأن النقابة التي
فرضوها ليس لها جذور في قلوب الناس، ولا نقابة إلا النقابة التي انتخبها
العمال.. وكما رد الشعب على الملك والانقسام الذي أحدثه في صفوف الوفد
مكرم عبيد فالعمال يجب أن ترد على الشركة وعلى الحكومة وعلى وزير
الشؤون الاجتماعية الذي استقبل عملاء الشركة والحكومة على غير رغبة
العمال! هذا هو الرد الذي يجب أن يكون.. مظاهرات تطوف في شوارع

المحلة تهتف: «لا نقابة إلا نقابة العمال الخارجية».. ولكي يتم ذلك على أحسن وجه يجب أن نذهب إلى النقابة لكي يكون التفاهم جماعيًا!

وفي النقابة كان الغضب على كل الوجوه واضحًا، ووقف أحد الحاضرين قائلاً:

- لكي ننجح يجب تأليف لجنة من المتطوعين ترتب للمظاهرة وتحدد اليوم والساعة!

وما إن انتهى المتكلم حتى كان عدد المتطوعين بالعشرات.. وبدأت اللجنة عملها.. يلزمنا أكثر من رزمة ورق وأقلام وأكثر من دواية حبر أسود وأحمر وأزرق لكتابة منشورات.. للدعاية ضد نقابة الشركة.. منشورات توزع على كل بيت في المحلة الكبرى، وفي كل قسم وصالة في الشركة.. دعوة لنقابة العمال الخارجية وضد نقابة الشركة.. وقد نظم المتطوعون العمال في لجان.. لجنة مسؤولة عن لصق هذه المنشورات داخل أقسام العمال وفي العنابر.. وقسمت البلد على هذه اللجان بحيث يكون لصق هذه المنشورات في وقت واحد، وقد استمرت هذه اللجان تعمل بالليل والنهار، ولم يكن لها شاغل سوى الدعاية الواسعة ضد نقابة الشركة.. وفي اليوم الذي تحدد فيه القيام بالمظاهرة انقطعت مجموعة من هذه اللجان عن العمل في وردية المساء لإعداد أعلام وصور الزعماء سعد زغلول ومصطفى النحاس وأحمد عرابي ومحمد فريد للفت نظر الناس للانضمام لهذه المظاهرة.. كما كلفت بكتابة يفت ضخمة بحياة نقابة العمال الخارجية وبفت أخرى بسقوط نقابة الشركة.. والانتظار بهذه اليفت والأعلام والصور أمام باب الشركة في السادسة والنصف صباحًا بحيث تشمل المظاهرة عمال وردية النهار وعمال الليل الخارجين.. ولم يعرف عمال الليل إلا في النصف الأخير من الليل لكي لا تتسرب أخبار هذه المظاهرة إلى الشركة أو إلى الحكومة.. وجاء حاملو

الأعلام واليفط في الموعد المحدد السادسة والنصف صباحًا وقد أخفوا ما كانوا يخبئون ورفعوها علنًا.. وما إن رأى عمال النهار ذلك حتى كانت هتافاتهم تشق عنان السماء، واستمر الهتاف أمام باب الشركة إلى أن خرج عمال وردية الليل، وانضم عمال النهار مع عمال الليل وأصبحوا آلافًا مؤلفة.. وناس تحمل ناسًا على الأكتاف وهتاف بسقوط نقابة الشركة.. ولا نقابة إلا نقابة العمال الخارجية.. ولا ظلم بعد اليوم.. كفى ظلمًا يا حكام.. يحيا العدل ولو فيها رفق.. وكلما تقدمت المظاهرة انضم إليها آخرون.. عمال المخابز تخرج وتحمل العيش مرفوعًا، وعمال من النسيج اليدوي تنضم للمظاهرة وتحمل في يدها مقاطع من القماش الذي تعمل فيه، كما خرج عمال محالج الأقطان.. وكلها رموز تضامن مع أصحاب الحق الشرعيين في تأسيس نقاباتهم.. ونساء تزغرد على أسطح المنازل، وأخريات تهتف «يحيا العدل».. وطافت المظاهرات شوارع المحلة حتى وصلنا إلى النقابة.. ومن على بابها انصرفت المظاهرة في هدوء وكل الناس فرحة بما حدث.. وفي داخل النقابة كان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد منهمكين في كتابة أوراق كانت أمامهم، وعندما رأني مصطفى نظر إليّ في انبهار وهو يردد أن ما حدث كان عظيمًا، فلم نكن نصدق أنه سوف يحدث.. وخطا خطوات مقترباً مني وقال لي:

- لم نشترك معكم في هذه المظاهرة خوفًا من أن يقال إن أعضاء مجلس الإدارة هم المحرضون!

ويستطرد قائلاً:

- ومن الإنصاف أن نعترف أن ظهور عمال مثلكم وبهذه الجرأة يجعلنا نشق بأن الراية سوف تستمر مرفوعة طالما أن مصر ولادة.

وقام فرج أفندي من مكانه وعلا صوته قائلاً:

- وأنا الآخر أستطيع القول إن ما قامت به هذه المجموعة من العمال قد فاق ما قمنا به في سنين، وعليهم سوف يتوقف مصير أكثر من عشرين ألف عامل.. الأمل أصبح معقودًا على هذه اللجنة.. هذه اللجنة قد أزاحت مجلس الإدارة إلى المؤخرة وتقدمت هي.. وهذا شيء يفرح كل مهتم بحركة العمال!

وهتف:

- يا عمال مصر اتحدوا.. يا عمال العالم اتحدوا.

وبينما كان فرج أفندي يتكلم كانت مجموعة من العمال تدخل ومعها جرنال من الجرائد المسائية وهي تهلل من الفرحة.. أخبار المظاهرة وصلت مصر.. مش كنا دايماً نقول اللي تحبل في المحلة يعرفوا عنها في مصر.. أهي أخبارنا وصلت مصر.. الخبر يقول: «زهير صبري عضو الكتلة الوفدية يتقدم بسؤال لمجلس النواب عن موقف الحكومة من انتهاك القانون وتسمح بإنشاء نقابة تشرف عليها بالرغم من أن هناك نقابة قائمة وأوراقها مودعة في إدارة النقابات».. بعد أن أدرج الاستجواب تقرر أن يرد عليه في الجلسة القادمة.

وبعد أن قرأ فرج أفندي ما كان منشورًا صاح بأعلى صوته:

- موضوعنا كله سيناقش في مجلس النواب.

وكان لهذا الخبر دوي واسع بين الجموع في كل مكان.. وبدأت الناس تقول:

- أخبارنا غطت على أخبارهم.. همّ كانوا فاكرين لما يتصوروا مع الوزير راح يخوفونا! إحنا اللي خوفناهم.. لو كنا شفنا حد منهم في المظاهرة لأكلناه.. همّ

لهم وش يبانوا؟ طبعا ما لهمش! هم حاجة واحنا حاجة!

وتوالت الأحاديث، ومرت الأيام، وجاءت أخبار تقول: مجلس النواب يجتمع ويناقد الاستجواب المقدم من النائب زهير صبري.. وقد تولى الرد عن الحكومة النائب محمد صبري أبو علم باشا إذ قال:

- أيها السادة أعضاء مجلس النواب.. هل صحيح أن الحكومة انتهكت قانون النقابات بالتدخل لصالح نقابة ضد أخرى؟ هذا الاتهام لا يستند على شيء سوى التجني على الحكومة.. عندما فعلت الحكومة ذلك ما فعلته إلا للصالح العام وليس سوى الصالح العام.. النقابة المزعومة لم يحضر جمعيتها العمومية إلا عدد لا يزيد على الألفين بينما عدد العمال الحقيقي في هذه الشركة يزيد على العشرين ألفًا.. فأيهما يستحق الرعاية بالتسجيل؟ هكذا فعلت الحكومة.. أي عيب في هذا أيها السادة أعضاء مجلس النواب؟ إن ما تقدم به السيد النائب المحترم ما هو إلا مغالطة وافتراء وهذا هو ردنا على ما جاء بالاستجواب.

وكان رد المستجوب النائب زهير صبري:

- أيها السادة أعضاء مجلس النواب إن ما قالته الحكومة الآن وأمامكم لم يكن إلا استمرارًا في المغالطة.. ما الذي حدث؟ ما حدث كما يلي:

أولًا الحكومة قد سنت القانون رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٢ الخاص بقانون النقابات وهو بداية طيبة منها، إلا أنها لم تترك الخيار لأصحاب المصلحة أن يختاروا فيما بينهم من يستطيعون الدفاع عن مصالحهم.. وهذا هو موضوع احتجاجنا اليوم.. جميع النقابات التي أرسلت أوراقها مع هذه النقابة قد أصبحت في حيز التنفيذ، بل أعلنت بدء نشاطها إلا هذه النقابة! أخطرتها إدارة النقابات

بأنها أوقفت لحين صدور اللائحة التنفيذية! ما هي هذه اللائحة التنفيذية أيها السادة؟ ولماذا هذه النقابة بالذات التي سوف تنتظر اللائحة التنفيذية؟ وإذا كان ما تدعيه الحكومة صحيحًا لماذا ذهبت هي وهيئتها لفعل شيء شائن؟! لخلق نقابة أخرى؟! وأين إذن هذه اللائحة التنفيذية؟ لم يوجد لائحة! ولن توجد لائحة! لكنها رشوة من بنك مصر لوقف شيء اسمه حركة العمال!

ثانيًا: يتكلم مندوب الحكومة وكأنه هو وحكومته يقرآن الغيب!

يقول السيد النائب مندوب الحكومة إن النقابة التي أرسلت أوراقها لم يحضر جمعيتها أكثر من ألفين بينما عدد العمال في الشركة يزيد على العشرين ألفًا.. مالك انت يا حكومة وهذا الموضوع؟ ده موضوع يخص العمال وحدهم! وأنت أكثر علمًا بأن القانون يحرم وجود نقابتين لعمال في المهنة الواحدة وفي البلد الواحد! وهل اشتكى إليك فريق من عمال هذه الشركة أيتها الحكومة أنهم غير ممثلين في النقابة محل النزاع؟! فإذا كان فأين شكواهم؟! ماذا حدث أيها السادة؟ إن النقابة محل النزاع قد قامت بكل التزاماتها القانونية.. أعلنت عن فتح باب الترشيح، وعن موعد انتهائه، وعن موعد عقد اجتماع الجمعية العمومية، وعن الموعد المحدد للانتهاء من عملية الانتخابات.. وأرسلت كل الأوراق إلى إدارة النقابات.. وكما هو معلن أن تبقى الأوراق ثلاثين يومًا في إدارة النقابات وإذا لم تخطر النقابة بأي شيء في خلالها تعتبر في محل التنفيذ.. والحكاية التي نحن بصددنا لم تخطر إلا في اليوم التاسع والعشرين أي قبل الموعد المحدد بيوم واحد! وبإرته كان اعتراضًا له قيمة، لكنه اعتراض مشكوك فيه وفي نزاهته! والأخطر من كل ذلك أنه في اليوم الثلاثين الذي كان من المفروض أن تباشر فيه النقابة أعمالها كانت هناك في اليوم نفسه الحكومة ومكاتب العمل ليعلنوا عن نشأة نقابة أخرى غير التي

أرادها العمال! وهنا قام آلاف العمال بمظاهرة أجمع فيها العمال كل العمال على أنهم وراء نقابتهم التي أنشأوها، وليسوا وراء النقابة التي أنشأتها الحكومة مع الشركة!

وما إن سمع العمال بما حدث في مجلس النواب من مناقشات حتى ثارت ثائرتهم يهتفون بسقوط نقابة الشركة وبحياة نقابة العمال.. هتافات هنا وهناك.. في النقابة وفي الشوارع المؤدية إلى النقابة.. ولافتات يمسك بها العمال وأيدي تلوح وأخرى ترتفع وأصوات تعلو إلى السماء تنذر بالويل للمتأمرين.

وكان فرج أفندي ومحمد الكافوري ومصطفى محمد بين الجموع، وقالوا ما يمكن أن يقال.. واقتربت من فرج أفندي وهمست في أذنه عن اللجنة التي استطاعت أن تخرج بالمظاهرة.. سمع هذا مني وكأنها الإنقاذ الوحيد لتهدئة النفوس الغاضبة، وقال بصوت عال خاشياً ألا يسمعه أحد:

- أيها المجتمعون هنا في النقابة، يجب أن نخطركم بأننا قد رفعنا القضية ضد الحكومة مع طلب وقف نشاط النقابة الأخرى.. وها أنتم قد رأيتم أن أصواتنا قد وصلت إلى أعلى سلطة وهي مجلس النواب.. نعم مجلس النواب، رغم أن الأغلبية فيه للحكومة إلا أنه قد أثرت فيه قضيتكم وليس أمامنا إلا أن نستمر في العمل والعمل وحده هو الذي يتقرر به مصيرنا.. والعمل الذي نريده الآن هو أن تتصرفوا بهدوء.. وعلى اللجنة التي نظمت المظاهرة أن تجتمع وتقرر ما يجب أن يكون.

وطال الاجتماع ذات ليلة، ولم يكن قد تقرر فيه أي قرار بعد.. والكل مختلف.. بينهم من يقول:

- ردنا على ممثل الحكومة أن نقوم بمظاهرة أخرى.

ومنهم من يقول:

- نعمل إضراب.

ومنهم من يقول:

- مجموعة من العمال تنتحر في ميدان عام ليعلم العالم كله أن في مصر عمالاً.

وكنت آخر من تكلم وقلت:

- لم يتطرق أحد منكم لما قاله مندوب الحكومة أن النقابة التي عليها النزاع لم يحضر جمعيتها العمومية أكثر من الألفين من العمال.. ردنا يجب أن يكون بالعمل الجاد لا بأي كلام.. إذا كنا جادين فعلاً يجب أن ننص في لائحة النقابة على وجوب أن يكون لكل عضو استمارة فيها صورة، وكرنيه يثبت فيه عضويته وبه صورة، ويصدق على الاستمارة اثنان من أعضاء مجلس الإدارة هما الرئيس والسكرتير العام.. هل فعلنا نحن ذلك؟ نحن معنا العمال كما ترون وهم ليس معهم أحد.. علينا أن نثبت للجميع وللحكومة أن العمال معنا وليسوا معهم.. وليتم ذلك بسرعة علينا أن نحضر هنا في النقابة، تسهيلاً للعمال، مصورين يصورونهم.. ومجموعة من العمال تلصق الصور واحدة في الاستمارة وأخرى في الكارنيه.. هكذا نفضح كذب الحكومة وتأمرها.. هذا هو رأيي باختصار.. فما رأيكم؟

واستجاب الكل.. واستجاب أيضًا مجلس إدارة النقابة.. وألصقت على الجدران في كل مكان منشورات تناشد العمال أن يبادروا إلى النقابة للرد

على الذين لا يريدون لنا أن نعيش عيشة البشر وعيشة الرجال.. حيث
سيجدون من يصورونهم ويساعدونهم على استكمال الاستثمارات وكارنيهات
العضوية للنقابة.. وتحولت النقابة إلى خلايا من البشر.. وطواير لا آخر لها..
حتى قال القائلون:

- ليت الذين يسيئون إلينا يحضرون ليروا ما نفعل، وأنا قادرون على الفعل!
الطواير يهياً لمن يراها أنها لن تفرغ إلا بعد عمر طويل.. إلا أن كل شيء له
بداية له نهاية.. عشرون ألف عامل وعاملة أو أكثر ومعهم في جيوبهم
كارنيهاتهم.. إنهم أعضاء في هذه النقابة.. متى تتحرك هذه القوة وترفع بهذه
الكارنيهات التي تحمل صورهم في وجه الظالم.. مطالبين بحقوقهم
الضائعة؟!

ومرت الأيام، وكل شيء يبدو كأنه لا يتحرك.. هادئ كالهدوء الذي يسبق
العواصف.. وذات يوم وفي نهايته اتجه العمال إلى النقابة والشمس في
طريقها إلى الغروب والنقابة تموج بالناس.. تسأل عن أخبار الوفد الذي ذهب
إلى مصر ليعرض الموضوع على رئيس البلاد.. ذهبوا.. ولم يعودوا.. الكل
شارد في خواطره.. وعرفوا من تجربتهم أن الحكومة مع الشركة وأن
الشركة لها أنياب.. فهل يا ترى يمكن للحكومة أن تستجيب لهم وتقف مع
العمال؟

وبينما العمال في أفكارهم المتأرجحة بين الأمل واليأس ارتفعت أصوات
صادرة من الباب الخارجي:

- هيه هيه هيه هيه!

وبدأ الكر والفر، وناس تقع وكراسي ترتفع في الهواء، والكل يجري في هرج
ليعرف ما جرى.. وكان الخبر تلغراف وصل من مصر من وفد العمال الذاهب
إلى رئيس الوفد ورئيس البلاد.. يقول إن الرئيس رفض مقابلة الوفد الذي
يحمل الاستثمارات والصور.. رفض أن يراهم أو حتى يرى الصور! فقرر وفد
العمال الإضراب عن الطعام أمام بيت الرئيس.. وبعث يطلب نجدة سريعة
من العمال!

وفد العمال والنحاس

لم ينتظر العمال من يقع عليه الاختيار للسفر للقاهرة والكل يتسابق في قطع التذاكر.. والذي معه يقطع تذكرة لمن ليس معه.. وكثيرون لم يجدوا ما يسافرون به وعادوا.. كانت ليلة مظلمة حَقًّا.. والمسافر واحد وأربعون ليس فيهم من يعرف الكثير، ومنهم من لا يعرف شيئاً عن القاهرة.. أنا مثلاً لا أعرف إلا ما كنت أسمعه من أمي عن أهل البيت والسيدة زينب أم هاشم والحسين، لأنها كانت تعمل «ليلة» لهم كل سنة.. وعندما توقف القطار سألنا ف قيل لنا هذه محطة مصر.. ونزلنا جميعاً وأمسك كل منا بيد الآخر حتى لا يتوه أحد في الزحام.. كانت ساعة المحطة تشير إلى العاشرة مساءً، وبدأنا نسأل عن منزل رئيس البلد مصطفى النحاس.. والناس يسألوننا عن أمرنا وعما نريده من النحاس.. فأخذنا نشرح لهم، وأشار علينا البعض بعد أن استوعب مشكلتنا ألا نذهب إلى بيت الرئيس، بل نذهب إلى دار النقابات وهي في شارع اسمه قنطرة الدكة.. فهناك يمكن أن نقضي الليل، ويوجهوننا في الصباح إلى حيث نريد.. وتطوع بعض أولاد الحلال وأوصلونا إلى هناك.

وفي دار النقابات استقبلونا بترحاب وحماس كأنهم يعرفون بقدمنا.. ولدهشتنا وجدنا بينهم زملاءنا الذين استنجدوا بنا.. واندفعنا نتبادل الأحضان وهم لا يكادون يصدقون حضورنا إليهم بهذه السرعة.. وقصوا علينا قصتهم، ونام كل منا على كرسي حتى الصباح.

وبدأنا نفكر.. ليس من الحكمة أن نضرب جميعاً عن الطعام.. واقترحت على مصطفى محمد أن يختار معه اثنين يعاونانه على خدمة الإضراب، ويكونون صلة بين المضربين وزملائنا في المحلة، فوافق على هذا الاقتراح.. وتقدمنا

مصطفى.. لأنه يعرف الطرق المؤدية إلى رئاسة مجلس الوزراء.. وسرنا على الأقدام.. لقصر المسافة بينها وبين دار النقابات.. وكنا نلفت إينا أنظار الناس لكثرتنا، والتصاق بعضنا البعض، ولاختلاف أريدتنا.. فالبعض بالجلابيب الدمور، والبعض بالجلابيب الدبلان أو الزفير المقلم، والبعض بالجلابيب الصوف، والبعض جلابيهم من الحرير السكروتة، وأما عن الرؤوس فبعضها عريان، وبعضها بطربوش أو طاقية أو لبدة.. كنا خليطاً من الناس يمشون بأقدام ثابتة تدق على الأرض.. عيونهم تشع بالتحدي، فالكل يعلم أنه لم يأت لنزهة أو لزيارة أهل البيت كما يفعل الآخرون، وإنما جننا وربما نموت من أجل هدف واضح وهو تسجيل النقابة التي تأمرت عليها الشركة والحكومة معاً لبقى العمال بلا قيادة حقيقية.

كل ما حولنا غريب علينا، الطريق تملؤه العربات اللامعة المسرعة، والأرصفة تزدهم بالماشين.. والمحلات الفخمة الملائنة بالأثاث الفخم، والعمارات العالية البنيان.. وناس فوق.. وناس تحت.. والأنظار ترصدنا كأننا شيء غريب لم يسبق لهم رؤيته.. وعلى مدى البصر شيء هائل يقترب.. عالم كالمطر من البشر، يقتربون يحملون الأعلام الحمراء والخضراء، ويحملون على الأكتاف ناساً يهتفون للنحاس: «ألف سلامة يا نحاس».. «نحن فداك يا نحاس».. وعرفنا بعد السؤال أن هذه المظاهرات متجهة إلى مجلس الوزراء لتهنئة النحاس بشفاؤه من مرضه.. وكانت فرصتنا لم نتركها تضيع.. وسرنا معهم نهتف مثلهم لندخل معهم مبنى مجلس الوزراء.. وحملني مصطفى محمد على كتفه.. والتف حولنا كل من كان معنا، وبصوت ينطلق كمن يريد أن تسمعه الدنيا كلها.. هتفت وردد زملائي الهتاف: عاشت وحدة العمال

عاش عمال المحلة الكبرى

عمال المحلة يناشدونك يا نحاس تسجيل نقابتهم

واندمجت مظاهرتنا في الجميع، إلا أن صوتنا كان الغالب، إذ إن بعض الآخرين
رددوا شعاراتنا: عاشت وحدة العمال

عمال المحلة يشكون الظلم للنحاس

عاشت النقابة الخارجية وتسقط نقابة الشركة

وفي فناء المجلس وهتافاتنا تدوي، التف حولنا ضباط من كافة الرتب، وطلبوا
منا أن نكف عن الهتاف ونخرج من المكان بسلام.. فزادت قوة الهتافات
تطالب بمقابلة النحاس: رعاياك يا نحاس

نظرة منك يا نحاس

عمال المحلة يشكون الظلم للنحاس

ودخل واحد من الضباط وسطنا، وطلب أن نحدد عشرة من بيننا ينتحون
جانبًا، وطننا أنه يريد أن يبلغنا خبرًا هامًا، وطلب منهم كتابة شكوى بموضوعنا
لتقدم للنحاس بناء على طلبه، وأحضر الورق والقلم، وصدقناه وكتبنا
الشكوى، وجلسنا ننتظر إلى ما بعد الظهر.. وفوجئنا بحركة غير عادية..
اختلطت فيها العربات بالناس بالعساكر والضباط المندفعين نحو باب من
الأبواب.. وفهمنا أن النحاس سيخرج من هذا الباب.. وأحسسنا بمرارة الخيبة
وقذارة الخدعة، فبدأنا نهتف من جديد بصوت أكثر قوة ومرارة.. وهجم علينا
العساكر والضباط وأحاطوا بنا، ولمحنا النحاس يركب عربته، فارتفعت
هتافاتنا في جنون: المضربون عن الطعام يشكون الظلم للنحاس

وتحركت السيارة، وكادت المفاجأة تضيع عقولنا، فاندفعنا، كل منا يلقي
بنفسه منطرحًا على ظهره متلاصقًا مع الآخر صانعين صفاً طويلاً من النائمين
يمتد على طول الطريق ليقطعه على عربة النحاس حتى لا تهرب.. والتهافتات
المجنونة تعلو: لن تمر إلا على أجسادنا يا نحاس

أجساد عمال المحلة المضربين عن الطعام يا نحاس

واندفع نحونا الضباط والعساكر، وذهل مصطفى النحاس لمنظرنا راقدين،
وبدا كما لو أن هناك تدييرًا لاغتياله، فقد كان الخلاف مع مكرم والسراي في
ذروته، وعجز الضباط عن زحزحتنا، إلا أن الخوف في البداية اختفى، ونزل
النحاس من عربته، وطلب من الضباط أن يحضروا أفرادًا منا ليسمع
شكواهم.. وتوجه ثلاثة منا إليه، وبدا كما لو كان لم يسمع عن موضوعنا من
قبل.. وبصوت كأنه صوت فلاح سأل عن عبد الحميد عبد الحق، فحضر في
الحال.. ولم نقم من رقدتنا إلا بعد أن قال النحاس لنا: - إذا لم يحل المشكلة
عبد الحميد عبد الحق وهو المسؤول عن النقابات، تعالوا لي هنا في هذا
المكان!

الوزير يساوم ويناور

وذهبنا مع الوزير إلى مبنى الوزارة.. وطالت المناقشات، ولم نتفق.. طلب منا في أول الأمر أن يضم خمسة من نقابتنا إلى نقابة الشركة.. إلا أننا اعتبرنا الاتفاق معه على هذا الحل خيانة للأمانة التي حملها لنا العمال.. وأعلن الوزير لنا أن هذا آخر ما يستطيع أن يعمل.. كان وقت العمل الرسمي قد فات بكثير.. وخرجنا عائدين إلى دار النقابات والليل وشبح الفشل يخيمان علينا.. ولم يخرجنا من وجومنا إلا الحماس الذي استقبلنا به العمال هناك.. كانوا مبهورين بموقفنا ومبادرتنا الشجاعة، إذ ألقينا بأنفسنا أمام عربة النحاس.. وقدموا لنا الطعام عن غير قصد إلا ما هو معروف عن العمال من العطاء.. فرفضناه لأننا مصرون على مواصلة الإضراب عن الطعام.

وفي اليوم التالي تداولنا الأمر والوجوه يعلوها الإصرار والتحدي.. واقترح أحدنا أن نقسم أنفسنا إلى أربع مجموعات.. كل مجموعة من عشرة، واحدة تتوجه إلى وزارة الخارجية، لنسمع سفراء العالم صوتنا.. وثانية تتوجه إلى وزارة الداخلية، لنسمع كل المسؤولين هناك صوتنا، ولنقول لهم ألا هل بلغنا اللهم فاشهد.. وثالثة تتوجه إلى وزارة العدل، لنسألهم عن العدل.. ورابعة تتوجه إلى رئاسة مجلس الوزراء، ليعرف مصطفى النحاس أن الوزير لم يفعل شيئاً.. ولتكن شعاراتنا وهتافاتنا: عمالك تهان يا مصر

حزينة يا مصر على عمالك

وحدث ما كنا نرتب له.. ونام العمال أمام باب وزارة الخارجية، والتف الناس والصحفيون حول النائمين المضربين، بل كان من بينهم أجنب من رجال السفارات.. والكل يعجب من أن حكومة الشعب التي جاءت لترد الحقوق

للشعب، تقف ضد العمال وحقوقهم.. وأعلن صوت أن وزير الشؤون حضر
ومعه مساعده.. وقال لنا: - ماذا أتى بكم إلى هنا؟ هل المشكلة يمكن أن
تحل هنا؟ المشكلة لن تحل إلا عندي!

وكان الرد:

- إننا كنا عندك ولم تحل المشكلة!

وتبين لنا أن كل وزارة ذهب إليها المضربون كانت تستدعيه ليقابل زملاءنا.

كان الإعياء الشديد قد حل بالمضربين.. وتجمعوا في الطرقة الممتدة حتى

مكتب الوزير.. الكل نائم ممدد الأرجل بجوار الآخر، والموظفون يجدون

صعوبة في انتقالهم من مكتب إلى آخر، فتعطلت أعمالهم، ونحن شامتون

لأن مصالحنا معطلة ونقابتنا موقوفة عن العمل! وصاح واحد من الراقدين: -

لا يشعر بالجوع إلا من جاع! هُوَّ حيحس بينا ليه؟ هُوَّ شبعان!

وكانما حركت كلماته الباقيين، والتفوا في صوت واحد رج المكاتب: حزينة يا

مصر على عمالك

الموت لمن يريدون لنا الموت

وأخرجت هذه الضجة الوزير من مكتبه ووقف على بابهِ وهو غاضب وجز على

أسنانه وهو ينظر للعمال ثم دخل وأغلق باب مكتبه دون أن ينطق بكلمة..

ومرت ساعة قبل أن يستدعي إلى مكتبه ثلاثة يتحدثون باسم زملائهم.

وبدأ المفاوضة مُهددًا:

- أتم هنا منقطعون عن العمل، والشركة أبلغتنا أنها ستتخذ إجراءات فصلكم، ونحن طلبنا منهم مهلة يوميين حتى يمكنكم العودة للعمل.

ورد عليه أحد المندوبين:

- إننا لم نقطع عن العمل، فنحن هنا رغم عناء الإضراب نتردد على مكتبك ومكتب رئيس الحكومة، نريد رفع الظلم عنا، وأن نتجنب الانفجار الذي لا نعرف عواقبه!

وعاد الوزير وهو ينظر للوجوه الشاحبة المتحفزة، يكرر التهديد: - إذن، فالشركة كانت على حق عندما طلبت التدخل لحماية النقابة من أمثالكم.. وإذا كنا ما زلنا في أول الطريق وفعلتم كل ما فعلتموه، كيف إذن لو تركناكم وشأنكم ولم نتدخل؟ أي خسارة ستحل بالشركة ومصالحها؟ هذه الشركة تعتمد على إنتاجها البلد، بل تعتمد عليها كذلك جيوش الحلفاء! ونحن في حالة حرب! ألا تفهمون؟ لماذا لا تفهمون؟! لو تركناكم وشأنكم فقولوا على مصر السلام.. وأصبحنا جميعًا تحت رحمتكم.. كانت الشركة على حق حين رفضت أن تترك النقابة لمن تعميهم الأحقاد وتملاً قلوبهم! هذا ما لمسناه بأنفسنا! وأنتم تطلبون المستحيل!

وكان الرد صارمًا وقاسيًا:

- نحن لا نطلب المستحيل! نحن نطلب تنفيذ القانون يا باشا! نحن لم نطلب سوى رقم التسجيل! أنت اسمك عبد الحميد عبد الحق وليس اسمك عبد الحميد الظالم!

كانت الساعة قد اقتربت من السادسة.. وأخذ ينظر إلى الواقفين أمامه بنظرات تومض بالغضب، ومال بكرسيه إلى الوراء، وبعد صمت من التفكير قال: - اسمعوا.. أقول لكم وعلى مسؤوليتي.. وإشفاقًا مني عليكم.. فالوضع ليس كما تتصورون.. أنتم تعتبرون أنفسكم على حق، والآخرين، أي الشركة ونقابتها، يعتبرون أنفسهم على حق، ونحن حيارى بينكم! أقول على مسؤوليتي، أتفهمون ما معنى «على مسؤوليتي»؟! ليس أمامي خيار إلا أن أضم النقابتين في نقابة واحدة، وعليكم أن تعطوني الآن عشرة أسماء يكونون في مجلس النقابة.. عشرة منكم وأحد عشر من الآخرين، على أن يكون الرئيس والسكرتير والوكيلان وأمين الصندوق من نقابة الشركة.. أعطوني الأسماء!

وكان الرد رفضًا حاسمًا:

- لقد جئنا لا لإدماج النقابتين، ولن نتنازل عن نقابتنا!

ولم يمهلهم الوزير ليشرحوا موقفهم.. فهم واقفًا والغضب يملأ ملامحه صارخًا فيهم.. مشيرًا إلى الباب: - اتفضلوا!

الوفد يسجن العمال

بعد لحظات كانت الوزارة محاطة من كل جانب بالعساكر والضباط.. وتوجه بعضهم إلى أعلى حيث العمال المعتصمون أمام مكتب الوزير.. كانوا من الكثرة بحيث كان على رأس كل عامل أربعة جنود.. وهال العمال ما رأوه.. وارتفع الهتاف:

حزينة يا مصر على عمالك

ونظروا إلى الجنود نظرات الأسى والعتاب.. وخاطبوهم:

- يا رجال البوليس ورجال بلك النظام، ويا ضباط، أنتم منا ونحن منكم، وعار عليكم أن تقفوا مع الظالمين ضدنا! نحن أصحاب قضية عادلة!

وحاول الضباط أن يقنعونا بالخروج وكان الرد قاطعًا بالرفض.. إلا أن القلوب الغليظة لم تستجب لندائنا، وحملنا الجنود بالقوة في عملية خطف ليس لها مثيل.. وفي وقت قليل كنا مكومين في عربات محملة بالجنود.. وخلا المكان من أصحاب الحق..

كانت الشمس قد غابت، وحل الليل المظلم، والعربات مسرعة في شوارع القاهرة حتى توقفت عند مكان عليه يافطة «قسم شرطة عابدين».. ولما اكتملنا داخل القسم علت الهتافات:

الحق راح فين؟

إلا أن قوة القسم تكاثرت علينا وأدخلونا غرفة أغلقوا علينا بابها.

كل شيء كان قد أعد بعناية ليلفقوا لنا تهم العصيان.. وفتح الباب والجنود
مصطفة تملأ المكان.. وجنود تنادي اسمًا وراء الآخر.. ووقفنا أمام ضباط..
وأعدوا الأوراق والأقلام.. وتوجه الاتهام:

- أنتم متهمون بترك العمل والاعتصام في مبنى وزارة.. وأجبرتم الموظفين
على التوقف عن ممارسة عملهم!

وكان جوابنا:

- إننا لسنا كذلك! إنها مؤامرة على قضية عادلة! نحن نمثل خمسة وعشرين
ألف عامل وعاملة.. وجئنا لنقدم الاستثمارات المثبت بها صور العمال الذين
اشتركوا بملء حريتهم وباختيارهم.. ونحن مصممون على أن نعود برقم
التسجيل الذي ينتظره العمال.

وانتهى المحضر على أن يحال إلى نيابة عابدين العسكرية للنظر فيما تراه.
وأعادونا إلى الحجز.. وأغلقوا الباب.. ووقف عليه ديدبان.. ولم نعد نسمع إلا
وقع الأقدام على الأرض.. في لحظات أصبحنا مسجونين، وسرحنا في
الأفكار.. إنهم على كل شيء قادرون.. وأن يحولوا النهار إلى ليل.. أهذا هو
القانون الذي كان الناس من سنين طويلة يحلمون به! هاء هاء هاء.. لقد
أفرغه عبد الحميد عبد الحق من محتواه!

وعدت بذاكرتي إلى الماضي الذي سمعت عنه.. كان العمال في اتحادهم
العام أكثر إيجابية في ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول.. وبعد أن فرض
الشعب إرادته، وتكونت الحكومة برئاسة سعد، وظن العمال أنهم انتصروا
على الاستعمار ولم يبق إلا أن يجنوا ثمار كفاحهم.. تقدموا بمطالب رفضها

سعد، فما كان أمام العمال إلا أن يعتصموا بالمصانع.. ولم تتوقف عجلة الإنتاج لحظة.. واستمر الاعتصام أيامًا.. وبدلًا من أن تستجيب الحكومة لمطالبهم اقتحمت المصانع بالقوة، وقبضوا على قادة العمال، وأضرب قادة العمال عن الطعام في السجن، إلا أن سعد زغلول تركهم إلى أن ماتوا!! وها هو النحاس يفعل بنا ما فعله سعد زغلول ويتركنا نموت وتموت معنا حركة العمال!! ومزق الصمت صوت رن في أذني آتيا من بعيد.. «الله أكبر.. الله أكبر».. وتيقنت أن الفجر قد لاح.. وانقشعت الغيوم.. وكل يكشف عن وجهه الحقيقي.. كشف عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون عن وجهه الحقيقي.. ولم يبق أمامنا سوى النيابة.. وما ستقوله في علم الغيب.. هل ستقف إلى جانب حق العمال.. أم ستخذلنا؟!

وكانت تصلنا أصوات أقدام تدق الأرض في الحوش الخارجي وتردد صارمة يمين شمال، يمين شمال، كتنًا سلاح، ١ - ٢، ١ - ٢، ١ - ٢، على اليمين در، على الشمال در، استعداد.. إنها القوة التي انتزعتنا من الوزارة تستعد لترحيلنا إلى النيابة.. وفتح الباب ووقف العمال والإصرار يعلو وجوههم على الرغم من الإعياء.

واصطف العمال في طابور طويل يحرسهم عساكر مدججون بالسلاح.. وما إن التقت عيوننا بالشارع والناس وعربات الترام رايحة جاية تموج بالحياة، والناس ينظرون إلينا ونحن ننظر إليهم، وكأنهم يسألوننا عن شحوبنا، وهواننا.. وكأننا نسألهم لماذا لا تقفون معنا فنحن على حق.. وانتقلت نظراتنا من الشارع إلى بعضنا البعض، وكأننا تفاهمنا على شيء! أن نكرر ما قمنا به أمام عربة النحاس.. ونظرنا جميعًا للشارع في إحساس واحد.. «هيلا هوب.. هيلا

هوب».. وأمسك كل منا بيد الآخر مسكة من حديد حتى لا يستطيع الجنود
حجز أحد منا عن الآخرين.

وبينما الجنود مشغولون بالحديث بعضهم مع البعض.. اندفعنا إلى الشارع..
وإلى شريط الترام.. وعليه نمنا كلنا ممددين الأرجل.. وهتاف من الأعماق
كأنه يقول للدنيا كلها اسمعى:

حزينة يا مصر على عمالك

في لحظات.. كان الشارع قد توقف عن الحركة تمامًا.. الترام والعربات
الملاكي والأجرة والناس المتكدسون.. والعسكر التي تمنع الناس من
الاقتراب من النائمين.. والناس تدفع العساكر والعساكر تدفع الناس..
والنائمون يرفعون أيديهم ملوحين للناس.. وضباط من الرتب الأعلى جاءوا
ليثنوا العمال عن موقفهم.. وهتاف يدوي:

تحيا نقابة العمال

تسقط نقابة الشركة

ويرتفع صوت المأمور بنداء موجه إلى العمال:

- يا عمال المحلة الكبرى، أنتم من هذه اللحظة أمانة علينا توصيلها إلى النيابة
التي ستحقق في مطالبكم.. لقد عبرتم تعبيرًا كافيًا عما في نفوسكم.. والنيابة
في انتظاركم لسماع أقوالكم فلا تضيعوا الوقت!

واستجاب العمال للنداء، وهموا واقفين.. وتحركوا يحرسهم الجنود المسلحون
إلى نيابة عابدين.

وقريبًا من القسم كان مبنى النيابة.. ودخلنا هاتفين الهاتف الحزين «حزينة يا مصر على عمالك».. وهتافاتنا الأخرى.. وتجمع الناس حولنا.. ومنهم من همس في آذاننا:

- نحن محامون تطوعنا للدفاع عنكم وسنحضر التحقيق..

واصطف العمال أمام مكتب وكيل النيابة واحدًا وراء الآخر.. ونودي عليهم.. وسئلوا عن أسمائهم وأعمارهم وعملهم وعناوينهم، ثم أنت متهم بالامتناع عن العمل في وقت تحتاج فيه البلاد إلى كل سنتيمتر من إنتاجك لأننا في حرب.. ثم أنت متهم بالتجمهر مع آخرين وإحداث شغب بمكتب الوزير ترتب عليه تعطيل الموظفين عن أداء أعمالهم.. فما قولك؟!

ويجب العامل:

- هوّ الحق ضاع والباطل بقى له سوق؟! وبدل ما نتهم احنا بقينا متهمين! بقه الدولة كلها وبكل قوتها تقف ضد تسجيل نقابة للعمال؟! إحنا ماجيناش مصر إلا عشان نعرف أسباب عدم تسجيل النقابة.. ولما ما عرفناش طلبنا كلنا إننا ناخذ رقم التسجيل.. وملناش طلب غير رقم التسجيل!

كانت هذه هي الاتهامات وكان هذا هو رد الجميع.. وأقفل المحضر على ذلك.. وفي النصف الثاني من الليل تمت المحاكمة في استعجال.. وكانت عسكرية.. ولم يكن سوانا في المحكمة.. والأغرب أن تنعقد في النصف الثاني من الليل.. محاكمة عسكرية والعساكر مدججة بالسلاح والقاعة ليس بها إلا نحن والمحامون.

يا سلام يا ليل! أن يحدث لنا كل ذلك فيك يا ليل! ما هي كل المصائب عادة ما تحدث بالليل! والكلاب لا تعوي إلا فيك يا ليل! واللصوص وقطاع الطرق لا يفكرون في نهب الناس إلا فيك يا ليل! وها نحن العمال انتزعونا من وزارة الشؤون وحبسونا في قسم عابدين فيك يا ليل! وها نحن نقدم للمحاكمة فيك يا ليل! ولكن يا ليل.. مهما طالت الليالي فما من ليل إلا وله آخر!

وارتفع صوت أشاع الرهبة في المكان:

- محكمة!

ووقف الجميع.. وعلى المنصة كان ثلاثة.. على اليمين شاب مستطيل الوجه عيناه خضراوان وعلى كتفه وشاح أحمر، وفي الوسط رجل قمحي اللون علا رأسه الشيب وأمامه الملفات، وعلى اليسار رجل ثالث في سن رجل الوسط وليس أمامه سوى ملف.

وبدأ الحاجب ينادي على العمال واحداً واحداً.. إلى أن اكتمل العدد.. ووقف جمع من المحامين في صف طويل بطول المنصة، كلُّ سجل اسمه عن مجموعة من العمال.. وبعد انتهاء هذه المراسيم وقف ذو الوشاح وهو وكيل النيابة وقال:

- حضرات القضاة، نحن أمام قضية فريدة من نوعها.. ولم يسبق لها مثيل على امتداد قضائنا منذ أن نشأت المحاكم.. وإذا لم يردع فيها المتهمون بأقصى العقوبات فإن الصناعة ستعصف بها الرياح.. هؤلاء المتهمون الواحد والأربعون عاملاً المائلون أمام عدالتكم جاءوا من المحلة الكبرى، من شركة مصر للغزل والنسيج، للقيام بأعمال تمس سلامة وسمعة البلاد أمام العالم.. وهاكم بعض هذه الأعمال: تسلل هؤلاء المتهمون وسط مظاهرات التأييد التي

اجتاحت المدينة متجهة إلى رئاسة مجلس الوزراء لتهنئة رئيس الحكومة بشفاؤه، وبدلاً من أن يشاركوا الشعب فرحته، حملوا بعضهم على الأكتاف وحولوا المظاهرات إلى ما يزعمون أنه مطالب العمال.. وبا ليتهم اكتفوا بذلك، بل إنهم تمادوا وافترشوا الأرض في حوش رئاسة الوزراء، وحاولوا بأجسامهم الممددة أمام سيارة الرئيس أن يمنعوها من السير.. كل ذلك أمام عدسات المصورين لصحف العالم.. ولو كانوا على حق كما يدعون فهل هذه هي الطريقة لإظهار الحق؟ وبا ليتهم توقفوا عند هذا الحد، بل إنهم في اليوم الثاني قسموا أنفسهم على مجموعات، توجهت كل مجموعة إلى وزارة من الوزارات وفعلوا من جديد، ما فعلوه في اليوم الأول.. ونقلت الصحافة.. وكأنها في انتظارهم.. صورهم إلى بلاد العالم.

وبهذا يكونون قد أساءوا لسمعة بلادهم.. ولهذا أناشد عدالتكم ألا تأخذكم بهم شفقة!

كان البعض يظنون عندما بدأت النيابة مرافعتها أنها ستقف معهم، إلا أن مرافعة النيابة كشفت بوضوح أين تقف النيابة.. وتهيأ المحامون للدفاع.. وانبرى واحد منهم قائلاً:

- حضرات القضاة، يسعدني وزملائي المحامين أن نقدم لعدالتكم هذه الصفوة من العمال الواقفين أمامكم.. هذه الصفوة التي أبت في عزة أن يسلب منها حق حتى لو كانت الدولة هي التي تسلب هذا الحق، فلم يخافوا ولم يضعفوا.

واستمر الدفاع يسرد في وضوح وفي تفصيل قصة إقامة النقابة الحقيقية للعمال.. وقصة النقابة العميلة التي عينتها الشركة.. واستطرد الدفاع إلى

الحجة الكاذبة التي أعلنتها الحكومة في تحفظها على نقابة العمال وهي عدم صدور اللائحة التنفيذية.. حجة لم تثرها الحكومة في وجه عديد من النقابات التي سمحت لها بالنشاط.. ثم انتقلت الحكومة إلى حجة أوهى وأدهى، وهي أن الجمعية العمومية لم يحضرها إلا ألفان.. وهذا هو وفد العمال يحضر ومعه البرهان على زيف ادعاء الحكومة وهو استمارات اشتراك عشرات الألوف عليها صور العمال.

- وبدلاً من أن ترعى الحكومة وتعود إلى الحق تمادت في باطلها وقدمت هؤلاء الأبطال أصحاب الحق للمحاكمة.. إنها بهذه المحاكمة لا تحاكم الواقفين أمام عدالتكم، إنما تحاكم عمال القطر كله! إنها بهذا تريد إشاعة الرعب في نفوس العمال! وإنها لسابقة خطيرة من الاعتداء على حرية الحركة العمالية في اختيار ممثليها! وتفتح بهذا التدخل الباب واسعاً يدخل منه أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتقبلون الرشاوى ليحققوا مصالح أصحاب النفوذ! ونعود ونتساءل: أي مصلحة لنا في أن نخيف عمالاً هم درع الصناعة ودرع الوطن؟ ألا نفطن إلى احتياجنا لشجاعة العمال وقوتهم في مواجهة المحتل؟ كنا نظن أن حكومة الوفد تزرع الطمأنينة في نفوس هؤلاء الشجعان، وتترك للعمال حرية الاختيار! إنه العار الذي يلاحق الوفد وحكومته في موقفها من العمال: العار الأول كان عام ١٩٢٤ يوم تدخل سعد زغلول وهدم اتحاد العمال، وسجن أعضائه، وتركهم في السجن يموتون وهم مضربون عن الطعام! والعار الثاني يحدث الآن عام ١٩٤٢ بتدخلها لتفرض على العمال نقابة غير نقابتهم! معذرة أيها السادة على الإطالة فهذه القضية لها خصوصيتها.. هي قضية عمال متمسكين بحرفية قانون صدر لصالحهم، وبدلاً من أن يكون النزاع بينهم وبين أصحاب رأس المال، نجد النزاع أصبح بينهم وبين الحكومة التي أصدرت القانون لصالحهم إلا أنها انضمت إلى صف أصحاب رأس المال ضد العمال..

العمال الذين أحيا القانون فيهم الأمل في حياة أفضل.. هكذا يزداد الأثرياء ثراء ويزداد العمال فقرًا.. ومكمن الخطر الآن هو أن يقف العمال والحكومة خصوصًا في وقت كان الوفد أملًا للشعب! لقد فقد الشعب وفقد العمال ثقتهم في حكومات ما قبل الوفد! فمن للشعب والعمال إذا وقف الوفد منهم هذا الموقف؟!

وإني في ختام دفاعي أهيب بهيئة المحكمة ألا تأخذ بادعاء النيابة، ولا بالادعاءات الكاذبة لوزير في حكومة ظالمة! وألا تستجيب لأصحاب العقول المقفلة الذين يفضلون مصالحهم على مصالح البلاد! وأهيب بهيئة المحكمة أن تأمر بالإفراج عن هؤلاء العمال الأبرياء ليعودوا ومعهم ما جاءوا من أجله!

ورفعت الجلسة.

وعاد القضاة بعد مداولة استمرت طويلًا وأعلن قاضي الوسط الحكم:

- حكمت المحكمة على كل من المتهم الأول حتى الأخير بالسجن شهرين لكل منهم مع استعمال الرأفة!

وساد الصمت.. كصمت القبور.. ثم أفاق الناس من هول الصدمة على هتافات
ترج جدران المحكمة:

يسقط الظلم

تسقط نقابة الشركة

تحيا نقابة العمال

وتحرك الجنود ووضعوا الكلبشات في أيدي العمال.. تلك الأيدي التي خُلقت
لإدارة الماكينات.. والتي يحبها الله ورسوله.. والتي تجسد أشرف ما في
الحياة.. قيمة العمل!

وصاح الضباط والجنود:

- فكوا هذه القيود! هؤلاء ليسوا مجرمين!

واصطف المحامون بأروابهم السوداء، وساروا كأنهم في جنازة يشيعون
شهيدًا أطلق عليه الرصاص من جبان!

مختارات الكرمة

1 - مليم الأكبر - عادل كامل

2 - الناس في كفر عسكر: أولاد عوف - أحمد الشيخ

3 - النزول إلى البحر - جميل عطية إبراهيم

4 - دنقلا - إدريس علي

5 - مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس - أحمد حجي

6 - الشبكة - شريف حتاتة

7 - ملك من شعاع - عادل كامل

8 - إجازة تفرغ - بدر الديب

9 - رابعة ثالث - علي الشوباشي

10 - رباعية أيام الطفولة - إبراهيم عبد الحلیم

11 - حديث شخصي: أربع تنويعات - بدر الديب

12 - الرحلة - فكري الخولي

13 - هوامش الفتح العربي لمصر - سناء المصري

14 - الباب المفتوح - لطيفة الزيات

15 - أوراق شخصية - لطيفة الزيات

16 - الشمندورة - محمد خليل قاسم

تم التحميل بواسطة

[abjjad_free@](#)